مصر

من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي

تأليف
الدكتور مصطفى العبادى
مدرس التاريخ اليونانى والرومانى
كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

مصر

من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي

تأليف
الدكتور مصطفى العبادى
مدرس التاريخ اليونانى والرومانى
كلية الآداب — جامعة الأسكندرية

١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

تقديم

هذه محاولة لأقدم للقارىء فترة من تاريخ مصر أهملت فى مجال الثقافة العامة لأكثر المصريين ، وهى تلك الحقبة التى تقع بين دخول الإسكندر الأكبر مصر فى الجزء الأخير من القرن الرابع ق . م والذى يؤرخ نهاية العصر الفرعونى من تاريخ مصر القديم ، حتى فتح العرب لمصر فى القرن السابع الميلادى . وهى فترة تبلغ ألف عام تقريباً ، لهـا خطورتهـا وأهميتها فى تطور أمتنا وبناء تاريخنا . ولسنا نعرف سبباً تعليمياً أو تربوياً يبرر إهمالها أو إسقاطها من الثقافة العامة للمصريين . ولعل هذا الكتاب المختصر يعوض شيئاً من هذا النقص ، إلى أن يمكن القيام بالتعديل اللازم فى برامج تعليم التاريخ وإدخال الفترة اليونانية الرومانية ضمن مناهج التعليم العام .

ولقد سبقتنى فى دراسة هـذه الحقبة من تاريخ مصر جهود كثير من المؤرخين والباحثين ، وخاصة من الغربيين ، الذين أدركوا أهميتها فأقبلوا على دراستها على نحو يفوق شتى فترات التاريخ ، وخاصة خلال القرن العشرين . ولعل السبب فى ذلك الإقبال هو تفرد مصر فى هـذه الفترة بميزة لامثيل لها فى تاريخ الإنسانية جمعاء ، وهو وجود وثائق أوراق البردى بكميات هائلة ، تبلغ العديد من الآلاف بشتى اللغات القديمة : المصرية واليونانية واللاتينية والديموطيقية والقبطية والعبرية والآرامية والعربية . هـذه الثروة الضخمة من المصادر أمدت المؤرخ لأول مرة بمعلومات وفيرة وتفصيلية عن حياة مصر وتاريخها من عديد من الجوانب السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية ، مما لم يتيسر لأية دولة أخرى . من أجل هذا أقبل كبار المؤرخين الغربيين على استغلال هـذه الثروة الجديدة من المعلومات فى الدراسة والبحث

وأخرجوا كثيراً من الروائع التاريخية فى هذا المجال . ويكفى أن نذكر هنا أن العلامة روستفتزف استعان بدراسة الوثائق البردية وغيرها من الوثائق فى وضع أسس التاريخ الاقتصادى والاجتماعى بالنسبة للعالم القديم .

ولم يقتصر التأليف فى تاريخ هذه الفترة على الغربيين ، بل اقتحم الميدان مؤخراً عدد من المصريين السباقين ، مثل الدكتور إبراهيم نصحى فكتب عن مصر فى العصر البطلمى ، والأستاذ زكى على الذى كتب كتاباً طريفاً عن الملكة الشهيرة كليوباترا ، والدكتور عبد اللطيف أحمد على وهو أول عالم مصرى تخصص فى علم البردى اليونانى وكتب عن مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الوثائق البردية ، ثم الدكتور السيد الباز العرينى الذى كتب عن مصر فى العصر البيزنطى .

وما من شك أنى قد أفدت من جهود من سبقونى بصورة أكبر مما تدل عليه الحواشى أو المراجع . ولكنى فى كتابة هذا الكتاب توخيت الدقة العلمية مع الوضوح . ولهذا تجنبت الإكثار من المراجع أو إثبات الآراء المتعارضة ، وإنما آثرت عادة إثبات من الآراء أرجحها عندى ومن المراجع أنفعها للقارىء . كما حاولت — كلما وجدت ذلك ممكنا — أن أحيل القارىء إلى المصدر القديم مباشرة ، فهذا أنفع للدارس قبل أى شىء .

وإنى لأكثر الناس إدراكا أن هذا الكتاب بعيد عن الكمال ، ولكنى آثرت أن أقدمه للقارىء فى هذه الصورة ، اعتقاداً أنه لا يخلو أيضاً من فائدة : وهو لا يعدو أن يكون محاولة أرجو أن تعقبها محاولات أفضل ؟

بيروت فى نوفبر سنة ١٩٦٦ مصطفى العبادى

الباب الأول

العصر البطلمي

الفصل الأول

مصر والإغريق قبل قيام دولة البطالمة

١ - العلاقات بين مصر وبلاد اليونان قبل الفتح المقدونى

يمثل فتح الإسكندر الأكبر لمصر عام ٣٣٢ ق.م ، نقطة تحول كبرى فى تاريخ مصر العام ، إذ عندها ينتهى تاريخ مصر الفرعونية ويبدأ تاريخ مصر اليونانية الرومانية . والأحداث الكبرى فى التاريخ لا تحدث فجأة ، وإنما تكون نتيجة لعوامل ومقدمات تسبقها وتنتهى إليها . من أجل هذا كان من الضرورى عند كتابة تاريخ مصر اليونانية الرومانية على أساس علمى ، بمعنى أن أحداث التاريخ تربطها قوانين العلة والنتيجة ، أن ندرس نوع العلاقات التى وجدت بين مصر وبلاد اليونان قبل فتح الإسكندر الأكبر.

لم يأت الإغريق إلى مصر مع الاسكندر للمرة الأولى ، بل أن العلاقات بين الأمتين ترجع إلى أقدم الحقب التاريخية ، فقد كشفت الحفائر التى تمت حتى الآن فى جزيرة كريت عن آثار مصرية تثبت وجود علاقات بين مصر وهذه الجزيرة منذ عصر ما قبل الأسرات ، وأن التقارب بينهما بلغ ذروته فى عصر الدولة الحديثة[١] .

---

(١) للآثار أنظر : J. D.S. Pendlebury, Aegyptiaca, A Catalogue of Egyptian objects in the Aegean Area (1930) Introdution pp. XVII ff., 3—5, and catalogue pp. 6—40.

لدراسة حديثة شاملة أنظر : Helene J. Kantor. The Aegean and the Orient in the Second Millerium B. C. (1947) pp.19 ff.; J. Vercoutte, L'Egypte et le monde Egean prehellenique, Etude critique des sources Egyptiennes (du dekut de la XVIIIe à la fin de la XIXe Dynastie), Le Caire, 1956.

وتؤيد هذه الآثار نقوش مصر القديمة التي تمثل وفدا من «الـكفتيو» — الذين يعتقد أنهم أهل كريت [١] — يقدمون لتحوتمس الثالث أوانى فضية وسبائك من البرنز ، لعلها هـدايا للملك المصرى من أجل تحسين العلاقات والسماح لهم بالتبادل التجارى مع مضر [٢] . ولم يقتصر الأمر على كريت ، بل أن الآثار المصرية التي عثر عليها بكميات وفيرة فى مناطق مختلفة من شبه الجزيرة اليونانيةذاتها تثبت أن تجارة مصر قدوصلت إلى الأسواق اليونانية الهامة فىذلك الوقت مثل اسبرطة وميكينى وأرجوس [٣] . ولـكن هذه الصلات الأولى تنتهى عند نهاية الألف الثانى ق . م . بعد سقوط الدولة المينوية فى كريت والدولة الميكينية فى شبه الجزيرة .

مرت بلاد اليونان فى القرون الثلاثة التالية بفترة من الفوضى والاضطراب بسبب الغزو الدورى (Dorian invasion) وآثاره ؛ وفى نفس الوقت حدثت فى مصر تطورات سياسية عنيفة قضت على الدولة الحديثة وعرضت البلاد للحكم الأجنبى الليبى والفارسى . ومع ذلك فيبدو أن المستوى الصناعى الراق الذى بلغته مصر خلال عصر الدولة الحديثة قد بقى كما هو مما جعل الصناعات المصرية

---

(١) حول تحديد معنى الـكفيتو ، أنظر الدراسة المستفيضة للنصوص والآثار فى :
J. Vercoutter, L'Egypte et la monde égeen, pp. 33—125, 369-395, and esp. W394—5.

(٢) توجد ترجمة للنقش فى Breasted, Ancient Records, II. 760 J. G., Wilkinson, Mauners and Custows of the Ancient Egyptians (1878) Plate II. A. p. 38.
أنظر أيضا Sir Arthur Evans, Palace of Minos II 736 ff

(٣) معظم هذه الآثار ترجع إلى عصر الدولة الحديثة . أنظر قائمة الآثار فى :
Pendlebury المصدر السالف الذكر صفحات ٤٣ — ٦٦ ، ١٠٩ .
راجع أيضا Kantor المصدر السالف الذكر ص ٣٣ وما بعده . والمقال الهام ،
A. J. B. Wace and C. W. Blegen, Pottery as Evidence for Trade and Colonization in the Aegean Bronze Age, Klio, 32 (1939—40) pp. 131 147

مرغوبة فى الخارج فى القرنين التاسع والثامن ق . م . تشهد بذلك وفرة ما عثر عليه من المصنوعات المصرية فى الخارج من زجاج وخزف وفخار ومرمر وجعارين التى ترجع كلها إلى هذه الفترة(١) .

ومنذ نهاية القرن السابع تدخل مصر عصر النهضة فى ظل الأسرة السادسة والعشرين ، وفى نفس الوقت يبدأ العالم اليونانى فى الاستقرار والنهضة أيضاً ويعود الاتصال الوثيق بينه وبين مصر على نحو لم يسبق له مثيل من قبل ، إذ حضر الإغريق إلى مصر فى أعداد وفيرة كجنود مرتزقة استعان بهم ملوك العصر الصاوى ضد الليبيين والفرس على حد سواء ، كما حضر إغريق آخرون بعد ذلك للتجارة .

أما الجنود المرتزقة فقد أقاموا عند دفنه (إلى الجنوب من موقع مـــدينة دمياط الحالية) وفى مدينة ممفيس ، بينما عين حكام مصر مدينة نقراطيس فى شمال غرب الدلتا ، مركزاً لإقامة التجار الإغريق(٢) .

من الصعب أن نفهم أهمية هذه العلاقة الوثيقة التى تمت فجأة بين الإغريق والمصريين منذ القرن السابع حتى عصر الإسكندر دون أن نفهم حقيقة الظروف

---

(١) F. W. Bissing, Zeitund Herkunft der in Cerveteri gefundenen Gefässe aus ägyptischer Fayence und glassier Ton, (1941) p. 4 and 30,

Dunbabid, The Greeks and Their Eastern Neighbours (1957) p. 39

(٢) Herodotus, II. 178 ، وعن دفنة أنظر Petrie, Tanis II (1888) وعن ممفيس (1909, —10) Petrie, Memphis ، وعن نقراطيس ، Gardiner, Naukratis II ' Petrie, Naukratis I Hogarth Reports — J. H. S. (1905, 1924)
R. M. Cook, Amasis and the Greeks in Egypt, J. H. S. (1936) 227 ff.

التاريخية التى فى ظلها نمت واشتدت هذه الاتصالات حتى أصبحت ضرورة سياسية فى كل من مصر واليونان على السواء . بديهى أنه قلما انفصلت العلاقات الاقتصادية عن السياسية فى العلاقات الدولية وهذا هو ما حدث بين مصر واليونان فى هذه الفترة فقد تلازمت السياسة والاقتصاد فى هذه الحقبة أيضاً .

ولتبيان ذلك نقول إن هناك ظروفاً معينة هى التى حددت صورة الموقف الدولى خلال هذه القرون الثلاثة . أولها أن فارس قد أصبحت أقوى دولة فى العالم القديم فى القرن السابع وأخضعت مصر لسلطانها وكذلك كانت أكبر خطر واجهه الإغريق فى تاريخهم القديم بأسره ، وبعبارة أخرى، كانت فارس عدوا مشتركا لكل من الإغريق والمصريين . ثانيا : كانت مصر مركزاً من أهم مراكز إنتاج القمح فى العالم بينما كانت بلاد اليونان من أقلها إنتاجا له ولهذا كانت المدن اليونانية فى حاجة دائمة إلى قمح مصر .

ثالثاً : انتشرت فى هذا الوقت عادة استخدام الجنود المرتزقة وكان الإغريق من خيرة هذه الجنود ، فاستعان بهم ملوك العصر الصاوى للقضاء على العناصر الليبية المتغلغلة فى صفوف الجيش المصرى آنذاك ولمقاومة العدوان الفارسى . رابعاً : كانت بلاد اليونان غنية فى مناجم الفضة وكانت قد توصلت إلى استخدامها فى صناعة العملة التى أصبحت الوسيلة العالمية للتبادل التجارى ودفع الأجور . وفى نفس الوقت لم يكن لدى مصر مناجم فضة ولذا كانت فى حاجة إلى فضة الإغريق فى صورتها الجديدة وهى العملة لتسليح جيشها ودفع أجور الجنود المرتزقة .

فإذا كان التاريخ وليد الظروف المادية للعصر والبيئة فإن التقارب الشديد بين مصر واليونان فى هذه الفترة كما ذكرنا آنفا يؤكد صدق هذا الرأى .

فمن الناحية السياسية نجد أن الإغريق أثناء حربهم ضد الفرس كانوا فى

حاجة إلى ثورات مصر المستمرة ضد السيطرة الفارسية.

وفى الوقت ذاته إن انتصار الإغريق على الفرس يكسر شوكة هذه الدولة وييسر أمر مقاومة المصريين لها. ومن الناحية الاقتصادية إن بقاء اليونان ومصر مستقلتان كان يمكن الإغريق من الحصول على القمح المصرى ويمكن مصر من الحصول على الجنود المرتزقة والعملة الفضية مقابل القمح.

ويمدنا التاريخ بأمثلة عديدة تؤيد هذا التفسير[١]، فمثلا ما أن انتشرت أنباء انتصار الإغريق فى موقعة مارثون حتى قامت ثورة فى مصر سنة ٤٨٦ بزعامة إرنواس وساندتها أثينا بأسطول بحرى[٢]. وفى مناسبة أخرى حينما مرت أثينا بأزمة حادة مع امبراطوريتها سنة ٤٤٦ ق.م. أرسلت مصر أسطولا محملا بالقمح إلى مينائها بيريه سنة ٤٤٥ ق.م. لمعاونتها[٣]. وفى الجزء الأخير من القرن الخامس حينما حدثت الحرب الكبرى بين أثينا وأسبرطة، حرصت كل من المدينتين على منع وصول القمح المصرى إلى الأخرى[٤].

ولما خرجت أسبرطة من حربها ضد أثينا منتصرة، دخلت فى حرب أخرى ضد فارس، فنسمع فى سنة ٣٩٥/٣ ق.م. أن اسبرطة سعت إلى عقد حلف مع

---

(١) يمكن مراجعة الظروف السياسية فى مصر وعلاقاتها الخارجية وخاصة مع اليونان فى الكتب التالية:

Mallet, Les Rapports des Grecs avec L'Egypte pp. 31 ff, and 81 ff.; W. W. Tarn; in Cambridge Ancient History Vol. VI. ch. VI; E. Drioton et J. Vandrier, L'Egypte, ch. XIII, pp. 545 ff.

(وللكتاب الأخير ترجمة حديثة قام بها عباس بيومى)

(٢) Herodotus, VII. 4. 5—7; Thucydides, I. 109—110

(٣) Plutarch, Perides. 37; Philochorus. fr. 90, ed Muller, I. 399.

(٤) Thucydides, IV. 53; VIII. 35.

مصر ، ولـكن يبدو أن مصر لم تـكن فى وضع يسمح لها بالدخول فى مثل هـذا الحلف واكتفت بإرسال نصف مليون كيل من القمح إلى اسبرطة ، ولـكن تهاجم هذه القافلة التموينية فى البحر ويقع القمح فى أيدى الأثينيين[1] ، ومن دلائل استمرار التقارب بين الإغريق ومصر بعد ذلك أن عقدت كل من أثينا وقبرص حلفاً مع أحد ملوك مصر فى أثناء الأسرة التاسعة والعشرين[2] . وبعد ذلك بقليل يصل مصر من بلاد اليونان السياسى الأثينى خابرياسى كخبير مالى[3] وللملك الأسبرطى العجوز اجيسلاوس ليعمل خبيراً حربياً فى خدمة للملك المصرى[4] (٣٦١ — ٣٥٢ ق.م.) .

وفى مجال التجارة ظلت المنتجات المصرية وأهمها القمح وورق البردى ترسل إلى بلاد اليونان والمنتجات الإغريقية المختلفة ترد إلى مصر .

وليس أدل على ذلك من بيان الملك نـكتانيبو الأول (الأسرة الثلاثين) (٣٧٨—٣٦٠ ق.م.) الذى عثر عليه فى نقراطيس والذى يحدد فيه الضرائب على الواردات اليونانية[5] ، وكذلك وجود معبد مصرى للالهة إيزيس فى بيريه الذى يدل على وجود مركز تجارى مصرى فى أثينا[6] .

---

(١) Diodorus Siculus 14. 79 ; Justinus, 6, 2. 2.

(٢) توجد إشارة إلى الحلف الأثينى فى Aristophanes, Eccles. II. 193. ff ; وحلف قبرص ذكر فى Plutus, I. 178

Theopompus, fr. III. ed. Didot-Muller, I. 295, Diodore, XV, 24 ; 29.

(٣) Ps. Aristotle, Oeconomia II. 27, 37

(٤) Plutarch, Agislaus 36.

(٥) Gunn, The Stela of Naukratis. J. E. A. (1943) 50 ff

(٦) Tod, Greek Historical Inscriptions, II. no. 189, lines 42—5 (=Michel, Racuil d'Inscsiptions Grecques, no. 140.

ليس هنا مجال الإفاضة فى دراسة التجارة المتبادلة بين مصر واليونان ولكن يكفى أن نقول أن بلاد اليونان كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على استيراد بعض السلع الهامة من مصر ، فمثلا البردى ، كانت مصر هى الدولة الوحيدة المنتجة والمصدرة له فى التاريخ القديم بأسره وكانت بلاد اليونان منذ نهضتها الثقافية الكبرى فى القرن الخامس ، فى حاجة ماسة إلى هذه السلعة .

وليس أدل على ذلك من عبارة لها دلالتها وردت فى خطاب خاص من الفليسوف اسبيوسيبوس Speusippus إلى الملك فيليب المقدونى فى أواسط القرن الرابع ق . م . فالفيلسوف يعتذر عن عدم استطاعته الإفاضة فى سرد ما يريد ذكره للملك بسبب ندرة الورق ، ويضيف هذه العبارة « إلى هذا الحد أصبح الورق نادراً منذ أن احتل الملك الفارسى مصر[1] » . هذه العبارة تعتبر من التعليقات القديمة النادرة على تأثير الأحداث السياسية فى حالة الأسواق .

على أن أهم سلعة كانت تصدرها مصر إلى اليونان هى القمح . ذلك أن بلاد اليونان لا تنتج سوى جزء يسير من حاجتها إلى القمح ، ويكفى أن نذكر أن متوسط إنتاج أثينا من القمح هو عُشر حاجتها السنوية ولهذا اعتمدت اعتماداً تاما على الاستيراد . من أجل هذا نشطت حركة استيراد القمح من الخارج ، وكانت مصر من أهم مصادر القمح لبلاد الإغريق . وقد استطاع التجار الذين قاموا باستيراد قمح مصر من تكوين ثروات طائلة .

وفى ذلك يقول الشاعر الغنائى باخيليديس فى مطلع القرن الخامس ق. م . يصف أحلام رجل قد لعبت الخمر برأسه :

« وكأن منزله يزخر بالذهب والعاج ، وكأنه صاحب سفن مشحونة قمحاً

---

(١) هذا الخطاب نشره وعلق عليه E. Bickermann and J. Sykutris.

تسرى على صفحة البحر المتلألئة ، تحمل له الثروة العريضة من مصر . هكذا يحلم قلب الفتى عندما تشعشع برأسه الخمر »[١] .

من قواعد الاقتصاد فى العالم القديم أن التجارة الخارجية كانت تقوم على أساس المقايضة ، أى أن الصادرات والواردات يجب أن يتعادلا تماما ، نظراً لأن نظام القروض الدولية لم يكن معروفاً حينذاك ، وقد دفعت المدن اليونانية قيمة القمح والبردى المصرى بإرسال بعض منتجاتها من الخمور والأخشاب وأنواع ممتازة من المنسوجات ، ولكن وسيلة الدفع الأساسية كانت العملة الفضية اليونانية . فما من شك أن الجزء الأكبر من قيمة صادرات مصر إلى اليونان كانت تدفع فى شكل عملة فضية ، وقد ثبت ذلك من كميات العملة اليونانية الكثيرة وخاصة العملة الأثينية التى عثر عليها فى أماكن مختلفة من مصر وترجع إلى القرنين الخامس والرابع ق . م .[٢]

نتيجتان هامتان لهذا التقارب التجارى السياسى يمكن أن نختم بهما هذه المقدمة التاريخية عن العلاقات بين مصر واليونان . الأولى أن وفرة وجود العملة اليونانية فى مصر ، جعل المصريين يقدمون على إصدار عملة مصرية لأول

Speusipps Brief an könig Philipp, Berichte der Sächs. = Aked. der Wissensch. 3u Leipzig, Philol. - Hist. Klasse, 80 (1928) III, ويقترح الناشران عام ٣٤٣ ق. م. تاريخا للخطاب pp. 12—14.

(١) Bacchylides, Carmina cum fragmentis, ed. Br. Shell, Teubner, (1949) Fragmenta; enkomei, 20 B, lines 13—16.

(٢) B. V. Head, in Petrie, Naukratis I, p. 63 ff; Dattari, Commentaryon a hoard of Athenian Tetradrachums, Journal of International Archaeology (1905) p. 197; Milne, Journal of Egyptian Archaeology (1939) pp. 178 ff.

مرة . ولقد كان الرأى السائد إلى زمن قريب أن الإسكندر والبطالمة هم أول من سك العملة فى مصر [١] ، ولكن اكتشافات العملة ودراستها فى السنين العشر الأخيرة تدل على أنه فى عصر الأسرات المتأخرة شرع المصريون فى صناعة العملة ، أولا عن طريق محاكاة العملة الأثينية التى كانت واسعة الانتشار وقتئذ ، وبعد ذلك عن طريق تطويرها إلى عملة مستقلة تماما . النماذج التى عثر عليها من هذه العملة ذهبية فقط وتحمل على أحد وجهيها رسم حصان راقص وعلى الوجه الآخر كتابة هيروغليفية ترجمتها « ذهب جيد » [٢] .

النتيجة الثانية أنه عن طريق هـذا التبادل التجارى الوثيق أخذ الإغريق يدركون مدى ثراء مصر وأهميتها كمصدر للغلال . وكان ذلك فى الوقت الذى اتجهت فيه أفـكار اليونان نحو غزو آسـيا وهو العمل الذى حققه الإسكندر الأكبر . ولما كان الإسكندر سياسياً موهوبا وقائدا عبقريا فلا بد

---

(١) ممن ذكروا هذا الرأى مثلا B. V. Head, Historia Numorum (1911) p. 845; Cl. Préaus, L'Economie Rayale des Lagides (1939) p. 62, 267 ff.; H. I. Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab conquest (1949) p. 56.

يوجد للكتاب الأخير ترجمتان عربيتان ، الأولى قام بها الدكتوران محمد عواد حسين وعبد اللطيف أحمد على ، والثانية قام بها الأستاذ زكى على .

(٢) أنظر : G. K. Jenkins, Greek Coins recently acquired by the British Meseum, The Numismatic Chronicle, (1955) pp. 144. ff.; Biritish Museum, Quarterly Vol. 20, I, Alarch (1955) pp. 10—11; c. f. Cambridge Ancient History Plates II, 4 note.

أنه أدرك أهمية امتلاك مصدر كبير للقمح لتموين بلاد اليونان من ناحية ، وجيوشه الغازية فى آسـيا من ناحية أخرى ، ومصر يمـكن أن تقوم بهذا الدور ، ولعل هذا من أكبر الدوافع وراء قرار الإسكندر الخطير بعد معركة أيسوس أن يسير إلى مصر أولا بدلا من تتبع الملك الفـارسى المهزم إلى الشرق .

ب - مصر فى عصر الإسكندر الأكبر

منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد ظهرت دولة فارسية جديدة . هى دولة ميديا كدولة كبرى على مسرح السياسة فى الشرق الأوسط ، قضت على الدولة البابلية وورثتها فى منطقة ما بين النهرين وبسطت نفوذها غربا فشملت إمبراطوريتها معظم أجزاء الشرق الأوسط بما فى ذلك آسيا الصغرى وسواحل سوريا وفينيقيا وفلسطين ومصر التى فتحها قمبيز سنة ٥٢٥ ق . م . ومنذ ذلك الوقت ومصر تارة تخضع لحكم الدولة الفارسية وتارة أخرى تثور حتى عام ٣٣٢ ق . م . حين حضر الإسكندر الأكبر .

أما بلاد اليونان فإنها لم تسلم من خطر هذه الدولة الفارسية الناشئة ، إذ استطاع قورش ، أول ملوكها ، من إخضاع المدن اليونانية على ساحل آسيا الصغرى الغربى ، وبعد ذلك لم يكف خلفاؤه عن محاولة غزو العالم اليونانى نفسه حتى استطاع دارا الأول أولا ، ثم اكزرسيس ثانيـاً من غزو بلاد اليونان واحتلال معظم أجزائها بما فى ذلك أثينا ذاتها ، لولا هزيمة الأسطول الفارسى فى معركة سلاميس المشهورة سنة ٤٨٠ ق . م . وفشل حملتهم نتيجة لذلك . ومنذ هذا التاريخ والإغريق يرون فى فارس عدوهم التقليدى ويجتهدون فى الانتقام من الغزو الفارسى ، خاصة وأن فارس لم تفتأ طوال القرنين الخامس والرابع ق . م . من التدخل فى شئون العالم اليونانى وتأليب المدن بعضها ضد بعض كلما سنحت لهم الفرصة حتى رأينا الملك الفارسى يظهر بمظهر الفيصل فى منازعات المدن اليونانية وحروبها على نحو جرح كبرياء الإغريق وجعلهم يتطلعون إلى من يوحد كلمتهم ويقودهم فى حرب مقدسة ضد الفرس . ولقد

استطاع فيليب ملك مقدونيا جمع المدن اليونانية تحت زعامته ، إن رغبة وإن كرهاً . ولكنه اغتيل أثناء استعداده لغزو فارس فخلفه ابنه الإسكندر الذى نفذ خطة أبيه فقاد الإغريق فى حرب مقدسة ضد فارس فى سنة ٣٣٤ ق.م.

فى هذا الوقت كانت الإمبراطورية الفارسية تعانى من داءين خطرين الأول هو سوء الإدارة فى الولايات التى كانت تسمى ساترابيات ، والآخر وهو الأسوأ أنه تربع على عرشها ملك ضعيف متردد هو دارا الثالث ، ولهذا سرعان ما انهارت الإمبراطورية الفارسية أمام عبقرية الإسكندر الفذة . ولقد سلك الإسكندر فى حربه ضد فارس خطة غريبة ، إذ بعد أن استولى على آسـيا الصغرى وانتصر فى معركة إيسوس سنة ٣٣٣ ق . م . لم يتتبع الملك الفارسى المنهزم شرقاً نحو عاصمته صوصه . وإنما انحدر جنوباً فاستولى على سوريا وفينيقيا وفلسطين بعد معارك عنيفة عند صور وغزة . بعد ذلك اتجه إلى مصر التى سلمها له الوالى الفارسى دون مقاومة واستقبله المصريون بالترحاب استقبال البطل المنقذ لهم من الحكم الفارسى الغاشم . خاصة وأن المصريين كانوا قد ألفوا الإغريق كأصدقاء كثيراً ما ناصروهم فى ثوراتهم ضد فارس ، كما كان وجودهم كتجار فى نقراطيس،مصدر كسب كبير للمزارعين المصريين ومن أكبر عوامل تنشيط التجارة الخارجية لمصر كما بينا من قبل.

ويرجع المؤرخون عادة تفسير خطة الإسكندر الغريبة فى عدم تتبع الملك الفارسى والقضاء عليه نهائياً إلى عبقريته العسكرية فى أنه أراد محاصرة الأسطول الفارسى القوى عن طريق الاستيلاء على جميع السواحل فى شرق البحر الأبيض المتوسط التى يمكنه أن يلجأ إليها ، وهى الخطة التى يوردها أريانوس على لسان الإسكندر نفسه فى خطبة نسبها له فى هذا الصدد[1] . ولكن من المحتمل

(١) Arrian, II. 17.

أيضاً أن شهرة مصر كمصدر هام للغلال كان له دخل كبير فى توجيه خطة الإسكندر هذه الوجهة[١] ، إذ يمكن استخدامها كقاعدة لتموين المدن اليونانية من ناحية وتموين جيوشه الغازية شرقا من ناحية أخرى .

على أى حال وصل الإسكندر بلوزيوم (الفرما) فى خريف سنة ٣٣٢ ق.م. ومنها اتجه جنوبا على امتداد الفرع البلوزى للنيل حتى وصل إلى ممفيس ، وهناك سلمه البلاد مازا كسى الوالى الفارسى على مصر[٢] . ولا بد أن الإسكندر شعر حينئذ أن آماله قد بدأت تتحقق فعلا ، وأن مرحلة الخطر والمعارك الكبرى قد انتهت ، فهذه مصر أكبر وأغنى قطر فى الدولة الفارسية قد دانت له واستقبله أهلها بالترحاب استقبال البطل المنقذ .

كان الإسكندر سياسياً ماهراً بقدر ما كان قائدا نابغة يحسن معاملة الناس وكسب ودهم . فلا أقل من أن يبادل المصريين وداً بود ، فزار معبد الإله بتاح وقدم القرابين للآلهة ، ويقال أن الإسكندر نُصِّب فرعوناً حسب التقاليد الدينية المصرية . بعد ذلك أقام مهرجاناً موسيقيا رياضيا حسب التقاليد اليونانية ، اشترك فيه عدد من أشهر الفنانين والممثلين فى بلاد الإغريق ولا شك أن مثل هذا المهرجان كان يخدم غرضين فى وقت واحد . أولا هو بمثابة ترفيه كان جنوده فى أشد الحاجة إليه بعد استمرار النقلة وتوالى المعارك، وثانيا هو عرض أمام المصريين لجانب من الحضارة اليونانية التى خرج الإسكندر يبشر بها ويقدمها للشرق .

بعد ذلك اتجه الإسكندر وجماعة من رجاله إلى الشمال الغربى فى زيارة إلى

(١) يتضح مما يورده أربانوس أن مصر كانت هدف الإسكندر الأصلى فى زحفه جنوبا .
أنظر خطبة الإسكندر سالفة الذكر وكذلك Arrian, III. 1. 1.

(٢) Arrian, III. 1. 2.

معبد الإله آمون فى واحة سيوه . فاتخذوا الفرع الكانوبى من النيل حتى الساحل ، ثم تتبعوا الساحل غربا حتى وصلوا قرية تعرف باسم راقوده تواجهها فى البحر جزيرة تعرف باسم فاروس كما تقع إلى الجنوب منها بحيرة ماريا (أوسريوط) . هناك قرر الإسكندر تأسيس مدينة الإسكندرية وأمر بأن تتخذ عاصمة لمصر[١] . وتعتبر هذه المدينة أعظم وأخلد أعمال الإسكندر فى مصر ، كما ستصبح من بعده مركزاً ورمزا لحضارة العصر الذى ابتدأه الإسكندر .

بعد أن انتهى الإسكندر من معاينة مكان مدينته الجديدة[٢] واصل السير غربا مستأنفاً رحلته إلى سيوه وكان خط سيره عن طريق الساحل الشمالى إلى بريتونيوم Paraetonium (مرسى مطروح) حيث استقبل فيما يقال وفدا من إغريق برقة ، ثم اتجه جنوبا إلى سيوه .

وقد اهتم المؤرخون قديما وحديثا بتفاصيل رحلة الإسكندر إلى سيوه لغرابة الفكرة ودلالتها[٣] ، إذ ما حدا بقائد عسكرى لم يفرغ بعد من حرب

---

(١) حول تأسيس الاسكندرية أنظر
Arrian, III. 1 ; Justinus, 11, 11, 13; 13, 4, 11; Ps. Aristotle Oeconomica. II. 33; Curtus Rufus, IV. 8. 5.

(٢) كانت الاسكندرية تحتفل بعيد تأسيسها فى العصر الرومانى فى يوم ٢٥ طوبة كما ورد فى Pseudo Callisthenes 1, 31, 2 وفى العصر الرومانى كان هذا التاريخ يوافق ٢٠ يناير حسب التقويم اليونانى أما عند تأسيس المدينة فى سنة ٣٣١ ق. م. فكان يوافق ٧ أبريل أى قبل إصلاح التقويم المصرى الذى أدخله يوليوس قيصر وطبقه فى مصر أغسطس سنة ٣٠ ق. م.

(٣) أنظر : P. Jouguet, Alexandre à l'oasis d'Ammon et le témoigraze de Callisthère, Bulletin de C'Lnstitut d'Egvpte, 26 (1944) pp. 91—107. I. Nosey, Alexander and the Oracle, of Amoon Annales Fac. Lettres Univ. Ibrahim, II (1953) pp. 75-98 وكتاب الاسكندر الأكبر تأليف و. و. تارن (W. W. Tarn) وترجمة زكى على ص ٨٠ — ٨٤

عدوه أن يقوم برحلة خلوية لا تخلو من مخاطرة إلى قلب الصحراء الغربية بعيدا عن العمران من أجل زيارة معبد . ولكن مثل هذه الرحلة مما يتفق وما نعرفه عن شخصية الإسكندر التى غلب عليها التأثر الدينى إلى حد التطير إلى جانب ميل شديد للمخاطرة واكتناه المجهول ، فليس مستغربا إذن أن تستهوى سيوه ومعبد الإله آمون الذى ذاع صيته فى العالم اليونانى منذ القدم ، خيال الإسكندر، ليستلهم آمون الوحى عن مستقبل آماله . خاصة وأن اثنين من أبطال الإغريق هما برسيوس وهرقل قد سلكا هـذا السبيل من قبل فيما تروى الأساطير . فالإسكندر بهذا العمل يضيف حلقة إلى تقليد دينى عريق يليق بشخصيته البطولية . على أى حال مضى الإسكندر إلى سيوه واستقبله كاهن المعبد على أنه ابن آمون . ونحن لا نعرف ما حدث بين الإسكندر ووحى الإله آمون ولكن لا بد أن الإسكندر قد سأل عما يشغل باله وهو حملته ومصير جهوده ، ولا بد أن الرد كان منبئا بتحقيق آمال الإسكندر وسيادته على العالم . أما الإسكندر نفسه فلم يفصح عما حدث داخل قدس الأقداس .

بعد أن أتم الإسكندر الزيارة عاد بالطريق المباشر عبر الصحراء إلى ممفيس حيث أقام بعض الوقت تفرغ فيه لإعادة نظام الإدارة والحكم فى مصر على أسس جديدة تتلخص فيما يلى[1] .

قسمت مصر إلى قسميها الرئيسيين ، شمالى وجنوبى (أى الوجه البحرى والوجه القبلى) وعهد بإدارة كل قسم إلى موظف مصرى ، ولكن حين تنحى أحدهما وهو بتيزيس Potisis تولى زميله دولاسبيس Doloaspis إدارة الوجهين معا . أما الحدود الشرقية والغربية فقد أنشأ بهما مقاطعتين جديدتين (العربيـة وليبيا) وعين على الأولى كليومنيس النقراطيسى

(١) وصف هذا النظام ورد فى Arrian, III, 5.

وعلى الثانيـــــة أبولونيوس بن خارينوس Cleomenes of Naucratis
. Apollonius son of Charinus

وفيما يتعلق بالسلطة العسكرية فقد عين قائدين على الحامية العسكرية التي
تركها في مصر هما بيوكستيس بن مكارتاتوس Peucestes son of Macartatus
وبلاكروس بن أمينتاس Balacrus son of Amyntas . كما عين بوليمون
ابن ثيرامين Polemon son of Theramenes قائداً للأسطول . هذا إلى
جانب قواد آخرين لبعض الوحدات المرابطة في ممفيس وبلوزيوم . أما الإشراف
على الخزانة والشئون المالية فقد عهد به إلى كليومنيوس النقراطيسى ، وأمره
الإسكندر بأن يترك حكام المديريات المختلفة يديرون مقاطعاتهم كما كان الأمر
من قبل وأن يجمع منهم الضريبة المفروضة . وأخيراً عهد إلى كليومنيس أيضا
بمهمة الإشراف على بناء مدينة الإسكندرية الجديدة[1] .

هذا هو ملخص النظام الذى وضعه الإسكندر لحكم مصر قبل أن يغادرها
في ربيع سنة ٣٣١ ليواصل حربه ضد الملك الفارسى في الشرق . ونظرة سريعة
إلى هذا النظام تكشف لنا نقصاً ظاهراً فيه وهو عدم وجود منصب حاكم عام
للبلاد ، وإنما وزعت السلطة بعناية شديدة بين المشرفين على الإدارة والشئون
العسكرية والشئون المالية . وقد كان أريانوس أول من لاحظ هذه الحقيقة
وفسّرها بأن الإسكندر فعل ذلك عامداً ليمنع أى حاكم بمفرده من أن يقوى
سلطانه ويتمكن من الاستقلال بمصر . ورغم أن أحدا لم يستقل بمصر أثناء
حياة الإسكندر ، ولكن ما أن غادر هو مصر حتى وجدنا المشرف على

---

(١) هذه الوظيفة لم يذكرها أريانوس ولكن ذكرها Pseudo Aristotle, Oec. II. 3;
و Justinus 13. 11. 4.

الشئون المالية كليومنيس النقراطيسى يظهر فوق كل للموظفين والقادة الآخرين وبدا كأنه والى مصر الفعلى .

ورغم أعماله التي أغضبت سائر الإغريق فيبدو أنه ظل حائزاً لثقة الإسكندر التامة وبقى فى منصبه طيلة حياة الإسكندر .

معلوماتنا عن كليومنيس هذا محدودة جدا فنحن نسمع عنه للمرة الأولى حين عهد إليه الاسكندر بعدة مهام فى نظامه لحكم مصر وأهمها الإشراف على الخزانة ، ولا نعرف عن تاريخه قبل ذلك شيئاً . ولكن نستنتج من اسمه أنه من إغريق مدينة نقراطيس ، ولا بد أنه كان من أعيانها وكبار تجارها مما يجعله ذا خبرة ودراية بشئون السوق والحياة الاقتصادية للمصرية ، الأمر الذى يجب أن يتوفر فيمن يعهد إليه بالإشراف على الخزانة .

على أن كليومنيس لم يكن مجرد موظف كفء يتلقى تعليمات الملك لينفذها بإتقان وإنما كان تاجرا وماليا من نوع فريد حتى لنعتبر فترة إشرافه على المالية المصرية تجربة فذة فى تاريخ الاقتصاد . فقد أوتى هذا الرجل ذكاءً حادا وخبرة نادرة ليس بالسوق المصرية فحسب وإنما بالأسواق العالمية فى البحر الأبيض المتوسط حينئذ ، وعامل المالية المصرية كما يعامل التاجر الطموح ماليته الخاصة ، وتاجر باسم الدولة .

والمتتبع لأعمال كليومنيس[١] منذ أن تولى منصبه يلحظ أنه انتهج سياسة مقصودة لإقامة احتكار لتجارة القمح عن طريق السيطرة على السوق المصرية بأن يصبح هو المصدّر الوحيد للقمح المصرى . وعن هذا السبيل استطاع

---

(١) يوجد عرض لبعض أعمال كليومنيس المالية فى كتاب
Pseudo Aristotle, Oec. II 33.

التحكم فى تجارة القمح العالميـــة وتحديد أسعاره فى الخارج على نحو يحقق له الربح الوفير .

وقد ابتدأ بفرض سيطرته على سوق القمح المصرية بأن قضى على سائر المنافسين الذين كانوا ينحصرون فى الـكهنة وكبار المزارعين والمصدرين . وقد اشتهر كليومنيس بين القدماء بالخديعة والحيلة اللتين استخدمهما بنجاح لتحقيق أهدافه .

ابتدأ كليومنيس بطبقة الـكهنة التى سعى إلى أن يضعف من مركزها عن طريق إضعاف قدرتها المالية . وكانت محاولته الأولى على فئة منهم فى منطقة الفيوم كانت تقدس التمساح . فادعى أنه أثناء زيارة له لمنطقة الفيوم ابتلع تمساح أحد أتباعه وأنه انتقاما من هذه الحادثة سوف يتصيد التماسيح فى الفيوم ويقضى عليها . فخشى الـكهنة على إلهم من الإهانة التى ستلحق به ، فجمعوا ما استطاعوا من المـال وقدموه لـكليومنيس تعويضاً عن خسارته فى أحد أتباعه . فرضى كليومنيس وهدأت ثورته .

بعد ذلك قام بمحاولة استهدف بها طبقـــة الـكهنة بأسرها ، إذ جمع ممثلين من جميع المعابد وأعلمهم أن المعابد تتـكلف الـكثير من المال ولذلك يجب القضاء على بعضها . فخاف الـكهنة على معابدهم واتفقوا على جمع مبلغ كبير من المال سواء من أملاكهم الخاصة أو من أموال المعابد وقدموها لـكليومنيس .

كانت هذه هى الجولة الأولى وكان الغرض منها إخضاع الـكهنة سياسياً واقتصاديا . بعد ذلك اتجه كليومنيس نحو طبقة المزارعين ونجح فى التخلص من منافستهم بأن اتفق معهم على أن يبيعوا له جميع محصولهم من القمح بالسعر

الذى كانوا يصدرون به . وبذلك احتكر تجارة القمح وأصبح المصدر الوحيد لهذه السلعة فى مصر .

أما عن تحكمه فى الأسواق الخارجية العالمية ، فقد كان ذلك عن طريق شبكة متقنة من السماسرة والوكلاء بثهم فى موانى البحر الأبيض المتوسط الهامة . هؤلاء الوكلاء كانوا يخبرونه أولا بأول عن أسعار القمح فى الأسواق المختلفة . وحينما شح القمح وارتفع سعره استطاع كليومنيس أن ينتهز الفرصة فى الحال ويرسل إلى ذلك المكان شحنات من القمح ويبيعها بالسعر الذى يفرضه هو نظراً لندرته فى ذلك المكان ، حتى ليقال أنه باع الكيل من القمح فى بعض الأزمات بمبلغ ٣٢ دراخمة بينما السعر العادى كان يتراوح بين ٥ — ١٠ دراخمات فقط[١] .

هذا مجرد عرض سريع لسياسته التجارية التى كانت تهدف إلى احتكار تجارة القمح . وقد نذكر هنا أن ممارسة الاحتكار لم تكن جديدة على مصر ، فقد مارسها الفراعنة من قبل فى احتكار بعض السلع للتجارة الداخلية .

ولكن محاولة كليومنيس إنشاء تجارة احتكارية دولية هى الأولى فى التاريخ .

والجديد فى محاولته هذه أنه مارسها بأساليب تجارية بحتة ، وليس مثل أثينا التى استخدمت سيادتها البحرية لاحتكار تجارة البحر الأسود فى القرن الخامس ق . م .

---

(١) السعر المرتفع التى باع به كليومنيس القمح مذكور فى
Ps. Arisrotle, Oec. II. 33, e.

أما عن متوسط سعر القمح فانظر
Jardé, Les Cereales dans l'antiquite guecque. p. 179,

سؤال أخير يجب أن نسأله بشأن نشاط كليومنيس التجارى . وهو هل قام بهذه التجارة لحسابه الشخصى أو باسم الدولة ولصالحها . ليس لدينا رد قاطع على هذا السؤال ولكننا نستطيع أن نستشف من لغة مصادرنا القديمة أن كليومنيس قام بالتجارة على أنه رجل من رجال الدولة .

وهناك دليل آخر يؤيد هذا الاستنتاج هو أن بطلميوس الأول سوتير تسلم من كليومنيس فى خزانة الدولة مبلغ ثمانية آلاف تالنتوم[1] مما يدل على أن أرباح كليومنيس من التجارة كانت تذهب إلى خزانة الدولة .

إلى جانب هذا النشاط التجارى الجم ، فإن إسم كليومنيس يقترن أيضاً بتأسيس مدينة الإسكندرية فى مرحلتها الأولى وكان من أوائل مواطنيها[2] فحين عهد إليه الإسكندر بالإشراف على بناء المدينة الجديدة أمر بأن تكون الاسكندرية عاصمة مصر . ويبدو أن كليومنيس جعلها فعلا مركزا لنشاطه التجارى . ورغم أن مبانى الإسكندرية العظيمة لم توجد إلا بعد أن أنشأ البطالمة دولتهم ، إلا أنه ما من شك أن إسكندرية كليومنيس كان لها طابع الميناء التجارى السريع النماء . وأنها فى عصره احتلت مكانة نقراطيس كمركز للتبادل التجارى مع اليونان وليس أدل على سرعة نماء الإسكندرية فى أعوامها الأولى من أنه فى عام ٣٢٦ ق . م . (أى بعد خمس سنوات من تأسيس الاسكندرية كان بها دار نشطة لسك العملة تصدر عنها عملة الإسكندر المشهورة فى كميات كبيرة وفى إتقان فنى راق[3] .

---

(١) Diodorus Sic. 18. 14. 1.

(٢) Ps Aristotle, Oec. II. 33.

(٣) راجع C. Selttman; Greek Coins, p. 212.

هـذه المدينة هى أخـــــلد أعمال الإسكندر فى مصر ، ودور كليومنيس فى تاريخها على أى حال لم يكن بالغ الأهمية ، وإنمـــا البطالمة هم الذين منحوا الاسكندرية شخصيتها التاريخيـة التى عرفت بها على مر العصور .

الفصل الثانى

التاريخ السياسى لمصر فى العصر البطلمى

عصر القوة

١ - بطلميوس الأول سوتير (٣٢٣ - ٢٨٤ ق.م)

الموقف عقب وفاة الإسكندر :

من أعقد مواقف التاريخ الموقف الذى نتج بعد وفاة الإسكندر فجأة فى يونية سنة ٣٢٣ ق.م.[١] . ذلك أن هذه الإمبراطورية المترامية التى انشأها الإسكندر فى سرعة غريبة وشملت شعوبا وأقطاراً متباينة أشد التباين لم تكن قد خضعت لنظام سياسى وإدارى محكم يكفل لها البقاء والاستمرار . كما أن مسألة وراثة العرش لم يكن الإسكندر قد تفرغ بعد لتنظيمها فى الوقت الذى لم يكن له وريث شرعى .

من أجل هذا عندما توفى الإسكندر فجأة كان الأمر بيد كبار قواده وأعوانه فى الحملة ، الذين كان لكل منهم أطماعه وآماله وقليل منهم كان يؤمن بفكرة الإسكندر عن وحدة العالم ومبدأ العمل على مزج الحضارات بين الشرق والغرب لتنتج عن ذلك حضارة عالمية واحدة تجلب على الإنسانية السلام والرخاء. ولكن من آل إليهم أمر الإمبراطورية كانوا على النقيض من ذلك وكان الاختلاف بينهم يتوقف على مدى اختلاف أطماعهم ، فمنهم من أراد

---

(١) أفضل وأحدث محاولة لمعالجة هذه الفترة كتاب P. cloché, La Dislocation d'un Empire (323—280 av. J. C.), Paris, 1959,

الإبقاء على وحدة الإمبراطورية ليخلف الإسكندر على رأسها مثل پرديكاس Perdiccas أولا وأنتجونس Antigonus من بعده ، ومنهم من كان يسعى للحصول لنفسه على إحدى الولايات ليستأثر بها ويؤسس فيها دولة مستقلة مثل بطلميوس Ptolemaeus.

هذا هو الموقف الذى نشأ فى بابل عند وفاة الإسكندر بها ولكن ما من شك أن پرديكاس، صاحب المركز الأسمى فى الجملة بعد الإسكندر وبمثابة رئيس أركان حربه ، كان أقوى شخصية فى بابل فى ذلك الوقت . ويبدو أنه كان موضع ثقة الإسكندر الكاملة وأقرب الناس إليه ، حتى ليقال أن الإسكندر حين حضرته الوفاة منح پرديكاس خاتم الملك[1] . لذلك لم يكن مستغربا أن يشعر پرديكاس بأنه صاحب الحق الأول فى تولى مقاليد الأمور بنفسه ، واستطاع فعلا أن يصل إلى التسوية التالية لتوزيع السلطة فى الامبراطورية .

بعد خلاف بين القادة حول مشكلة الوراثة اتفق الجميع على أن يتولى العرش ملكان هما أريديوس Arrhidaeus الذى لقب بفيليب الثالث ، وكان أخا غير شقيق للاسكندر ، والمولود المنتظر للاسكندر من روكسانا زوجته الفارسية إذا كان ولدا . وجاء المولود ولداً فى أغسطس سنة ٣٢٣ ق.م. وسمى الإسكندر الرابع . بعد ذلك منحت القيادة العليا للجيوش فى آسيا لپرديكاس Perdiccas الذى استطاع أن يجعل من نفسه وصياً عاما على الملكين خاصة وأن أريديوس فيليب كان معروفا بالبلاهة وضعف العقل وعدم القدرة على الحكم بنفسه . أما القيادة فى اليونان فقد منحت لأنتيپاتروس Antipatros أكثر قواد الإسكندر مكانة وشعبية بين الجنود .

وكان الإسكندر قد تركه لتدبير شئون مقدونيا فى غيابه وللاشراف على

---

(١) Diodor. XVIII. 4.

اليونان، وقد بقى له هذا المنصب فى التسوية الجديدة . هؤلاء هم القادة الذين كانت لهم الكلمة العليا فى بادىء الأمر ، أما سائر أجزاء الامبراطورية فقد وزعت بين القادة الآخرين واستمر العمل بالنظام الفارسى فكل ولاية سميت ساترىية وحاكمها ساتربا . ولكن يهمنا من هؤلاء أربعة فقط سيصبحون فيما بعد هم والأسر المالكة التى انشأوها فى ولاياتهم محور التاريخ فى مدى القرون الثلاثة التالية وهم انتجونس Antigonus الذى منح فريجيا الكبرى وبامفيليا وليكيا (فى آسيا الصغرى) ، ولوسياخوس Lysimachus منح طراقيا ، ثم سليوقس عهدت إليه قيادة عليا فى الجيش كالساعد الأيمن لبرديكاس . أما مصر فقد منحت لبطلميوس بن لاجوس على أساس أن يصبح كليومنيس — الذى كان قد عينه الإسكندر مشرفا على ماليتها ولكنه غدا بمثابة الحاكم الفعلى للبلاد — مساعدا لبطلميوس بمنصب (Hyparchos) .

هكذا قامت فى مصر أسرة جديدة ودولة جديدة ، وكان بطلميوس على علم تام بقيمة الغنم الذى فاز به ، ويقال إنه كان متفقا مقدما مع برديكاس بأنه إذا ناصر برديكاس فى صراعه من أجل السلطة سيعينه برديكاس ساتربا على مصر . ولذلك لم يضع بطلميوس وقتاً بعد صدور القرار بمنحه ساترىية مصر بل مضى إليها فى الحال تاركا سائر القادة فى خلافاتهم ومنافساتهم . وكأنه على يقين من المستقبل بأنه ليس مجرد حاكم معين من قبل السلطة المركزية ، وإنما هو مؤسس دولة جديدة مستقلة .

ولكن من هو هذا الحاكم الجديد الذى أصبح فيما بعد ملكا لمصر ؟ إن معلوماتنا عن تاريخه الأول قليلة جداً تكاد تنحصر فى أنه ينتمى إلى أسرة تعتبر من صغار أو أوساط النبلاء فى مقدونيا . ويقال أنه تعلم وتربى فى صباه فى القصر الملكى المقدونى مع الإسكندر كعادة أبناء النبلاء . وفى أثناء حملة

الإسكندر أصبح أحد أعضاء الحرس الخاص للاسكندر، الذين لم تقتصر مهمتهم على مجرد السهر على سلامة الملك وإنما كانوا بمثابة مستشارى هيئة أركان حربه أيضاً . ونعلم أنه أخلص الإخلاص كله فى خدمة الإسكندر وأنه أظهر تفوقا وقدرة حربية عظيمة فى معارك عديدة . وكان بطلميوس إلى جانب هذا كله على جانب كبير من الثقافة ذا ذوق أدبى وميل إلى دراسة التاريخ . فلم يقصر حياته أثناء حملة الإسكندر على الواجب العسكرى ، وإنما استغل هذه الفرصة وكتب كتابا عن سيرة الإسكندر ، مستخدما فى ذلك معرفته الوثيقة بشخصية البطل الذى يكتب عنه ودرايته بكافة تفاصيل الحملة وأسرارها .

ورغم أن هذا الكتاب العظيم لم يصل إلينا سالما إلا أن أجزاء منه قد وصلتنا فى كتابات اللاحقين من المؤرخين الذين اعتمدوا عليه فى التأريخ لعصر الإسكندر(١) . وتمتاز كتابته التى وصلتنا بالاتزان والرأى السديد والبعد عن المبالغات وغلبة حكم العقل على حكم العاطفة . ومن المحتمل جدا أنه صحب الإسكندر فى مصر لأنه يهتم كثيرا بوصف مصر والرحلة إلى واحة سيوة .

أما عن شخصية بطلميوس فرغم أن أحدا من مصادرنا لم يذكر وصفا لها مكتفين بوصف أعماله ، فإن العملة الفضية التى أصدرها بطلميوس حاملة صورته على أحد وجهيها ، تظهر شخصيته على أنه حازم واقعى جم النشاط ذو عزيمة وإرادة قوية وقدرة كبيرة على الاحتمال والعمل . وبالرغم من أنه لا ينبغى المبالغة فى الاعتماد على مثل هذه الأدلة ، إلا أن ما نعرفه عن أعمال بطلميوس السياسية والعسكرية تؤيد مثل هذا الاستنتاج .

---

(١) يعتبر أريانوس فى كتابه عن سيرة الإسكندر Anabasis أهم من اعتمد على كتاب بطلميوس .

بطلميوس ومشاكل النزاع بين خلفاء الإسكندر[١] :

هذه هى شخصية بطلميوس بن لاجوس الذى جاء إلى مصر فى صيف ٣٢٣ ليحكم بصفته ساترابا . وأهم ظاهرة تتصف بها سياسته الخارجية والداخلية على حد سواء هى الحرص ، كما كان الغرور أبعد الأخلاق عن سلوكه . وهاتان الصفتان من أهم ما يجب أن يتميز به رجل الدولة الذى يهدف إلى إنشاء دولة تبقى من بعده. ولذلك بدلا من أن يضرب فى متاهات السياسة العالمية وأن يسعى وراء الأحلام التى خدعت غيره من خلفاء الإسكندر مثل سيادة الإمبراطورية والتفرد بالسلطة فيها، وجدناه يضع أسسا محددة لسياسته الخارجية قائمة على فهم تام لإمكانياته والظروف التى نتجت بعد موت الإسكندر فى آسيا وأوربا ، ما هدفه الرئيسى فكان تأمين سلطانه فى مصر ، من أجل تحقيق هذا الهدف رأى أنه من الأصلح أن يخضع لسلطانه بعض المناطق المجاورة على الحدود الشرقية والغربية ليمنع إمكان غزو مصر فجأة عن طريق البر، وكذلك أن يجعل له مناطق نفوذ فى بحر إيجة وخاصة الجزر لتكون بمثابة نقط أمامية تضمن له السيطرة على البحر[٢] .

هذه كانت أسس السياسة الخارجية لبطلميوس الأول وستبقى كما هى فى عصر خلفائه ما بقيت لهم سياسة خارجية مستقلة ، ولكن من أجل تحقيق هذه السياسة كثيرا ما اصطدم بالقواد والحكام الآخرين الذين ورثوا امبراطورية الإسكندر .

---

(١) P. Cloché, La Dislocation d'un Empire, pp. 47 ff.; Tarn, Hellenistic Civilization, pp. 5 ff.; Jouquet, L'Imperialisme Macedonien, pp. 139—197.

(٢) أنظر Jouquet, L'Imperialisme Macedonien, p. 281.

وأول خلافات بطلميوس بدأت ضد السلطة المركزية وبشأن دفن جثمان الإسكندر ، إذ كان بِرديكاس قد قرر دفنه فى موطنه الأصلى فى مقدونيا ولكن بينما كانت الجنازة فى طريقها إلى مقدونيا ، استولى بطلميوس على تابوت الإسكندر فى سوريا ونقله إلى ممفيس فى مصر ثم نقله بعد ذلك إلى الإسكندرية ، حيث كان يشاهد هناك فى العصرين اليونانى والرومانى ويعرف باسم سيما (Sema) أو سوما (Soma) كان هذا العمل من بطلميوس يعنى أنه يستطيع مخالفة رأى بِرديكاس وعدم طاعته فى المستقبل .

بعد ذلك سنحت لبطلميوس فرصة لضم برقة إلى سلطانه حين قام فى مدينة قورينة خلاف بين الأحزاب المختلفة ولجأ بعضهم إلى بطلميوس ، فانتهز الفرصة وأخضعهم جميعاً فى نهاية سنة ٣٢٢ ق.م. هذا الانتصار السريع اكسب اسمه فجأة شهرة وأهمية ، وأشعره بإمكان انتهاجه سياسة مستقلة ، فسار خطوة أخرى فى سبيل تثبيت مركزه فى مصر ، كانت بمثابة إلغاء تبعيته لبِرديكاس . ذلك أنه كان يضيق بوجود كليومينيس ، رئيس خزائن مصر زمن الإسكندر والذى عينه بِرديكاس مساعدا لبطلميوس ، وكان ينظر إليه على أنه رقيب من قبل بِرديكاس . ولهذا قرر التخلص منه عن طريق توجيه بعض التهم إليه ومحاكمته وقتله .

وفى الوقت نفسه كانت ريح المقاومة قد بدأت تثور ضد بِرديكاس فى سائر أجزاء الامبراطورية ، فتحالف ضده انتيباتروس (فى مقدونيا واليونان) وانتجونس (والى فريجيا الكبرى فى آسيا الصغرى) ولوسياخس (طراقيا) وانضم إليهم بطلميوس ، فقرر بِرديكاس محاربتهم وإخضاعهم لسلطانه . وجرت الحرب فى ميدانين رئيسيين ، آسيا الصغرى ومصر .

أما آسيا الصغرى فقد أرسل إليها بِرديكاس أحد قواده وهو يومينيس

Eumenes ، بينما اتجه هو بنفسه إلى مصر لتلقين واليها المنشق درسا يكون عبرة لغيره . ولكن برديكاس يفشل فى مصر ويعجز عن عبور النيل بينما يتآمر عليه ضباطه برياسة سليوقس ويقتلونه سنة ٣٢١ وبذلك تفشل الحملة بأسرها ويجتمع القادة الخلفاء بعد الانتصار فى تريباراديس Triparadisus (شمال سوريا) لإعادة توزيع الامبراطورية ، وأهم معالم التوزيع الجديد هى إعلان انتيباتروس وصياً عاما على الامبراطورية ، ولما كان مقره فى مقدونيا ، فقد صحب الملكين معه إلى هناك ، ثم تأكيد مركز بطلميوس فى مصر وبرقة ، وكذلك استمر انتجونس ساترابا فى فريجيا وعين قائدا عاماً للجيوش الملكية وكلف بإخضاع بقايا اتباع برديكاس . كما استمر لوسيماخس فى منصبه ساترابا فى طراقيا ، أما سليوقس الذى قتل برديكاس فقد منح ولاية بابل .

لم يستمر الأمر على هذا النحو أكثر من عامين إذ توفى انتيباتروس سنة ٣١٩ ق.م. وعين قبل وفاته پوليپرخون Polyperchon ، أحد قواد الإسكندر القدماء ، خليفة له . وكان أول معترض على الاجراء كاساندروس Cassandros ابن انتيباتروس الذى كان يعتبر نفسه أحق الناس بأن يرث منصب أبيه . وأخذ يهاجمه فى بلاد اليونان ذاتها منتهجا سياسة العنف والبطش ضد خصومه فجلب عليه سخط الإغريق جميعاً . ولكنه وجد حليفين قويين فى بطلميوس وانتجونس ، ذلك أن بطلميوس كان يعمل على الاستيلاء على سوريا منذ انتصاره على برديكاس . فانتهز فرصة موت انتيباتروس وما نشأ عنه ، فزحف على سوريا واستولى على ما يمكن أن يسمى سوريا الجنوبية Caele Syria (ويعنى أساساً منطقة فلسطين وشمل عادة جنوب سوريا وفينيقيا أيضاً) ، ولكى يبرر محالفته لكاساندروس أرسل أسطوله إلى بحر الأرخبيل دون أن يقوم بأى عمل إيجابى .

أما أنتجونس فقد كانت له أطماعه الشخصية أيضاً ، إذ كان يسعى إلى الاستقلال بآسيا الصغرى بأسرها ، فأمد ساندروس بالجنود والسفن لمهاجمة بوليپرخون فى مقدونيا ، بينما توجه هو لمحاربة يومينيس قائد برديكاس السابق والذى انحاز إلى جانب بوليپرخون واتخذ مركزه فى آسيا وحارب حربا مجيدة حتى أنه استطاع طرد بطلميوس من معظم سوريا . واستمرت الحرب حتى سنة ٣١٦ ق.م. حين انتصر عليه انتجونس .

هذا الانقسام بين القادة الحكام كان له صدى فى الأسرة المالكة . فالملك الأبله أريديوس فيليب وزوجته الطموح يورديكى Eurydice انحازا إلى جانب كاساندروس بسبب كراهيتهم للملكة أولمبياس Olympias والدة الإسكندر الأكبر والتى كانت منحازة إلى جانب بوليبرخون . فما كان من أولمبياس إلا أن تآمرت على أريديوس وزوجته وقتلتهما سنة ٣١٧ ق . م . أما ركسانا والملك الطفل الإسكندر الرابع فقد كانا كرهائن فى يدى كاساندروس حتى إذا ما نجح هذا الأخير فى الاستيلاء على مقدونيا وقعت أولمبياس فى يديه فقتلها ، أما بوليبرخون فقد لجأ إلى بعض المدن اليونانية التى أعلن مناصرته لها .

ولكن ذلك لم يحل للموقف السياسى المعقد الناشىء عن موت أنتيباتروس لأنه بعد انتصار أنتجونس على يومنيس فى الشرق ، داعبت خياله فكرة الاستيلاء على الامبراطورية لنفسه فاتجه إلى بابل حيث كان سليوقس ساترابا وعامله معاملة التابع ، وأخذ يطالبه بتقديم الحساب عن ولايته ، كما استولى على الخزائن الملكية فى صوصه ، فاضطر سليوقس إلى الفرار إلى مصر مستنجدا بملكها. على هذا النحو أصبحت الامبراطورية الفارسية بأسرها ـ باستثناء مصر ـ تحت سلطان أنتجونس .

هذا الموقف الجديد بعث الذعر فى نفوس الحكام الآخرين ، فتكون فى الحال تحالف جديد من بطلميوس ولوسياخس وكاساندروس ، ووجهوا إلى أنتجونس إنذاراً يطالبون فيه بأن يتنازل عن معظم المناطق التى استولى عليها أخيرا ، على أن تعود بابل إلى سليوقس ، وسوريا الجنوبية إلى بطلميوس ، وفريجيا على الدردنيل إلى لوسياخس وأن يعترف بسلطان كاساندروس على مقدونيا واليونان وبعض مناطق آسيا الصغرى . وأضافوا أن خزائن صوصه التى استولى عليها يجب أن توزع بين الجميع بالتساوى .

رفض أنتجونس هذا الإنذار ، ونشبت بين الطرفين حرب مريرة استمرت من ٣١٥ حتى ٣٠١ ق . م .[١] . وابتدأ أنتجونس يغزو سوريا الجنوبية فاستولى عليها ورد بطلميوس إلى داخل حدوده وراء غزة ، وترك ابنه ديمتريوس الذى سيلقب بقاهر المدن Demetriues Policrketes حاكما عليها . واتجه أنتجونس بعد ذلك إلى العالم اليونانى لمقاومة كاسندروس وهناك حاول تأليب المدن اليونانية عليه بأن أعلن سياسة الحرية والاستقلال لجميع المدن اليونانية . على أثر ذلك سنجد بطلميوس يعلن انتهاج السياسة نفسها نظراً لأن له أطماعاً فى بحر إيجة .

وفى سنة ٣١٣ ق.م. قاد حملة بحرية إلى قبرص واستولى على الجزيرة. ولكن استمر تفوق أنتجونس فى منطقة بحر إيجة ، فنجح فى الاستيلاء على جزر السكيكلاديس اليونانية كما مد نفوذه على أجزاء كبيرة من جنوب شبه الجزيرة اليونانية .

---

(١) المصدر الرئيسى لأحداث هذه الفترة هوديودور Diodorus وخاصة الكتابين ١٨ و ١٩ .
أنظر أيضا P. Cloché, La Dislocation, pp. 141 ff.

في هذه الأثناء قام بطلميوس بشن هجوم جديد على سوريا الجنوبية وانتصر على ديمتريوس انتصارا ساحقاً فيموقعة غزة سنة ٣١٢ ق . م . وكانت أهم نتيجة لهـــذا الانتصار هو إمكان عودة سليوقس إلى بابل ، رغم أن ديمتريوس هاجمه واستولى على بابل ولـــكن دون نتيجة حاسمة . وفى نفس الوقت تابع بطليموس تقدمه فاستولى على فلسطين وفينيقيا . ولـــكن سيطرته على ممتلـــكاته لم تستمر طويلا ، إذ سرعان ما عاد ديمتريوس من بابل وانتصر على جيش بطليموس فى شمال سوريا سنة ٣١١ ، وحضر أنتجونس بنفسه ، وانسحب بطليموس من فلسطين مرة ثانية .

وفى العام نفسه ثار عليه واليه فى برقة . وهكذا فقد بطليموس معظم ممتلـــكاته الخارجية فى عام واحد .

وفى هذا العام كان القادة الآخرون قد ضاقوا باستمرار هذه الحرب التى لم يروا لها نهاية حاسمة . فعقدوا اتفاقا ، أهم ما يتضمنه هو أن يتنازل بطليموس عن سوريا الجنوبية ، وأن يعترف أنتجونس بكاساندروس حاكما لليونان حتى يبلغ الإسكندر الرابع سن الرشد ، وأضيفت إلى الاتفاق عبارة تنص على ضمان حرية المدن اليونانية .

فى هذا الاتفاق سمى القواد الموقعون عليه أنفسهم « القائمين على الأمر » ، وأرّخوا وثيقتهم باسم الملك الطفل الإسكندر الرابع[1] . ولـــكن لم يكد يمضى عام واحد على هذا الاتفاق حتى خشى كاساندروس أن يبلغ الإسكندر الطفل سن الرشد فيبطل حقه فى السلطان حسب اتفاق سنة ٣١١ ، فقرر التخلص

(١) أهم مصدرين لاتفاق عام ٣١١ هما Diodorus XIX. 75. 1—6; ونقش به رسالة من انتجونس O. G. I. S. I, 5 = C. B. Welles, Royal Correspondence in the Hellenistic Period ,no. 1.

من الإسكندر ووالدته الفارسية روكسانا وقتلهما سنة ٣١٠ وبذلك قضى على أسرة الإسكندر الأكبر نهائياً .

إن ما أقدم عليه كاساندروس من قتل صاحب الحق الشرعى فى الملك أفقد اتفاق سنة ٣١١ كل قيمة فعلية ، وأخذ كل من بطليموس وأنتجونس يعمل مستقلا على تحقيق أطماعه . أما بطلميوس فأخذ يعمل على تأكيد سيطرته على البحر وإنشاء إمبراطورية بحرية فى بحر إيجة ، متخذاً من قبرص التى كانت تابعة له مركزاً لهجومه الجديد .

وفى سنة ٣٠٩ ذهب على رأس أسطوله القوى واستولى على ليكيا (فى آسيا الصغرى) وجزيرة كوس التى اتخذها بعد ذلك مقراً لقيـــــــادته فى المنطقة .

وفى العام التالى واصل أطماعه فاستولى على جزر الكيكلاديس تحت ستار تحريرها من سيطرة أنتجونس. ومن هنا اكتسب لقبه « المنقذ Soter » ثم نزل إلى كورنثا ، فهدد بذلك نفوذ كل من كاساندروس وأنتجونس فى اليونان . ولـكن نظراً إلى قلة التأييد الذى أبدته نحوه المدن اليونانية ، عاد إلى مصر تاركا حامية عسكرية فى كورنثا وسيكيون Sicyon وميجارا Megara . ومن المحتمل أن بطليموس استطاع فى هذا العام أيضاً (٣٠٨) أن يسترد سلطانه على برقة .

لم يبق أنتجونس ساكنا أمام نشاط بطليموس ، ففى العام التالى ٣٠٧ أرسل ابنه ديمتريوس إلى اليونان . وما أن وصل ديمتريوس إلى بيريه حتى سقطت حكومة الأقليةفى أثينا برياسة ديمتريوس الفاليرى الذى هرب إلى مصر، وقامت مكانها حكومة ديمقراطية موالية لأنتجونس وإبنه . ولمـــا حاول بطلميوس القيام بنشاط مضاد فى اليونان مضى ديمتريوس إلى قبرص وهاجمها

وانتصر على بطلميوس وأسطوله انتصاراً حاسماً قضى على نفوذه فى الجزيرة وذلك فى موقعة سلاميس سنة ٣٠٦ التى قضت فى نفس الوقت على سيطرة بطليموس على البحر . كان لانتصار ديمتريوس فى سلاميس دوى كبير فى العالم اليونانى وأخذ الرأى العام فى المدن اليونانية تبعاً لذلك ينحاز إلى أنتجونس الذى انتهز فرصة هذا المجد وأعلن اتخاذه لقب ملك .

كانت هذه الخطوة الجريئة من جانب أنتجونس بمثابة تحدى صريح لسائر القواد الآخرين . ومعناها ادعاؤه الرسمى لتقلد السلطة المركزية فى الإمبراطورية .

ورداً على هذا الادعاء أعلن فى الحال كل من كاساندروس ولوسيماخس وسايوقس وبطلميوس أنفسهم ملوكا فى أقاليمهم . عند ذلك قرر أنتجونس محاولة إخضاع منافسيه بالقوة وابتدأ — كما فعل برديكاس من قبله — ببطلميوس ليكسب مجدا سريعاً بالاستيلاء على مصر ذاتها بعد أن سلب بطلميوس جميع ممتلكاته الخارجية . ولكن بطليموس تحصن كعادته داخل مصر ، واستعد للقاء أنتجونس الذى كان قد استعد لهذه الغزوة استعدادا هائلا فى تكوين قواته البرية والبحرية . وفى شتاء عام ٣٠٦ زحف أنتجونس برا عن طريق سوريا وفلسطين بينما تقدم ابنه ديمتريوس بحرا على رأس الأسطول . ولكن فى ظروف طبيعية وحربية قاسية فشل أنتجونس فى الاستيلاء على بلوزيوم كما فشل ديمتريوس فى اقتحام النيل ، وآثر أنتجونس وإبنه أن ينسحبا من مصر قبل أن يهلكا مع قواتهما . بعد ذلك لجأ أنتجونس إلى محاربة بطلميوس اقتصادياً بأن يفرض عليه حصارا اقتصادياً كما نقول الآن . فحاول أن يغرى جزيرة رودس بقطع علاقاتها التجارية مع الإسكندرية .

وكانت رودس فى هذا الوقت أكبر مركز للتبادل التجارى فى البحر

الأبيض المتوسط كما كان لزاماً على السفن التى تعبر البحر من الشمال إلى الجنوب أو من الشرق إلى الغرب أن تمر بها حسب إمكانيات الملاحة القديمة ، فكل من يسيطر على هذه الجزيرة يمكن أن يتحكم فى التجارة العالمية ، وإذا كان معاديا لمصر أمكنه أن يشل نشاطها التجارى تماما . ولكن رودس كانت دولة تجارية قبل كل شىء وتعرف أن تجارة مصر الضخمة تدر عليها الربح الوفير ، فكانت تحرص دائما على أن تحتفظ بعلاقات ودية معها . ولهذا رفضت طلب أنتجونس الذى قرر إخضاعها بالقوة فأرسل ابنه ديمتريوس على رأس أسطول قوى لمهاجمتها . ولكن هذه الجزيرة الغنية كانت أيضاً ذات نظام جمهورى قديم وقوة عسكرية كبيرة فتمكنت من مقاومة عدوان ديمتريوس وحصاره لها فى عامى ٣٠٥ — ٣٠٤ ق .م. خاصة وأن بطليموس لم يدخر وسعاً فى مساعدتها على الصمود .

ولكن تطور الموقف فى اليونان ضد والده ، جعل ديمتريوس يرفع الحصار عن رودس ويذهب لمساعدة والده فى اليونان ثم آسيا الصغرى (٣٠٤ — ٣٠٢) فى هذه الأثناء تكون حلف جديد ضد أنتجونس من كاساندروس ولوسيماخس وسليوقس وبطلميوس . وبينما شغل سائر الحلفاء بحرب أنتجونس وإبنه فى آسيا الصغرى ، شغل بطليموس نفسه بتحقيق أطماعه القريبة فى سوريا ، فاستولى على سوريا الجنوبية للمرة الثالثة ، ولكن انتشرت إشاعة مؤداها أن أنتجونس قد انتصر على الحلفاء وأنه فى طريقه إلى سوريا . فما كان من بطلميوس إلا أن انسحب مسرعاً إلى داخل مصر . ولكن الإشاعة كانت كاذبة . والحقيقة أن الحلفاء انتصروا فى موقعة فاصلة عند إبسوس فى فريجيا الكبرى سنة ٣٠١ وفيها سقط أنتجونس قتيلا . أما ديمتريوس فجمع بقايا جيشه ولجأ إلى إفيسوس .

بهزيمة أنتجونس وموته على هذا النحو يمكن أن يقال إن إبسوس وضعت حدا لإمكان تحقيق فكرة توحيد إمبراطورية الإسكندر تحت سلطة مركزية واحدة .

على أى حال اجتمع القادة المنتصرون بعد إبسوس لإعادة توزيع الامبراطورية على النحو التالى : كاساندروس فى مقدونيا واليونان ، لوسياخوس فى آسيا الصغرى ، وسليوقس فى بابل وسوريا ، وبطلميوس فى مصر فقط[1] .

أهم ظاهرة فى هذا التقسيم الجديد هو سلب سوريا الجنوبية من بطلميوس ومنحها لسليوقس . من أجل هذا يعتبر اتفاق عام ٣٠١ ق . م . السبب المباشر فى خلق ما يسمى بالمسألة السورية لأن بطلميوس كان يعتبر نفسه صاحب الحق الأول فى سوريا الجنوبية وفعلا عاد واحتلها للمره الرابعة عقب معركة إبسوس مباشرة . ولهذا حينما أعلن باتفاق القواد لم يعترف به وطالب بمنحه سوريا . فى حين أن سليوقس تمسك بالاتفاق الجديد واعتبر أن بطلميوس فقد حقه فى سوريا لأنه لم يشترك فعلياً فى القضاء على أنتجونس كما أنه انسحب من سوريا بمجرد سماعه إشاعة . ولهذا طالب بطلميوس بالانسحاب من سوريا . ولكنه لم يتخذ أى خطوة إيجابية فى الحال نظرا للصداقة التى بين الملكين . ولكنه فى الوقت نفسه تمسك بحقه الرسمى فى سوريا[2] .

من هذا نرى أن القضاء على أنتجونس لم يعن انتهاء المنازعات بين الملوك المقدونيين ، إذ استمر كل منهم يعمل آناً بالحرب وآنا بأساليب المؤامرات

---

(١) معلوماتنا عن هذه التسوية مستقاة من فقرة غير وافية فى أبيانوس
Appian., Syriaca, 55

(٢) انظر تعليق ديودور الصقلى على العلاقة الجديدة بين بطلميوس وسليوقس
Diod. XXI. 1. 5.

الدبلوماسية على تحقيق أطماعه . من ذلك أخذ بطلميوس يعمل على استعادة سيادته البحرية فاستولى على قبرص (٢٩٥ — ٢٩٤ ق . م .) وكانت لا تزال فى أيدى ديمتريوس ، وأعقب ذلك بتأكيد نفوذه فى بحر إيجة وحمايته لجزر الكيكلاديس (٢٨٧ ق . م .)

أما ديمتريوس فيستغل موت كاساندروس فى مقدونيا ويسعى هو أيضاً لأن يخلفه فى مملكته . وينجح فى تحقيق خطته ويستولى على مقدونيا فى سنة ٢٩٤ ق . م . ولكن يتحالف ضده الملوك الآخرون وتدور بينهم الحرب (٢٨٨ — ٢٨٥) ، فيستولى لوسياخس وپيروس (ملك أيروس) على مقدونيا بينما يقع ديمتريوس فى أسر سليوقس سنة ٢٨٥ ويموت فى الأسر سنة ٢٨٣ . ويبقى من بعده ابنه أنتجونس على رأس بعض الأتباع فى بلاد اليونان حيث ساندته بعض المدن التى كانت صديقة لوالده .

بعد موت ديمتريوس طمع لوسياخس فى الاستئثار بعرش مقدونيا ولكنه يصطدم بسليوقس وينهزم لوسياخس ويقتل فى معركة بينهما عند كوروبيديون Couroupedion (ومعناها سهل قورش) سنة ٢٨١ ق . م . ولم يوجد من يخلفه أو يطالب بحقه من بعده .

وأخذ سليوقس يتقدم لتولى عرش موطنه الأصلى مقدونيا ، خاصة أنه هو الوحيد من رجال الإسكندر الذى كان لا يزال على قيد الحياة . ولكن القدر خبأ له مفاجأة قضت علي آماله . ذلك أن بطلميوس منذ عام ٢٨٥ أحس وهو فى سن الثانية والثمانين بضرورة ترتيب وراثة العرش من بعده ، خاصة وانه كان يميل إلى أن ينحى عن العرش ابنه الأكبر من الملكة يوردريكى المسمى بطلميوس الصاعقة (Keraunos) مؤثرا عليه ابنه الأصغر من ملكته الثانية برنيقه . فأشرك فى الحكم معه الابن الثانى الذى سينفرد بالعرش

بعد وفاة والده فى عام ٢٨٤ / ٢٨٣ ويصبح بطلميوس الثانى فيلادلفوس ، وهو لا يزال فى مقتبل الشباب فى سن الخامسة والعشرين .

أما بطلميوس الصاعقة فيلجأ إلى سليوقس ليعينه على أخيه ويرده إلى عرشه المغتصب فى مصر . ويعده سليوقس خيرا . ولكن الفتى يتنكر فجأة لسليوقس ويقتله بينما هو يستعد لدخول مقدونيا بعد انتصاره على لوسيماخس، ويقبل الجنود بطلميوس الصاعقة قائدا لهم وينصبوه ملكاً فى مقدونيا ، بينما يخلف سليوقس على عرشه فى سوريا وبابل ابنه الشـــــاب أنتيوخس الأول .

أما فى مقدونيا فإن الحياة لا تطيب لبطلميوس الصاعقة ويفاجأ بغزوات من المتبربرين الكلتيين الذين يهاجمون مقدونيا واليونان وآسيا الصغرى . ويذهب ضحيتهم الملك الجديد فى مقدونيا وبعده آخرون ينصبهم الجند ولا يبقون فى الحكم سوى أسابيع أو أشهر قليلة ثم يختفون فى أرض المعركة أو فى ظروف غامضة . فى هذه الأوقات العصيبة يظهر فجأة فتى شاب آخر كان قد اختفى خلف غبار الأحداث فى السنوات الأخيرة وهو أنتجونس بن ديمتريوس الذى عقد حلفاً سريعاً مع أنتيوخس ملك سوريا وبابل ، بعد خلاف بينهما ، وجمع جيشا فى آسيا الصغرى وقابل المتبربرين فى معركة فاصلة عند لوسيماخيا (فى الجزء الجنوبى من طراقيا) وانتصر عليهم انتصارا حاسماً كان له رد فعل كبير بين الإغريق إذ أظهره بمظهر البطل المنقذ . استغل أنتجونس هذه الفرصة واتجه إلى مقدونيا ــ حيث كان الأمر فوضى ــ فلم يجد مشقة فى إقامة نفسه ملكا سنة ٢٧٧ ق . م .

هكذا انقسمت إمبراطورية الإسكندر الأكبر آخر الأمر إلى ممالك رئيسية ثلاث تحكمها أسر ثلاث ألا وهى : الأسرة البطلمية فى مصر ،

والأسرة السلوقية فى آسيا والأسرة الانتجونية فى مقدنيا . وهكذا بعد أن قضى الرعيل الأول من أقران الاسكندر الأكبر ، تربع على العروش الثلاثة ملوك ثلاثة مازلوا فى مقتبل العمر ، فى ظروف متشابهة فى وقت واحد : بطليموس الثانى فيلادلفوس وانتيوخس الأول وانتجونس الثانى الملقب جوناتاس (Gonatas)

ولقد حرصنا فى هذه المرحلة الأولى من دراستنا على التعرض لكل هذه المواقف المعقدة نظراً لأنها متصلة تمام الاتصال بقيام الدولة البطلمية ذاتها فى أول أمرها ، كما أنها تبين الظروف العصيبة التى وجد فيها العصر الجديد الذى كانت الدولة البطلمية جزءاً منه تؤثر فيه وتتأثر به وهو العصر الهلينستى .

فيما بعدسنقتصر على عرض الخطوط الرئيسية لسياسة البطالمة الخارجية دون التعرض لأى تفصيلات فى الدول الأخرى .

السياسة الداخلية لبطلميوس الأول :

فى دراستنا للسياسة الخارجية لبطليموس الأول ، نعتمد أساساً على المصادر الأدبية ، أى الكتابات التاريخية التى خلفها لنا القدماء ، ويأتى على رأسهم بالنسبة لهذه الفترة ديودور الصقلى وأريانوس. أما إذا وجهنا نظرنا نحو الداخل، وأردنا أن نعرف ماذا فعل الملك الجديد فى داخل مملكته الجديدة ، كيف نظمها ؟ وكيف أدارها ؟ وجدنا أن المصادر الأدبية لا تشفى غلتنا فى هذا المجال..

ولهذا نلجأ إلى نوع آخر من المصادر هو «الوثائق» وهو الاصطلاح الذى أطلق على مجموع النقوش الكتابية وأوراق البردى والعملة التى اكتشفها الإنسان الجديث وتوفر على دراستها . وهذه تشتمل عادة على بيانات رسمية أصدرها الملك أو أحد كبار موظفيه ، أو قوانين قضائية أو إدارية ، أو لوائح

تنظيمية ، وعقود للبيع والشراء والإيجار والعمل ، أو خطابات رسمية أو شخصية أو غير ذلك مما يسجله الأفراد فى حياتهم العامة أو الخاصة .

وبدراستها وتفسيرها نستطيع عادة أن نستنتج منها معلومات قيمة عن النظم الإدارية والمالية والأحوال الاجتماعية وغيرها مما يوضح السياسة الداخلية للدولة. ولكن لسوء الحظ أن هذا النوع من الوثائق نادر جداً فى عصر بطلميوس الأول وأول عصر بطلميوس الثانى ، ويأخذ فى الوفرة والكثرة إبتداء من منتصف القرن الثالث، ولهذا فإن ماعثر عليه من عصر بطلميوس الأول لا يكاد يكون صورة صحيحة متكاملة عن سياسته الداخلية. ولهذا سنكتفى فى هذا الفصل بذكر الملامح الرئيسية للاتجاهات العامة التى انتهجها فى معالجة المشاكل الداخلية ، مرجئين الحديث عن التطبيق الكامل للنظم الداخلية فى عصر البطالمة إلى ما بعد الفراغ من عرض التاريخ السياسى للأسرة .

ونحن تهمنا سياسة بطلميوس الأول الداخلية بنوع خاص، لأنه كما فعل فى مجال السياسة الخارجية التى وضع أسسها وسار عليها خلفاؤه — كذلك فى مجال السياسة الداخلية ، وضع كثيراً من الأسس التى سار عليها خلفاؤه من بعده كما سيتضح فيما بعد .

سلطة الملك :

وأول مشكلة على الحاكم الجديد أن يحـــددها هى وضعه على رأس الدولة(١) . ويبدو أن بطلميوس الأول لم يشق كثيرا فى حل هذه المشكلة . فهو مقدونى ينتسب إلى دولة عرفت النظام الملكى المطلق، وقد عاصر فى الإسكندر ملكا لم يكتف بشخصية الملك بل اتخذ لنفسه صفة إلهية أيضاً . وإلى جانب

(١) Jouguet, Imperialisme Macedonien, 332 ff.

انظر إبراهيم نصحى تاريخ مصر فى عصر البطالمة حـ ٢ ص ٢١٧ وما بعده

ذلك فإن بطليموس قد أصبح على رأس دولة ألفت حكم الملوك الآلهة فى شخص فرعون منذ أقــدم العصور . فالملك المصرى القديم كان مصدر وحدة الدولة سياسياً ودينيا واجتماعيا . وما أحوج الملك الجديد لهذه السلطة ، وهذه الوحدة فى الدولة من أجل بنائها من جديد .

إذن فالوضع المألوف هو خير الحلول أيضاً ، وأصبح بطلميوس ملــكا وفرعونا لمصر ، رغم أنه من الناحية الاسمية البحتة كان يسمى « نائب الملك » فى الفترة الأولى من حكمه حين كان ساترىا . ولــكن منذ سنة ٣٠٥ بعد أن اتخذ لنفسه لقب ملك أصبح يسمى بالملك الإله ابن الاله .

على أى حال منذ اللحظة الأولى التى وطىء فيها بطلميوس مصر أخذ بمقاليد الحــكم فى يده ، ومارس السلطان الملــكى المطلق ، فــكان هو الرئيس الفعلى للدولة سياسياً ودينيا واجتماعيا .

أغرقة الحــكم فى مصر :

نقطة ثانية بالغة الأهمية كان على بطلميوس أن يقرر موقفه فيها منذ البداية ، وهى : هل سيحكم مصر بواسطة المصريين أو بواسطة المقدونيين والإغريق ؟

لقد وقف الإسكندر هذا الموقف من قبل فقرر الإبقاء على الإدارة والمديرين المصريين ، ووضع المناصب التى تمس مصلحة الإمبراطورية العليا مثل الجيش والخزانة فى أيدى الإغريق .

ولــكن الإسكندر كان يصدر فى أعماله عن فلسفة سياسية ومثل حضارية يسعى فى تحقيقها ، وقد سبق وصفها . أما بطلميوس فقد كان رجلا عمليا واقعياً لا يدع المثل الفلسفية تلعب بخياله طويلا ، وكانت مصر التى وجـدها فى سنة ٣٢٣ بلدا قد عانى من فترات متتالية من الاحتلال الأجنبى الأثيوبى والليبى

والفارسى مما أصابها بالتأخر والانقسام ، حتى أن الملوك المصريين المتأخرين أنفسهم لجأوا ، حينما حاولوا الثورة ضد الحكم الفارسى ، إلى الاعتماد على الجنود المرتزقة من الإغريق بينما كانت اليونان فى ذلك الوقت فى أعقاب نهضة حضارية ، وسياسية وعلمية أصبحت فيما بعد إحدى معجزات التاريخ . قرر بطلميوس الاعتماد على المقدونيين والإغريق فى جيشه وحكومته من أجل بناء مصر الجديدة . وهذه حقيقة يجب أن نقررها وهى أن بطلميوس الأول وسائر البطالمة من بعده لم يتبعوا سياسة تهدف إلى أغرقة مصر أو نشر الحضارة الهلينية بين المصريين ، وإنما كان همهم هو أغرقة الجيش والإدارة فقط .

من أجل هذا كان بطلميوس فى حاجة إلى أعداد كبيرة من المقدونيين والإغريق . ولم تكن مصر خالية منهم من قبل فإن الحاميات العسكرية التى تركها الإسكندر فى مصر كانت تتكون من هذه العناصر ، كما أنه حين فتح بطلميوس ساترابية مصر ، لابد أنه أحضر معه بعض فرق الجيش ، بالإضافة إلى هـذا كله فإن مدينة نقراطس كانت مركزا تجاريا يونانيا يقوم فى شمال غرب الدلتا منذ القرن السابع ق.م. ولكن الجيش البطلى كان فى حاجة ماسة إلى مزيد من آلاف الجنود ، كما أن الإغريق المستقرين فى نقراطس أو ممفيس لا يمكنهم أن يمدوا بطلميوس بحاجته إلى الرجال لإدارة جميع مرافق الدولة .

من أجل هذا اتخذ بطلميوس سياسة ثابتة لتشجيع وتنظيم هجرة الإغريق إلى مصر . فمنح الجنود فى جيشه قطعا من الأرض يمكنهم أن يقيموا عليها ويستثمروها فى وقت السلم . وكذلك طبق مثل هذا النظام بالنسبة لموظفى الدولة خاصة وأن نظام المرتبات النظامية لم يكن ممارسا فى ذلك الوقت .

نحن نعرف أن هذا النظام كان متبعاً فى عصر الملوك البطالمة فيما بعد ،

ولـكن هناك بعض الأدلة تثبت أنه يرجع إلى عصر بطلميوس الأول . من ذلك ما يرويه ديودور الصقلى أن بطلميوس الأول بعـد أن انتصر على ديمتريوس فى معركة غزة سنة ٣١٢ أرسل إلى مصر ما يزيد على ٨٠٠٠ جندى من الجيش المنهزم ، ووزعهم فى بقاعها المختلفـة . فإن العادة المتبعة فى ذلك الوقت هى أن جنود الجيش المنهزم كانت تنتقل عادة إلى خدمة القائد المنتصر[١] ولهذا كانت انتصارات بطلميوس الحربية تجلب له عدداً من الجنود المقدونيين والإغريق ، فى حين أن هزائمه لم تـكن تفقـده الـكثير لأن جنوده كانوا يرفضون الإنضواء تحت لواء خصمه وكانوا يفرون مسرعين إلى مصر حيث لهم أرض وممتلـكات وأهل[٢] ، على أى حال لم يجد بطلميوس عناء فى الحصول على أعداد كبيرة من الإغريق ، فإن اشتهار مصر بالغنى واشتهار بطلميوس بالـكرم جعل جماعات كبيرة منهم تأتى إلى مصر .

ولم يقتصر الأمر على هجرة الجنود المرتزقة وأفراد من الطبقة الفقيرة ممن ضاقت بهم سبل العيش فى بلادهم . بل حضر إليها كثير من الشخصيات الـكبيرة من أصحاب المواهب والفنون والآداب من أمثال ديمتريوس الفاليرى ، السياسى والفيلسوف الأثينى الذى قام بتأسيس متحف الإسكندرية الشهير ، وتيموثيوس الأثينى الذى ينتمى إلى أسرة دينية عريقة فى أثينا وكان حجة فى الديانة الإغريقية ، وكذا كالياخس الشاعر ، وإراتسثنيس الجغرافى .

المدن اليونانية :

حينما وجد الإغريق القدماء فى أعداد وفيرة كونوا لأنفسهم مدينة على نمط المدن اليونانية . وهـكذا فعلوا فى مستعمراتهم المختلفة فى أنحاء البحر الأبيض

(١) Diod. XIX. 85. 4

(٢) حدث هذا حين انتصر ديمتريوس على بطلميوس فى قبرص Diod. XX. 47

المتوسط ومنها نقراطيس ، فى مصر . وهكذا حاول الإسكندر أن يفعل حين خرج يبشر بالحضارة الهلينية فى الشرق ، وهكذا أيضاً فعل خلفاؤه فى سوريا وآسيا الصغرى . وذلك لأن الإغريق كانوا قد ألفوا هذا النوع من الحياة ، واعتبروا نظام المدينة اليونانية أسمى صور الاجتماع الإنسانى . ولكن ماذا فعل بطلميوس ؟ كان من المتوقع أن نراه يؤسس المدن المختلفة فى أنحاء مصر ليقيم فيها الإغريق الذين وفدوا إليه ، جريا على عادة الإغريق أنفسهم أو اتباعا لمثال الإسكندر . ولكن بطلميوس لم يفعل هذا . وإنما انتهج سياسة محافظة فى هذا الاتجاه . فأبقى على المدن اليونانية التى كانت موجودة من قبل وهى نقراطس والإسكندرية التى كان الإسكندر قد أسسها . ولم ينشىء هو من المدن الجديدة سوى مدينة واحدة فى أعلى الصعيد هى بطلمية ، ولعل الهدف الأصلى فى انشائها هو أن تكون مركزاً لحامية للدفاع عن الجنوب .

أما باقى الإغريق فى مصر الذين فاضوا على المدن الثلاثة فقد أسكنهم على الأرض الزراعية فى قرى وبلدان النومات المختلفة وخاصة فى نوموس الفيوم . هذه هى سياسة بطلميوس الأول فى إقامة الإغريق فى مصر ، وهى السياسة ذاتها التى التزمها خلفاؤه من بعده فلم ينشىء أحد منهم مدينة جديدة أخرى .

أما عن السبب وراء هذه السياسة فإن نظام المدن اليونانية يعنى استقلال المدينة ، فلمواطنيها الحرية فى تدبير شئونهم وانتخاب موظفيهم ، ومثل هذا الاستقلال لا يتفق مع نظام البطالمة لحكم مصر . وفى الوقت نفسه لم يكن من صالح سياسة الدولة الجديدة تجمهر جميع الإغريق فى نظام المدن لأن خطة التنمية الاقتصادية التى انتهجها البطالمة كانت فى حاجة إلى أن تنتشر أعداد كبيرة من الإغريق فى الريف المصرى فيقيموا على الأرض التى اقطعت لهم وبذلك يساهمون بجهدهم الشخصى فى زيادة الإنتاج بطريقة مباشرة . ومع ذلك فقد

وجد لهذه الفئة الأخيرة من الإغريق وغيرهم من بعض الجاليات الأخرى تنظيمات خاصة تعرف باسم البوليتيوما Politeuma ، سيأتى ذكرها فى الفصل الخاص بالسكان .

الإله الجديد :

كان المجتمع المصرى الجديد شديد التعقيد فى تكوينه فهناك الغالبية العظمى من المصريين ثم المقدونيون والإغريق والسوريون والفينيقيون والفرس واليهود وغيرهم ممن كانوا بمصر من قبل ، أو جاءوا سعياً وراء الكسب تحت لواء البطالمة . وكان لكل جماعة من هذه الجماعات آلهتها ، وفى بعض الأحيان اختلطت بعض الآلهة بعضها ببعض حينما وجد تشابه بين آلهة الشعوب المختلفة ، مثل تشبيه آمون المصرى بزيوس الإغريقى أو إيزيس المصرية بعشطروت الفينيقية ، أو هاتور بأفروديتى[١] ولكن للملك الجديد كان فى حاجة إلى نوع من الوحدة الدينية التى تشمل أهم العناصر فى دولته وهم المصريون والإغريق ، حتى تساند هذه الوحدة الدينية الوحدة السياسية للدولة[٢] . ولم يكن من تقاليد القدماء مقاومة الآلهة والأديان الأخرى إلا حينما تصبح خطرا سياسيا أو اجتماعياً . لهذا وجدنا آلهة متعددة تعبد فى البلد الواحد ، وأحياناً وجدنا آلهة متعددة تعبد فى معبد واحد أيضاً . ولهذا كان الأسلوب المتبع هو أن يحتضن الملك أحد الآلهة ويجعله إله الدولة الرسمى . ومن أجل أن ينجح بطلميوس فى محاولته يجب أن يتخير إلهاً يقبله كل من المصريين والإغريق معا ، وبطبيعة الحال لا يصلح أحد الآلهة الكبرى من أجل مناورة سياسية بحتة مثل هذه ، لأن شخصيتها كاملة محددة

---

(١) انظر Bell, Cults and Creeds p. 15

(٢) حول سياسة البطالمة الدينية أنظر د . ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، حـ ٢ ، ص ١٨٥ — ٢٠٧ .

يصعب التلاعب وتسويغها للأجانب . ولهذا فإن آمون رع، وبتاح لا يصلحان.

ولكن يجب اختيار إله قليل الانتشار ، حتى يمكن إرضاء كهنته بسهولة عن طريق شعورهم بالغرور لازدياد أهمية إلههم . ومتى صحت العزيمة وجدت الوسيلة ، وكانت فى شخصية إله محلى فى مدينة ممفيس هو « أوزير آبيس » ، وهو عجل آبيس الذى كان بعد موته يتحد بالإله أوزيريس ويصبح أوزير آبيس[1] .

هذا الإله كان مقره الأصلى ممفيس المدينة العاصمة لمصر آنذاك ، وكانت مثل المدن الكبرى عامة مختلطة السكان من مصريين وإغريق وفينيقيين وسوريين وغيرهم .

وقد لوحظ أن اتباع هذا الإله ، حتى قبل بطلميوس ، لم يقتصروا على المصريين ، بل كان منهم أجانب ويونانيون بالذات . وإذن فأوزير آبيس له من الصفات ما يرشحه ليقوم بدور إله الدولة الجديدة . ولكن كان لا بد من أحداث بعض التعديل فى شخصيته حتى يمكن أن يتقبله الإغريق عموماً الذين لم يألفوا عادات المصريين فى تمثيل آلهتهم فى صورة حيوانية ، كما ألفها إغريق ممفيس الذين كانوا بمصر منذ عصر بسماتيك وأمازيس . ولهذا من أجل أغرقة هذا الإله أدخل عليه تعديلان : الأول يمس اسمه فأصبح سرابيس بدلا من أوزير آبيس ليسهل على الإغريق نطقه ، والآخر هو تمثيله فى صورة إنسانية بدلا من صورة العجل . وبعد ذلك أنشىء له معبد كبير فى الاسكندرية

(١) خير دراسة عن عبادة سرابيس قام بها فلكن (U. Wilcken) فى تعليقه على Urkunden der Ptolemäerzeit, no .1 ; also of E. Wasser, Götter und Kulte im Ptolmäeischen Alexandrien, pp. 20-24

نظرية فلكن هى التى يأخذ بها معظم الدراسين الآن ويوجد تلخيص جيد لها فى Bevan, Egypt, pp. 41 ff , and Bell, Cults and Creeds, p. 19 ff.

فى الحى الشعبى الذى كان يقع فى موقع قرية راقوده القديمة . وأصبح معبد الإسكندرية هو المعبد الرئيسى والرسمى لهذه العبادة ومركزاً لإشعاعه إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط . وسرعان ما خلعت على الإله الجديد الصفات الإلهية المتعددة فهو أوزيريس المنقذ وإله الشفاء والخصب والوحى والحياة الثانية . وشبه بعدد من الآلهـــة اليونانية التى تتفق مع صفاته مثل اسكلبيوس وديونيسيوس وهليوس وزيوس .

على أن سرابيس لم يبق بمفرده ولـكن ما دام هو متحداً أصلا بالإله أوزيرس فقد أكمل الثالوث الأخير وألحقت به الزوجة إيزيس والإبن حورس ، حتى أن القسم الرسمى للدولة البطلمية كان يذكر سرابيس وإيزيس باسميهما دون سائر الآلهة الأخرى ، وذلك فى الصيغة : « أقسم بسرابيس وإيزيس وبسائر الآلهة والآلهات الأخر » . ولم يكن فى ذلك صعوبة ، لأن الثالوث مصرى أصلا ، وفى الوقت نفسه كان الإغريق معتادين على أسر الآلهة مثل الأسرة الأولمبية ، ومن ناحية أخرى كانت إيزيس منتشرة ومحبوبة لدى كثيرة من الشعوب ، وكانت قد وصلت إلى اليونان حتى قبل أن يحضر الإسكندر إلى مصر .

ولقد نشأت عبادة جديدة أخرى ذات طابع رسمى فى عصر بطلميوس الأول ، وهى عبادة الملوك(١) . وقد ابتدأت بتقديس الإسكندر رسمياً وعين له كاهن خاص تؤرخ باسمه الوثائق الرسمية . وهذه العبادة تختلف عن التقليد المصرى الذى كان يؤله الملك أثناء حياته ، فالإسكندر حين أصبح ملـكا لمصر صار فى نظر المصريين ملـكا مؤلها وإبناً للاله آمون رع .

وكذلك بطلميوس وسلالته . أما عن تقديس الملك بعد موته وعبادته ،

(١) Bell, Cults and Creeds; pp. 22—4

فقد نشأت عن عادة يونانية قديمة وهى إضفاء نوع من القداسة على أرواح الرجال العظام بعد موتهم ، وكان يقوم الأفراد بهذا التقليد الإغريقى بصفتهم الشخصية البحتة . أما البطالمة فقد أدخلوا عليها بعض التغيير إذ أضفوا عليها الثوب الرسمى وبذلك أصبحت عبادة الاسكندر عبادة رسمية فى الدولة . ولـكن الأمر لم يقف عند الاسكندر بل شملت هذه العبادة الرسمية الملك بطلميوس فيما بعد ، فبحكم كونه منـكا لمصر كان أيضاً حسب العرف المصرى إلهاً وإبناً للاله ، أما فى نظر الإغريق فقد كان بشرا عادياً ولـكن أخذت بعض المجتمعات اليونانية مثل أهل رودس وبعض أفراد القصر الملـكى يخلعون عليه بعض مظاهر التقديس حين أسموه الإله المنقذ Soter ومع ذلك فإن هـــذا التقديس لم يأخذ أبدا صفة رسمية فى مصر طيلة حياته ولـكن بعد وفاته أعلن الملك بطلميوس الثانى تأليه والديه تحت لقب الإلهين المنقذين وأصبحا يعبدان مع الاسكندر ، هكذا نشأت عبادة ملوك الأسرة البطلمية بصورة رسمية .

بطلميوس الثانى فيلادلفوس[1] (٢٨٥-٢٤٦ ق.م)

السياسة الخارجية :

عند وفاة بطلميوس الأول سنة ٢٨٤ ق . م . تفرد ابنه بطلميوس الثانى بالحكم بعد أن اشترك مع والده فى الحكم منذ ٢٨٥ ق . م . وكان الملك الجديد لا يزال فى أروع سن الشباب لم يكمل العقد الثالث من عمره بعد . ولكنه كان يختلف عن والده كل الاختلاف ، فبقدر ما كان بطلميوس الأول جندياً من الطراز الأول ، كان بطلميوس الثانى بعيدا كل البعد عن حياة الجندية وأخلاقها ، يعشق حياة النعيم والبذخ .

فبالرغم من الحروب الكثيرة التى خاضتها الدولة فى عصره لم يعرف عنه أنه قاد جيشه بنفسه فى أى من هذه الحروب ، وكان يكتفى دائماً بأن يقودها عنه قواده .

ومن أهم الشخصيات التى لعبت دورا رئيسياً فى سياسته هى الملكة أرسنوى الثانية ، أخته الشقيقة وزوجته الثانية ، بينما كان هو ثالث زوج لها وأصغر منها سناً ، فقد سبق أن تزوجت من لوسيماخس وبعد موته تزوجت من أخيها غير الشقيق بطلميوس الصاعقة الذى أصبح ملكا لمقدونيا . ولكنه قتل إبنها الأكبر من لوسيماخس فهربت منه واستقرت فى الإسكندرية . وهناك كان أخوها الشقيق بطلميوس الثانى متربعاً على العرش ، هو والملكة أرسنوى

(١) أنظر الفصول المكتوبة عن بطلميوس الثانى فيلادلفوس فى : د. ابراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة ح ١ ؛
Bouché-Leclerq : Hist des Lagides, I ; Bevan, Egypt under the ptol. Dyn.; Elgood. The Ptolemies of Egypt.

الأولى وكان لهما من الأطفال ولدان وبنت . فما كان من أرسنوى الأخت اللاجئة إلا أن دبرت مكيدة أوقعت بها بين بطلميوس الثانى وزوجته ، فنفاها إلى قفط فى صعيد مصر ، بينما تزوج من أخته الشقيقة أرسنوى التى تبنت أولاد أرسنوى الأولى من بطلميوس . هذه الملكة الجديدة التى أصبحت فيما بعد أرسنوى الثانية ، كانت ذات طموح لا يحد ، ولا يتقيد بعرف أو قانون أو أخلاق . وسنجد لها تأثيرا كبيرا على سياسة بطلميوس الثانى أثناء حياتها وبعد مماتها حتى أنها أصبحت أشهر وأقوى امرأة فى عصرها . وكانت أرسنوى أول ملكة بطلمية تؤله رسمياً هى وبطلميوس الثانى أثناء حياتهما تحت لقب فيلادلفوس (أى المحبة لأخيها أو المحب لأخته)[1] كما أطلق اسمها على إحدى مقاطعات مصر الكبرى وهى منطقة الفيوم .

ولنبدأ بنشاط بطلميوس الثانى فى مجال السياسة الخارجية ، فنجد أنه سار على نهج والده فى توطيد نفوذ مصر السياسى أو العسكرى فى مناطق ثلاثة أساسية هى : سوريا الجنوبية على الحدود الشرقية وبرقة على الحدود الغربية وحوض بحر إيجة فى الشمال .

فيما يتعلق بسوريا ، كما بينا فى عصر بطلميوس الأول ، فإن الاتفاق لم يتم على تبعية منطقة سوريا الجنوبية (أو سوريا الخالية Coele Syria كما تسميها المصادر) لأى من الدولتين البطلمية أو السليوقية ، ولهذا ظلت موضع نزاع مستمر بين الأسرتين ، وتكررت الحروب بشأنها . وقد شهد عصر بطلميوس الثانى حربين سوريتين .

معلوماتنا عن الحرب السورية الأولى قليلة جداً ومشوهة ولا تعطينا صورة

---

(١) كان المعتقد من قبل أن أرسنوى ألهت بعد وفاتها سنة ٢٧٠ ق. م. — ولكن بردية حديثة (P. Hibeh, II. 199) ترجع إلى عام ٢٧٣/٢٧٢ تثبت أنها ألهت مع بطلميوس الثانى أثناء حياتها .

متكاملة عنها . فمن المرجح أنها ابتدأت فى ربيع سنة ٢٧٦ ق . م . ولو أننا لا نعرف كيف ابتدأت . ولكننا نرى القوات المصرية تتقدم شمالا فى أول الحرب حتى تحتل مدينة دمشق . ولكن يبدو أن الملك السورى انتيوخس الأول Antiochos I تمكن من استخلاص دمشق ورد القوات المصرية ثانية إلى سوريا الجنوبية فى فلسطين . وبذلك بقيت فينيقيا فى قبضة الملك المصرى .

يبدو أن فيلادلفوس لم يقتصر على استخدام جيوشه البرية بل استخدم أيضاً قوته البحرية فى مهاجمة سواحل آسيا الصغرى الجنوبية التى كانت تابعة للملك السليوقى حتى أنه عندما تم الصلح بين انتيوخس وفيلادلفوس كانت أجزاء من سواحل كيليكيا Cilicia وبامفيليا Pamphylia وليكيا Lycia وكاريا Caria تتبع السيادة المصرية .

وفى بحر إيجة كان لمصر منذ عصر بطلميوس الأول قوة بحرية لا يستهان بها وكانت جزر الكيكلاديس Cyclades تدين بالولاء لملك مصر . ولكن فيلادلفوس سعى إلى زيادة النفوذ المصرى فى هذه المنطقة ، فمد نفوذه إلى جزيرة ساموس Somos ومدينة مليطة Miletus ثم مدينة هاليكارناسوس Halicarnassus على ساحل آسيا الصغرى الغربى . هذه المدن والجزر كانت بمثابة نقط ارتكاز تمكن بطلميوس من التدخل فى شئون العالم اليونانى بما يحقق مصالحه .

فمن ذلك مثلا أنه أثناء اشتباك فيلادلفوس فى الحرب السورية الأولى نجد أن الملك المصرى يساند الملك بيروس Pyrrhus ضد انتجونس ملك مقدونيا فى الصراع بينهما . وذلك ليمنع تحالف انتجونس مع انتيوخس ضده فى الحرب السورية . يجب أن نذكر أن الملكة أرسنوى الثانية كانت لها اليد الطولى فى توجيه مثل هذه السياسة ، خاصة وأنها كانت تكن لأنتجونس كل عداء ،

نظراً لأنها كانت من قبل ملكة مقدونيا ذاتها حينما كانت زوجة للوسياخس أولا وبطلميوس الصاعقة ثانياً، وكان الجميع يعرفون أنها الموجهة الحقيقية لسياسة فيلادلفوس الخارجية ، فكانت المدن والأفراد يتقربون إليها ويخطبون صداقتها وحتى بعد أن توفيت فى سنة ٢٧٠ وهى فى أوج سلطانها ، كانت المدن اليونانية تعتبر سياسة فيلادلفوس فى بلاد اليونان فيما بعد ، تنفيذاً واتباعاً لسياسة أرسنوى .

وأشهر مثال على ذلك ما حدث فى الحرب الخريمونيدية ، وذلك أنه فى سنة ٧ ـ ٢٦٦ ق.م. جمعت المدن اليونانية شملها تحت قيادة أثينا واسبرطة معاً وقرروا إعلان الحرب ضد أنتجونس ملك مقدونيا والتخلص من الحكام الذين أقامهم فى المدن . وقد حفظ لنا نقش يونانى قديم قرار الشعب الأثينى فى هذا الشأن وهو يصور الموقف أحسن تصوير . إذ ينص القرار ـ بعد أن ينوه بخدمات أثينا واسبرطة وجهودهما من أجل حرية اليونان ـ أن الوقت قد حان لإنقاذ العالم اليونانى بأسره من أيدى أولئك الذين يهدرون قوانين البلاد ونظمها الشرعية الموروثة . ويضيف القرار أن الملك بطلميوس جريا على سنة والديه واتباعا لنوايا أخته قد أعلن مناصرته لحرية الإغريق جميعاً[١] .

من هذا النص يتضح أن الإغريق كانوا معتقدين أن هذه السياسة كانت من وضع أرسنوى أصلا وليس فيلادلفوس . ونظرا لأن هذا القرار الأثينى اتخذ بناء على اقتراح سياسى أثينى يسمى خريمونيدس Chremonides الذى كان أيضاً القوة المحركة فى الحلف بين المدن اليونانية ، فقد سميت هذه الحروب بحرب خريمونيدس . وعلى هذا النحو قامت فى عام ٢٦٦ حرب شاملة

(١) Michel, Recuil d'Inscriptions Grecque, 130—7—19 (C. 267 Av. J. C.) — Dittenberger, O. G. I. 5. 163.

بين أنتجونس ملك مقدونيا وحلف المدن اليونانية تحت قيادة أثينا وأسبرطة . ويبدو أن حلف المدن اليونانية كان يؤمل أن يخوض بطلميوس الحرب إلى جانبهم وأن يتحمل نصيبه كاملا ، ولـكن بطلميوس فيلادلفوس خيب ظن الجميع فى أنه اكتفى بتقديم المساعدات المالية والتموينيه والقيام بمظاهرات بحرية بواسطة أسطوله فى بحر إيجه ، فى حين أن المدن اليونانية كانت فى حاجة إلى جيش يحارب معهم . ولهذا رجحت كفة انتجونس منذ البداية واستطاع أن يحاصر أثينا وأن يعزلها عن الاتصال بحلفائها فى شبه جزيرة البلوبونيز . ولما حاول ملك اسبرطة أن يخترق مضيق كورنثا إلى أثينا قابله انتجونس عند كورنثا حيث دارت معركة حاسمة هزم فيها الملك الأسبرطى وسقط قتيلا سنة ٢٦٤. بعد ذلك صمدت أثينا بمفردها مدة عامين ثم سلمت سنة ٢٦٢. وهكذا توطد سلطان انتجونس فى مقدونيا واليونان معاً .

فى هذه الأثناء نجد فيلادلفوس يلعب دوراً دبلوسياً آخر فى شرق بحر إيجه ، كانت نتائجه أكثر نجاحا من دوره فى اليونان . وذلك أنه سار على تقليد والده فى محالفة مدينة برغامة Pergamum فى شمال غرب آسيا الصغرى . فناصرها فى صراعها ضد انتيوخس ، وبذلك شغل الأخير عن مهاجمته فى سوريا الجنوبية أثناء الحرب الخريمونيدية ، وكان لهذه الصداقة مع برغامة دافع إقتصادى وهو أنها كانت من أهم مصادر الخشب لمصر لبناء أسطولها ، وخاصة فى فترة العداء فى ذلك الوقت بين مصر ومقدونيا الغنية بالأخشاب أيضاً . فى هذه الحرب انتصر ملك برغامة على انتيوخس فى معركة سارديس Sardis سنة ٢٦٢ ق.م. وفى هذا العام أيضاً استطاعت مصر أن تستولى على إفيسوس Epheaus ومليطة Miletus على الساحل الغربى لآسيا الصغرى .

الحرب السورية الثانية : بعد هزيمة سارديس سنة ٢٦٢ توفى انتيوخس

الأول الملك السليوقى وخلفه ابنه انتيوخس الثانى على عرش سوريا . وكان عازما على الانتقام من فيلادلفوس ودوره فى مساندة برغامة فى حربها الأخيرة ضد والده . ولذلك شن حربا اصطلح على تسميتها بالحرب السورية الثانية رغم أن ميدانها كان غرب آسيا الصغرى . وذلك باعتبارها حلقة فى الحروب بين الدولة السليوقية والدولة البطلمية . فى هذه الحرب تألبت جميع الظروف ضد مصر ، تحالف مع انتيوخس الثانى كل من مقدونيا ورودس ، كما ثار كل من والى إفيسوس ومليطة التابعين للملك المصرى . ولهذا لم يكن من المستغرب أن تلاحقت على مصر الهزائم أولا فى معركة بحرية عند جزيرة كوس سنة ٢٥٨ (أو سنة ٢٥٦) على يد انتجونس ، ثم عند إفيسوس سنة ٢٥٩ (أو سنة ٢٥٥) على يد قائد رودس[١] بينما تتبع انتيوخس الجيوش المصرية فى ليكيا وبامفيليا وساموطراقيا وطردها من هناك ، حتى إذا كان عام ٢٥٣ فقدت مصر إمبراطوريتها فى بحر إيجة بما فى ذلك جزر الكيكلاديس . ولم يبق لها سوى أملاكها فى كاريا وجزيرة ثيرا . على أى حال لم يشأ أنتيوخس أن يستمر فى الحرب أكثر من ذلك ، وتم صلح سريع بين الطرفين . ويبدو أن الصلح لم يكن هبة من انتيوخس ولكنه تقاضى عنه الثمن إذ إتفق الملكان أثناء مفاوضات الصلح على أن يتزوج انتيوخس إبنة فيلادلفوس المسماة برنيقة Berenice . وحسب تقاليد العصر كانت المرأة أو والدها هو الذى يقدم المهر . ويبدو أن مهر برنيقة كان من الضخامة بحيث لقبت (حاملة المهر Phernephoros) . ونحن لا نعرف ماذا حملت برنيقة معها إلى زوجها ، وهل

---

(١) من المحتمل أن صلحا منفردا عقد مع كل من مقدونيا ورودس سنة ٢٥٥ أنظر : ابراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة ج ١ ص ١١٣ .

هناك أختلاف حول تواريخ هذه الحرب . أنظر : W. Otto, Beiträge zur Seleukidgeschichte, ch. II; and Cambridge Ancient History, VII. 714—5.

تضمن بعض ممتلكات مصر فى سوريا أو بعض دخلها، فليس لدينا من دليل .

برقـــة :

المنطقة الثالثة الهامة فى سياسة البطالة الخارجية هى برقة على الحدود الغربية وقد لعبت هذه المنطقة أيضاً دورا هاما فى عالم السياسة والدبلوماسية لهذا العصر . كان نائب الملك فى برقة منذ عهد بطلميوس الأول هو ماجاس Magas الأخ غير الشقيق لفيلادلفوس . ولكن ما أن وصل فيلادلفوس إلى العرش حتى أعلن ماجاس الاستقلال ثم شرع فى غزو مصر سنة ٢٧٤ ، ولكن حملته باءت بالفشل بسبب ثورة بعض قبائل البدو ضده . على أى حال استطاع ماجاس أن يبقى منفصلا عن مصر، بينما وطد علاقاته مع أنتيوخس وتزوج ابنته المسماة باسم جدتها الفارسية أباما (Apama) ثم خطا خطوة أخرى نحو الاستقلال بأن أعلن ماجاس نفسه ملكا . ولكن العلاقات بينه وبين أخيه ملك مصر تحسنت بعض الشىء واتفق الملكان على أن تزوج ابنة ماجاس المسماة برنيقة من ابن الملك فيلادلفوس . وكانت هذه خير الحلول لعودة الوحدة بين مصر وبرقة . ولكن بعد وفاة ماجاس حوالى سنة ٢٥٩ أو سنة ٢٥٨ ق . م. لم تنفذ زوجته أباما هذا الاتفاق وبعثت تخطب لإبنتها دمتريوس الأخ غير الشقيق لأنتجونس ملك مقدونيا ، وكان معروفا بشدة جماله . ويبدو أن الملكة لم تتمكن من مقاومة إغرائه فوقعت فى حبه . بطبيعة الحال لم ترض ابنتها بالأمر وكانت من ذلك النوع من الأميرات المقدونيات صاحبات الطموح والتصميم فدبرت له مكيدة وقتلته وهو فى فراش والدتها سنة ٢٥٥ وقبضت على زمام الحكم فى برقة ونفذت خطة والدها الأصلية فى الزواج من ولى عهد مصر الذى سيصبح بطلميوس الثالث يوارجتيس Euergetes . وهكذا عادت الوحــــدة بين مصر وبرقة .

هذه هى معالم السياسة الخارجية لبطلميوس الثانى وزوجته أرسنوى التى كان لها تأثير كبير عليه فى الشطر الأول من حكمه ، ولكن هناك اتجاهين آخرين جديرين بالذكر ؛ الأول أن فيلادلفوس إتخذ الخطوة الأولى نحو الإتصال بدولة ناشئة جديدة فى غرب البحر الأبيض المتوسط وهى دولة روما ، فيبدو أنه حدث اتصال بين مصر وروما عن طريق السفارات فى عامى ٢٧٣ / ٢٧٢ ق . م . أثناء حرب روما مع بيروس[١] . وبعد ذلك فى عام ٢٦٤ أثناء حروب روما ضد قرطاجة ، بعثت قرطاجة تطلب مساعدة مالية من الملك المصرى . ولكن فيلادلفوس لم يشأ أن يتورط فى هذه الحرب الكبرى ، والتزم الحياد . فرفض مساعدة قرطاجة ، ولكنه عرض وساطته فى الحرب إذا لزم الأمر. الظاهرة الأخرى هى إهتمام بطلميوس الثانى بالمنطقة الأثيوبية فى جنوب مصر ، وهو ما لم يحدث فى عصر والده . فقد ذكر أنه بعث حملة إلى أثيوبيا . ولعل لهذه الحملة عدة دوافع أهمها حماية الحدود الجنوبية لمصر ، وثانياً تنشيط التجارة مع داخل أفريقيا ، وأخيراً تحقيقاً لهوايات فيلادلفوس فى صيد واقتناء الحيوانات والنباتات الغريبة .

السياسة الداخلية :

قد يتبادر لذهن القارىء من العرض السابق لسياسة فيلادلفوس الخارجية والتى غلبت عليها الحروب حتى شملت عهده بأسره ، أن مصر فى هذا العصر كانت فى حالة حرب مستمرة وأن الروح العسكرية والحكم العسكرى هو طابع العصر . ولكن على العكس ، لم يشهد الحكم البطلمى بأسره الذى امتد ثلاثة قرون كاملة ، حكماً أكثر بذخاً وأكثر دعة وأكثر اقبالا على التنعم

---

(١) أنظر د. عبد اللطيف أحمد على : مصر والأمبراطورية ص ١ — ٢ وكذلك الحواشى . لاحظ أن هناك بعض الشك بشأن سفارة مصر إلى روما سنة ٢٧٣ ق م.

بأسباب الحضارة السلمية من حكم بطلميوس الثانى . فكما ذكرنا من قبل لم يخرج هذا الملك على رأس جيشه فى أى من الحروب التى خاضها ، وإنما كان يرسل جيوشه تحت قيادة أعوانه من القادة والضباط . وأقام هو فى الإسكندرية وكأنه فى معزل عن جيوشه المحاربة . ولسوء الحظ لا يتسع المجال هنا للافاضة فى وصف القصر الملكى والبذخ الذى كان يموج به وتموج به معه الإسكندرية . ويكفى أن نقرأ أشعار المعاصرين من أمثال ثيوكريتوس وهيروندااس وكاليماخس وغيرهم فى وصف الأعياد والاحتفالات الدينية والدنيوية فى الاسكندرية لنعرف مدى انغماس الملك ومن حوله فى الترف واللهو وأسباب النعيم [1] . ولقد اشتهر هذا الملك بالمجون إلى أبعد الحدود فلم يكتف بأن بدأ تقليداً غريباً على الأخلاق اليونانية وهو قبوله الزواج من أخته الشقيقة وإقصاء زوجته الأولى وأم أولاده ، بل عرف بأن له عــدداً من المحظيات مما يرشحه لأن يبارى أشهر رجال المجون فى التاريخ .

إلى جانب هذه الحياة الخاصة الماجنة ، حرص فيلادلفوس على أن يحوط نفسه بكل مظاهر الأبهة والمجد فعمل على تجميل عاصمته الإسكندرية ، حتى أن كثيرا من المبانى الكبرى التى عرفت بها المدينة فيما بعد ترجع إلى عصره ، واهتم اهتماما خاصا بجلب كبار الشعراء والعلماء إلى دولته وجعلهم جميعاً أعضاء فى الموسيون (Mouseion) والمكتبة التى أنشأها والده ، خاصة وأنه كان هو نفسه متمتعاً بثقافة عالية ، إذ كان والده قد عين له خيرة الأساتذة فى عصره ليشرفوا على تعليمه وتثقيفه . وفى عصره نمت مكتبة الإسكندرية نموا كبيراً حتى أصبحت أكبر مكتبه فى العالم القديم بأسره . وتذكر لنا المصادر القديمة أن هذا الملك كان ولوعا بالجغرافيا والتاريخ الطبيعى . وحرص على تصيد أو إقتناء الحيوانات الغريبة من أفريقا وآسيا .

---

(١) أنظر أيضا P. G. Elgood, the Ptolemis of Egypt, pp. 44 ff.

ولكن هذه الجوانب من شخصية فيلادلفوس لاتعطينا سوى فكرة ضئيلة عن عهد هذا الملك الذى شبهه بعض الكتاب بعهد لويس الرابع عشر فى فرنسا[١] لأنه إذا كان بطلميوس الأول قد وضع أساس الدولة البطلمية فإن بطلميوس الثانى هو الذى أقام البناء، فإن معظم نظم الحكم الداخلى استكملت تكوينها فى عصره . فنظام الإدارة والاقتصاد والسياسة المدنية للدولة البطلمية يبدو لنا كاملا ومعمولا به لأول مرة فى عهده . هذه النظم المختلفة سوف نعرض لها فى نهاية الكلام عن الدولة البطلمية ، ولكن يكفى هنا أن نذكر أن نظام الموظفين ونظام الأراضى استكمل صورته فى عصره . وفى مجال التجارة نجده خالف سياسة والده فى التجارة الحرة وطبق نظام الاحتكار الشديد . أما فى جانب السياسة الدينية ، فيمكن أن يقال أن بطلميوس الثانى هو المؤسس الفعلى لعبادة الأسرة المالكة : فبمجرد وفاة والده أعلنت قداسته هو وزوجته برنيقة على أنه الإله المنقذ سوتير Soter وألحق عبادته بعبادة الإسكندر الأكبر . ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، بل جعل العبادة الملكية تشمله هو وزوجته أرسنوى فى حياتهما ، تحت لقب مقدس جديد هو فيلادلفوس Philadelphus أى المحب لأخته أو المحبة لأخيها ، ولو أن الملكة أرسنوى أخته هى التى كانت مقصودة بذلك التشريف فى أول الأمر[٢] ومنذ ذلك التاريخ أصبح جميع الملوك البطالمة وزوجاتهم يعبدون تحت ألقاب تقديسية مختلفة ، ويشملهم جميعاً لقب « آلهة شركاء فى المعابد » Sunnaoi theai (أى معابد الآلهة الأخرى إذ لم تفرد لهم معابد خاصة) . وأصبح كاهن الاسكندر هو كاهن الملوك البطالمة المؤلهين أيضاً[٣] .

---

(١) Bevan, Egypt. p. 58 "this ancient Roi Soleil"

(٢) أنظر P. Hibeh, II. 199 (273—2 B. C.)

(٣) Bell, Cults and Creeds, p. 23

هذا الملك المتعدد الجنبات ، الذى يصلح موضوعاً لدراسة الذين يهتمون بإدخال التفسيرات النفسانية الحديثة فى البحث التاريخى ، أشرك معه فى الحكم ابنه بطلميوس بن أرسنوى سنة ٢٤٧ ، ولكنه لم يلبث أن توفى سنة ٢٤٦ بعد أن بقى على العرش نحوا من أربعين عاما ، فخلفه ابنه وشريكه بطلميوس الذى أصبح يلقب باسم الملك بطلميوس الثالث يوارجتيس .

هـ - بطلميوس الثالث يوارجتيس (٢٤٦ - ٢٢١ ق.م)

الحرب السورية الثالثة :

فى خلال العام الأخير من حياة فيلادلفوس ، كان الموقف فى سوريا قد تطور تطوراً سريعاً وخطيرا ، أدى إلى فشل خطته فى زواج ابنته برنيقة من الملك السليوقى انتيوخس الثانى .

ذلك أن زوجة الملك السورى المسماة « لاوديقة » Laodice التى كان قد هجرها بسبب زواجه من ابنة فيلادلفوس ، قد كسبت أنتيوخس لها مرة ثانية ، ولكن مالبث أن مات مقتولا فى ظروف غامضة فى إفسوس Ephesus حيث كانت تقيم هذه الزوجة الأولى ، مما بعث على الريبة فى أنها هى المدبرة لهذه الجريمة . وموت انتيوخس الثانى على أى حال ، ترك الملكتين وجها لوجه ، كل تسعى لتثبيت ابنها على العرش خلفا للوالد المشترك وفى هذا الصراع سرعان مارجحت كفة لاوديقة التى تمكنت من قتل برنيقة وإبنها .

هذا هو الموقف الذى واجهه ثالث ملوك البطالمة بمجرد توليه العرش . وكان عليه حيال أخته برنيقة التزام أدبى مزدوج ، فعليه أن يحميها هى وإبنها مادا ما على قيد الحياة ويحاول أن يمكن الإبن من تولى العرش السورى ، وفى حال وفاتهما بفعل لاوديقة كان عليه أن ينتقم لهما . وكان بطلميوس الثالث جديراً بهذا الموقف الذى تتفق فيه العاطفة والمصلحة . وكان لدى الملك الجديد من الهمة والروح العسكرية ما يذكرنا بجده لا بوالده ، فخرج بنفسه على رأس الجيش المصرى فى سنة ٢٤٦ واحتل سوريا الشمالية وكيليكيا ثم عبر الفرات ووصل إلى مدينة سليوقية على نهر الدجلة ، دون أن يلقى مقاومة تذكر .

ولكن مالبث أن اضطر إلى العودة إلى مصر فجأة لمواجهة أزمة داخلية فى مصر بسبب حدوث مجاعة نتجت عن تخلف مياه النيل[1] ، ويظن البعض أنه ربما قامت ثورة فى الدلتا لهذا السبب. انتهز سليوقس ، الإبن الأكبر الذى تولى العرش فى سوريا ، فرصة انشغال الملك المصرى بالأزمة الداخلية فى بلاده ، وجمع جيشا وتمكن سنة ٢٤١ من أن يستخلص من أيدى المصريين معظم ممتلكاته فى سوريا الشمالية وكيليكيا والشرق ، ولكن بقى فى أيدى المصريين سوريا الجنوبية بما فيها فينيقيا وفلسطين .

وفى آسيا الصغرى بقى السلطان المصرى فى معظم الساحل الجنوبى ، وذلك لأن سليوقس لم يتمكن من الاستمرار فى الحرب بسبب الصراع الذى نشأ بينه وبين أخيه الأصغر المسمى انتيوخس هيراكس ، والذى أدى إلى قيام حرب أهلية تعرف باسم « حرب الأخوين » .

ولم يخرج بطلميوس الثالث للحرب مرة ثانية طوال حياته بعد ذلك ، مستغلا مجده الحربى الأول أحسن استغلال لتوطيد نفوذه فى الداخل والخارج . وفى الوقت نفسه اكتفى باستخدام أساليب دبلوماسية قوية داخل بلاد منافسيه فى الدولة السليوقية فى سوريا والدولة الأنتجونية فى مقدونيا واليونان . ففى سوريا استغل الحرب الأهلية فى تحريض أحد الطرفين على الآخر عن طريق إمداده بالمال . هكذا بقيت الدولة السليوقية منشقه على نفسها فترة من الزمن فلم تتمكن من مهاجمة ممتلكات مصر فى سوريا الجنوبية. وفى الوقت نفسه تمكن بطلميوس الثالث من مد نفوذه على حساب ممتلكاتها فى آسيا الصغرى ، حتى وصل نفوذه إلى إقليم طراقيا . وفى بلاد اليونان كان يساند المدن اليونانية فى

---

(١) ورد ذكر لانخفاض النيل والمجاعة فى قرار كانوب O. G. I. S. 56. 18 ff. **Jouguet, Nation Egyptienne, p. 57 ; Bevan, Egypt. p 197**

ثوراتها وحروبها ضد السيطرة المقدونية كما فعل فى ثورة البلوبونيز تحت زعامة أراتوس Aratus ، زعيم حلف الآخيين أولا ، ثم تحت زعامة كليومنيس Cleomenes ملك أسبرطة الاشتراكى فيما بعـــد . ولـكن استطاع أخيرا (٢٣٩ ــ ٢٢٢) انتجونس دوسون ملك مقدونيا الجديد من هزيمة كليومنيس فى معركة (سيلاسيا سنة ٢٢٢ ، وفر الملك الأسبرطى إلى مصر حيث مات[1] .

هذا هو مجمل نشاط بطلميوس الثالث فى مجال السياسة الخارجية . ويمكن أن يقال أنه بقدر قليل من الحروب صان الإمبراطورية المصرية على نحو أفضل مما فعل والده الذى شغلت الحروب معظم فترة حكمه الطويلة . ففى عهد بطلميوس الثالث بقيت لمصر ممتلـكاتها فى برقة وسوريا الجنوبية وآسيا الصغرى .

السياسة الداخلية :

أخذ بطلميوس الثالث عن والده الثقافة والاستنارة وحب العلم ، ولـكن اختلف عنه فى غلبة الاتزان والاعتدال على سلوكه وتمتعه بمثل اخلاقية رفيعة ، فمن ذلك أنه اقتصر على زوجة واحـــدة طوال حياته ، هى الملـكة برنيقة (Berenice) ، ولم يعرف أنه اتخذ لنفسه محظيات كما فعل والده من قبل. وقد تجلى حبه للعلم والثقافة فى أن الإسكندرية حافظت على مكانتها كأكبر مركز للعـــلم والثقافة وظل قصره مقصد الأدباء والعلماء من جميع أقطار العالم اليونانى .

ومن أشهر أعمـــاله التى تدل على الإستنارة ، محاولته إصلاح التقويم المصرى . فالمعروف أن السنة المصرية التى استخدمها المصريون القدماء وظل

---

(١) هذه هى أول مرة فى التاريخ يتمكن جيش أجنبى من دخول اسبرطه . اما عن حياة كليومينيس ملك اسبرطة فى مصر أنظر Polybius, V. 38.

معمولا بها فى العصر البطلمى هى السنة الشمسية ، التى تتكون من ٣٦٥ يوما. وكانت السنة تنقسم إلى اثنى عشر شهرا فى كل شهر ثلاثون يوما. أى أن مجموع الأشهر يعطينا ٣٦٠ يوما ، وكان يضاف إليها خمسة أيام نسىء فى نهاية كل عام . عن هذا النحو كانت السنة المصرية تنقص عن السنة الحقيقية ربع يوم أى يوما كاملا كل أربع سنوات . ولاشك أن الكهنة المصريين عرفوا هذا الفرق لأنه يؤدى على مدى مئات السنين إلى أن تدور الأشهر من فصل إلى آخر من فصول السنة ، فلا تقع دائما فى الوقت نفسه . لذلك نبتت فى عصر بطلميوس الثالث فكرة إضافة يوم سادس إلى أيام النسىء الخمسة مرة كل أربع سنوات ورغم أن بيانا أقره الملك صدر عن الكهنة المصريين بشأن إصلاح التقويم (١) إلا أن الإصلاح أهمل بعد بطلميوس الثالث ولم يعمل به . وبقى التقويم كما كان حتى اتخذ يوليوس قيصر التقويم المصرى والإصلاح المقترح وطبقه فى روما ثم أخذه الإمبراطور أغسطس وطبقه فى مصر عندما فتحها سنة ٣٠ق.م.

وهناك إصلاح آخر حاوله بطلميوس الثالث يتعلق بالتقويم وهو تحديد تاريخ معين يبدأ منه التاريخ البطلمى ، واقترح لذلك عام ٣١١ ق.م. وهى سنة وفاة الإسكندر الرابع ابن الإسكندر الأكبر لأن بموته انتهى آخر ممثل للسلطة الشرعية المركزية فى الإمبراطورية واعتبر أن هـذا التاريخ بدء دولة البطالمة المستقلة فى مصر . معنى هذا الإصلاح أن عام ٣١١ ق.م. كان يعتبر العام الأول فى التاريخ البطلمى . ومع ذلك فلم يجر العمل بهذا التأريخ الجديد واستمر التأريخ بالطريقة التقليدية حسب سنى حكم كل ملك .

---

(١) وهو قرار كانوب المشهور الذى صدر عن مجمع الكهنة المصريين فى كانوب (أبى قير حاليا) سنة ٢٣٧ ق. م. والقرار منشور فى O. G. I. 56
وتوجد له ترجمة انجليزية فى كتاب Bevan, op. cit. 208 ff.

ومما يذكر لهذا الملك من الأعمال الطيبة هو اتجاهه سياسة طابعها العطف والتقرب من المصريين . وقد تجلى ذلك فى عملين ، الأول هو إعادته إلى المعابد المصرية تماثيل الآلهة المصرية التى كان الفرس قد أخذوها معهم قبل الاسكندر ، وأعادها بطلميوس الثالث عند رجوعه من حملته المظفرة فى سوريا فى أول حكمه . والعمل الثانى هو اهتمامه البالغ بأمر المجاعة التى حدثت أثناء حملته والتى نتجت عن انخفاض منسوب النيل مما أساء إلى الزراعة كل الإساءة ، فعاد الملك فى الحال وأعلن تنازل الدولة عن الضرائب ونصيبها فى المحاصيل ، كما قام فى الحال باستيراد القمح من الخارج مما رفع الضائقة عن الناس وجعلهم يلهجون بشكره وحمده ، ولعل من المناسب أن نورد هنا نص الفقرات التى وردت فى قرار الكهنة المصريين فى هذا الشأن فى القرار المعروف بقرار كانوب الصادر فى مارس سنة ٢٣٧ ق. م.

« لقد أعاد الملك وأخته الملكة ، الإلهان الخيران . . . التماثيل المقدسة التى كان قد أخذها الفرس خارج البلاد ، وذلك أثناء حملة عسكرية قام بها الملك ، وأعاد كل تمثال لمعبده الذى أخذ منه . ولقد حفظ البلاد فى سلام ، يذود عنها سلاحه ضد كثير من الأمم والملوك . وقد أقاما حكومة صالحة بالنسبة لجميع السكان فى مصر وللاجانب فى الإمبراطورية ، وحينما تخلف النيل عن أن يرتفع بالقدر الكافى وشمل اليأس الجميع بسبب ما حدث ، فتذكروا الكوارث التى حدثت فى عهد بعض الملوك السابقين ، حينما قاسى الأهالى بسبب عجز الفيضان . شمل الملك والملكة بحمايتهما الجميع سواء أهل المعابد أو سائر السكان ، وأعلنا فى عطف كبير ، تنازلها عن قدر غير قليل من الضرائب من أجل إنقاذ الحياة ، واستوردا القمح للبلاد من سوريا وفينيقيا وقبرص وبلاد أخرى كثيرة بأغلى الأثمان ، وهكذا أنقذا أهل مصر »[1]

---

(١) O. G. I. S. I. no 56

عند عودة بطليموس الثالث من حملته فى سوريا وقيامه بهذه الأعمال الجيدة التى سجلها له القرار الكانوبى ، أعلن الملك والملكة « إلهين خيرين » Theoi Euergetoi ومن هنا كانت تسميته دائماً بيو إرجتيس . وهى إتباع لسنة إبتدأها بطليموس الثانى هو وأخته وزوجته أرسنوى . وهكذا أصبح هذا التقليد قاعدة اتبعها وسار على نهجها الملوك البطالمية من بعدهم ، فألهوا جميعاً مع زوجاتهم أثناء حياتهم، تحت ألقاب ملكية تمجدهم .

ويمكن أن نضيف اتجاهاً آخر تميز به حكم يوإرجتيس وهو اهتمامه الكبير ببناء المعابد المصرية على نحو لم تعهده فى الملكين السابقين . فقد أتم معبد الإلهة ايزيس الذى كان قد بدأه والده فى جزيرة فيله . وهناك البيلون المشهور الذى أنشأه يوإرجتيس فى الكرنك ، وكذلك بنى معبداً صغيراً فى إسنا ، تهدم فى القرن الماضى . ولكن ما من شك أن أعظم مبانيه هو معبد إدفو المشهور الذى يعتبر أكمل المعابد التى بقيت من مصر القديمة . فقد أنشىء هذا المعبد للإله حورس (الذى شبهه الإغريق بالاله أبولو) . وبدىء فى تشييده فى سنة ٢٣٧ ، ولكن هذا الملك لم يعش ليتم البناء مما جعل إتمامه ، يستغرق مائة وثمانين سنة حتى حكم بطليموس الثانى عشر [١]

---

(١) أنظر Bevan, op. cit. p. 214 f.

د - بطلميوس الرابع فيلوباتور (٢٢١ - ٢٠٥ ق.م)

فى فبراير سنة ٢٢١ توفى يوارجتيس وخلفة ابنه بطلميوس الرابع فى سن الثالثة والعشرين، وحوالى التاريخ نفسه اعتلى العرش فى سوريا ومقدونيا كذلك ملكان جديدان فى مقتبل العمر أيضاً، وهما أنتيوخس الثالث فى سوريا وفيليب الخامس فى مقدونيا. ولعصر هؤلاء الملوك الثلاثة أهمية خاصة فى التاريخ لأنه شهد ظهور روما كقوة عالية تتدخل تدريجيا فى شئون الممالك الهلينستية الثلاث.

ومن حسن الحظ أن مصدراً تاريخياً هاما يبدأ أيضاً بعصر هؤلاء الملوك هو تاريخ المؤرخ الكبير بوليبيوس. رغم أن بعض أجزاء تاريخ بوليبيوس قد فقدت أو وصلتنا مقتضبة فى شكل فقرات ومقتطفات عثر عليها فى كتابات المؤرخين المتأخرين عنه، ورغم تحمسه لروما وعدم تفاؤله بالنسبة للممالك الهلينستية فى الشرق كما يبدو واضحاً فى الصورة القاتمة التى تبدو من كتاباته عن الملك بطلميوس الرابع، إلا أن كل ذلك لا يقلل من أهمية هذا المصدر العظيم الذى يمتاز بصدق النظرة التاريخية قبل كل شىء[1]

كانت شخصية الملك البطلمى الجديد، عكس شخصية والده: خاملا، ضعيف الأخلاق إلى درجة الإنحلال، قد سيطر عليه منذ البداية رجل خبيث من رجال القصر هو سوسيبيوس Sosibius ومعه شخصيات ثلاث حفظ لها

---

(١) من أجل فهم المشاكل التى يثيرها أو يعرض لها بوليبيوس يحسن استخدام الدراسة التفسيرية الحديثة التى قام بها F. W. Walbank فى كتابه
A Historical Commentary on Polybius. (1957) Oxford.

التاريخ ذكرى من الفساد والاسفاف الأخلاقى مما يبعث فى النفس الشعور بالإزدراء والاشمئزاز . بسيادة هذه العناصر الفاسدة فى الدولة سنجد أن عصر بطلميوس الرابع سيكون نقطة التحول فى تاريخ الدولة البطلمية، وتحولها من عصر الازدهار والإمبراطورية إلى عصر الإضمحلال وفقدان الإمبراطورية. وكان سوسيبيوس رجل مؤامرات داهية من الطراز الأول فابتدأ بالقضاء على العناصر الصالحة فى القصر الملكى التى قد تقاوم سياسته. فقتل كلا من عم الملك وأخويه وأمه الملكة برنيقه، وكذلك كليومنيس الملك الاسبرطى اللاجىء الذى بدأ يكون لنفسه اتباعا من الجنود فى الاسكندرية . وهكذا خلا الجو لسوسيبيوس وبطانته فسيطر على الملك وسيطر على الدولة .

الحرب السورية الرابعة :

ولكن كان على هذه العصبة أن تواجه امتحانا عصيبا فى السنين الأولى من عصر بطلميوس الرابع . ذلك أن أنتيوخس الثالث فى سوريا كان على عكس الملك المصرى ، تسلم الدولة السليوقية مفككة ضعيفة ، فصمم على إعادة بنائها وتوطيد وحدتها ، وكان يمتاز بطبيعة وشخصية الجندى المغامر . ولعلمه بحقيقة الوضع فى القصر الملكى المصرى ، رأى أن يقتنص لنفسه نصرا سريعاً باهراً بالاستيلاء على سوريا الجنوبية التى كان قد انتزعها بطلميوس الأول وبقيت دائماً فى إيدى أسرته رغم توالى الحروب بشأنها .

على هذا الأساس فى العام الأول من حكم بطلميوس الرابع سنة ٢٢١ ، نجد انتيوخس الثالث يزحف بجيشه إلى سوريا الجنوبية ، ولكن القائد العام للجيوش المصرية هناك كان قائداً أغريقيــــا من ايتوليا على جانب كبير من التفوق والقدرة العسكرية ، فتمكن من إحكام الدفاع عن مدن فينيقيا وحصونها ، وفشل أنتيوخس فى الإستيلاء عليها . وقبل أن يعاود

الهجوم اضطر الملك السليوقى إلى العودة إلى دولته ، لمواجهة ثورة ضده فى بابل. وكانت هذه فرصة نادرة للمهيمنين على القصر الملكى فى الاسكندرية ، وكان على سوسيبيوس أن يظهر مقدرته ودهاءه فى مواجهة الخطر السليوقى ، وفعلا استطاع أن يثبت أنه رجل الموقف أيضاً فاستغل أولا ظروف عدم الاستقرار فى الدول السليوقية وعمل على زيادة القلاقل والاضطرابات الداخلية ضد انتيوخس ، مستعينا على ذلك بالرشوة والمؤامرات . وحتى يكسب الوقت بعث يفاوض الملك السورى ويوهمه بإمكان الوصول إلى اتفاق فى صالحه ، ثم يماطل فى هذه المفاوضات معتذراً بخمول الملك البطلمى ومعتمدا أيضاً على أن انتيوخس مشغول بالثورات الداخلية . وفى الوقت نفسه أخذ يعمل بهمة رجل المؤامرات المحنك على إعادة تنظيم الجيش المصرى . فأحضر كثيرا من الجنود المرتزقه من بلاد اليونان . ولكن أهم خطوة لجأ إليها ، مضطراً بطبيعة الحال ، هو تجنيد نحواً من عشرين الف من الفلاحين المصريين ، الذين دربهم بواسطة ضباط وجنود مقدونيين وإغريق على الأساليب الحربية المقدونية .

كل هذه الأعمال أحيطت بسرّية كبيرة مدى عامين تقريبا . كان انتيوخس فى أثنائها قد فرغ من إخضاع جميع القلاقل فى دولته ويأس من إمكان الوصول إلى إتفاق مع مصر ، فسار فى عام ٢١٨ على رأس جيشه جنوبا إلى سوريا الجنوبية وكان الموقف منذ البداية فى صالحه إذ نشأ خلاف بين القائد المصرى ثيودوتوس وبين القصر فى الاسكندرية ، فعينوا قائدا آخر مكانه .

فما كان من ثيودوتوس إلا أن انضم إلى جانب انتيوخس ولم يتمكن سوسيبيوس من إرسال قوات كافيه فى الوقت المناسب ، فتقدم انتيوخس فى سهولة إلى فينيقيا وأخذها وتقدم جنوبا حتى استولى على غزة دون مقاومة ذات بال . فى هذه الأثناء كان القصر البطلمى قد أكمل إستعداداته ونقل جيوشه إلى أرض المعركة تحت قيادة الملك نفسه . ودارت المعركة بالقرب من

مدينة رفح فى ٢٢ يونيه سنة ٢١٧ وكانت مراحل هذه المعركة والنتيجة التى انتهت إليها على غير المتوقع، فقد ابتدأت المعركة بحملة عنيفة من جانب أنتيوخس الذى قاد جناحه الأيمن من الفرسان واجتاح فرسان الجيش البطلمى فى الميسرة التى كانت بقيادة الملك البطلمى نفسه حتى أن الملك لاذ بالفرار . ولكن المعركة لم تنته عند هذه الجولة الأولى ، بل استمر قتال عنيف التحم فيه المشاة من الجانبين وأمام عجب الجميع أثبت الجنود من الفلاحين المصريين الذين لم يمض على تجنيدهم عام ونصف ، جدارتهم فى هذه المعركة الخطيرة رغم بعد عهدهم بالقتال . ولم تنته المعركة إلا وكان لهؤلاء الجنود المصريين الفضل الأكبر فى كسبها للملك البطلمى . وهكذا احتفظت مصر هذه المرة أيضا بسيادتها على سوريا الجنوبية بما فيها فينيقيا وفلسطين[١] .

عدا هذه الحرب التى فرضت على بطلميوس الرابع فرضاً لم تخرج الجيوش المصرية للحرب بعد ذلك طيلة حياته ، ولم يتعد نشاطه أو نشاط حاشيته فى مجال السياسة الخارجية بعض الاتصالات الدبلوماسية ببعض المدن اليونانية ، وإرسال بعض الهدايا الثمينة للمدن التى تظهر تقربا إلى مصر ، وكانت المدن ترد على هذه الهدايا بكتابة النقوش يسجلون بها اعترافهم بالجميل للملك المصرى .

فى خلال حكم هذا الملك حدثت أخطر حرب فى التاريخ القديم وهى الحرب البونية الثانية بين هانيبال القرطاجى وروما . ورغم أن بعض الدول اليونانية الأخرى قد تورطت أيضاً فى هذه الحرب ، فانحازت مقدونيا إلى جانب هانيبال بينما انحازت ايتوليا إلى جانب روما ، فان بطلميوس الرابع التزم موقف الحياد التام حيال هذه الحرب كما سبق أن فعل جده بطلميوس الثانى أثناء الحرب

---

(١) انظر وصف وتعليق بوليبيوس على معركة رفح فى تاريخه Polyb. V. 107

البونية الأولى . وقد حاولت وفود عن الجانبين أثناء الحروب الهانيبالية أن تكسب مصر إلى جانبها ولكن دون جدوى .

الحالة فى الداخل :

إذا نظرنا بعد ذلك إلى جهود الملك وحاشيته فى مجال السياسة الداخلية نجد أن نشاطهم كان محدوداً أيضاً . بعد انتصار رفح عاد الملك إلى الاسكندرية ليعلن زواجه من اخته ارسنوى (الثالثة) . وكانت فتاة حديثة السن على جانب كبير من الحياء والأخلاق ، ولكنها ظلت مغلوبة على أمرها حيال البطانة الفاسدة التى أحاطت بالملك . وفى مناسبة الزواج الملكى أعلن تألية الملك والملكة أيضاً تحت أسم فيلوباتور (أى المحب أو المحبة لوالدها) ولاشك أن لاختيار مثل هذا اللقب مغزى سياسى ، بمعنى أن الموجهين للأمور فى القصر أرادوا استغلال حب الشعب للملكين الراحلين نخلعوا على بطلميوس الرابع لقب فيلوباتور تقرباً من الشعب وكسباً لعاطفته ولكن دون جدوى ، فأهم حدث داخلى فى عهد الملك فيلوباتور هو قيام ثورة عامة بين المصريين ضد الحكم والأسرة المقدونية . فبعد عودة الجنود المصريين منتصرين من رفح اندلعت نار ثورة عامة بين الأهالى أولا فى الدلتا ثم فى الصعيد ورغم أن التاريخ (كما يرويه بوليبيوس [1]) لم يحفظ لنا مواقع أو مواقف حاسمة فى هذه الثورة غير أنها كانت طويلة الأمد ، وخاصة فى أعلى الصعيد فى مدينة طيبة حتى استطاع الأهالى إعلان استقلالهم حتى عام ١٨٥ فى حكم الملك بطلميوس الخامس ويبدو أن مقاطعة طيبة الثائرة تلقت عوناً وتأييداً من الدولة الإثيوبية فى الجنوب ، حيث قامت فى ذلك الوقت حكم أسرة قوية مستنيرة.

ومما يدل على عمق جذور هذه الثورة فى نفوس الأهالى فى ذلك الوقت هو

---

(١) Polyb. V. 107. 2—4 ; XIV. 12

ما تكشف عنه بردية ديموطيقية ترجع إلى هذا العصر ، وتحتوى على نبوءة يدعى كاتبها أنها ترجع إلى عصر الملك تاخوس (٣٦٦— ٣٦٠ ق . م .) من ملوك الأسرة الثلاثين ، أى قبل الفتح المقدونى . وموضوع الوثيقة ، التى تحتوى على نبوءة دينية وشرحها ، يتضمن تاريخ مصر منذ تاخوس ، وماتعرضت من غزو وحكم أجنبى على يد الفرس أولا والإغريق بعد ذلك . ثم تنتهى النبوءة وشرحها بيشرى للمصريين بأن يوم الخلاص قريب وأنه سيظهر واحدمن أبناء إهناسية المدينة (التى سميت Hnés فى اللغة القبطية وأسماها الإغريق والرومان Heracleopolis) وسوف يحرر مصر ويطرد الأجانب والإيونيين أى الإغريق .(١) ومامن شك أن فكرة النبوءة وقدمها التاريخى تلفيق قام به الدعاة للثورة حتى يضفوا على دعواهم صفة العراقة والصدق الدينى ، وإنما الوثيقة فى واقع الأمر حديثة التأليف قبل الثورة مباشرة .

هذا الملك الخامل الذى عجز عن الحكم حاول أن ينسى مآسى عهده بالمجون أو الخمر أو الشعوذة الدينية أو التأليف المسرحى أحياناً (إذ عرف أنه كتب مسرحية ماجنة عن أدونيس) ، وكما كانت حياته مليئة بالمواقف الغريبة المريبة ، كذلك انتهت حياته فى غموض وريب سنة ٢٠٥ .

---

(١) cf. W. Spiegelberg, Die sogennante demotische Chronik, p. 6, no. 1.

الفصل الثالث

التاريخ السياسي لمصر في العصر البطلمي

عصر الضعف

خلف بطلميوس الرابع فيلوباتور[1] على عرش مصر صبي لم يتجاوز الخامسة من عمره ولذلك كان لا بد له من وصي . والوصي الطبيعي عليه هو أمه الملكة أرسنوى الثالثة . ولكن سوسيبيوس وأجاثوكليس كانا يعلمان أنهما قد لا يبقيان طويلا بعد ذلك إذا ما تمكنت الملكة من السيطرة في القصر عن طريق الوصاية على ابنها . ولمنع احتمال قيام مثل هذا الموقف كان لا بد من التخلص من الملكة في الحال . ولهذا لم يعلنا وفاة الملك ، وانتظرا ريثما دبرا مؤامرة أدت إلى قتل الملكة داخل القصر ، ثم زيفا وصية للملك يعينهما وصيين على الملك الطفل .

ويعرض علينا المؤرخ بوليبيوس صورة حية لما وقع عند ذلك . سار سوسيبيوس وأجاثوكليس نحو اتمام خطتهما ، وفي يوم معين جمعا الجنود ورجال الحاشية والمواطنين أمام القصر الملكي وأعلنا وفاة الملك والملكة معاً ثم قرئت الوصية المزيفة معلنة تعيينهما وصيين على الملك الطفل بطلميوس الخامس الذي سيطلق عليه عند بلوغه سن الرشد اسم ابيفانس Epiphanes (أى الظاهر) وبطبيعة الحال لم تنطل التمثيلية على الحاضرين وسرت همسات الاستنكار بين الجميع . وحاول الأوصياء على الملك كسب تأييد الجنود الذين تعتمد عليهم

---

(١) هناك بعض الاختلاف حول تاريخ وفاة فيلوباتور واعلان ابنه خلفا له . أنظر
T. C. Skeat, The Reigns of the Ptolemies (1954) p. 32.
الذى يقترح نوفمبر عام ٢٠٥ ق. م. هناك تاريخ آخر وهو عام ٢٠٣ ق. م. قدمه عدد من الدارسين. أنظر : ابراهيم نصحى ، عصر البطالمة ج ١ ص ١٥٢

السلطة ، فوزعوا راتب شهرين على الجنود الذين أقسموا يمين الولاء المألوف فى مثل هذه المناسبات .[(١)]

وفى الوقت نفسه عينوا أصدقاءهم فى المناصب الرئيسية فى الدولة . ولـكن الشعور العام كان قد بلغ مداه فى بغض وكراهية هذه الطغمة الفاسدة المتلاعبة بالقصر والدولة من أجل مصالحهم الشخصية . وما لبث هـــذا الشعور العام بالسخط أن وجد له زعيماً يثق فيه ويلتف حوله وهو قائد حامية بلوزيوم المسمى أتليبوليموس Tlepolemos الذى أعلن الثورة فى بلوزيوم أولا ولما انضمت إليه حامية الإسكندرية سار إليها وسط ثورة الشعب وتأييده له . وفى هذه الثورة الجامحة ألقى القبض على أجاثوكليس وأخته وأمه وقتلوا جميعاً . أما سوسيبيوس فـكان قد مات من قبل . وبعـــد ذلك أعلن أتليبوليموس وصياً على الملك الطفل .

مصر تفقد إمبراطوريتها :

ولـكن أتليبوليموس Tlepelemos لم يكن بالشخصية التى تصلح للأخذ بمقاليد الحـكم فى هذه الآونة العصيبة ، إذ لم يخل هو أيضاً من ضعف ، فقد كان به جنوح نحو الغرور وحب اللهو والمجون .

ولذلك ما لبث أن عزل من مركزه لسبب اشتداد الخطر الخارجى ،وخلفه أرستومينس Aritomenes .

كان من الطبيعى أن تستغل الدول الأجنبية الموقف فى مصر وتنقض على ممتلـكاتها الخارجية . وفعلا اتفق كل من انيتوخس الثالث ملك سوريا

---

(١) Polyb. XV. 25. 3—11

السليوقية وفيليب الخامس ملك مقدونيا على أن يدع كل منهما الآخر يوسع دولته على حساب الإمبراطورية المصرية .

الحرب السورية الخامسة :

وفعلا استولى أنتيوخس الثالث على سوريا الجنوبية بما فى ذلك فينيقيا وزحف جنوبا حتى سقطت فى يده غزة (٢٠٢ — ٢٠١). فى هذه الأثناء كان أرستومينس قد عين وصياً على الملك ، فغير القيادة على الحدود وعين أسكوباس Sconas الذى بذل جهوداً عظيمة تثبت أنه ما زالت بالدولة بقية من طاقة عسكرية يعتمد عليها فى الظروف العصيبة . وفعلا استطاع أسكوباس أن يسترد غزة وأن يطرد الجيش السورى من فلسطين . ولكن ما لبث أن حضر أنتيوخس بنفسه لمحاربة أسكوباس ، وكانت الموقعة الفاصلة بينهما عند بانيون Panion فى شمال فلسطين . وكتب النصر لانتيوخس فى هذه المعركة حوالى سنة ٢٠٠ ق . م . وبذلك انتهت سيادة مصر على سوريا الجنوبية نهائياً .

روما :

فى عام ٢٠٢ ق . م. كانت روما قد خرجت منتصرة من الحرب البونية الثانية ، وبدأت تتطلع إلى الشرق لتحدد علاقاتها مع ممالكها المتصارعة . خاصة وأن فى استطاعة هذه الممالك أن تكون خطرا على روما فى بعض المواقف العصيبة ، كما حدث أن انحازت مقدونيا إلى جانب قرطاجة فى الوقت الذى كانت فيه روما تواجه أعصب موقف وقفته فى تاريخها حين حاصرها هانيبال ونصب خيمته على مسافة ثلاثة أميال من أسوارها . لذلك أرسلت روما مبعوثا إلى الممالك الشرقية لتتعرف على حقيقه الموقف بها بمجرد انتهاء الحروب البونية الثانية .

لمصر وفد رومانى إلى مصر برياسة ماركوس ليپيدوس Macrus Lepidus، ويبدو أن الموقف فى مصر كان مزعزعا إلى حد أنه أمكن ترويج إشاعة فى بعض الدوائر الرومانية أن ليپيدوس عين وصياً على الملك المصرى.(١)

قد يكون الغرض من ترويج مثل هذا النبأ هو إيجاد ضمان لحماية عرش الملك المصرى وممتلكاته فى الخارج من أن يتحيف عليها ملوك سوريا ومقدونيا، إلا أنه لم يكن له أى تأثير، فالملك فيليب الخامس أخذ ينتهز الفرص لتوطيد مركزه فى العالم اليونانى، وما لبث أن استولى على جميع ممتلكات مصر فى هذه المنطقة دون أن تتمكن مصر من أن تحرك ساكناً.(٢)

فى الوقت نفسه زحفت سوريا على البقية الباقية من الإمبراطورية البطلمية فى آسيا الصغرى وقبرص فاستولت عليها جميعاً. وبذلك لم يبق لمصر سوى إقليم برقة فى ليبيا فى الغرب. أما فى الجنوب فكانت الدولة الأثيوبية تناصب مصر العداء وتساعد الثوار المصريين فى طيبة على الاستقلال عن سلطان الملك فى الاسكندرية. وهكذا فى أقل من عشر سنوات من وفاة فيلوباتور فقدت مصر إمبراطوريتها. وحتى أثناء صراع روما مع كل من مقدونيا وسوريا لم تتمكن مصر من استرداد شىء من ممتلكاتها والتزمت أولا موقفاً سلبياً أسمته الحياد ثم أغارت إلى روما فى سلوك هو أشبه بالتبعية بعد أن تغير مستشار أرستومينس وخلفه پوليكراتيس Polycrates.

---

(١) أنظر تعليق بيفان على هذا النبأ Bevan, Egypt. pp. 256—9
ذكر هذا النبأ فى Jutin, XXX. 3-5; Valer. Maximus, VI. 6. 1; Tacitus, Annales, II. 67.
ولم يذكره بوليبيوس وليفيوس.

(٢) أنظر Jougvet, L'Imperialisme Macedonien, 292 f.

الحالة الداخليـــة :

ونظرة سريعة إلى الحالة فى الداخل تدل على أن نتائج الموقف الخارجى كانت صدى للتطورات فى الداخل . فإن استمرار الثورات المصرية منذ عصر فيلوباتور زاد من ضعف السلطة المركزية واضطرها إلى أن تتخذ مزيداً من المظاهر المصرية كسباً لود الشعب. ولم يكن هذا السلوك بوحى من سياسة مقصودة وإنما كان نتيجة للضغط والكراهية التى أبداها الشعب ضد الحكم الأجنبى . وكانت أول مظاهر اصطناع التمصير هى إعلان تتويج الملك حسب التقاليد الفرعونية فى ممفيس وليس فى الإسكندرية كما كان التقليد حتى ذلك الحين . وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٩٧ حين أعلن تعيين أرستومينس مستشارا للملك بدلا من وصى .

ولكن هذه المحاولات المصطنعة لم يكن لها أى تأثير فى كسب رضاء المصريين واستمرت ثورتهم ، ولكن اضطروا إلى التسليم فى صيف سنة ١٩٧ بسبب الفيضان المرتفع الذى أضعف من مركزهم كثيراً لأنه أعان جنود الملك على إحكام الحصار على الثوار . ومع ذلك فقد عاملهم الملك أو مستشاروه معاملة وحشية ونفذ فيهم الإعدام . ولكن سوء معاملتهم ، بعث مزيداً من المقاومة بين المصريين ونشبت ثورات أخرى . ولم يقض نهائياً على الثورات المصرية إلا فى سنة ١٨٥ فى الصعيد حيث كانت طيبه قد أعلنت استقلالها ، ثم فى سنة ١٨٣ فى الدلتا .

هذه الثورات لم تذهب هباءاً ، وإنما كان لها بعض التأثير على الموجهين للسياسة فى القصر . فألغيت بعض الضرائب وخفضت أخرى ، كما تنازلت الدولة عن بعض الديون المتأخرة التى للخزانة على الأفراد . كذلك صدر عفو شامل عن الجنود المصريين الذين كانوا قد انضموا إلى الثورة . كما نلحظ

زيادة ظهور المصريين فى مناصب عليا فى الدولة والجيش وزاد موقف القصر من الكهنة المصريين تساهلا ، وتنازلوا لهم عن كثير من الإمتيازات . هذا التطور فى العلاقة بين القصر والمصريين وازدياد مكانة العنصر المصرى ممثلا فى الكهنة بالذات تكشفه لنا أشهر وثيقة خلفتها لنا مصر القديمة وهى حجر رشيد [١] وهو يحتوى على قرار دينى أصدره مجمع الكهنة المصريين الذى عقد فى ممفيس سنة ١٩٦ وكتب هذا القرار بالهيروغليفية والديموطيقية واليونانية . وقد اكتشف هذا الحجر بواسطة الحملة الفرنسية أثناء وجود نابليون فى مصر . ثم استقر أخيراً بالمتحف البريطانى فى لندن . وعن طريق دراسة هذا النقش فى الكتابات الثلاث إستطاع شامبليون أن يحل رموز الحروف الهيروغليفية لأول مرة فى التاريخ. والقرار المسجل على حجر رشيد من نوع القرار الكانونى الذى ذكرناه أثناء الكلام عن بطلميوس الثالث . ورغم أن فارق الزمن بين القرارين هو أربعون سنة فقط ، إلا أن الفرق المعنوى بين القرارين كبير يدل على أن مركز الكنهة المصريين قد تغير تغيراً جوهريا وأول مايجب ملاحظته أنه بينما عقد المجمع الأول فى مدينة كانوب (أبو قير بجوار الاسكندرية) غير أن المجمع الثانى عقد فى ممفيس العاصمة المصرية القديمة والتى كان يتعصب لها المصريون ضد الاسكندرية ثم أن لهجة القرار ومايسجله من محاولات الملك التقرب إليهم واستمالة المصريين تكشف عن ضعف السلطة الملكية .

هذا الزحف المصرى على الحكم البطلمى كان نتيجة الصراع الطويل الذى قام به المصريون أثناء حكم بطلميوس الرابع والخامس . ومن أهم مظاهره ذات

---

(١) H. Sottas and H. Gauthier, Un decret trilingue en l'honneur de Ptolemée IV (V)
وتوجد ترجمة انجليزية فى Bevan, Egypt Under Pt. Dyn. 263 ff.

الطابع الإدارى الرسمى ، هو تغير الوضع الإدارى لنوموس طيبه فى جنوب مصر والتى كانت من أهم مراكز الثوار المصريين ، فأصبح حاكم هذه المنطقة يشغل منصب إبيستراتيجوس Epistrategus وله سلطان مطلق فى النوموس بمثابة نائب الملك . وهـــــذا يختلف عن النومات الأخرى التى كان يرأسها إستراتيجوس (Strategus) .

حدث آخر له طرافته وأهميته يجب أن نذكره قبل أن نفرغ من الحديث عن هذا الملك حينما بلغ بطلميوس الخامس إبيفانس سن السادسة عشرة عام ١٩٣ — ١٩٢ ، فكر نصحاؤه فى أمر زواجه ، ولما لم تكن له أخت من أبيه رأى أهل المشورة فى القصر الملـكى أن يجعلوا من زواجه صفقة سياسية يعوضون به عجز الدولة فى مجال السياسة الخارجية . فاختاروا له كليو باترا ابنة انيتوخس الثالث الملك السليوقى فى سوريا ، لعلهم بهذا يأمنون شره فلا يهاجم مصر بعد أن أصبحت ابنته تتربع على عرشها باسم كليو باترا الأولى . ولهذا الزواج أهمية ، لأنه أدخل على الأسرة المالكة البطلمية دماجـديداً بعـد طول زواج الأخ والأخت . ولم تكن كليوباترا من أسرة جديدة فحسب ، بل لم تكن من دم مقدونى محض ، لأن أمها كانت ابنة مثراداتيس ، (Mithradates) ملك بنتوس (Pontus) فى شمال آسيا الصغرى . كما كانت جدتها الـكبرى من ناحية أبيها الأميرة الفارسية أپاما (Apama) زوجة سليوقس الأول مؤسس الأسرة السليوقية. وعلى هذا الأساس أدخل على الأسرة البطلمية المقدونيـة عنصر فارسى شرقى حملته معها الملـكة كليوباترا الأولى التى سيبقى اسمها (ومعناه ذات الأب المجيد) فى مصر من بعدها ، تتسمى به الملـكات حتى نهاية الأسرة على يد كليوباترا السابعة .

الفترة الأخيرة من حياة بطلميوس الخامس شغلتها محاولات القضاء على الثورة المصرية فى الداخل كما استمرت فى الخارج سياسة الضعف والتردد بين الحياد حيال المشا كل الخارجية أو التبعية لروما . إلى أن توفى إبيفانس فجأة فى سنة ١٨٠ ق.م. مسموما فيما يبدو ، تاركا وراءه ثلاثة أبناء صغار ، سيصبح أكبرهم بطليوس السادس والأصغر بطلميوس الثامن .

ب - فترة المنازعات الأسرية (١٨٠ - ٥١ ق.م.)

من أخطر الأدواء التي تصيب الدول الملكية ظاهرتان.

الأولى أن يلى العرش طفل قاصر فيتولى الأمر عنه أوصياؤه من رجال الحاشية الملكية وما يصحب ذلك عادة من مؤامرات القصور المعروفة.

والظاهرة الثانية أن يتنازع العرش أو يدعيه أكثر من واحد من أفراد الأسرة المالكة. وكثيراً ما تتلازم الظاهرتان وتكونان حلقة مقفلة تؤدى الواحدة منهما للأخرى وهكذا. وقد حدث هذا فى النصف الأخير من حياة الأسرة البطلمية فكثر أوصياء السوء على الملوك الأطفال الذين يؤول إليهم العرش بسبب موت الملك فجأة، كما كثر تنازع الأبناء على العرش وما تبعه من مؤامرات مما أدى إلى انقسام ولاء الجنود والشعب وقامت الحروب الأهلية أكثر من مرة بين أنصار أدعياء العرش. وبسبب هذه الظروف ازدادت الدولة ضعفاً على ضعف فاستعصى الإصلاح رغم محاولته أحياناً. وما لبثت الدولة أن أصبحت نهباً للمطامع الخارجية وكان أهمها وأخطرها فى هذا الوقت هى دولة روما التى أصبحت بعد انتصارها على قرطاجنة فى الحرب الهانيبالية سنة ٢٠٢ ق.م أقوى دولة فى حوض البحر الأبيض المتوسط وبالتالى فى العالم القديم بأسره.

ونظرا لتعقد أحداث هذه الفترة وامتلائها بالمؤامرات الخبيثة مما لا يمكننا

---

(١) أنظر: Jouguet. L'Imper. Maced. pp. 292 ff.; Bevan: Egypt under the Ptol. Dyn. pp. 283 ff.

وكذلك د. ابراهيم نصحى ص ١٥٢ وما بعدها

التعرض لتفاصيله فى هذا المجمل التاريخى ، فسوف نجمل القول فيها إجمالا على نحو لا يخل بالصورة العامة لتاريخ مصر فى هذه الفترة .

بطلميوس السادس فيلو ميتور :

رأينا كيف بدت مظاهر ضعف الدولة جلية منذ عهد بطليموس الخامس أبيفانيس. وزاد الأمر سوءا أنه عند وفاته فجأة سنة ١٨٠ ق.م. ترك من الأولاد ابنين وبنتاً. أكبرهم لم يتعد السابعة ، فآل إليه العرش باسم بطلميوس السادس الذى سيلقب فيما بعد فيلوميتور (أى المحب لأمه) وقد قامت على وصايته أمه الملكة كليوباترا الأولى . ولكنها توفيت بعد ذلك بقليل وتولى أمر السياسة اثنان من عبيد القصر المحررين يولايوس ولينايوس Lenaeus, Er-laeus وما أن بلغ أشده حتى زُوِّج من أخته كليوباترا الثانية وتوج عام ١٧٢ ق.م. وهو لم يتجاوز الخامسة عشر .

انتيوخس يغزو مصر :—

ظل هذا الملك الصغير مسلوب السلطة يوجهه المولىان يولايوس ولينايوس كيفما شاءا . وقد حاولا أن يظهرا بمظهر السياسيين الحقيقيين ، فأخذا يدبران خطة للاستيلاء على سوريا الجنوبية ولكن أنتيوخس الرابع ملك سوريا لم يمهلهما وبادرهما بالحرب سنة ١٧٠ ق. م. مستغلا سوء الأحوال الداخلية فى مصر . وزحف انتيوخس من فلسطين إلى مصر التى انهارت أمامه فى الحال حتى أنه استولى على بلوزيوم وممفيس دون مقاومة تذكر . ويقال إنه توج فى ممفيس فرعونا مصريا حسب التقاليد المصرية .

فى هذه الأثناء حدثت فجأة تطورات غريبة فى الأسكندرية ، حاول الملك بطلميوس السادس الفرار منها ولكنه وقع أسيرا فى يد الملك السورى وفى

الوقت نفسه قامت ثورة فى الأسكندرية أطاحت بالموالى نصحاء الملك، وأعلنت أخاه الأصغر (الذى سيصبح بطليوس يوإرجتيس الثانى) ملكا لهم. وأخذت الأسكندرية تستعد للدفاع عن نفسها ضد أى محاولة قد يقوم بها أنتيوخس لغزوها، وحدث فى هذا الوقت أيضاً أن حضر إلى الأسكندرية بعض سفراء المدن اليونانية فقاموا بدور الوساطة لدى أنتيوخس فقبل أن ينسحب من مصر. بعد انسحابه بقيت المملكة منقسمة بين الأخوين الملك الشرعى بطلميوس السادس يحكم فى ممفيس وأخوه يحكم فى الأسكندرية. ولكن أمكن الوصول إلى اتفاق بينهما على أن يصبح الأخوان ملكين بالاشتراك.

ولكن أنتيوخس لم يترك الحكام فى مصر يستقرون على هذا الاتفاق، وما لبث أن شن عليهم حربا جديدة سنة ١٦٨ ق. م. ، فاستولى أولا على قبرص ثم مضى إلى مصر واستولى عليها مرة ثانية وتمكن هذه المرة من محاصرة الأسكندرية ذاتها. ولكن روما لم تقف مكتوفة الأيدى، فقد كانت على علم بحقيقة الموقف فى الشرق وكانت تحرص على ألا تتغلب فى الشرق دولة على دولة. ولهذا سارعت بإرسال مندوب عنها إلى معسكر أنتيوخس بالقرب من الأسكندرية وطلب إليه أن ينسحب من مصر فى الحال. ويبدو أن روما كانت قد صممت على إجلاء أنتيوخس عن مصر. يفسر ذلك مسلك المندوب الرومانى الذى كان غاية فى الجرأة، ضاربا بقواعد البروتوكول عرض الحائط. فيقال إنه أبلغ أنتيوخس طلب روما فى أن ينسحب من مصر فى الحال، ولم يمهل الملك السورى وقتا للرد بل رسم حول الملك دائرة وقال له يجب أن يرد قبل أن يتحرك خارج هذه الدائرة. كان أنتيوخس يعرف أنه لا يستطيع أن يعارض إرادة روما فقبل الانسحاب من مصر وقبرص معاً[1].

(١) Polyb. XXIX. 27

أنظر د. ابراهيم نصحى، مصر فى عصر البطالمة ص ١٩٠ — حاشية ٢.

ثورة ديونيسيوس بيتوسرابيس المصرى (Dionysicus Petoserapis) :

ما كاد أنتيوخس ينسحب من مصر ، ويغادرها الوفد الرومانى حتى جدت أحداث غريبة كل الغرابة . ظهرت فى عالم السياسة فى الأسكندرية شخصية جديدة فجأة تعرف باسم ديونيسيوس بيتوسرابيس . وكما يبدو من اسمه الثانى أنه كان من أصل مصرى، ولا بد أنه تمكن من الوصول إلى مركز كبير فى القصر . وهذه هى أول مرة نرى مصريا يحتل مثل هذه المكانة فى الدولة البطلمية . كان بيتوسرابيس ذا شعبية كبيرة بين المصريين ، فحاول أن يستغل الانقسام الأسرى وأن يضرب أحد الملكين بالآخر ثم يطيح بهما معا . فأثار فى الأسكندرية ثورة ضد الملك الأكبر بطلميوس السادس، مدعيا مناصرة الملك الأصغر ولكن انكشفت حيلته ، واتفق الملكان ضد حركته وأمكن القضاء على ثورته فى الأسكندرية . ولكن الثورة كانت قد انتشرت فى الصعيد أيضاً ، فمضى إليها الملك بطلميوس السادس بشخصه وقضى عليها . ولكن عند عودته منتصراً إلى الأسكندرية فى سنة ١٦٤ ، كان أخوه قد دبر ضده انقلابا ، حتى اضطر فيلوميتور أن يفر بحياته إلى روما .

يبين لجوء الملك البطلمى إلى روما على هذا النحو مقدار الهوان الذى آلت إليه الأسرة البطلمية فى مصر ، ويبين أن هؤلاء الملوك قد فقدوا صفة الاستقلال السياسى ، ولم يعودوا سوى دمى يحركها مجلس السناتو (الشيوخ) فى روما . وقف فيلوميتور أمام مجلس السناتو يريق ماء وجهه ، يستعطفه ويتوسل إليه . وأبدى السناتو عطفه على الملك اللاجىء إليه، بأن أبدى موافقته على أن يتقاسم هو وأخوه ممتلكات مصر، بحيث تكون مصر وقبرص من نصيب فيلوميتور ، وبرقة من نصيب أخيه . ولكن السناتو لم يسع لتنفيذ رغبته بالقوة. وعلى هذا اكتفى فيلوميتور بالذهاب إلى قبرص منتظرا الفرصة التى يعود فيها إلى الأسكندرية. وسرعان ما سنحت الفرصة فى عام ١٦٣ حين قامت ثورة فى الأسكندرية ضد الأخ الأصغر تطالب بعودة فيلوميتور . وحضرت بعثة من روما أشرفت على عودة

فيلوميتور من قبرص، وأخذت العهد على الأخوين أن ينفذا رأى روما فى تقسيم المملكة بينهما ، وأن يذهب الأخ الأصغر إلى برقة [1] .

وهكذا انفرد الملك بطلميوس السادس فيلوميتور بملك مصر مرة ثانية ، وقد أصدر بهذه المناسبة عفوا عن جميع الجرائم التى كانت قد ارتكبت حتى ذلك الوقت (أغسطس ١٦٣) . أما عن أعمال هذا الملك بعد ذلك ، فما وصلنا عنها قليل . منها أنه جريا على سياسة البطالمة المتأخرين ، أبدى اهتمامه بكسب ود المصريين عن طريق بناء المعابد والتقرب إلى الكهنة . أما فى مجال السياسة الخارجية ، فقد حاول فى آخر حياته أن يستغل فرصة النزاع الأسرى فى الدولة السليوقية ، وحاول استرداد سوريا الجنوبية لسلطان مصر . وفعلا أعد جيشا زحف به على سوريا واستولى عليها . ولكن ما لبث أن دارت عليه الدائرة وسقط قتيلا فى أرض المعركة سنة ١٤٥ فى فلسطين .

بطلميوس السابع وبطلميوس الثامن يوإرجتيس الثانى :

موت فيلوميتور فجأة ترك على عرش مصر للمرة الثالثة ابنا صغيرا تحت وصاية أمه الملكة كليوباترا . هذا الطفل الذى عرف باسم بطلميوس السابع ، لم يبق على العرش سوى أشهر قليلة ريثما استطاع عمه بطلميوس الذى كان فى برقة أن يعود إلى الأسكندرية وأن يستولى على العرش ، ويصبح الملك بطلميوس الثامن متخذا لقب يوإرجتيس الثانى . بعد ذلك تزوج أخته الكبرى كليوباترا أرملة أخيه فيلوميتور ، وقتل ابنها بطلميوس السابع . ولم يكتف

(١) ومن برقة أخذ هذا الأخ الأصغر يتقرب ويتزلف إلى الرومان . وقد عثر على نقش فى برقة أوصى فيه بأن تؤول مملكته إلى روما إذا توفى دون وريث . ورغم أن هذه الوصية لم توضع موضع التنفيذ إلا أنها تدل على مدى اعتماد البطالمة على روما S. E.G. IX. no. 7 وتوجد ترجمة عربية لهذا النقش فى كتاب الدكتور عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ١٠) .

بهذا القدر من إحراج كليوباترا الثانية، بل بلغ من استهتار هذا الملك وإباحيته أنه اغتصب ابنتها الصغيرة ثم تزوجها ولقبت كليوباترا الثالثة (قبل ١٤١ – ١٤٠ ق. م.)

لم يكن غريباً إذن أن قوبل هذا السلوك الشاذ بغضب الأهالى وسخطهم فى الأسكندرية أولا. ثم فى سائر مصر بعد ذلك. ولم يكن غريباً أن تحظى الملكة الوالدة كليوباترا الثانية بعطف الشعب ونصرته ضد يوإرجتيس. وظل الموقف يتأزم شيئاً فشيئاً نتيجة سياسة يوإرجتيس الخرقاء فى اضطهاد خصومه وخاصة بين المثقفين فى الأسكندرية، حتى انفجرت ضده ثورة عنيفة (١٣١ — ١٣٠) حاولت أن تحرق القصر الملكى، فاضطر الملك إلى الفرار مع زوجته الصغيرة كليوباترا الثالثة إلى قبرص، بينما بقيت كليوباترا الثانية ملكة بمفردها فى مصر. ولكن القياد لم يسلس لها إذ شب فى أنحاء البلاد صراع عنيف بين أنصارها وأنصار الملك الهارب. وتعرف هذه الفترة من الفوضى والحرب الأهلية باسم « أمكسيا Amixia » وهو لفظ يعنى أن الدولة قد تقطعت أوصالها. فى خلال عامين استطاع يوإرجتيس على أى حال استعادة ملكه فى الأسكندرية، رغم أن الثورة فى سائر أنحاء البلاد وخاصة فى طيبة، حيث العصبية المصرية قوية جداً[1]، استمرت حتى سنة ١٢٧. بعد أن استرد يوإرجتيس سيطرته على البلاد، رأت أخته الملكة كليوباترا الثانية أن لا قرار لها فى مصر، فتركتها إلى أنطاكية فى سوريا.

من المحتمل أن عودة يوإرجتيس، وانتصاره على هذا النحو كان بتأييد من روما. فكما رأينا من قبل كانت روما دائماً ترقب الموقف فى الشرق الأوسط

---

(١) من دلائل ازدياد النفوذ المصرى فى الدولة أن مصريا تولى منصب استراتيجوس فى طيبة فى عهد يوإرجتيس الثانى (O. G. I. S. 132 (130 B. C.)

وتتدخل عند الضرورة بما يكفل مصالحها . ولكن ماذا كانت مصالح روما فى مصر فى ذلك الوقت ؟ هل هو الحرص على أن تبقى مصر ضعيفة حتى لا تستطيع بسط سلطانها على سوريا ، فتقوم دولة قوية فى الشرق تنازع سيطرة روما على البحر الأبيض ؟ لقد كانت هذه هى سياسة روما تجاه مقدونيا واليونان والدولة السليوقية فى سوريا إلى حد كبير ، أما فى مصر فقد كان الموقف أكثر تعقيداً من ذلك . فإن روما كانت تعتمد اعتماداً تاماً على استيراد القمح من شمال أفريقية وصقلية . ويبدو أنها اعتادت أيضاً استيراد القمح المصرى منذ عهد بطلميوس الثانى فى القرن الثالث ق . م . ويبدو أيضاً أنه خلال القرن الثانى ق . م . بينما ازداد التقارب بين روما ومصر ، على نحو يكفل تدخل الأولى فى شئون الثانية ، ازداد تبعاً لذلك اعتماد روما على استيراد القمح المصرى . ومن أجل ذلك كانت روما تحرص دائماً على أن يستتب الأمن فى مصر فى ظل ملك صديق لها . وليس أدل على حرص الرومان على إنهاء حالة الحرب الأهلية فى مصر بين يورجتيس وكليوباترا الثانية مما قام به التجار(١) الرومان المقيمون بالأسكندرية من التعبير عن سرورهم « بأخذ الملك بطلميوس يورجتيس للأسكندرية » فى أكثر من نقش سجلوه فى معبد أبولو فى جزيرة ديلوس . مثل هذا الموقف له من غير شك دلالته فى فهم سير الأحداث السياسية وعلاقتها بالمصالح التجارية الأجنبية .

ولا شك أن الحالة العامة فى مصر بعد توالى المنازعات والحروب الأهلية قد بلغت حداً من الفوضى والتخلف والاضطراب يخشى منه على كيان الدولة ذاتها . فهذه الكوارث المتلاحقة أصابت الإدارة والاقتصاد بالتدمير التام ، ونحن نعرف أن مصر كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على تصدير القمح ، ليس

---

(١) F. Durrbach, Chöix d'Incriptions de Delos, nos 105-107

لروما فحسب ، التى كانت عميلا جديداً ، ولـكن للمدن اليونانية العريقة فى المحل الأول لهذا ، من أجل أن تستعيد مصر شيئاً من الاستقرار الداخلى والنشاط التجارى الخارجى ، كان لا بد من القيام بإصلاحات جذرية فى كل مجالات الإدارة والاقتصاد . ولـكن — كما ذكرنا من قبل — كانت الدولة البطلمية فى ذلك الوقت عاجزة عن الإصلاح الحقيقى . ومع ذلك قد حفظت لنا أوراق البردى وثيقة بالغة الأهمية ، تعتبر أهم مصدر لدينا لدراسة الأحوال الإدارية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد فى العصر البطلمى المتأخر . (١) هـذه الوثيقة من نوع يسمى بوثائق العفو العام Philanthropa ، وهو يصور لنا أن يوإرجتيس الذى يصوره المؤرخون القدماء على أنه كائن منحرف شهوانى غليظ سفاح ، يمـكن أن يقدر مسئولية الحـكم، ويحاول الإصلاح بطريقة جدية أيضاً . فنراه فى هذا « العفو العام » يحاول إعادة الاستقرار للبلاد ، وأن يطمئن كل شخص على أرضه أو بيته وأسرته ، حتى يقبل على العمل والإنتاج فى ظروف مطمئنة فهو يبدأ بإعلان عفو شامل عن جميع الجرائم التى ارتـكبت حتى صدور الوثيقة فى مارس سنة ١١٨ باستثناء جرائم القتل وسرقة المعابد. وبعد ذلك يعلن تنازل الدولة عن معظم الضرائب على المزارعين ، وبعض الضرائب والديون عموماً ، ويمنح المزارعين الذين يستصلحون الأراضى البور امتيازات كبيرة لمدى سنوات عديدة . كما نجد هناك محاولة صريحة لإرضاء المصريين برفع المظالم عنهم ، من ذلك تثبيت ملـكية المصريين الذين آلت إليهم أراضى من إقطاعات الدولة العسكرية ، كما أعفى هؤلاء من بعض الخدمات الإجبارية، كذلك ثبتت مالية المعابد المصرية حسب إيراداتها الفعلية. وهناك بنود أخرى فى هذا الإعلان التاريخى تحظر على الموظفين استغلال نفوذهم، أو أن يأخذوا من الأهالى شيئاً بغير وجــه حق ، ومنع استخدام وسائل العنف

---

(١) Papyri Tebtunis I no. 5 (118 B. C.)

والتعذيب التى كانت منتشرة فى تقاضى حقوق الدولة من المزارعين والعمال .

هذه صورة مجملة عن أعظم عمل قام به يوإرجتيس الثانى ، ونحن لا نشك فى صدق نية الملك أو مستشاريه فى إصدار هـذا الإعلان ، لأن الحالة العامة كانت تفرض عليهم القيام بشىء من هذا القبيل لإيقاف تيار التدهور الشديد . ولـكن لسوء الحظ أن الإصلاح لايتحقق بمجرد إصدار القوانين واللوائح مهما كانت النية من خلفها صادقة مخلصة . وإنما الأساس فى الإصلاح هو القدرة عليه ، وهذه لاتتأتى إلا بعزيمة وجهد وعمل متصل إلى جانب كفاءة وإمكانيات لتحقيق الإصلاح المطلوب . ولـكن شخصية يوإرجتيس الثانى كما نعرفها كانت عاجزة عن كل هذا . ومع ذلك فنحن لا ننـكر أنه كان لمثل هذا الإعلان من جانب الملك بعض الفائدة فى علاج بعض المظالم ، ولـكنه كان عاجزاً كل العجز عن وقف التدهور وتوجيه الدولة نحو التقدم والازدهار ، كما كانت فى عصر البطالمة الأولين .

بعد هذه الحالة اليائسة من الملك أو مستشاريه بعامين ، توفى ثامن ملوك البطالمة فى عام ١١٦ ق . م وهو فى سن الخامسة والستين ، تاركا من كليوباترا الثالثة خمسة أطفال ، ولدين وثلاث بنات، ثم ابناً آخر غير شرعى هو بطلميوس أبيون . ورغم أن يوإرجتيس الثـانى نفسه قاسى بسبب المنازعات الأسرية والحروب الأهلية ، وعرف مقدار ما أصاب البلاد من جرائها ، فإنه لم يتعلم من ذلك كله درساً ، ولم يحاول تجنبه فى أولاده من بعده ، فالوصية التى أعلنت عند وفاته ابتدأت فترة أخرى من المنازعات حول العرش استمرت ستة وثلاثين عاماً . فقد أوصى بأن يعين ابنه غير الشرعى بطلميوس أبيون حاكماً على برقة. وفى مصر لم يوص لأحد من أبنائه بأن يخلفه على العرش ، بل ترك زوجته كليوباترا الثالثة ، وترك لهـا حرية اختيار شريك لها من أحد الابنين كيفما شاءت . ونظراً لأننا لا نستطيع أن نعرض هنا لتفاصيل الخلافات بين الأم

وأولادها ، فسوف نحدد أولا تواريخ وتناوب الأبناء على العرش فى الفترة ١١٦ — ٨٠ ق . م . تولى الابن الأكبر العرش مع والدته عقب وفاة والده فى عام ١١٦ ، وأصبح الملك بطلميوس التاسع الملقب بسوتير الثانى ، وتزوج من أخته الكبرى كليوباترا الرابعة . ولما ضاقت الملكة الوالدة بهذه الابنة أبعدتها عن ابنها الملك ، وزوجته من أخته الصغرى كليوباترا سيليني (أى القمر) التى أصبحت من بين من حملن هذا الاسم كليوباترا الخامسة . أما كليوباترا الرابعة فقد تركت مصر إلى قبرص ومنها إلى سوريا لتجمع لها جيشاً ولكن لقيت حتفها هناك .

على أى حال استمرت الملكة كليوباترا الثالثة فى الحكم ومعها ابنها سوتير الثانى وزوجته كليوباترا الخامسة حتى عام ١٠٧ حين ضاقت الملكة الوالدة بابنها الأكبر ، فأثارت عليه الشعب فى الأسكندرية ، ودعت ابنها الأصغر من قبرص ليتولى العرش معها وأصبح بطلميوس العاشر الملقب باسكندر الأول . واضطر سوتير الثانى أن يفر بنفسه ويستقر فى قبرص . وقد بقى بطلميوس اسكندر شريكا لوالدته فى العرش حتى توفيت فى عام ١٠١ فانفرد هو بالملك حتى عام ٨٨ ، حين ثار ضد حكمه الفاسد الجيش والشعب فى الأسكندرية ، فهرب إلى سوريا وحاول العودة ثانياً ففشل ، ثم لقى حتفه أثناء محاولة الذهاب إلى قبرص .

استدعى بطلميوس سوتير مرة ثانية ، بعد طرد أخيه فى عام ٨٨ ، وبقى على العرش فى مصر وقبرص معاً حتى وفاته فى عام ٨١ .

هذه الفترة القلقة شغلتها الأحقاد والمنافسات والمؤامرات ، ولم تتميز بأى عمل جليل من جانب الملوك المختلفين . ومن أهم أحداث هذه الفترة التى تصم الأسرة البطلمية فى عهدها الأخير بالخزى والعار ، أن حاكم برقة ، بطلميوس

أبيون أوصى فى عام ٩٦ بأن تؤول مملكته إلى الشعب الرومانى بعد وفاته . فكانت هذه أول خطوة رسمية فى تحول جزء من الدولة البطلمية إلى التبعية الرومانية .

أما فى مصر ذاتها فرغم اهتمام الملك سوتير الثانى بالمعابد ومبانيها فقد ازداد المصريون بغضاً وضيقاً بالأسرة الحاكمة ، فتجددت الثورات الوطنية ، وكان أهم مراكزها إقليم طيبة حيث استمرت الثورة ما يربو على ثلاث سنوات .

وعدا ذلك فليس هناك ما يستحق التسجيل بشىء من الفخار لملوك هذه الفترة الضعاف . بطلميوس الثانى عشر الزمار : بموت بطلميوس سوتير الثانى تبدأ المرحلة الأخيرة من تاريخ البطالمة التى تصبح فيها مصر جزءاً أساسياً من عالم السياسة الرومانية وتتدخل روما فى شئونها تدخلا صريحاً ، ليس بالأساليب السياسة فحسب بل بجيوشها أيضاً .

بعد أن عاد سوتير إلى عرش مصر عام ٨٨ تزوج مرة ثالثة من برنيقة الثالثة ، ولم ينجب منها أطفالا ، ولهذا بقيت ملكة مفردة على عرش مصر بعد موته سنة ٨١ . ولم يكن هناك وريث شرعى للملك السابق ليكون ملكا معها . ولكن وجد أن هناك ابنا للملك الأسبق بطلميوس إسكندر وكان موجوداً فى روما ، فتبنت روما قضية هذا الابن وأرسلته إلى مصر ليتزوج الملكة برنيقة ويصبح الملك بطلميوس الحادى عشر اسكندر الثانى ، ولكن هذا الملك لم يلبث أن دبر مؤامرة للملكة وقتلها فثار عليه الشعب وقتلوه سنة ٨٠ .

فخلا العرش مرة ثانية فى ظرف سنة واحدة . ولكن وجد أيضاً ابنان غير شرعيين للملك سوتير الثانى فعين أحدهما ملكا لقبرص والآخر ملكاً على

مصر سنة ٨٠ وأصبح بطلميوس الثانى عشر الذى اشتهر بلقب الزمار Auletes غير أن لقبه الرسمى هو ديونيسيوس الصغير Neos Diongsios وقد تزوج من كليوباترا السادسة ، ولعلها كانت أخته أيضاً . ولكن روما لم ترض عن تعيين بطلميوس الزمار ملكا لأنه تم بغير إرادتها فرفضت الاعتراف به . وفى الوقت نفسه أخذ الرومان يلوحون للملك الجديد أن لديهم وصية(١) الملك السابق بطلميوس اسكندر الثانى ، وأنه قد أوصى فيها بأن تؤول مصر بعد موته إلى الشعب الرومانى كما حدث فى السنين الأخيرة فى حالتى برقة ومملكة برغامة . ونحن لا نعرف مدى أصالة هذه الوثيقة ، إذ لعلها مزيفة ، أو كيف وصلت إلى روما دون أن يعلم أحد فى القصر الملكى بالأسكندرية بأمرها . . وعلى أى حال سواء أ كانت الوصية صحيحة أم مزيفة فإن هذا لا يفيد شيئاً أمام سياسة القوة الرومانية . فقد كان فى استطاعة روما أن تثبت صحة هذه الوثيقة وتنفذها بقوة جيشها .

كان بطلميوس الزمار من عينة الملوك البطالمة المتأخرين الضعاف الذين يميلون إلى الملذات الحسية والإغراق فيها ولهذا كانت قدرته السياسية محدودة جداً ، فهو لم يقتصر على السكوت أو اتخاذ موقف سلبى من دعوى روما بل نجده يتهالك فى خضوع وضعف شديدين على روما وسياستها محاولا شراء اعترافهم له بأى ثمن . ولم يكن من الصعب شراء أى شىء فى روما متى توفر الثمن ، كما يقول شاعرها الساخر جوڤينال . وقد سلك بطلميوس الزمار هذا السبيل .

---

(١) أنظر G. I. Luzzato, Epigralica giuridica qreca e rowana (R. Universita di Roma. Publ, del lust di Diritto Romano, dei Diritti dell' Oriente Meditrraneo, e di Stovia del Diritto, 19), Milano (1942) pp. 103-5.

وفى سنة ٥٩ كان يوليوس قيصر زعيم الحزب الشعبى قنصلا فى روما، وعلم أن مسألة ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية كانت ضمن برنامجه السياسى. وسعى بطلميوس الزمار لأن يثنى قيصر عن خطته نحو مصر، ونجح فى ذلك نظير ثمن باهظ جداً، فبعد أن دفع لقيصر ٦٠٠٠ تالنتوم (وهو مايعادل نصف دخل مصر) أعلن قيصر اعتراف روما ببطلميوس الزمار ملكا على مصر، كما أعلن عقد معاهدة معه على أنه حليف وصديق الشعب الرومانى، ولكن يبدو أن الثمن الذى تقاضاه قيصر نظير اعترافه لم يقتصر على هذا المبلغ الضخم، بل تضمن أيضاً تنازل بطلميوس الزمار لروما عن قبرص. ورغم أن هذا التنازل لم يعلن رسمياً إلا أن أن روما أعلنت فى العام التالى ٥٨ ق. م ضم قبرص إليها وتحويلها إلى ولاية رومانية، وقد تم ذلك دون أن يحــرك بطلميوس الزمار ساكناً، رغم انتحار أخيه ملك قبرص، وأمام هذا المسلك الغريب من الملك البطلمى ثار الشعب ضده فى الأسكندرية، فهرب إلى روما. وبقى هناك حتى عام ٥٥ ق. م حين قرر ساسة روما إعادته إلى عرشه بمساعدة جيش رومانى، عين لقيادته ضابط رومانى شاب هو ماركوس أنطونيوس واستطاع هذا الجيش أن يقضى على أدعياء العرش الذين أقامهم الأسكندريون ملوكاً عليهم، وأن يثبت بطلميوس الزمار على عرشه. وقد بقى الجيش الرومانى بالأسكندرية لحماية الملك، ويقال أن أنطونيوس، رأى أثناء إقامته فى القصر بالأسكندرية كبرى بنات بطلميوس الزمار، كليوباترا التى ستصبح ملكة مصر الشهيرة، وأنها أثارت عواطفه نحوها رغم أنها لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة.

لم يكتف الملك بطلميوس الزمار بهذا الهوان الذى جلبه على نفسه بل زاد الطين بلة، أنه أثناء التجائه فى روما كان قد اقترض أموالا ضخمة من شخص

يسمى رابيريوس Raberius ، فلما عاد إلى مصر وأراد أن يسدد ديونه لم يستطع لإفلاس الدولة ، فعوضه بأن عينه وزيراً لماليته ، ليتصرف كيفما شاء في خزائن مصر . فما كان من الشعب إلا أن ثار ضد هذا الوضع ، وكاد أن يهلك رابيريوس لولا أن الملك دبر حيلة لهروبه . ولم يطل العمر بالملك طويلا بعد ذلك وتولى في سنة ٥١ ق . م .

حـ - كليوباترا السابعة (٥١ - ٣٠ ق.م.)

يعتبر الفصل الأخير من تاريخ الدولة البطلمية فى مصر من أغرب الفصول فى تاريخ الإنسان. فلم يشهد التاريخ امرأة تستخدم أنوثتها بهذه القوة وهذه المهارة كما استخدمتها ملكة مصر الجديدة كليوباترا. فحين اعتلت كليوباترا العرش بعد وفاة والدها، كانت مصر دولة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، قد فقدت جميع ممتلكاتها لروما، ولا يستقر لها ملك إلا باعتراف روما ووجود جيش رومانى يسنده فى الأسكندرية، ونظير أن تتقبل روما هذا الخضوع من الملك البطلمى كانت تتقاضى أفحش الثمن كما رأينا من قبل؛ من مركز هذا الهوان الشديد خرجت كليوباترا على العالم كامرأة سافرة بغير جيش أو مال وتقتحم معترك السياسة العالمية، لتواجه بشخصها المجرد أقوى دولة فى العالم.

وبدلا من أن تنتظر قادة روما حتى يغزوا مصر، عولت هى على غزو قلوبهم وتحويلهم إلى أدوات طيعة فى يديها. واستطاعت عن هذا السبيل أن تمد نفوذها الملكى إلى آفاق أبعد كثيراً من آفاق مصر وتكاد تصبح إمبراطورة العالم القديم بأسره ممثلا فى الإمبراطورية الرومانية ذاتها[1].

---

(١) الكتب التى كتبت عن كليوباترا السابعة كثيرة جدا، ومن أهمها:

A. Weigall, The Life and Times of Cleopatra, Queen of Egypt (1926);

O. von Wertheimer, Cleopatra a Royal Voluptuary (1931);

H. Volkmann, Cleopatra, A Study in Politics and Propaganda (1953)

وقد صدر عنها أخيرا باللغة العربية، كتاب شيق هو « كليوباترة، سيرتها وحكم التاريخ عليها. » تأليف الأستاذ زكى على.

(كليوباترا وأخوها)

عند وفاة بطلميوس الزمار فى عام ٥١ كانت كليوباترا فى سن السابعة عشرة. وكان والدها قد أوصى بأن يؤول العرش لها ولأكبر أخويها الذى أصبح بطلميوس الثالث عشر. ومن بين ما أوصى به الملك المتوفى أيضاً أن ترعى روما تنفيذ وصيته على هذا النحو، على أى حال نفذت وصيته فى سهولة ويسر وأصبحت كليوباترا وأخوها شركاء فى العرش تحت إشراف وتوجيه عصابة رجال القصر والحاشية، يتصرفون فى الدولة كيف يشاءون. ولكن لم يكد عام ٤٨ يأتى حتى كانت العلاقات بين كليوباترا ورجال القصر قد تأزمت. فمرور ثلاث سنوات زاد كليوباترا نضجاً وخبرة بأمور القصر، فأرادت بذكائها الفذ وشخصيتها الطموح أن تكون هى المتصرفة فى السياسة والحكم. فأشارت عصابة الحاشية من محترفى مؤامرات القصر إشاعة ضدها، بأنها تسعى إلى قتل أخيها والتفرد بالعرش مخالفة بذلك إرادة ووصية والدها. ولما كان قائد الجيش من بين عصابة القصر فقد استطاعوا أن يثيروا عليها الجيش وشعب الأسكندرية معا حتى اضطرت كليوباترا إلى الفرار من المدينة، ولجأت الى الحدود الشرقية للدولة حيث جمعت لنفسها جيشاً تسترد به عرشها. وفى الوقت نفسه سار الجيش باسم أخيها الملك وحقوقه إلى بلوزيوم ليسد عليها طريق العودة.

(كليوباترا وقيصر):

فى هذه الأثناء كانت تدور على الشاطىء الآخر من البحر الأبيض المتوسط معركة أخرى، هى معركة فارسالوس التى انتصر فيها قيصر على پومبى، ففر الأخير إلى مصر، آملا أن يجد فيها ملجأ وعوناً، خاصة وأنه صاحب الفضل فى إعادة وتثبيت بطلميوس الزمار على عرشه. وتوجه پومبى إلى بلوزيوم حيث معسكر

للملك ، ولكن حدثت خيانة ، إذ اغتاله أحد الجنود الرومان أثناء نزوله إلى الشاطىء .

بعد فارسالوس لم ينتظر قيصر طويلا ، بل تتبع بومبى إلى مصر ، واتجه إلى الأسكندرية فدخلها ووجدها خالية من الملكة والملك ، وكان يعلم قصة الخلاف بينهما . فأعلن نفسه حكما فى الخلاف ، منفذاً لإرادة الملك الراحل والدهما ، وطلب أن يمثلا أمامه ، فحضر الملك من بلوزيوم ، أما الملكة فكانت جيوش الملك تقف حائلا بينها وبين دخول الأسكندرية . ويقال أنها انتحلت لذلك حيلة بارعة ، وهى أنها استقلت قارباً ودخلت المدينة عن طريق البحر يحملها رجل وهى مختبئة داخل سجادة ملفوفة ، ثم ذهب بها إلى قيصر ، فلما بسطت السجادة خرجت منها كليوباترا ذات حسن ودلال . هذه البداية المرحة جعلت العلاقة بين قيصر وكليوباترا تقوم على أساس العلاقة بين رجل وامرأة لا بين دكتاتور روما وملكة مصر . وبطبيعة الحال أقر قيصر الملكة على عرشها على أن يشاركها أخوها .

ولكن ساسة القصر الذين أدركوا اتجاه عواطف قيصر منذ اللحظة الأولى ، حاولوا عدم تنفيذ إرادة قيصر بالقوة ، فأرادوا أن يستغلوا ضعف مركز قيصر وقلة عدد جنوده بالنسبة لعدد جيوشهم الجرارة وأعلنوا الحرب باسم الدولة ضد الدخيل الأجنبى . ولعل من الطريف أن نورد هنا وصف يوليوس قيصر لجيش الدولة البطلمية الذى حاربه ، فهو يلقى ضوءاً على حالة الجيش والدولة معا :

« إن جيش إخيلاس (القائد) لم يكن بالدرجة التى يستهان بها من ناحية الحجم ونوع رجاله وخبرتهم فى الحرب فقد كان لديه عشرون ألفاً تحت السلاح يتألفون من جنود جابينيوس ، الذين استمرأوا حياة الإنطلاق فى الأسكندرية ، قد نسوا النظام الرومانى ومعنى انتسابهم لشعب روما ، واتخذوا لأنفسهم

زوجات ، وأنجب كثير منهم أطفالا . أضف إلى هؤلاء أعداداً من اللصوص وقطاع الطرق فى سوريا وكيليكيا وللناطق المجاورة ، وقد انضم إليهم كثيرون من المجرمين والمنفيين ، فكل من يفر من عبيدنا كان له ملجأ مأمون وحياة مطمئنة فى الأسكندرية . ماداموا يسجلون أنفسهم فى عداد الجنود ... هؤلاء الجنود كانوا يطالبون بقتل أصدقاء الملوك ، وينهبون أملاك الأثرياء ، ويحاصرون قصر الملك من أجل المطالبة بزيادة رواتبهم ، ويطردون بعض الملوك من العرش ويعينون آخرين ، جريا فى الواقع على عادة قديمة لجيش الأسكندرية . وكان هناك إلى جانب هؤلاء ألفان من الفرسان . هؤلاء الجنود كانوا قد شاخوا فى حروب الأسكندرية المتعددة ، عندما أعادوا بطلميوس الوالد (الزمار) إلى عرشه ، وعندما قتلوا ابنى بيبولوس ، وأثناء حروبهم ضد المضريين ، هكذا كانت خبرتهم الحربية .

هذه هى القوات التى وثق فيها أخيلاس ، محتقراً جيش قيصر لقلة عدده ، وقام باحتلال الأسكندرية باستثناء ذلك الجزء من المدينة الذى احتله قيصر بجنوده » (١) .

هذا هو الجيش الذى تصدى لحرب قيصر وجيشه القليل فيما يعرف « بحرب الأسكندرية . » ولم تكن بالحرب السهلة فقد استطاع الجيش المصرى أن يوقع قيصر فى مواقف غاية فى الحرج كاد فى بعضها أن يفقد حياته هو . وقد حرص قيصر على أن يسيطر على منطقة القصر الملكى والميناء حتى يمكنه أن يتصل بقواته خارج مصر .

وقد كان الملك والملكة فى القصر فى يد قيصر ، وحدث فى أثناء هذه

---

(١) Caesas, Bell. Civ. III 110—111

حرصنا على إيراد هذا النص نظرا لدقة قيصر المألوفة حتى عندما يصف خصومه .

الحرب أن احترق عدد من سفن قيصر فى الميناء وامتدت النار إلى الأرصفة والمبانى المجاورة . ويقال أن عددا كبيرا من الكتب التهمته النار ، وليس من المؤكد إذا كانت هذه الكتب فى الميناء معدة للتصدير أو جزءاً من مكتبة الأسكندرية الشهيرة .

وفى بعض مراحل هذه الحرب حاول قيصر أن يسيطر على الجسر الموصل بين جزيرة فاروس والمدينة ولكنه فشل وفقد أربعمائة من جنوده وكاد هو أن يهلك معهم لولا أنه ألقى بنفسه إلى الماء وسبح إلى سفينته .

بعد هذه المواقف الحرجة وصلت إلى قيصر قوات من جيوشه عن طريق سوريا وحاصرت الأسكندرية واستطاع هو أن يتصل بها وأن يقضى على خصومه ويستولى على الأسكندرية . بعد الهزيمة حاول الملك البطلمى الصغير ، وكان قد انتقل إلى جانب جيشه ، أن يهرب إلى الشرق ولكنه غرق أثناء عبوره للنيل .

عندما دخل قيصر الأسكندرية منتصراً فى يناير سنة ٤٧ ق.م. ، أعلن كليوباترا من جديد ملكة لمصر وزوجها من أخيها الأصغر بطلميوس الرابع عشر . وبعد ذلك قضى قيصر الشتاء فى مصر فى نزهة نيلية مع كليوباترا إلى الصعيد حتى الحدود الجنوبية ، وذلك رغم أن العالم الخارجى كان ينتظر عودته لمواجهة مشاكل السياسة والحرب . ولكن يبدو أن كليوباترا كان لها من القدرة بحيث تملأ على الرجل قلبه وعقله معاً ، حتى أن قيصر آثر أن يؤجل مباشرة الموقف فى الإمبراطورية ريثما ينعم قليلا بصحبة الملكة المصرية . ومن المحتمل أن قيصر قد تنازل لها فى هذه المناسبة عن جزيرة قبرص . وفى ابريل غادر قيصر الأسكندرية ومصر إلى سوريا بعد أن ترك بها حامية رومانية لضمان استقرار الأحوال بها على النحو الذى رسمه . بعد ذلك فى ٢٣ يونيه

سنة ٤٧ ق. م. وضعت كليوباترا طفلها من قيصر وأسمته قيصر كذلك ، ولكن أهل الأسكندرية أسموه قيصرون (وهو تصغير قيصر) على سبيل السخرية .

وعندما عاد قيصر إلى روما فى سنة ٤٦ ق. م. ذهبت إليه كليوباترا واتخذت مقامها فى حدائقه على ضفة نهر التيبر ، ورغم كراهية الرومان لها ، باعتبارها عشيقة قيصر الذى كان له زوجته الشرعية ، إلا أن كثيرين من علية القوم فى روما ترددوا على مجلسها . وفى الوقت نفسه أحاطها قيصر بكل رعاية وتكريم ، فأعلن اعترافه رسميا ببنوة ابنه من كليوباترا ، كما أقام لها تمثالا من الذهب فى معبده الجديد للإلهة ڤينوس . فى هذه الأثناء أخذت تنتشر إشاعات حول أهداف قيصر السياسية وأنه يرمى إلى تحويل الإمبراطورية إلى مملكة من نوع الممالك الهلينستية الشرقية ، يكون هو ملكها وكليوباترا ملكتها . ولكن رجال السناتو فى روما من الحزب الجمهورى لم يصبروا طويلا على هذه الحال ، وفى ١٥ مارس سنة ٤٤ ق. م. قاموا بمؤامرة اغتيال قيصر داخل مجلس السناتو ، مما ألقى بالإمبراطورية فى أتون الفوضى والحرب الأهلية من جديد . وأدركت كليوباترا أن روما لم تعد مستقرا لها بعد ذلك فغادرتها خفية وعادت إلى مصر . وبعد عودتها توفى أخوها بطلميوس الرابع عشر فى ظروف غامضة ، وأعلن ابنها قيصر شريكا لها فى العرش الذى يطلق عليه اسم بطلميوس الخامس عشر قيصر .

كليوباترا وماركوس انطونيوس :

إذا كان مصرع يوليوس قيصر فى منتصف مارس سنة ٤٤ قد قضى أيضا على آمال كليوباترا العريضة فى أن تصبح امبراطورة روما ، فإن الأقدار سرعان ما ألقت إليها بمغامرة ثانية بعثت آمالها من جديد ، فبعد أن انتهت

الحزب الأهلية التى أعقبت مصرع قيصر بانتصار أوكتافيان وماركوس أنطونيوس سنة ٤٢ ، اقتسم القائدان المنتصران الامبراطورية فيما بينهما ، فآلت الولايات الغربية لأوكتافيان والولايات الشرقية لماركوس أنطونيوس . وكانت مصر فى ذلك الوقت الدولة الوحيدة التى لم تزل مستقلة عن الإمبراطورية الرومانية فى الشرق ، فكان لا بد لأنطونيوس من أن يحدد علاقته معها . فبعث إلى كليوباترا يدعوها لمقابلته فى افيسوس . وأدركت كليوباترا فى الحال أنه ربما كانت تلك دعوة إلى مغامرة أخرى تعوضها عن فقد قيصر . فمضت إلى أنطونيوس تحمل معها سلاحين خطيرين هما ، أنوثتها وعقلها اللماح . ومنذ اللقاء الأول كان لأسلحة كليوباترا النصر التام ، وأصبح أنطونيوس أسير غرامها لا يعصى لها أمرا . وفى الشتاء التالى سنة ٤١ ـ ٤٠ حضر أنطونيوس إلى مصر وأطلق العنان لشهواته مع كليوباترا ، وفى الأعوام التالية توطدت العلاقة بين القائد الرومانى والملكة المصرية وتعددت فترات اللقاء بينهما وطالت سواء فى مصر أو فى خارجها . وأنجبت كليوباترا من أنطونيوس أطفالا ثلاثة ، ولدين وبنتاً ، حتى إذا كان عام ٣٥ ق. م. أعلن أنطونيوس طلاقه من زوجته أكتافيا أخت أكتافيان ، كما أعلن شرعية علاقته بكليوباترا . وبعد ذلك حضر إلى مصر وأعلن تقسيم الولايات الشرقية بين أبنائها جميعا بينما أصبحت كليوباترا نفسها ملكة على الولايات الشرقية كلها ، وهو ما لم يجرؤ أحد من البطالة من قبل على التفكير فيه إبان أعظم أيامهم .

ولكن لا بد للأقدار من دورة ، فما كاد أنطونيوس يعلن طلاقه من أكتافيا حتى شن ضده أخوها أكتافيان ، الحاكم فى روما وفى غرب الامبراطورية حملة شعواء من الدعاية والتشهير به وبمسلكه مع كليوباترا . ثم اتخذ من أعمال أنطونيوس دليلا على أنه قد حول الولايات الشرقية إلى مملكة هو ملكها وكليوباترا ملكتها وأولادها ورثتها ؛ وهو ما يعتبر بمثابة خيانة لشعب روما

والمثل الرومانية . وبذلك عبأ الرأى العام فى روما ضد أنطونيوس ثم أعلن عليه الحرب باسم إنقاذ الإمبراطورية ، ودارت المعركة الفاصلة بينهما عند أكتيوم البحرية فى غرب اليونان فى سبتمبر سنة ٣١ . وكانت كليوباترا موجودة على رأس أسطولها إلى جانب أنطونيوس ، ولكن ما كاد يتضح تفوق أكتافيان فى المعركة حتى انسحبت كليوباترا إلى الأسكندرية ، وفى أثرها أنطونيوس . وبينما هما يحاولان خططا جديدة لمواجهة الموقف إذا بأكتافيان يفاجئهما من سوريا ويستولى على مصر بأسرها ثم يتجه إلى الأسكندرية ويدخلها فى أول أغسطس سنة ٣٠ق. م. فلم يجد أنطونيوس حيلة سوى الانتحار ؛ وبعده بقليل وجدت كليوباترا ميتة فى قصرها سواء منتحرة كما هو شائع أو بفعل أكتافيان كما يشك بعض الكتاب . وأعقب أكتافيان ذلك بقتل ابن كليوباترا وقيصر، بطلميوس قيصر ، وأعلن ضم مصر إلى إمبراطورية روما وجعلها ولاية رومانية .

هكذا انتهت حياة هذه المرأة الغريبة التى قدر لها أن تكون خاتمتها خاتمة عصر بأسره فى التاريخ المصرى هو عصر الأسرة البطلمية ورغم أن نشاطها فى مجال السياسة الداخلية كان محدوداً جداً [1] إلا أن نشاطها فى مجال السياسة الخارجية يعتبر من أغرب مغامرات التاريخ . فقد كانت مصر فى العصر الأخير من أسرة البطالمة فى حالة من الضعف والخمول الشديدين يكاد يطبق الظلام عليها من كل جانب . ثم جاءت كليوباترا وكأنها شهاب ألقى به فى هذا الظلام فبعث فيه بريقاً يخطف الأبصار ، ثم انطفأ الشهاب واستأنفت عجلة التاريخ سيرها، وتحولت مصر من دولة مستقلة تحت حكم البطالمة ، إلى ولاية رومانية تتبع إمبراطور روما . ولكن كليوباترا بقيت أسطورة ترددها الألسن فى كل مكان ويستلهمها الكتاب والشعراء على مر العصور .

(١) Strabo. XVII 797-8

الفصل الرابع

معالم النظم والحضارة المصرية فى العصر البطلمى

عرضنا فيما سبق لمعالم التاريخ السياسى لمصر فى عصر البطالمة ، ونظراً لأن النظم الداخلية كانت تتكامل بالتدريج بجهود الملوك المتعاقبين ، فقد رأينا أن نجمل الحديث عن هذه النظم فى فصل مستقل بدلاً من تقسيمه وتوزيعه حسب الملوك ، حتى تتضح الصورة ويتكامل الموضوع . نستثنى من ذلك موضوع الحياة الدينية فقد عرضنا له أثناء الكلام عن الملوك الثلاثة الأول من العصر البطلمى ، وذلك لأن الدين استخدم فى هذه الفترة كسلاح من أسلحة السياسة فكان عماداً من عمد بناء الدولة الجديدة ، ولذا لزم التعرض له فى صدد العرض السياسى لهؤلاء الملوك .

١ - تكوين المجتمع (١)

من الدراسات الجديدة التى اهتم بها المؤرخون فى العصور الحديثة دراسة تكوين السكان وأحوالهم الاجتماعية ، وذلك لعلاقتها الوثيقة بالحياة السياسية والاقتصادية للدولة . ويعتمد الذين يقومون بدراسة المجتمعات الحديثة على المعلومات التى يجمعونها بأنفسهم من البيئة التى يدرسونها ، أو على الإحصاءات

---

(١) M. Rostovzeff, Social and Economic History of the Hellenictic World, I. pp. 261—267 and pp. 316—332; E. Bevan, History of Egypt under The Ptolemaic Dyrasty pp. 79 ff.; Claire Préaux, Les Grecs En Epypte pp. 68—70.

والبيانات الرسمية التى تصدرها الحكومات الحديثة . ولكن الوضع يختلف بالنسبة لمن يتصدى لمثل هذه الدراسة فى المجتمعات القديمة . فالخبرة الشخصية لا سبيل للحصول عليها ، والإحصاءات والبيانات الرسمية بهذا الشأن لا وجود لها فى كثير من الأحيان . ومع ذلك فلم يحجم المؤرخون المحدثون عن دراسة المجتمعات القديمة دراسة اجتماعية ، وفى سبيل تحقيق ذلك لجأوا إلى ما يمكن أن يسمى بالدليل غير المباشر فى معظم الأحيان لتعذر الدليل المباشر . ونقصد بالدليل غير المباشر الإشارات العابرة التى قد ترد فى كتابات المؤرخين أو الأدباء والشعراء التى تصور موقفاً إجتماعياً أو ما يمكن أن يستشف منها معلومات ذات قيمة إجتماعية . أما فى حالة مصر اليونانية والرومانية فالوضع يختلف قليلاً نظراً للكميات الوفيرة من أوراق البردى التى عثرنا عليها من هذه الفترة . وعدا أوراق البردى الأدبية يمكن تقسيم الوثائق البردية إلى نوعين عامة وخاصة . الوثائق العامة تشمل البيانات الرسمية والقوانين العامة والمراسلات الإدارية ، أما البرديات الخاصة فتشمل عادة الخطابات الشخصية . وكلا النوعين يلقى ضوءاً هاماً على الأحوال الاجتماعية لمصر فى هذه الفترة . وقد أمكن تكوين صورة لا بأس بها عن سكان مصر اليونانية الرومانية نتيجة استقصاء واستقراء المعلومات التى وردت فى أوراق البردى بالإضافة إلى ما ورد فى المصادر الأدبية الأخرى .

من النادر ، وربما من المستحيل ، أن نجد مجتمعاً متحضراً خالياً من الأجانب فى أى فترة من فترات تاريخه . فمصر الفرعونية عرفت الأجانب من شتى الجنسيات ، من إثيوبيين وليبيين وأسيويين وفارسيين ويونانيين وغيرهم وكذلك كانت الحال فى جميع عصور التاريخ المصرى . ومع ذلك فالعصر البطلمى فى مصر يختلف فى هذا الشأن عن غيره من العصور ، لأن الحكام فى هذا العصر كانوا من العنصر المقدونى اليونانى ، واعتمدوا فى بناء دولتهم على

استيراد أعداد كبيرة من بنى جلدتهم ، فكان المقدونيون والإغريق هم العنصر الغالب فى الجيش والإدارة . وفى ركب الإسكندر ومن بعده عندما شملت الإمبراطورية المصرية سوريا وبرقة ومناطق فى آسيا الصغرى وجزر إيجه حضرت إلى مصر أعداد أخرى غفيرة من هذه الجنسيات المختلفة سعياً وراء العمل والرزق الوفير تحت سماء مصر ومن أهم الجنسيات التى نقابلها فى مصر البطلمية اليهود والسوريون والفينيقيون والليبيون وجماعات من شعوب آسيا الصغرى . هذا هو الخليط العجيب من الأجانب الذين حضروا إلى مصر وعاشوا جنباً إلى جنب مع الأغلبية الساحقة من المصريين . ولسوء الحظ ليس لدينا إحصاءات نوعية عن كل عنصر من هذه العناصر ، يبين نسبة عدد بعضها إلى بعض ، ولا النسبة العددية بينهم وبين المصريين . وكل ما لدينا من الإحصاءات هو رقم إجمالى عن عدد سكان مصر فيذكر جوزيفوس الذى عاش فى بداية العصر الرومانى أن عدد سكان مصر — عدا أهل الإسكندرية الذين كان لهم سجل خاص بهم — هو سبعة ملايين ونصف مليون[١] . ونحن نستطيع أن نثق فى صحة هذا الرقم نظراً لأن الإدارة اليونانية والرومانية كانت تحتفظ بإحصاءات دقيقة من عدد السكان ، كما كانت تسجل المواليد والوفيات بانتظام نظراً لارتباط ذلك بالضرائب التى كانت تجبى على الأفراد . ومن حسن الحظ أن لدينا رقماً آخر عن الأسكندرية يسد النقص فى رقم جوزيفوس ، فيذكر ديودور الصقلى أن عدد سكان الأسكندرية من الأحرار فى العصر الأخير من الحكم البطلمى هو ثلثمائة ألف شخصاً[٢] ونحن لا نعرف على وجه التحديد ماذا يعنى ديودور بلفظ « أحرار » ، ولكن إذا افترضنا أنه وجد بالأسكندرية مائتا ألف آخرون ممن لم يسجلوا ضمن « أحرار » ديودور ، مثل العبيد وبعض الأهالى النازحين من الريف دون أن يكونوا مقيدين رسمياً

(١) Josephus, Bell. Jud. II. 16. 4.

(٢) Diad. XVII. 52. 6

ضمن أهالى الأسكندرية ، فإن مجموع سكان الأسكندرية يكون خمسمائة ألف شخص تقريباً . ورغم الاختلاف الزمنى بين الرقمين ، إلا أنه من المحتمل أنهما معاً يمثلان عدد سكان مصر بأسرها فى الظروف العادية فى التاريخ القديم . وعلى هذا الأساس نقترح أن متوسط عدد سكان مصر فى العصرين اليونانى والرومانى هو ثمانية ملايين شخص .

هــذا العدد الكبير من الأجناس المختلفة كان فى حاجة إلى تنظيم دقيق ليسهل الإشراف عليهم من ناحية والاستفادة منهم من ناحية أخرى . وقــد حرص البطالمة على تنظيم الإغريق والجماعات المتأغرقة من الأجانب حسب أسس خاصة . وقد تم ذلك عن طريق إدراج أعداد كبيرة من الإغريق فى عداد مواطنى المدن اليونانية فى مصر ، أو عن طريق ضمهم فى جماعات كل حسب موطنهم الأصلى تسمى بوليتيوما . أما سائر السكان من البقية الباقية من الإغريق والأجانب والأغلبيــة الساحقــة من المصريــين فــكانوا ينظمون حسب حرفهم وأعمالهم .

أما عن العضوية فى المدن اليونانية فى مصر فقد كانت قاصرة على الطبقات الممتازة من الإغريق . وذلك لأن البطالمة لم يقبلوا على إنشاء المدن المستقلة على النمط اليونانى فى مصر لأنها تتعارض مع نظامهم فى الحكم الملكى المطبق . ولذلك وجدنا البطالمة يكادون يقتصرون على المدن التى كانت موجودة قبل قيام دولتهم وهى نقراطيس التى أنشئت فى شمال غرب الدلتا فى نهاية القرن السابع ق . م . ومدينة الأسكندرية التى أنشأها الإسكندر وأصبحت عاصمة مصر ولم ينشىء البطالمة سوى مدينة واحدة جديدة هى بطلمية التى أنشأها بطلميوس الأول فى أعالى الصعيد . وما من شك أن هدف البطالمة الأساسى من نظام المدن

كان محاولة منهم لحفظ جماعات من العنصر الإغريقي نقية دون أن تختلط بالأهالي من المصريين فتفنى فيهم بمرور الزمن . ويجب أن نذكر أن هذه النظرة كانت تختلف عن نظرة الإسكندر نحو إنشاء المدن . فالإسكندر كان يعتبر كل مدينة أنشأها بمثابة بوتقة يختلط فيها الإغريق مع الأهالي الأصليين . أما البطالمة فقد انحرفوا عن هذه السياسة ، وجعلوا مواطني المدن اليونانية في مصر بمثابة فئات ممتازة بين سائر السكان ، وسنّوا لهم من القوانين ما يمنعهم من التزاوج من المصريين حتى يبقى الدم الإغريقي نقياً في عروقهم . ولم يكن جميع الإغريق الذين عاشوا في المدن اليونانية بمصر ، وخاصة في مدينة كبيرة مثل الإسكندرية ، مواطنين فيها ؛ بل كانت المواطنة قاصرة على العناصر الممتازة ، أما الإغريق الآخرون فلم يتمتعوا بحق المواطنة وكانوا رعايا الملك مباشرة . ومع ذلك فقد وجد لهم نظام آخر يعوضهم عن حرمانهم من حياة المدينة السياسية ، وهو نظام البوليتيوما Politeuma [١] . وهي عبارة عن رابطة تضم جميع أبناء الوطن الواحد من بعض الفئات الإغريقية أو المتأغرقة فوجدت بوليتيوما للمقدونيين وأخرى لليهود وثالثة للكريتيين ورابعة للبيوتيين وهكذا .

وكانت البوليتيوما هيئة مستقلة ذات نظام خاص يغلب عليه الطابع العسكري ، ولكن كان لها أيضاً أوجه أخرى من النشاط الاجتماعي والديني . وما من شك أنها كانت خاضعة للملك مباشرة ، فمن المرجح أن السبب في إنشائها هو أن تضم جنود الجيش البطلمي في أثناء السلم حينما ينتشرون في الريف

---

(١) عن هذا النظام أنظر

Lesquier. Institutions Militaires de L'Egypte sous les Lagides; pp. 143—155; Rostovtzefb, Social and Economic History of the Hellenistic world, p. 324; Taubenchlag, The Lave of Greco-Roman Egypt, p. 9; Laurey, Recherches sur les armées Hellenistiques, II p. 1064.

ويستقرون على مزارعهم ، ليسهل حصرهم واستدعاؤهم بسرعة عند الحاجة ، وإذا كانت كل بوليتيوما فى أول الأمر قاصرة على أبناء جنس بعينه ، فإنها فقدت هذه الصفة بمرور الزمن ، وأصبحت منذ منتصف القرن الثانى قبل الميلاد تضم أفراداً من عناصر أخرى ومن أكبر الجاليات الأجنبية التى وجدت فى مصر البطلمية الجالية اليهودية(١) وما من شك أن وجود اليهود فى مصر يرجع إلى ما قبل العصر البطلمى ، فقد أقام الفرس حامية من اليهود فى جزيرة إليفنتين على حدود مصر الجنوبية وقد عثر حديثاً فى تلك الجزيرة على مجموعة من أوراق البردى ، مكتوبة باللغة التى يتكلمها يهود هذه الحامية وهى الأرامية . وتثبت دراسة هذه البرديات أنه من الممكن التأريخ لهذه الحامية السامية بصورة منتظمة فى الفترة بين ٥٢٥ — ٤٠٧ ق . م . (٢) ولكن منذ أن فتح الأسكندر مصر تقاطر اليهود إليها فى أعداد كبيرة استقرت فى مواطن متفرقة وخاصة فى الأسكندرية حيث كونوا لهم جالية كبيرة سكنت الحى الرابع المسمى دلتا من أحياء الأسكندرية الخمسة . على أن اليهود فى مصر البطلمية سرعان ما تركوا اللغة الأرامية واتخذوا اللغة اليونانية بدلا منها . وكان أكبر مظهر لهذا التغيير هو ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية التى تمت فى مصر فى ذلك العصر . وتسمى عادة بالترجمة السبعينية ، نسبة إلى قصة أسطورية نسجت حول هذه الترجمة ، وتروى هذه القصة أن الملك بطلميوس الثانى استقدم إلى الأسكندرية اثنين وسبعين عالماً من يهود فلسطين ، وكلفهم أن يقوم كل واحد منهم على انفراد

---

(١) خير مرجع لتتبع هذا الموضوع هو
V. Tcherikover and A. Fuks, Corpus. Papyrorum Judaiarum‘ 2 vols, (1957 and 1960) بالجزء الأول مقدمة وافية

(٢) حول وجود اليهود فى مصر الفرعونية أنظر
W. O. E. Oesterleq, Egyyt and Asrael, in The Legacy of Egypt (especially pp. 235-238 بشأن البرديات الارامية من الفينيقيين

بترجمة التوراة إلى اليونانية ، وبعد اثنين وسبعين يوما فرغوا جميعاً من الترجمة ، ولما قورنت التراجم المختلفة وجد أنها مطابقة بعضها لبعض ، مما يعنى أن ترجمة الكتاب المقدس قد تمت بوحى من الإله حتى لا تختلف كلماته عند الترجمة ، وقد ثبت الآن أن هذه القصة لا أساس لها من الصحة وأن الترجمة السبعينية قام بها يهود مصريون فى فترات مختلفة من العصر البطلمى .

كان القيام بهذه الترجمة أمراً ضرورياً ، لأن كثيراً من اليهود كانوا قد تأغرقوا تماماً وأصبحت اليونانية هى لغتهم الوحيدة وبعد إتمام الترجمة نجد أن هذا الاتجاه يشتد وتصبح المراسيم الدينية اليهودية تؤدى باللغة اليونانية ، وبالتدريج ، يفقد اليهود فى مصر أى صفة مميزة لهم عن الإغريق ، فاتخذوا الزى اليونانى وتسموا بأسماء إغريقية وتحدثوا اللغة اليونانية . حتى أن المؤرخ اليونانى يوليبيوس حين حضر إلى الأسكندرية فى منتصف القرن الثانى ق . م . لم يلحظ أى صفة مميزة لليهود هناك وعدهم جميعاً إغريقا .

ونظراً لكثرة اليهود العددية فى مصر البطلمية وتميزهم الدينى الذى تمسكوا به دائماً منحهم الملوك حق تكوين پوليتيوما ، عن طريقها ينظمون شئونهم الخاصة ويمارسون دينهم الخاص فى حرية واستقلال . وقد بنوا فعلا كثيراً من أماكن العبادة الخاصة بهم التى تعرف باسم « سيناجوج » Synagogue (ومعناها اللغوى جامع) . وكان لرابطة اليهود أو پوليتيوما رئيس يسمى إثنارخوس أو جينارفوس ، ومجلس شيوخ يسمى جيروزيا ، ودار خاصة لحفظ الوثائق . ويبدو أنه كان لليهود نوع من المحاكم الملية وأن رئيسهم بمعاونة مجلس الشيوخ كان المسئول عن الشئون الإدارية والقضائية للجالية . ولكن لابد أن القضاء اليهودى كان قاصراً على النواحى ذات الصفة الدينية وأن سلطته لا تتعدى سلطة التحكيم . لأن الحالات التى

تمس القضاء المدنى أو الجنائى كانت تأتى تحت طائلة قضاء الدولة[١] .

أما المصريون فقد كانوا بطبيعة الحال هم الأغلبية الساحقة وعماد المجتمع . وكما كانوا رعايا فرعون قبل ، أصبحوا الآن رعايا الملك البطلى. وكان تنظيمهم الأساسى حسب حرفهم وأعمالهم كما كانوا فى العصر الفرعونى . فيحدثنا هيرودوت أن المصريين كانوا ينقسمون إلى سبع طبقات حسب أعمالهم : الكهنة ، الجند ، رعاة البقر ، رعاة الخنزير ، التجار ، المفسرون ، ورجال القوارب .[٢] ونحن نسمع عن معظم هذه الفئات فى العصر البطلى . ومامن شك أن هناك فئات أخرى مع المجتمع لم يذكرها هيرودوت وجدت فى مصر الفرعونية كما وجدت عصر البطلمية أيضاً ، ونقصد بذلك طبقة الفلاحين وطبقة الصناع وطبقة الموظفين الإداريين : ويبدو من دراستنا للعصر البطلى أن أفراد كل مهنة أو عمل كانوا منظمين تنظيما دقيقاً ، بحيث كان من اليسير تحديد إمكانيات الدولة فى مجالات النشاط المختلفة . فالغالبية من الفلاحين والصناع كانوا يعملون فى أرض الملك ومصانع الملك ، ولذلك كان من الضرورى حصرهم وإحصاؤهم باستمرار . ونعرف أيضاً أن رجال القوارب الذين كانوا يقومون بمهمة نقل القمح من جميع نومات مصر وشحنه فى النيل إلى مخازن الحكومة فى الأسكندرية ، إعداداً لتصديرها بعد ذلك ، كانت تنظمهم جميعاً لمؤسسة عامة أو نقابة عامة ، وكانت أسماؤهم وإمكانياتهم وأماكن إقامتهم مسجلة لدى رجال الإدارة ، وكانت تصدر لهم التعليمات الدقيقة للقيام بعملية النقل فى وقت معين ومن مكان معين .

---

(١) أنظر E. R. Gooderouph, The Jurisprudence of the Jewish Courts in Egypt, (1929); Cl. Préaux, Les Étrangers à l' Epoque Hellenistique, Recueils de la Société Jean Bodin, IX, L'étranger (Bruxelles, 1958) pp. 158—176.

(٢) Herodotus, II. 164

وفيما يتعلق بوضع المصريين عموما فى الدولة البطلمية بالنسبة لسائر عناصر المجتمع ، فيجب أن نذكر أنهم كانوا فى أول الأمر فى مركز المغلوب على أمره وأن الوضع الممتاز كان للإغريق ، سواء بين رجال الحاشية الملكية أو الإدارة أو الجيش أو ملكية الأرض . ففى كل هذه المجالات كان اليونانى هو الرئيس والمصرى هو المرءوس ، باستثناء طبقة واحدة وهى طبقة الكهنة . فقد ظلت طبقة الكهنة مصرية فى تكوينها كما كانت أقوى وأخطر مظهر يمثل المصريين . وأدرك البطالمة ذلك منذ البداية فحاولوا الإضعاف من مركز الكهنة بسلب المعابد بعض ممتلكاتها وامتيازاتها . ولكن ما أن أخذت الدولة البطلمية تضعف تدريجيا ، حتى رأينا المصريين عموما والكهنة خاصة يسعون إلى تأكيد مراكزهم فى المجتمع واسترداد بعض حقوقهم . وقد بدا ذلك واضحا فى قرار الكهنة المسجل على حجر رشيد كما سبق أن بينا . كذلك فى مجالات النشاط الأخرى لم يستمر المصريون على حالة واحدة . وأكبر مثال على ذلك وضعهم فى الجيش البطلمى . فمنذ البداية اعتمد البطالمة فى بناء جيشهم على المقدونيين واليونانيين ، ولم يعمل المصريون إلا فى الأسطول كبحارة ومجدفين ، وإذا اشتركوا فى الجيش فكان على نطاق محدود وبعيداً عن مراكز القيادة . حتى إذا كان عام ٢١٨ تعرضت مصر لهجوم عنيف من سوريا . وأمام النقص الكبير فى أعداد الجند من المقدونيين والإغريق اضطر الملك بطلميوس الرابع إلى تجنيد عشرين ألفاً من المصريين كان لهم الفضل الأكبر فى القضاء على الغزو السليوقى فى معركة فاصلة عند رفح عام ٢١٧ .

انتصار المصريين فى معركة رفح كان له نتائج هامة بالنسبة لمركزهم فى الدولة فقد استرد المصريون فى الحال الثقة بالنفس وشعروا أنهم ليسوا أقل كفاءة من الإغريق ، فطالبوا بحقهم فى تولى جميع المناصب . وفعلا وجدنا مصريين يشغلون مناصب قيادية فى الجيش والقصر والإدارة . وقد صاحب تحسن مركز المصريين

وزيادة نفوذهم فى الدولة كثرة الثورات التى قاموا بها ضد الأسرة الحاكمة فى الأسكندرية وشغلت فترات طويلة من النصف الثانى من العصر البطلمى .

سؤال أخير يجب أن نجيب عليه وهو ماهى لغة سكان مصر البطلمية .؟ كانت اللغة الرسمية هى اللغة اليونانية وهى لغة الطبقة الحاكمة . أما المصريون فقد استمروا يتحدثون اللغة المصرية القديمة ، ولكنها انقسمت إلى شعبتين : مايمكن أن يسمى باللغة الفصيحة التى كان الكهنة يكتبونها بالحروف الهيروغليفية ، واللغة العامية وكانت تكتب بالحروف الديموطيقية . وهذه اللغة الأخيرة وحروفها دخلتها كثير من التأثيرات اليونانية . وكانت جميع مراسلات الدولة تتم باللغة اليونانية ، أما المراسيم الملكية والقوانين التى يقصد نشرها بين جميع السكان فكانت تنشر عادة إما باللغات الثلاثة أو باليونانية والعامية الديموطيقية .

ومما ساعد على انتشار اللغة اليونانية إلى حد ما أن جميع العناصر الأجنبية استخدموها فى الحال ، كما رأينا فى حالة اليهود ، فهى لغة الإدارة وكل من يريد الترقى تحت لواء البطالمة يجب أن يتقنها . من أجل هذا وجدنا أيضاً كثيراً من المصريين الطموحين من سكان المدن يتعلمون اللغة اليونانية ، وينصطبغون بالصبغة اليونانية بالتدريج . ومن مظاهر ذلك إتخاذهم أسماء يونانية أيضاً : وقد ساعد على هذا الاتجاه إزدياد الزواج بين اليونانيين والمصريين . بحيث أنه منذ منتصف القرن الثانى ق. م. لم يعد الاسم اليونانى فى المصادر يدل على أن صاحبه من عنصر يونانى إطلاقاً . إذ يمكن أن يكون صاحبه مصرياً أو سورياً أو يهودياً أو يونانياً أو من أبوين مختلفى الجنس .

ب - نظام الحكم (١)

لا زال نظام الحكومة البطلمية فى مصر فى حاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث . وليس هنا مجال الإفاضة فى جزئيات هذا النظام ، لأنه ما زال هناك اختلاف كبير حول تحديدها . ولهذا سنتكلم باختصار عن الأقسام الرئيسية فى الإدارة المصرية نظام حكم الممتلكات الخارجية ، والحكومة المركزية فى الاسكندرية ، ونظام الإدارة المحلية .

وقبل أن نتعرض لهذه الأقسام يجب أن نذكر ما سبق أن قلناه عن بطلميوس الأول ، وهو أن الملك البطلمى كان خليفة الملك فى مصر الفرعونية : احتل مكانته ومارس جميع سلطاته التى تتلخص فى الحكم الملكى المطلق . فهو مصدر السلطة فى الدولة وإراته هى القانون . ويعتبر كل موظف أو قائم بعمل فى الدولة خادم الملك وممثله ، منه يستمد سلطته ومسئول أمامه عن أداء عمله . وعلى هذا فإن النظام الإدارى فى الدولة يعتبر من الناحية النظرية نابعا من شخص الملك ومرتبطا بإرادته .

حكم الممتلكات الخارجية :

خلال القرن الثالث قبل الميلاد تمتعت مصر بامبراطورية خارجية شملت

---

(١) أنظر E. Bevan, Egypt under The Ptolemaic Dynasty pp. 132 ff.; Cambndge Ancient History, Vol. VII, pp. 116 ff.

P. Jouguet : La Vie Municipócle dans L'Egypte Ronaine chop. I.; idem. Imperialisme Msced., 332 ff.

برقه وسوريا الجنوبية (أى الجزء الجنوبى من سوريا وفينيقيا وفلسطين) ، وقبرص وأجزاء من سواحل آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وجزر السيكلاديس ، وأحيانا شملت أيضا جزرا أخرى ومناطق أخرى فى بحر إيجه ولسوء الحظ أننا لا نعرف كثيرا عن النظام الذى طبقه البطالمة فى حكم هذه الممتلكات ، ولعلهم لم يطبقوا نظاما موحدا فى جميع الأقاليم . ولكن ممـــا لا شك فيه أنهم أقاموا حاميات عسكرية فى بعض المناطق ذات الأهمية العسكرية مثل ثيرا وكريت وديلوس وقبرص .

وكان قائد الحامية العسكرية عادة ذا نفوذ كبير حتى ليظن أنه شغل منصب نائب الملك فى المستعمرة كما هو الحال فى جزر السيكلاديس حيث شغل هذا المنصب قائد الأسطول ناڤارخس (Navarchos)؛ رغم أنه وجد إلى جانبه موظف كبير آخر يسمى حاكم الجزر (نيزيارخس Nesiarchos) . عدا هذين الحاكمين كان يعين فى كل من منطقة تخضع للسلطان المصرى قائد عام يسمى إستراتيجوس Strategos وهو الذى يشرف على حكم الولاية وإدارتها. وإلى جانب الاستراتيجوس وجد موظفون آخرون يشرفون على الخزانة والنواحى الإدراية الأخرى ولكن ليس لدينا معلومات كافية عن تحديد إختصاصاتهم أو علاقة الموظفين المدنيين بالقواد العسكريين .

وفيما يتعلق بالمدن اليونانية التى خضعت للبطالمة ، فإنها استمرت تتمتع بحريتها فى الحكم الذاتى ، ولكن الملوك فرضوا عليها جزية سنوية ، وأحياناً خفض الملوك هذه الجزية ، إذا ما عبرت هذه المدن عن ولائها للأسرة البطلمية بمساهمتها فى المهرجانات المعروفة باسم «البطلميات» التى كانت تقام فى الاسكندرية منذ عام ٢٧٩ / ٢٧٨ تخليداً لذكرى بطلميوس الأول سوتير . وفى سوريا انتهج البطالمة سياسة تختلف عن سياستهم فى مصر ، إذ اهتموا بإنشاء كثير من المدن

الجديدة أو تنمية المدن القديمة . على أن سيطرة مصر على إمبراطوريتها لم تستمر طويلا بعد القرن الثالث ، فلم ينته حكم بطلميوس الخامس إبيفانس حتى كانت مصر قد فقدت معظم إمبراطوريتها باستثناء برقه وقبرص ، ومع ذلك فكثيرا ما أدى ضعف السلطة المركزية والمنازعات الأسرية إلى أن يستقل ببرقه أو قبرص أحد أفراد الأسرة المالكة . ولما ظهرت روما على المسرح السياسى فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، أخذت تتحين الفرص لانتزاع هذه الأجزاء من سلطان مصر . وتم ذلك أولا فى عام ٩٦ ق. م. حينما توفى بطلميوس أبيون الذى كان قد استقل ببرقه وأوصى بان تؤول برقه إلى الشعب الرومانى . وبعد ذلك بقليل استولت روما على قبرص فى سنة ٥٨ فى عهد بطلميوس الثانى عشر الزمار .

ورغم أنه من المحتمل أن قيصر رد قبرص إلى كليوباترا ، إلا أن سيطرة مصر على الجزيرة فى هذه السنين الأخيرة كانت إسمية بحته .

الحكومة المركزية فى الإسكندرية :

ما من شك أن البطالمة حين حضروا إلى مصر وجدوا نظاما إداريا ساريا فى أنحاء البلاد منذ العصور القديمة ، وما من شك أنهم اعتمدوا على ذلك النظام الذى كان نتيجة تجربة آلاف السنين . ولكن يجب أن نذكر أن ذلك النظام كان قد أصابه كثير من الضعف والتفكك والإهمال فى القرون الأخيرة قبل فتح الإسكندر بسبب الحكم الفارسى وفترات الثورات المتأخرة منذ العصر الصاوى . ولم يتجه جهد البطالمة إلى مجرد تجديد وتقوية نظام الإدارة المصرية ، بل كان أكبر هدف أمامهم هو أولا أغرقة الجهاز الحكومى وثانياً تطويره بما يناسب الظروف الجديدة . وقد تم الشق الأول عن طريق نقل مركز الحكم إلى الإسكندرية وتعيين أعداد كبيرة من الإغريق فى القصر الملكى وفى أقسام

الإدارة الجديدة المختلفة . أما تطوير الإدارة المصرية وتطويعها للحكم الجديد فقد تم أيدى خبراء إغريق ، من أشهرهم ديمتريوس الفاليرى فى عصر سوتير وأبولونيوس الوزير المالى فى عصر فيلادلفوس . ويبدو أن هذين الملكين من ملوك البطالمة ومستشاريهم أولوا التنظيم الداخلى كثيرا من العناية ، فمنذ نهاية عصر بطلميوس الثالث نجد أن نظام الحكم فى مصر قد استكمل معظم معالمه الأساسية .

وأهم منصب فى الحكومة المركزية هو وزير المالية المسمى ديويكيتيس Dioecetes ؛ ورغم أن منصبه يعنى أنه المدير لمالية الدولة إلا أنه كان فى الواقع هو الساعد الأيمن للملك وله سلطان كبير على جميع مرافق الدولة . إليه ترفع التقادير والبيانات والإحصاءات والشكاوى من جميع أقطار الدولة ، ومنه تصدر الأوامر والإشارات الادارية والمذكرات التفسيرية للقوانين واللوائح . ومن اليسير أن نتصور أن مركز هذا الموقف الخطير كان يختلف قوة وضعف حسب اختلاف شخصيات الملوك ووزرائهم بين القوة والضعف .

وكان للديويكيتيس مساعدون مباشرون يحمل كل واحد منهم لقب مساعد وزير المالية hypodioécetes . ولعل هؤلاء كانوا بمثابة رؤساء المكاتب التى تنقسم إليها إدارة الوزير ، بحيث أن كل هيبوديويكيتيس كان يختص بأقليم من أقاليم مصر . ومن كبار الموظفين أيضا رئيس الحسابات Eklogistes ، الذى كان يعاون الوزير فى إعداد الاحصاءات وتقدير الضرائب كل سنه ، وكان يساعده عدد كبير من المحاسبين فى أنحاء البلاد[1] .

إلى جانب هؤلاء الموظفين كان للملك معاونون آخرون ملحقون بالقصر ،

---

(١) أنظر Bevan, Egypt, p. 135

للإشراف على ما يمكن أن يسمى بالديوان الملكى . من هؤلاء « كاتب رسائل الملك» (Epistolographus) وسكرتير خاص الملك Hypomvematographos.

ومن الصعب التمييز بين إختصاصات هذين الموظفين وتحديد العلاقة بينهما ولكن يبدو أن الأول وهو كاتب الرسائل كان يتولى كتابة رسائل وردود الملك على الشكاوى والخطابات العديدة التى كان يرسلها الأهالى إلى الملك كل يوم . بينما كان الموظف الآخر يختص بتسجيل قرارات الملك وتوجيهاته وردوده التى ترسل إلى الموظفين فى المصالح المختلفة .

أما فيما يتعلق بنظام القضاء فى مصر البطلمية ، فقد كان يأتى على رأسه موظف كبير هو أشبه بوزير العدل ويسمى Archidicastes أرخيديكاستيس . وكان الجهاز الذى أشرف عليه على جانب كبير من التعقيد نظراً لأنه وجد فى مصر أكثر من نوع من القوانين : القانون المصرى القديم للمصريين وقانون خاص باليونانيين والأجانب وقانون ثالث خاص بالمدن اليونانية فى مصر . وكانت لكل نوع من القوانين محاكم خاصة وقضاة يقومون بتطبيقه (١) . ومن أهم الوثائق التى كشفت لنا المحاكم المصرية والمحاكم اليونانية واختصاصاتها فقرة فى « العفو العام » الذى أصدره يوإرجتيس الثانى عام ١١٨ ق م. (٢) . وتذكر هذه الفقرة أن الملك (والملكة) قد أمرا بشأن المصريين الذين يرفعون قضايا ضد يونانيين ، واليونانيين الذين يرفعون قضايا ضد مصريين ، أو مصريين ضد (مصريين) من كل الطبقات باستثناء المزارعين الذين يعملون فى الأرض الملكية ودافعى الضرائب وكل من يتصل فى عمله بإيرادات الدولة ، وذلك فى الحالات التى يتعاقد فيها المصريون مع اليونانيين بعقود مكتوبة باللغة اليونانية ؛

---

(١) أنظر R. Taubenschlag, The Law of Greco-Roman Egypt, pp. 1 ff.

(٢) Papyri Tebtunis, I. 5, lines 207-220

هؤلاء تعرض قضاياهم على القضاة اليونانيين (Chrematistae) . أما فى الحالات التى يتعاقد فيها اليونانيون بعقود مكتوبة باللغة المصرية ، فهذه تعرض على القضاة المصريين (Laocritae) حسب القانون المحلى . أما قضايا المصريين ضد مصريين أيضاً فهذه لا تعرض على القضاة اليونانيين ، وإنما تنظر بواسطة القضاة المصريين حسب القانون المحلى (أى المصرى) » . هذه الفقرة تكشف لنا عن حقيقة هامة جداً ، وهى وجود محاكم مصرية ومحاكم يونانية ، ولكل قانون خاص . ولكن من الطريف أن نلاحظ أن جنسية المتقاضين لم تكن تقرر نوع المحكمة التى تنظر قضاياهم ، ولكن لغة العقد هى التى تقرر نوع المحكمة . فالعقود المصرية تعرض أمام القضاة المصريين ويطبق عليها القانون المصرى القديم مهما كانت جنسية المتعاقدين ؛ والعقود اليونانية تعرض أمام المحاكم اليونانية .

الإدارة المحلية :

كانت مصر منذ العصر الفرعونى تنقسم إلى مقاطعات تعرف كل واحدة منها باسم « هيسيبو Hesepu » ، ولما جاء الإغريق إلى مصر حافظوا على هذا التقسيم ، وترجموا هيسيبو بلفظ « نوموس Nomos » ومعناها مقاطعة . ونظراً للطابع الاصطلاحى الذى اصطبغ به هذا اللفظ فى دراسة مصر اليونانية الرومانية سوف نستخدم فى هذا الكتاب لفظ « نوموس » ونجمع على « نومات » .

وقد رأينا فى زمن الإسكندر الأكبر أنه كان على رأس كل نوموس من هذه النومات حاكم مصرى يسمى نومارخس . ولكن فى العصر البطلمى رأينا تطوراً أدخل على نظام الوظائف فى النوموس ، فأصبح يحكمها قائد ذو صبغة عسكرية يسمى إستراتيجوس strategos ، والذى كان الحاكم الفعلى للنوموس

فهو قائد الحامية العسكرية وهو المشرف على إدارتها وشئونها المالية وربما كانت له اختصاصات قضائية أيضاً . وكان الاستراتيجوس دائماً من الإغريق . ووجد إلى جانبه موظف يسمى نومارخس ولكنه يختلف عن الموظف الذى حمل اللقب ذاته زمن الإسكندر . فالنومارخس البطلمى موظف محدود السلطة والإختصاصات ومرءوس للاستراتيجوس . وكان أهم إختصاصاته وهو الإشراف على الأعمال العامة وأرض الملك .

وكان يشغل هذا المنصب عادة أيضا يونانيون وإن شغله أحيانا مصريون . ومن أهم الموظفين الذين وجدوا فى النوموس إلى جانب الاستراتيجوس هو الكاتب الملكى « باسيليكوس جراماتيوس basilikos grammmateus » وهو بمثابة السكرتير العام للنوموس . وتكاد جميع أعمال النوموس تمر بين يديه فى طريقها إلى الاستراتيجوس أو من الاستراتيجوس إلى الموظفين الآخرين. ومن أهم اختصاصاته التقارير الإحصائية والسجلات وجميع الأعمال المتعلقة بالضرائب . عدا هؤلاء الموظفين وجد ثلاثة موظفين أغريق هم « إبيستاتيس النوموس » (أى المراقب) ويختص بشئون القضاء المحلى ، ورئيس الشرطة « إبيستاتيس الحراس » ، ومشرف مالى إبيميليتيس epimeletes يعاونه مدير مالى oeconomos .

كانت النوموس تنقسم بدورها إلى مناطق تسمى توبوس أو توبارخياً (Topos, toparchia) ، ثم تنقسم التوبوس إلى قرى كومى Komé . وكان لكل قسم من هذه الأقسام موظفوه . فكان توبارخس يرأس التوبوس ، ويرأس الكومى كومارخس . وكانت إدارة هذه الأقسام الإدارية تعتبر صورة مصغرة من إدارة النوموس . فقد وجد فى التوبوس كاتب أو سكرتير يسمى توبوجراماتيوس (topogrammateus) وفى القرية كاتب القرية أو سكرتيرها

كوموجراماتيوس (Komagrammateus) ، وكذلك مدير مالى Oeconomos ومراقب epistates فى كل من التوبوس والكومى (١) .

المدن اليونانية فى مصر البطلمية : (٢) .

يجب أن نذكر فى ختام هذا الفصل كلمة عن نظام المدن اليونانية التى وجدت فى مصر . نظام المدينة (Polis) كما عرفه الإغريق يعنى أن يكون للمدينة كيان سياسى مستقل ، وبعبارة أخرى تكون دولة صغيرة فى الإصطلاح الحديث . وقد ألف الإغريق القدماء هذا النظام بحيث أنهم لم يتصوروا وجوداً للمجتمع الإنسانى خيراً من نظام دولة المدينة ، ولهذا أوجدوا لأنفسهم مدنا بهذا الشكل حيثما تجمع منهم عدد يكفى لإنشاء مدينة . هكذا فعلوا فى وطنهم الأصلى وهكذا فعلوا حين هاجروا خارج وطنهم واستقروا على سواحل البحرين الأبيض المتوسط والأسود بحثا عن الرزق فى القرنين الثامن والسابع ق . م . وكانت نقراطس أول مدينة أسسها الإغريق فى مصر فى الجزء الأخير من القرن السابع ق . م . ولما حضر الأسكندر إلى مصر أسس الإسكندرية فى عام ٣٣١ . بعد ذلك زاد بطلميوس الأول عليها مدينة ثالثة هى بطلمية فى أعلى الصعيد المصرى .

ووجدت مدينة رابعة عرفت باسم بريتونيوم (Paraetonium) عند

---

(١) أنظر Bevan, Egypt, pp. 142 ff.

(٢) أنظر Jouguet. La Vie Municipale dans L'Egypte Romaine, A. H. M. Jones. Cities of the Eastern Roman Provinces, pp. 302 ff.

ودكتور ابراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة ، ص ٢٦٧ وما بعده .

M. A. H. el Abbadi The Alexandrian Citizenship, Journal of Egyptian Archaeology, 48 (1962) pp. 106—123.

موقع مدينة مومى مطروح الحالية . ولكننا لا نكاد نعرف شيئاً عن نشأتها أو تاريخها فى عصر البطالمة ، ونسمع عنها لأول مرة فى العصر الرومانى باعتبارها مدينة يونانية معترفا بها .

يتضح من ذلك أن البطالمة لم يتوسعوا فى سياسة إنشاء المدن اليونانية المستقلة فى مصر ، ولم يكن فى ذلك غرابة منذ أخذوا بمبدأ حكم مصر حكما مطلقاً ، مما قد يتعارض مع وجود المدن المستقلة بكثرة . ومع ذلك فإن المدن الثلاث التى لدينا عنها بعض المعلومات تحت حكمهم لم تكن مستقلة بالمعنى الصحيح ، فرغم تمتعه بمظاهر نظم الحكم المحلى حسب المثل اليونانية ، إلا أن الملوك البطالمة مارسوا سلطانا قويا مكنهم أن يجعلوا هذه المدن تسير على نحو يتفق وسياسة البطالمة فى الحكم المركزى المطلق .

أما عن نظم هذه المدن ، فكان لكل منها هيئة من المواطنين يتمتعون بمواطنة المدينة (politeia) . وفى الأسكندرية وبطلمية انقسم مجموع المواطنين إلى قبائل وأحياء (Phylé,démos) حسب النظام الأثينى . كما كان لكل مدينة نظمها السياسية الخاصة يتمتع المواطنون فقط بحق ممارستها دون سائر الأهالى فلكل مدينة هيئة من الموظفين أو الحكام ينتخبهم المواطنون من أنفسهم ، وإلى جانب الموظفين وجد مجلس للشيوخ يسمى boulé ، وجمعية تضم المواطنين جميعا (نعرفها فقط فى حالة بطلمية وسميت Ecclesia) . وعن طريق هؤلاء الموظفين وتلك المجالس التشريعية كانت كل مدينة تدبر شئونها بنفسها . وأهم واجبات المسئولين فى المدينة هى التربية والتعليم والتموين . أما عن التربية والتعليم فقد وجد لها الجمنازيوم وكان يشرف عليه اثنان من كبار الموظفين المنتخبين وهما رئيس الجمنازيوم (جمناز بارخس) ومسجل الجمنازيوم (كوزميتيس Gosmsetes) . وكذلك وجد موظفان للاشراف على التموين

و تنظيم الحياة الإقتصادية وهما المشرف على التموين (يوثينارخيس :Euthenarches) والمشرف على السوق (أجورانوموس : Agaranomos) . أما الحياة الدينية فى المدينة فكان يشرف عليها موظف مختص سمى نيوكوروس Neocoros . أما ئيس المدينة أو محافظها فكان يسمى إكسجيتيس Exegetes ، ومسئول عن إدارة المدينة عموما ويمثلها فى المناسبات المختلفة .

وكان للمدينة اليونانية فوق ذلك قانونها ومحاكمها الخاصة بها ، وتثبت وثائق القرن الثالث ق.م. أن مدينة الأسكندرية تمتعت بمثل هذا القانون وتلك المحاكم [١] ، ولا بد أن المدن الأخرى كان لها نظامها القضائى أيضا ، خاصة وأننا نعرف من العصر الرومانى أنه لم يسمح لمواطنى نقراطس و بريتوتيوم بالزواج من المصريين . ولكن يجب ألا نظن أن هذه المدن كانت حرة فى سن قوانينها وتنظيم قضائها كما يتراءى لها ، بل كانت هذه القوانين والنظم تصدر عن الملك شخصيا وتملى على المدن إملاء دون أن يكون لها أى اختيار .

ومما تمتعت به هذه المدن أيضا ، أن كل مدينة أقطعت بواسطة الملوك مساحة من الأرض ألحقت بها ، ويتمتع المواطنون بحق امتلاكها . وكانت هذه الأرض أهم مصدر لميزانية المدينة .

هذه أهم مظاهر الحياة المدنية فى عصر البطالمة ، ورغم سلطان الملوك القوى والقيود الكثيرة التى فرضت على المدن بحيث جعلت فكرة المدينة اليونانية ظاهرية فقط لامعنى لها فى الواقع ؛ كان مواطنو هذه المدن شديدى الاعتزاز بالانتماء اليها ، وكانوا يعتبرون ذلك شرفا يفوق منزلة سائر أهالى مصر الذين كانوا رعايا مباشرين للملك . ومامن شك أن مدينة الاسكندرية كانت أهم هذه

(١) P. Halensis, 1; P. Hamburg, II, 168

المدن جمعا ، وذلك للظروف المختلفة التي جعلت منها عاصمة الدولة وأكبر مركز تجارى وصناعى فى العالم ، وزاد من أهميتها ومجدها وجود المكتبة والموسيون بها . وقد اهتم الملوك بالاسكندرية وأسبغوا على مواطنيها الكثير من الامتيازات حتى أصبحوا فى واقع الأمر أرقى وأغنى طبقة بين سكان مصر جميعا .

ج - النظم الاقتصادية

نظام الأراضى[1] :

رغم جهود كبار العلماء الذين توفروا منذ نهاية القرن التاسع عشر على دراسة مصر فى العصر البطلمى فإن الصورة عن نظام الأراضى فى تلك الحقبة لم تتضح بعد تماماً أمام أعيننا . ولا زالت دراسات البردى الحديثة تنقض الخطوط الأساسية التى كان قد توصل العلماء إليها من قبل . فمن ذلك أن المؤرخين قد درجوا فى النصف الأول من القرن العشرين على تقسيم أرض مصر فى عصر البطالمة إلى قسمين أساسيين هما أرض الملك (gé basiliké) وأرض موهوبة أو عطاء (gé en aphesei) وتندرج تحت القسم الأخير أنواع مختلفة من الأرض مثل أرض المعابد و الإقطاعات العسكرية والإقطاعات الكبيرة الموهوبة من الملك لكبار موظفيه . ولقد تناول بالبحث أخيراً يوهان هرمان موضوع أرض العطاء gé en aphesei وأثبت أن هذا النوع من الأرض ليس كما تصوره العلماء من قبل ، وإنما هو إصطلاح «gé en aphesei» يطلق على

---

(١) الدراسات الأساسية فى هذا الموضوع هى :
Grenfell, Hunt, and Smyly : The Tebtunis Papyri Vol. I, Appendix I, pp. 538—580 ; U. Wilcken, Grundzüge, Vol. I, chapter VII, p. 271 ff. (1912); Cl. Préaux L'Economie Royale des Lagides (1939) esp pp. 459—513; Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic World (1953) esp. Vol. I, pp. 269—290 and Vol. II pp. 726—733.

(٢) Johann Herrmann, Zum Begriff gé en âphesei, Chronique d'Egypte, 30, (1955), pp, 95—106.

مساحات من أنواع مختلفة من الأرض (سواء من أرض المعابد أو الإقطاعات أو الملكية الخاصة) ، وهو يعنى أن زراعة الأرض وما تُغله من محصول خاضع لإرادة الدولة ؛ ولا يجوز لصاحب الأرض أو مستغلها أن يتصرف فى المحصول إلا بعد أن تأخذ الدوله نصيبها ، ويكون الباقى من المحصول بعد ذلك بمثابة هبة (aphesis) لصاحب الأرض أو مستغلها أى أن هذا الإصطلاح يصيب محصول الأرض وليست الأرض ذاتها .

هـذا مثال واحد يدل على مدى الأناة والحيطة التى يجب أن نأخذ بها أنفسنا فى دراستنا لمصر فى هذا العصر . ومع ذلك فيمكننا أن نجمل القول فى موضوع نظام الأراضى فنقول أن سياسة البطالمة فى هذا المجال كان يوجهها عاملان: الأول هو العمل على بناء دولة قوية اقتصادياً تحت حكمهم الملكى المطلق ؟ والثانى هو إقامة عدد كبير من الإغريق الذين حضروا إلى مصر وكانوا العنصر الأساسى فى بناء جيشهم وإدارتهم للبلاد . وبطبيعة الحال نفذت هذه السياسة على نحو يتلاءم وظروف مصر وتقاليدها وعلى هذا الأساس تظهر لنا الوثائق أن هذه السياسة قد تم تطبيقها منذ منتصف القرن الثالث ق . م . ، وأن أرض مصر كانت تنقسم إلى الأنواع التالية :

١ — أرض الملك .

٢ — أرض المعابد .

٣ — إقطاعات الموظفين .

٤ — إقطاعات العسكريين .

٥ — الملكية الشخصية .

٦ — أرض المدن .

ولنذكر الآن كلمة مختصرة عن كل من هذه الأنواع :

١ — أرض الملك (gé basililké)[1] :

لقد أخذ البطالمة فى مجال السياسة الإقتصادية عموماً بمبدأ ملكية الدولة ممثلة فى شخص الملك ولهذا كانت أرض الملك تحتل الرقعة الكبرى من الأرض الزراعية فى مصر ؛ وقد تكونت أصلا من أملاك القصر الملكى فى العصر الفرعونى التى آلت إلى الملك البطلمى ، وكذلك من أراضى الأمراء المصريين السابقين . ويضاف إلى ملكية الملك جميع الأراضى التى هجرها أصحابها أو سقطت عنها الملكية لأى سبب من الأسباب . مجموع هذه الأراضى كانت تتبع شخص الملك ويديرها موظفوه نيابة عنه ، ويقوم بزراعتها طبقة ضخمة من المزارعين يطلق عليهم اسم «فلاحو أو مزارعو الملك basılikoi geoagoi» . وفى بعض الأحيان كانت أرض الملك تؤجر لهؤلاء المزارعين نظير إيجار عينى يؤخذ من محصول الأرض ، وذلك بموجب عقد يعقد لمدة محددة بين المزارع وممثل الملك من الموظفين . ونظراً لأن الشروط التى تتضمنها هذه العقود كانت مجحفة بالمزارعين ، فكثيراً ما عجزوا عن تنفيذ شروط العقد ولجأوا إلى الفرار من الأرض (anachoresis) . وأحياناً اتخذ هروبهم شكل الالتجاء إلى المعابد بأن يهب الفرد نفسه لخدمة الإله ، وفى هذه الحالة لا تستطيع سلطة الدولة أن تناله بسوء ، احتراماً لحق المعابد فى الحماية .

٢ — أرض المعابد (ge hiera) : كان للمعابد قديماً ، كما أصبح للكنائس والمساجد فيما بعد ، أملاك خاصة . وكانت المعابد المصرية الكبرى واسعة الثراء نتيجة لما تجمع لها من هبات الملوك وأوقاف الأفراد على مر القرون . وقد لاحظ كليومينيس وزير مالية الإسكندر فى مصر ضخامة أملاك المعابد فى مصر وحاول أن يضعف من مركزهم المالى . وما كان البطالمة ليتركوا صيداً ثميناً مثل هذا دون الإفادة منه . وقد لجأ البطالمة إلى سلب الكهنة سلطة السيطرة على أملاك المعابد .

ووضعوا هذه الأملاك تحت إشراف الدولة المباشر . فكانت الدولة هى التى تقوم باستغلال الأراضى أو تأجيرها وتجبى عنها الإيجارات والدخول المختلفة بدلا من المعابد ، نظير أن تنفق هى على المعابد والكهنة . وفى هذا المجال أيضاً كانت المعابد تجبى ضريبة خاصة من أصحاب مزارع الكروم والفواكه والخضروات تسمى apomoira وتقدر بسدس المحصول مقابل خدماتهم الدينية . وفى عام ٢٦٤ ق . م . قرر الملك بطلميوس الثانى أن تحول حصيلة هذه الضريبة إلى حساب عبادة زوجته الملكة أرسنوى فيلادلفوس . ومنذ هذا التاريخ انتقلت حصيلة هذه الضريبة من أيدى الكهنة إلى خزينة الدولة وأصبح للدولة حق التصرف فيها كما تشاء . ورغم أن الملك استمر يمنح المعابد هبات سنوية مختلفة ، فإن بعض وثائق البردى تثبت أن بعض إيرادات الدولة من هذه الضريبة كان ينفق بواسطة الدولة فى أغراضها الخاصة وليس للأغراض الدينية(١) . رغم هذه السياسة التى كان طابعها التضييق المالى على المعابد ، فإن هبات الملوك السنوية كانت سخية عادة ، كما أن المعابد وبعض الكهنة تمتعوا بإعفاءات مختلفة من الضرائب كانت تثقل كاهل المصريين .

٣ — إقطاعات الموظفين (gé en doréa) لجأ البطالمة فى معاملة رجال الحكومة من الناحية المالية إلى عادة إقطاعهم مساحات من الأرض بدلا من منحهم مرتبات نقدية منتظمة . وكان لهذه السياسة فائدة مزدوجة ، فهى من ناحية توفر للدولة قدراً كبيراً من العملة الفضية ، ومن ناحية أخرى كانت وسيلة ناجحة فى زيادة رقعة الأرض المزروعة فى مصر ، لأن هذه الإقطاعات كانت تتكون عادة من أرض بور فى حاجة إلى استصلاح . على هذا الأساس كان كبار رجال الحاشية والإدارة يمنحون قطعاً كبيرة من الأرض تسمى

(١) P. Columbia, III. 57, II. 9—10 (250 B. C.); cf. P. Columbia Zenon, no. 120, p. 187.

doreae . هذه الإقطاعات كانت منحة من الملك للموظف ليستغلها فقط ما دام في خدمة الملك . أي أن الموظف لا يصبح بحال مالكا لإقطاعه . فللملك حق إسترد دها متى شاء .

ويبدو أن نظام الإقطاعات هذا كان إحدى وسائل البطالمة الهامة فى خطة إصلاح الأراضى وزيادة رقعة الأرض المنزعة فى مصر ، ويتضح ذلك جلياً من إقطاع أبولونيوس وزير مالية بطلميوس الثانى . فمن أهم مجموعات البردى التى عثرنا عليها من مصر البطلمية المجموعة التى تتضمن أوراق زينون وكيل الوزير أبولونيوس والمشرف على إقطاعه فى الفيوم . فأوراق زينون هذا تبين أن هذا الإقطاع كان يشتمل على عشرة آلاف أرورا ، وأن الجزء الأكبر منه كان أرضاً بوراً ثم استصلحت عن طريق مد الترع والجسور (١) . وقد ظل أبولونيوس يتمتع بهذا الإقطاع الكبير طالما كان فى خدمة الملك ، ثم صودر عندما فصل أبولونيوس من الخدمة . بعد ذلك آل هذا الإقطاع إلى موظف آخر (٢) . ويبدو أن عدداً كبيراً من كبار الموظفين تمتع بمثل هذه الاقطاعات منذ عصر مبكر فى الدولة البطلمية ، يثبت ذلك بردية الدخل المشهورة من عصر بطلميوس الثانى حيث ورد فيها ذكر dorea فى أماكن متعددة .

---

(١) توجد خريطة لهذا الإقطاع وخطة إصلاحها فى
P. Lille, no. 1 (259/8 B. C.) ;
أما عن مساحتها فانظر P. Columbia Zenon, 54 ; P. Cairo Zenon no. 59745, line 65 ; and no. 59788.

(٢) خير دراسات لإقطاع أبولونيوس وتاريخه ، ودور زينون المشرف عليه هى :
M. Rostovtzeff, Large Estate in the Third Century B. C. (1922).
C. C. Edgar, P. Michegan Zenon, Introduction, (1931).
Cl. Préaux, les Grecs en Egypt d'après les Archives de Zenon (1947) ويحتوى هذا الكتاب الأخير ثبتا بجميع مراجع الموضوع

٤ — الإقطاعات العسكرية gé klerouchiké و katoikiké gé اتبع البطالمـة سياسة الإقطاعات أيضاً فى مكافآتهم للأعداد الفقيرة من الإغريق والأجانب الذين خدموا فى الجيش البطلمى . هذه الإقطاعات العسكرية كانت عادة أصغر من الـ dorea، وكان يطلق عليها اسم كليروس « Kleros » ويسمى الشخص الذى فى حوزته الإقطاع « كليروخس » (Klerouchos) . وكذلك اختلفت مساحات هذه الإقطاعات العسكرية حسب مراتب الجنود والضباط ؛ فنحن نسمع عن إقطاعات حجمها مائة أردرا وأخرى سبعون أردرا ، وغير ذلك أقل أو أكثر .

حتى إذا كان القرن الثانى ق . م . رأينا اصطلاحاً جديداً يظهر بين من فى حوزتهم إقطاعات عسكرية ، وهى الفئة التى أطلق عليها فى المصادر لفظ المستوطنين (Katöikoi) وأرض المستوطنين (katoikiké gé) وقد يوحى الاصطلاح الجديد عند النظرة الأولى بظهور طبقة جديدة ؛ ولـكن الذى حدث أنه منذ نهاية القرن الثالث ق . م . بدأ البطالمة فى استخدام المصريين بأعداد كبيرة فى جيوشهم . وعومل هؤلاء الجنود المصريون معاملة شبيهة بالجنود الإغريق، فمنحوا إقطاعات (kleroi) ولـكن من مساحات أصغر (خمس أو سبع أردرات) . ولهذا أطلق على أصحاب هذه الإقطاعات الصغيرة من المصريين klerouchoi ، بينما أطلق على قرنائهم من الإغريق لفظ المستوطنين katoikoi .

هذه الإقطاعات العسكرية عموماً شاركت الإقطاعات الـكبرى للموظفين (Doreai) فى صنفين : الأولى: أنها من أرض بور على صاحبها القيام بمهمة إصلاحها ، والثانية أنها منحة من الملك للجندى مدى الحياة ، ويجوز للملك استردادها متى شاء لسبب أو لآخر ، مثل وفاة الجندى الذى فى حوزته الأرض أو إذا عجز عن دفع الضرائب المستحقة عن أرضه للدولة . ومع ذلك فقد

تحولت الإقطاعات العسكرية بمرور الزمن من كونها منحة مؤقتة من الملك إلى أن أصبحت فى الواقع ملكية خاصة فى نهاية القرن الثانى ق . م . وقد تم ذلك على مراحل ، ابتدأت بالسماح بتوريثها وانتهت بأن عوملت بواسطة أصحابها معاملة الملكية الخاصة بالبيع والتوريث والهبة . وقد صاحب هذا التطور فى وضع الإقطاعات زيادة أراضى هذا النوع ، حتى لقد لوحظ أن مساحة الأرض التى تشغلها الإقطاعات العسكرية فى إحدى قرى الفيوم كانت ١٠٤ أردبا تقريباً فى سنة ٢٢٠ ق . م . وأصبحت ١٥٨١ أردبا تقريباً فى سنة ١١٨ ق . م .[١] هذه الزيادة كانت عادة على حساب أرض الملك ، وتنتهى فى كثير من الأحيان إلى أن تصبح ملكية شخصية كما أوضحنا[٢] .

٥ — أرض الملكية الشخصية (gé idioktetos): لازالت نشأة الملكية الشخصية للأرض فى العصر البطلمى موضع خلاف بين المؤرخين. فمنهم من يرى أنها نشأت ونمت تحت حكم البطالمة ومنهم من يرى أنها كانت موجودة من قبل منذ العصر الفرعونى . والأرجح فيما يبدو الآن أن الملكية الشخصية كانت موجودة عندما حضر البطالمة إلى مصر ، واستمرت ونمت تحت حكمهم . وقد ساعد على نموها عاملان : الأول هو تحول الإقطاعات العسكرية إلى ملكية شخصية كما بينا سابقاً ، رغم أن سياسة الدولة لم تهدف إلى ذلك أصلا . أما العامل الثانى فكان نتيجة لبعض مشاريع إصلاح الأراضى البور التى انتهجها البطالمة ، وهى التى تعرف بنظام emphyteusis . ومجمل هذا النظام[٣] أن الدولة — تشجيعاً

---

(١) A. Segré, Sul politeuma et l'epigoni in Egitto, Aegyptus, 3 (1932) p. 145, no. 1.

(٢) يجب الاحتياط فى تطبيق هذه النتيجة على سائر أجزاء مصر ، لأن المثل الذى قدمناه مأخوذ من قرية كركيوزيريس فى الفيوم . ومنطقة الفيوم لها وضع خاص ، لأنه يبدو أن الإقطاعات البطلمية كانت فى الفيوم أكثر من غيرها من مناطق مصر .

(٣) P. Tebtunis, I, 5, lines 93—98 (118 B. C.)=Wilcken, Chrestomathie no. 339.

لاستثمار الأموال فى الزراعة — كانت تعفى زراع الكروم والفاكهة فى الأرض البور من الضرائب فى الخمس سنوات الأولى ثم تجبى منهم ضرائب مخفضة فى الثلاث سنوات التالية ، وبعد ذلك تجبى الضرائب كاملة ، وقد نص قانون خاص بهذا النظام على منح المواطنين من أهل الأسكندرية امتيازاً خاصاً وهو تمتعهم بالضرائب المخففة ثلاث سنوات زيادة على غيرهم من سائر السكان . والسبب فى هذا الامتياز اقتصادى بحت ، لأن الأسكندرية كانت أكبر مركز للصناعة والتجارة ، وكان الإسكندريون تبعاً لذلك أقدر سكان مصر على بذل المال فى إصلاح مثل هذه الأراضى .

نتيجة لمثل هذه المشروعات التشجيعية ، وكذلك بسبب تحول الإقطاعات العسكرية بالتدريج إلى ملكية خاصة ، زادت أرض الملكية الخاصة فى مصر كثيراً فى نهاية القرن الثانى ق . م . ويبدو أن هذه الزيادة كانت تطوراً طبيعياً لظروف القرنين الثالث والثانى ، ولم تكن سياسة مقصودة من قبل البطالمة لخلق طبقة من ملاك الأراضى ليستخدم أفرادها فى القيام بالعمل الجبرى فى الإدارة (tleiturgia) [1] بل على العكس من ذلك ، لعل نظام العمل الجبرى فى الإدارة كان نتيجة ورد فعل لوجود طبقة كبيرة من أصحاب الأملاك .

٦ — أرض المدن (gé politiké) تقضى تقاليد المدن اليونانية : أن كل مدينة يجب أن يتبعها أيضاً مساحة من الأرض الزراعية . ولدينا من الأدلة ما يثبت أن المدن اليونانية فى مصر تمتعت بمثل هذا النظام . فكان لمدينة بطلمية التى أنشأها بطلميوس الأول فى صعيد مصر أرض خاصة سميت

(١) كما يعتقد Rostovtzeff, Kolonat, p. 81; and Social and Economic History of the Hellenistic World, I. p. 290

ويتبع الدكتور ابراهيم نصحى هذا الرأى أيضا فى تاريخ الحضارة المصرية ، الجزء الثانى ص ٥٤ .

(ge politiké)[١] ؛ أما فى حالة الأسكندرية فسميت « أرض الأسكندريين» (Alexandreon chora) ويبدو أنه الإسكندر الأكبر هو الذى منح الأسكندرية هذه الأرض[٢]. ومعلوماتنا عن أرض المدن تدل على أنها كانت ملكيات خاصة فى أيدى الأفراد من مواطنى المدن ؛ وأنها فى حالة الأسكندرية تمتعت بإعفاءات وامتيازات مختلفة فيما يتعلق بالضرائب[٣].

* * *

تعليق على نظام الأراضى :

ليت لدينا الإحصاءات الكافية لنعقد مقارنة بين نسبة الأنواع المختلفة من الأرض ومجموع الأرض الزراعية فى مصر ؛ ثم نبين تطور كل نوع بالزيادة والنقصان؛ ودلالة ذلك من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ورغم أن ماوصل الينا من معلومات لاتسمح لنا بالقيام بمثل هذه الدراسة ؛ إلا أنه قد أمكن استخراج بعض الإحصاءات القيمة من وثيقتين برديتين من قرية فى الفيوم تسمى كيركيوريسى فى عام ١١٨ — ١١٩ ق.م. ونحن نورد فيما يلى هذه الإحصائية لأهميتها[٤]، مدركين أنها لا تمثل سوى ظروف الأرض فى زمام تلك القرية فى ذلك التاريخ. وأنه لايجوز التعميم من هذا المثال على ظروف مصر البطلمية عموماً إلا بعد توافر الأدلة على التشابه :

---

(١) P. Merton, 5 (149—135 B. C.).

(٢) أنظر وصف مساحة هذه الأرض فى Pseudo Callisthenes I, 31.

(٣) أنظر P. Columbia Zeuon, 120 (229 - 8 B. C.); and P. Tebtunis, 5 lines 93—8 (118 B. C.).

(٤) هذه الإحصائية مستمدة من الدراسة الموجودة فى P. Tebtunis I, p. 538 based on nos 60—61. a.

نوع الأرض	المساحة
١ — أرض المالك	٢٤٢٧
٢ — أرض المعابد	٢٧١
٣ — الإقطاعات العسكرية	١٥٦٤
٤ — الملكية الخاصة : أرض القرية	٦٩
أرض حدائق	٢١
المجموع	٤٣٥٢

من هذا الإحصاء يتبين أن زمام تلك القرية شغلت أرض الملك أكثر من نصف مساحة الأرض بأسرها ؛ وأن الإقطاعات العسكرية شغلت نحواً من ثلث زمام القرية. تأتى بعد ذلك أرض المعابد ثم الملكية الخاصة التى كانت أقلها مساحة . ولكن يجب أن نذكر فى ذلك التاريخ قدرا كبيرا من الإقطاعات العسكرية كان يعامل معاملة الأرض الخاصة بواسطة أصحابها ·

الصناعة والتجارة :

معلوماتنا عن الصناعة والتجارة قليلة عادة ، وكثيراً ما يكتنفها الغموض والتناقض . ولقد زاد الأمر صعوبة نظام الاقتصاد الملكى الذى طبقته البطالمة فى مصر . فقد كان تطبيق هذا النظام يهتم بدقة تامة فى الخطة العامة والتفاصيل بحيث يصعب التعميم من مثال لآخر أو من الجزء إلى الكل ، لأن خطة الدولة لم تكن موحدة تجاه أوجه النشاط الاقتصادى المختلفة . فرغم أن الأساس الذى قامت عليه ، سياسة البطالمة هو سيطرة الدولة على اقتصاد البلاد ، فإن هذه السيطرة اختلفت درجتها بين الاحتكار التام والإشراف الجزئى [1] فمن بين

(١) أنظر ;.Cl. Préaux, l'Economie Royale des Lagides pp. 61 ff Rostovtzoff, Social and Economic History of the Hellenistic World, I, pp. 300 ff, and 381 ff,

الصناعات التى خضعت لاحتكار الدولة الكامل صناعتا الزيت والملح . وقد أمكننا أن نلم بتفاصيل نظام الاحتكار البطلمى ممثلا فى صناعة الزيت عن طريق المعلومات الواردة فى بردية هامة تعرف باسم « بردية قوانين الدخل للملك فيلادلفوس » (Revenue Laws of Ptolemy Philadelphus) . هذه الوثيقة تطلعنا على مدى تحكم الدولة الكامل فى جميع مراحل إنتاج الزيت . فالدولة هى التى تحدد كل سنة مساحة الأرض التى يجب على كل « نوموس » (محافظة أو مديرية) أن تزرعها بالنباتات المنتجة للزيت . وكانت إدارة كل نوموس تقوم بتنفيذ أوامر السلطة المركزية حسب القرى وأحوال الأرض الزراعية بها. أماعن الحبوب اللازمة لذلك فكانت الدولة تقوم بتسليمها للزراع الذين كانوا يتعهدون بردها ، فى نهاية الموسم من المحصول الجديد . وكانت الدولة تستولى على ربع المحصول مقابل الضريبة المستحقة لها ، أما باقى المحصول فكانت الدولة تشتريه من المزارعين بالسعر الذى يحدده الملك .

بعد ذلك تنقل المحاصيل المجموعة بواسطة ممثل الدولة إلى معاصر الحكومة المنتشرة فى القرى والمدن ، علما بأن الدولة لم تسمح بوجود معاصر فى ملكية خاصة ؛ باستثناء معاصر المعابد التى كانت تعمل فى نطاق ضيق جداً وتحت إشراف دقيق من الحكومة . وعمال الزيت ، رغم أنهم كانوا عمالا أحراراً من الناحية القانونية أى ليسوا رقيقاً ، إلا أنهم يتبعون الحكومة وملزمون بالعمل فى معاصرها حسب الشروط التى تمليها عليهم . بعد ذلك يخرج الزيت من المعاصر إلى حوانيت معينة فى المدن والقرى مرخص لها ببيع الزيت بأسعار تحددها الدولة على نحو يحقق لها الربح الوفير .

لم يطاق البطالمة سياسة الاحتكار هذه على جميع الصناعات ، ففى أحيان أخرى اكتفت الدولة بأن يكون لها مصانعها ، وسمحت بوجود مصانع خاصة

تعمل تحت إشرافها فقط . نلحظ تطبيق هذه السياسة فى صناعة النسيج من الكتان والصوف . فصناعة المنسوجات الكتانية التى اشتهر بإتقانها المصريون القدماء منذ العصر الفرعونى ، واستمروا كذلك فى العصر البطلمى . ورغم أن تفاصيل سياسة البطالمة حيال هذه الصناعة تعوزنا ، ، فمن الواضح أنه وجدت ثلاث شعب أو قطاعات لإنتاج الكتان : القطاع الأول هو النسيج الذى كان يتم نسجه فى مصانع الحكومة ، والقطاع الثانى هو نسيج المعابد ، والقطاع الثالث هو نسيج الأفراد من أصحاب المصانع الخاصة أو الذى كان ينسج فى المنازل . وسمح البطالمة للقطاعات الثلاثة بالعمل ؛ وكان القطاع الحكومى يعمل على أسس شبيهة بأسس العمل فى احتكار الزيت . وفوق ذلك كانت الحكومة تفرض على المعابد والأفراد أن يقدموا لها فى كل عام كمية معينة من المنسوجات الكتانية المختلفة ، حسب مواصفات معينة . وعدا ذلك فكانت مصانع المعابد والأفراد حرة فى إنتاجه وبيعه وتصديره أيضاً إلى خارج البلاد[1] .

أما عن صناعة الصوف فقد ازدادت أهميتها فى العصر البطلمى بسبب وجود الإغريق الذين اعتادوا لبس الصوف بعكس المصريين الذين ألفوا لبس الكتان . ونحن لا نعرف مدى تدخل الحكومة البطلمية فى صناعة الصوف ، ولكن الأرجح أنها كانت أكثر حرية من صناعة الكتان ؛ أى أن مصانع الحكومة لم تكن واسعة الانتشار ، وأن الإنتاج الخاص لم يكن خاضعاً لرقابة الدولة الشديدة[2] .

---

(١) أهم وثيقة فى صناعة الكتان

P. Tebtunis III. 703 (late Third century B. C.)

(٢) من الوثائق الهامة التى تتعلق بتجارة الصوف فى العصر البطلمى :

P. Enteuxeis, no. 2, Magdola (217 - 216 B. C.); and no. 3; also of. Préaux, Economie Royale, pp. 96 ff,

ومن الصناعات الهامة التى كانت مصر مركزها الوحيد فى العالم القديم صناعة الورق من نبات البردى . فقد كان للمصرى القديم فضل السبق إلى اختراع الورق من البردى وإتقان صناعته ، وبقى المنتج الوحيد له حتى اختراع مادة الورق المستخدم الآن فى بداية العصور الوسطى. لذلك كان لابد أن يستفيد البطالمة من هذه السلعة ذات الأهمية العالمية . أما من حيث إنتاجه ، فيبدو أنه بقى إنتاجاً مختلطاً : فكانت مصانع الحكومة تنتج نوعا من البردى يعرف باسم basilika والمعابد تنتج نوعا آخر يسمى hieratika ، والأفراد ينتجون نوعا أطلق عليه اسم « idiotika »[١] . ورغم أن الدولة سمحت بالإنتاج الحر ، إلاّ أنها فرضت رقابة شديدة لحماية إنتاجها. وكانت تفرض على الموزعين أن يقتصروا على الشراء من مصانع الحكومة وألاّ يستخدموا ماينتجه الأفراد[٢] . ومعنى هذا أن البطالمة أقاموا احتكاراً جزئياً لإنتاج البردى وتوزيعه الداخلى فى مصر . أما عن تصدير البردى للعالم الخارجى ، فيبدو أن بطلميوس الثانى فيلادلفوس قد أخضعه لسيطرة الدولة التامة ، وأن الملوك من بعده اتبعوا سياسته[٣] .

إلى جانب هذه الصناعات ازدهر فى مصر البطلمية عدد من الصناعات الأخرى مثل الزجاج والفخار والخمور والعطور والتوابل وصناعة الفنون الصغيرة. ولكن المقام لا يسمح بالإفاضة فى الحديث عنها هنا ، كما أننا لازلنا فى حاجة الى مزيد من المعلومات عن موقف البطالمة منها .

أما عن التجارة الخارجية فمعلوماتنا عن سياسة البطالمة حيالها قليلة بحيث

---

(١) خير دراسة عن صناعة البردى هى كتاب
N. Lewis, l'Industrie du Papyrus.

(٢) أنظر P. Tebtunis, III : 709 (159 B. C.)

(٣) أنظر G. Glotz, le Prix de Papyrus, Bull. Soç. d'Arch. d'Alexandrie (1930), ff.

تترك على ألسنتنا أسئلة كثيرة بغير جواب مقنع . فإذا كانت الأدلة قد أخضعت تصدير البردى لسيطرتها التامة، فنحن لا نعرف مدى احتكار الدولة لأهم صادرات مصر وهو القمح ، ولكن من المتوقع أن البطالمة الأقوياء الأول تحكموا فى جزء كبير من تجارة القمح الخارجية ، نظراً لأنه كان السلعة الأساسية مع البردى التى كان البطالمة يحصلون نظيرها على ما يحتاجون إليه من فضة وحديد وخشب. ومع ذلك فهناك دلائل تكشف عن ازدياد نشاط الأفراد فى تصدير القمح حينما ازداد ضعف الدولة فى القرن الأخير من تاريخها(١) .

إذا كنا نناقش مدى تحكم الدولة فى تجارة بعض السلع مثل القمح والبردى، فإن هذا لا يعنى أنه لم توجد تجارة خارجية حرة . فهناك من الأدلة الكافية ما يثبت وجود تجارة خارجية حرة تحت سيطرة البطالمة قام بها أفراد من رعايا الدولة إلى جانب تجار أجانب ، وأن هذه التجارة شملت البحرين الأبيض المتوسط والأحمر .

ففى حوض البحر الأبيض المتوسط عثر على عدد من النقوش التى تثبت وجود علاقات تجارية حرة بين الأسكندرية وجزيرة ديلوس(٢) التى خلفت جزيرة رودوس كأكبر مركز للتبادل التجارى فى البحر الأبيض . ومما يدل على أهمية التجار الأجانب الذين حضروا للتجارة فى مصر هذا البيان الملكى الذى أصدره فيلادلفوس يأمر فيه جميع التجار الأجانب بوجوب استبدال ما يوجد معهم من عملة أجنبية ذهبية أو فضية بعملة فضية بطلمية جديدة ليستخدموها فى

---

(١) أنظر Préaux, Economie, Royale 150; L. Casson, Grain Trade of the Hellenistic World, Transactions of the American Philological Association, 85 (1954) pp. 184 ff .

(٢) Durrbach, Choix d'Inscriptions de Delos, nos. 105—6—7—8,

عقد صفقاتهم فى الأسكندرية وداخل البلاد[1] . هذا البيان الملكى له أهمية مزدوجة : فهو يدل على وجود رقابة على النقد الأجنبى ، كما يدل أيضاً على أن هؤلاء التجار الأجانب كانوا أحراراً فى التنقل إلى داخل البلاد مما يؤكد أن الدولة لم تتدخل فى تحديد نشاطهم التجارى . ولقد شملت تجارة مصر الخارجية معظم الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط مثل فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان فى الشرق وكذلك إيطاليا وشمال إفريقيا فى الغرب .

وكثيرا ما تكونت فى الأسكندرية شركات دولية من تجار ذوى جنسيات مختلفة للقيام بتجارة عالية. يوضح هذه الظاهرة عقد تجارى بحرى لاستيراد التوابل من شرق أفريقيا عن طريق البحر الأحمر . فأطراف هـذا العقد ينتمون إلى أكثر من سبع جنسيات مختلفة : مساليا، تسالونيكا ، اسبرطه ، إيليا ، قرطاجة روما ، وآخرون يحملون أسماء إفريقية[2] هذا العقد البحرى ينقلنا للحديث عن تجارة البحر الأحمر. هذه التجارة الشرقية كانت لها أهمية خاصة، لأنها كانت المصدر الوحيد لأنواع من السلع مثل التوابل والعاج. وكان المصريون يقومون باستيراد هذه السلع لصنعها فى مصر أولا ثم إعادة تصديرها بأسعار مرتفعة إلى مناطق حوض البحر الأبيض فى الشمال . وكانت تدفع قيمة التجارة الشرقية عن طريق تصدير أنواع راقية من المنسوجات الكتانية . وقد أثبت نشاط هـذه التجارة ما ذكره استرابون[3] من أن الإسكندريين كانوا يستخدمون ما لا يقل عن عشرين سفينة فى نقل بضائعهم فى البحر الأحمر فى العصر البطلمى . ويؤيد قول استرابون أيضا عدد من النقوش التى عثر عليها فى صعيد مصر ويثبت وجود تجارة نشطة مع الجنوب العربى ، الذى كان بدوره نقطة الاتصال مع بلاد الهند.

---

(١) P. Cairo Zenon; no. 59021 (258 B. C.)

(٢) Sammelbuch, no. 7169 (II B. C.)

(٣) Strabo, 2. 5. 12 (C. 118) ; and 17. 1. 13. (C. 798).

د - الحياة الثقافية

من الصفحات المشرقة فى تاريخ الأسرة البطلمية اهتمامهم البالغ بجعل الأسكندرية مركزاً ثقافياً عالمياً. ولقد نجحوا فى تحقيق ذلك بسرعة وغلى نحو أثار إعجاب المهتمين بتاريخ الحضارات قديماً وحديثاً. فمنذ عصر مبكر من حكمهم وجدنا الأسكندرية تنتزع مركز القيادة الثقافية فى العالم اليونانى من أثينا. أما الخطة التى انتهجها البطالمة فى سبيل تحقيق هذه الغاية فهى إنشاء دار خاصة للدراسة والبحث أطلقوا عليه اسم « الموسيون » (Mouseion، ومعناها دار ربات الفنون) وألحقوا بها مكتبة كبيرة جمعوا فيها الكتب بكميات هائلة وبذلوا فى سبيل ذلك بسخاء (١).

ويرجع الفضل فى تأسيس الموسيون مكتبة الأسكندرية إلى بطلميوس الأول سوتير الذى عهد إلى المفكر والسياسى الأثينى دمتريوس الفاليرى بمهمة التصميم والتنفيذ.

ولم يأل الملوك البطالمة بعد ذلك جهداً فى جلب العلماء إلى الموسيون والكتب والمخطوطات الأصلية من جميع أطراف العالم اليونانى. حتى ليقال إن عدد لفائف البردى التى دونت عليها الكتب قديماً بلغ ٧٠٠ر٠٠٠ وهو قدر لايستهان به، فلم تبلغه بعد مكتبات بعض جامعاتنا الحالية. ولم تقتصر هذه المكتبة على المصنفات اليونانية بل شملت كثيراً من الكتب غير اليونانية مثل المصرية والعبرية والإثيوبية والفينيقية وغيرها. وإذا كانت المكتبات الحديثة الكبرى فى العالم تقوم الآن بتصوير الكتب النادرة وترسلها لمن يشاء من

---

(١) أنظر E. A. Parsons : The Alexandrian Library (1952).

العلماء ، فقد قامت مكتبة الأسكندرية بمهمة نسخ المخطوطات التى لديها وكانت تبيعها للأفراد فى مصر وتصدرها إلى مراكز الثقافة اليونانية المختلفة وكذلك إلى روما فيما بعد . وبعد بناء معبد السرابيوم فى الحى المصرى بالأسكندرية ألحقت به مكتبة أخرى .

وهكذا أصبح لدى علماء الموسيون مكتبتان حوتا معظم تراث الإنسانية حينئذ . وأفاد العلماء من هذه الفرص الثقافية الهائلة ، فأقبلوا على الأسكندرية من كل موطن إما للانضمام إلى عضوية الموسيون أو للدراسة والإفادة من مكتباتها الغنية . وإذا بأشهر شعراء العصر يجتمعون فى الأسكندرية من أمثال كاليماخس وثيوكريتوس وأبولونيوس الرودوسى ، وقامت بينهم المعارك الأدبية والنقدية المشهورة (بين القديم والجديد) ، وأصبح لزاماً على كل مثقف فى العالم أن يلم بتطور الإنتاج الأدبى فى الأسكندرية ، حتى أطلق على الأدب اليونانى بأسره فى هذه الحقبة اسم الأدب الإسكندرى ، وذلك لشدة تأثير مدرسة الأسكندرية على الإنتاج الأدبى فى العالم فى ذلك الوقت ، بما فى ذلك أدباء اللاتين فى روما الذين كانوا يحاكون نماذج الأدب اليونانى فى الأسكندرية .

ولا نبالغ فى شىء إذا قلنا إن أسس الدرس الأدبى على أسس علمية قد أرسيت فى الأسكندرية أيضاً . فقد توفر علماء الموسيون والمكتبة على نماذج الأدب اليونانى الراقية درساً وبحثاً ، يقارنون بين المخطوطات والقراءات المختلفة ، وكانت لهم جهود قيمة فى تحقيق ونشر ملاحم هوميروس وتاريخ هيرودوت وأعمال شعراء أثينا الكبار .

ولم يقتصر نصيب الأسكندرية فى بناء الحضارة الإنسانية فى ذلك الوقت على الشعر والأدب ، بل قامت بها حركة علمية نشطة خطت بعلوم الرياضة

والهندسة والفلك والطبيعة خطوات هائلة ، كانت أسس الحركة العلمية العربية فى العصور الوسطى وأسس النهضة العلمية الأوربية الحديثة . ويكفى أن نذكر أن إقليدس العالم الرياضى والهندسى ، وأرشميدس صاحب قانون الطفو وإراتوستنيس صاحب المحاولة الكبرى لقياس محيط الكرة الأرضية كانوا جميعاً من علماء الأسكندرية فى العصر البطلمى .

مراجع العصر البطلمى

— H. I. Bell; — Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest 1948.

وتوجد ترجمتان باللغة العربية ، قام بالأولى الدكتور محمد عواد حسين والدكتور عبد اللطيف أحمد على . وقام بالثانية الأستاذ زكى على .

— Cults and Creeds in Greco—Roman Egypt, 1953.

— E. Bevan : A history of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, 1927

— A. Bouché—Leclercq : Histoire des Lagides, 4 Vols, Paris 1903—1907.

— P. Cloché : la Dislocation d'un Empire (les premiers, successeurs d'Alexandre le Grand) 1959,

— R. M. Cook : Amasis and the Greeks in Egypt, Journal of Hellenic Studies (1936) p. 227 ff.

— P. G. Elgood : The Ptolemies of Egypt, 1938.

— P. Jouguet : l'Egypte Ptolemaique (dans G. Hanotaux, Histoire de la Natians Egyptienne, tome III)

— L'imperialisme de l'Orient, (edition revisée) 1961

— Helene J. Kantor : The Aegean and the Orient in the second Millenium B. C. 1947

— J. Lesquier : Les Intitution Militaires de l'Egypte sous les Lagide, Paris, 1911.

— J. Mallet : Les Rapports des Grecs avec l'Egypte.

— J. D. S. Pendlebury : Aegyptiaca : A catalogue of Egyptian objects in the Aegean Area, Combridge 1930.

— Cl. Préaux : L'Economie Royale des Lagides 1939,

— M. Rostovtzeff : — Social and Economric History of the Hellenistic World 1963.

— Prolemaic Egypt (in Cambridge Ancient History Vol VII.)

— W. W. Tarn. : — Hellenislic civilization (Third edilion, by G. T. Griffitt) 1952

— Alexander the Great 2 Vols. , 1949.

وتوجد ترجمة عربية للجزء الأول بقلم الأستاذ زكى على

— J. Vercoutter : l'Egypte et le monde egeen prehellenique. Etude critique des sources Egyptiennes (du debut de la XVIII^e à la fin de la XIX^e Dynastie) le Caire, 1956.

دكتور إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، جزءان ، طبعة ثانية

» » » : دراسات فى تاريخ مصر البطلمية .

» » » : حضارة مصر فى العصر اليونانى (تاريخ الحضارة المصرية ـ المجلد الثانى) .

الأستاذ زكى على : كليوباترة ، سيرتها وحكم التاريخ عليها .

دكتور محمد عواد حسين (وآخرون) كفاحنا ضد الغزاة : عصر البطالمة .

الباب الثاني

مصر في العصر الروماني

الفصل الأول

التاريخ السياسي لمصر في العصر الروماني

١ - القرنان الأول والثاني من الإمبراطورية الرومانية

أغسطس يفتح مصر :

من العبارات الجغرافية المشهورة أن البحر الأبيض المتوسط وسيلة وصل لا فصل . ورغم أن هذا القول صحيح فى جميع عصور التاريخ ، إلا أنه يمكن أن يقال أن الإمبراطورية الرومانية هى التى جعلت هذه العبارة الجغرافية حقيقة تاريخية بكل معانى الكلمة . لأن الحضارات السابقة المصرية والأشورية والفارسية والإغريقية كانت تشمل عادة منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط ، أما روما فقد نجحت فى أن تضم جميع أقطار هذا البحر فى بناء سياسى وحضارى واحد استمر فترة من الزمن تربو على السبعمائة سنة فيما يعرف بالإمبراطورية الرومانية . ورغم أن تحويل حوض البحر الأبيض المتوسط إلى إمبراطورية رومانية استغرق مايزيد على القرنين ونصف ، كانت مصر آخر قطر سقط فى أيدى الرومان من أقطار هذا البحر ، عقب موقعة أكتيوم ودخول أوكتافيان (أغسطس) مصر فى أول أغسطس سنة ٣٠ ق . م . ومن الغريب أن هذا العام يؤرخ فى التاريخ الرومانى نهاية العصر الجمهورى وبداية العصر الإمبراطورى الذى يرأس فيه الدولة « رئيس princeps » وليس قنصلا

(Consul وتعنى زميل) كما كان الأمر من قبل . ولكن هذا التوافق التاريخى بين فتح مصر وبداية الإمبراطورية لايتعدى كونه مصادفة تاريخية، فقد كان من الممكن أن تسقط مصر فى أيدى الرومان من قبل ولا تقوم الإمبراطورية فقد كانت بداية النظام الإمبراطورى فى روما مرهونة بتفرد أوكتاڤيان بالسلطان بعد القضاء على ماركوس أنطونيوس . وقد حدث أن اقترن مصير مصر البطلمية بمصير ماركوس أنطونيوس وكليوباترا ، كما سبق أن بينا ، لأن تأخر سقوط مصر البطلمية فى أيدى الرومان لم يكن راجعاً لقوتها ومنعتها بقدر ما كان راجعاً لظروف روما الداخلية وظروف النزاع الحزبى بين السناتو والشعبيين . ويتضح مما ذكرناه فى تاريخ الأسرة البطلمية مقدار الضعف الذى وصل إليه ملوكها المتأخرون ، وأنهم منذ منتصف القرن الثانى ق. م. وهم يتقربون ويتزلفون إلى روما بشكل متزايد حتى أصبح الملك البطلمى لايكاد يستقر على عرشه دون رضاء روما ودون أن تسنده قوة رومانية تقيم فى الأسكندرية .

ومع ذلك فلم يكن فتح مصر بالأمر الهين ، لأن مصر مهمة دائما دون نظر إلى قوتها أو ضعفها . ولعل السبب فى ذلك هو أن اسمها وتراثها القديم من ناحية وثروتها الزراعية الكبيرة من ناحية أخرى تضفى عليها مجداً وأهمية خاصة . ولم يَفُتْ الفاتح الرومانى أن يستغل هذه الفرصة فى أسباب الدعاية السياسية ، فأصدر عملة تذكارية خاصة بمناسبة ضمه مصر لسلطان روما . وقد خرجت هذه العملة تحمل صورة التمساح — أشهر الحيوانات النيلية وأخذ المعبودات المصرية — وقد كتب تحته عبارة « Aegypto capta »(١) ومعناها « فتح مصر » .

ولكن ماذا كان يعنى فتح مصر معناه بالنسبة لمصر ذاتها أنها لم تعد دولة

---

(١) H. Mattingly. British Museum Catalogue of Coins of the Roman Empire, Vol. I. No. 650.

مستقلة تحت حكم الأسرة البطلمية فى الأسكندرية ، وأصبحت ولاية تتبع سلطان روما. هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية الاقتصادية فقد كان الأمر أكثر خطورة ، لأن روما فرضت على مصر جزية مالية وضريبة نوعية من القمح والغلة يجب أن تشحن إلى روما فى كل عام . أى أن جزءاً كبيراً من دخل المصريين وإنتاجهم الزراعى كان يذهب إلى روما دون مقابل . ومن أجل هذا المعنى الاقتصادى احتفل أغسطس بفتح مصر وأصدر تلك العملة التذكارية ليزف النبأ للرومان ويبشرهم أنه قد سخر لبطونهم قمح مصر .

وما كان هذا بالأمر اليسير لأننا نعرف من تاريخ روما أن من يستطيع إطعام الرومان يحكمهم ومن يفشل فى ذلك لا يبقى فى الحكم يوماً واحدا. (١) ولما كانت روما قد أهملت زراعة القمح فى إيطاليا واعتمدت اعتمادا تاما على استيراده من الولايات ، تعتبر السيطرة على مصر — أكبر بلد منتج للقمح فى الإمبراطورية — أمراً بالغ الأهمية من الناحية السياسية . ويوضح هذه الحالة قول المؤرخ الرومانى تاكيتوس « على أن (إيطاليا) لم تصب الآن بالجدب ، ولكننا نفضل استقلال (شمال) إفريقيا ومصر ، وأصبحت حياة الشعب الرومانى رهناً بالسفن وأحداثها » (٢) .

ونظراً لأهمية مصر على هذا النحو ، واشتهارها بجنوح أهلها إلى الثورة — سواء من شعب الأسكندرية أو من أهالى مقاطعة طيبة فى الصعيد — كما حدث مراراً فى النصف الأخير من حكم البطالمة ، فقد اهتم الإمبراطور أغسطس بوضع نظام دقيق لها يكفل استمرار خضوعها للسلطة المركزية فى روما . ويهمنا أن نحدد هنا ثلاث نقاط وهى وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية ، ثم السلطة

---

(١) حول أهمية تموين روما بالغلال . أنظر : D.Van Berchem, les distributions de blé et d'argent à la plebe romaine sous L'empire, Lenene, 1939.

(٢) Tacitus Annales, XII. 43

العليا فى مصر الرومانية ، وأخيراً الحامية العسكرية (سنتحدث عن سائر النظم الإدارية فى فصل مستقل) . ولإيضاح هذه النقاط الثلاث نورد بعض النصوص القديمة التى تصف وضع مصر الجديد كما عينه الإمبراطور أغسطس :

أولا : استرابون : وقد زار مصر عقب الفتح الرومانى مباشرة وكتب فى عهد الإمبراطور أغسطس نفسه يقول :

« لقد أصبحت مصر الآن « ولاية » ، (Eparchia) تدفع جزية ضخمة ، ويقوم على حكمها رجال حكماء ، وهم الولاة الذين يرسلون إليها تباعاً . ويحتل (الوالى) الذى يرسل إليها مكان الملك .. وهناك ثلاث فرق من الجنود . واحدة منها تقيم فى المدينة (الأسكندرية) ، والأخريان فى سائر القطر ، وإلى جانب هؤلاء توجد تسع سرايا رومانية ، ثلاث منها فى المدينة (الأسكندرية) ، وثلاث على الحدود الإثيوبية فى أسوان – كحامية لتلك البقاع – ، وثلاث فى سائر القطر . وهناك كذلك ثلاث وحدات من الفرسان معينة فى مناطق الخطر أيضا »(١) .

ثانياً : تاكيتوس : أعظم مؤرخ رومانى . امتدت حياته بين عام ٥٥ وعام ١١٥ ميلادية أو بعدها بقليل ، وتدرج فى سلك الإدارة الرومانية حتى تولى منصب بروقنصل والياً على آسيا الصغرى . وبفضل حياته الإدارية كان مطلعاً على الوثائق الرسمية ، ومن ثم أهمية كتاباته ، كما امتاز بدقة التعبير والإيجاز إلى درجة ملغزة فى بعض الأحيان . وقد وصف وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية بهذه العبارة :

« حكم مصر وقوات الاحتلال بها ، منذ زمن أغسطس المؤله ، أفراد من طبقة الفرسان الرومان ، شغلوا مكان الملوك . فقد رؤى أن من الأصلح أن يبقى للإمبراطور أمر ولاية (Provincia) يصعب الوصول إليها ، وغنية فى القمح »(٢) .

---

(١) Strabo. 17. 1. 12.

(٢) Tacitus, Ann. I, 11

ثالثاً : ديون كاسيوس : عاش فى النصف الثانى من القرن الثانى وبداية القرن الثالث ؛ وتدرج فى سلك الوظائف الرومانية حتى تولى منصب القنصلية للمرة الثانية سنة ٢٢٩ : وكتب تاريخاً لروما استمده من المصـــادر المعاصرة القديمة . وقد وصف النظام الذى فرضه أغسطس على مصر فى هذه الفقرة المشهورة :

« ومنذ ذلك الوقت جعل (أغسطس) مصر تدفع الجزية ، وعين عليها جاللوس كورنيليوس . ونظراً لـكثرة عدد السكان سواء فى المـدن أو فى الريف ، ولسرعة وحدة طباعهم ، وكذلك لوفرة غلاتها وثرائها ، منع أعضاء مجلس السناتو أن يدخلوا مصر لأى سبب كان أو الإقامة بها ، إلا بعد الحصول على إذن خاص منه . ورفض السماح لأفراد هذا الشعب (أى المصريين) أن يصبحوا أعضاء فى مجلس السناتو فى روما . وبعد ذلك تناول أموراً أخرى كلا على حدة ، فأمر الأسكندريين أن يدبروا شئون مدينتهم دون مجلس تشريعى (boulé) ؛ فقد كان يعرف مدى جنوحهم إلى الثورة .

هكذا كانت النظم التى وضعت لهم ، وقد بقى محافظاً عليها إلى الآن ، إلا أنه قد أصبح لهم مجلس تشريعى boulé فى الأسكندرية منذ عهد الإمبراطور سيفيروس ؛ وبدأوا يسجلون للعضوية فى مجلس السناتو فى روما ، لأول مرة فى عصر ابنه أنطونينوس [١] » .

هذه هى أهم المصادر التى تصف مصر ووضعها الجديد عند الفتح الرومانى ولنبدأ الآن فى تحديد النقطة الأولى وهى وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية ، ولقد أثار المؤرخون المحدثون حول هذا الموضوع جدلا كثيراً ، محوره هل أصبحت مصر ولاية رومانية ، أو أن أغسطس جعل لها وضعاً خاصاً أشبه ما يكون

(١) Dio Cassuis, 51,17

بالملكية الشخصية للإمبراطور (١) . وقد حاول أصحاب الرأى الأخير أن يجدوا مبرراً لوجهة نظرهم فى أن أغسطس نفسه حين كتب فى سجل أعماله المعروف باسم أثر أنقره عن فتح مصر قال « لقد أضفت مصر لسلطان الشعب الرومانى » (Aegyptum imperio papuli Romani adieci) (٢) وأنه لم يستخدم فى وصفها لفظ ولاية (provincia) . ونحن لا نريد أن نخوض فى غمار هذه المشكلة الجدلية ، لاعتقادنا أن الاختلاف مبالغ فيه وأن وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية لم يكن من الغرابة بالقدر الذى يذهب إليه بعض الباحثين وأن مصر من وجهة نظر القانون الرومانى كانت ولاية رومانية .

ولتبيان ذلك نقول إنه بعد أن استتب الأمر لأغسطس تمت فى عام ٢٧ ق . م . تسوية لتنظيم الإشراف على الإمبراطورية بينه وبين مجلس السناتو . بناء على هذه التسوية قسمت ولايات الإمبراطورية بين أغسطس والسناتو . ونلحظ أن الإمبراطور قد وضع تحت سلطانه الشخصى الولايات التى تمثل جبهات الحرب الرئيسية للإمبراطورية والتى بها جيوش محاربة وهى الغالة (وبها قيادة الجبهة الشمالية) وإسبانيا (وبها قيادة الجبهة الغربية) وسوريا (وبها قيادة الجبهة الشرقية) ومصر وهى ولاية جديدة ضمها أغسطس للإمبراطورية وأقام بها حامية عسكرية (وبذلك تعتبر مقراً لقيادة الجبهة الجنوبية) . وبهذه الطريقة ركز فى يديه السلطة العسكرية العليا لكل الجيوش الرومانية تقريبا . وهذا هو جوهر الموقف كله ، فقد حرص أغسطس على أن يسلب مجلس السناتو سلطة القيادة العسكرية . والسبب فى ذلك واضح ، وهو أن أعضاء هذا المجلس

---

(١) أكتفى هنا بأن أحيل القارىء إلى العرض الوافى لجميع وجهات النظر الخاصة بهذه المشكلة فى كتاب الدكتور عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية ، ص ٤١ — ٥٧ ، ويوجد بالهوامش بيان بجميع المراجع والمصادر .

(٢) Res Gestae Divi Augusti, 27,1.

هم الذين استغلوا سلطانهم العسكرى وهددوا سلامة الدولة وكيانها بالحروب الأهلية من أمثال ماريوس وسلا وپومپى وقيصر وماركوس أنطونيوس ، وخاصة الأخير الذى شن على أغسطس حرباً من مصر ذاتهـا قبل أن تصبح ولاية رومانية .

فمصر على هذا الأساس قد اعتبرت فى نظر المشرع الرومانى ولاية رومانية عوملت فى تسوية عام ٢٧ ق . م . معاملة الولايات الكبرى الأخرى . وما ينبغى استغلال عدم استخدام لفظ Provincia فى أثر أنقرة على أن مصر لم تكن ولاية . فكل من يقرأ نص أثر أنقره ويدرس أساليب تعبيره يدرك أن هذا الاستنتاج غير صحيح ، لأن أغسطس يستخدم فى وصفه لضم پانونيا وإلليريا للامبراطورية تعبيراً شبيها بعبارته عن ضم مصر ، ولم يشك أحد أن بانونيا وإلليريا كانتا ولايتين رومانيتين . .

ولم يشك أحد من المعاصرين أيضا أن مصر كانت ولاية رومانية وإلا لما غاب عن كل من استرابون وتاكيتوس ملاحظة ذلك وكلاهما يصف مصر بأنها ولاية (provinia أو eparchia) كما ورد فى النصين اللذين قدمنا ترجمتهما فى أول هذا الفصل . ويمكن أن نضيف إلى هذين النصين التاريخيين نصاً قانونياً يرجع إلى نهاية القرن الثانى ولكنه يصف بعض مسئوليات والى مصر على

---

(١) أنظر حول تسوية عام ٢٧ ق.م. وسلطان أغسطس :
R. Syme. The Roman Revolution. (1952) ch. XXII, "Princeps", pp. 313—330; Cambridge Ancient History, X. p. 128.

(٢) Res Gestae, 30. 1, "Pannoniorum gentes, quas ante me principem populi Romani exercitus nunquam adit, devictas per Ti. Neronem, qui tum erat privignus et legatus meus, imperio populi Romani subieci, protulique fines Illyrici ad ripam fluminis Danui";

الأسس التى عينها الإمبراطور أغسطس . هذا القانون يصف مصر بلفظ ولاية provincia [(١)] .

يتضح من هذا العرض أن مصر — من حيث وضعها القانونى — كانت ولاية رومانية ، وأنها حسب تسوية عام ٢٧ ق . م . كانت إحدى الولايات التى تتبع الإمبراطور . ويجب أن نذكر أن أغسطس مارس سلطانا مطلقا على هذه الولايات التابعة له ، يختار حكامها على النحو الذى يراه هـو ويبقيهم فى مناصبهم حسب إرادته الشخصية ، فهم نوابه وممثلوه شخصياً ومسئولون أمامه فقط ، كما كان يحق له أن يصدر ما يشاء من النظم والقوانين فى تلك الولايات بما يتفق وظروف كل واحدة . ولم يقتصر أغسطس على ممارسة هذا السلطان فى ولاياته فحسب ، بل نجده أحياناً يتدخل تدخلا مباشرا فى شئون الولايات التى تتبع مجلس السناتو ، كما حدث فى قورينة (برقة) وقبرص [(٢)] . ولذلك لا ينبغى أن ينظر لسلطان السيادة الذى مارسه أغسطس فى شئون مصر على أنه استثناء خاص بها .

رأينا أن أغسطس فى تسوية عام ٢٧ ق . م . حاول أن يضعف من شأن مجلس السناتو ، وفى الواقع كان ذلك جزءاً من سياسة مقصودة تهدف إلى إضعاف طبقة النبلاء الذين يمثلهم مجلس السناتو . وتحقيقاً لهذا الهدف اتجه أغطس إلى العمل على زيادة أهمية الطبقة المتوسطة المعروفة باسم طبقة الفرسان equites وذلك بزيادة الاعتماد عليها سياسياً ، فوجدناه يعين

---

(١) Ulpianus apud Digest. I. 17. 1 : " De officio praefecti Augustalis. Praefectus Aegypti non pruis deponit praefecturam et imperium, quod ad similitu dinem procaonsulis lege sub Augusto ei datum est, quam Alexandriam ingressus sit successor eius, licet in "provinciam" venerit: et ita mandatis eis continetur".

(٢) Cambridge Ancient Hist, X. pp. 212,214.

حكامامن بين أفرادهذه الطبقة لولاياته الجديدة ،وفى الولايات القديمة، حيث التقليد المتبع حتى ذلك الوقت هو تعيين الولاة من أعضاء مجلس السناتو من القناصل والبريتورين السابقين ، نجده لايميل إلى تعيين ولاة من فئة برو قنصل (أى من القناصل السابقين) ــ وهى الفئة الأرقى والأكثر أهمية من الناحية السياسية وأكثر خطورة من الناحية العسكرية ــ ويعين حتى فى الولايات الكبرى مثل الغالةوأسبانيا وسوريانوابآعنهمن فئةالبروبريتور (legati pro praetore) الأقل أهمية ومن الأسر الضعيفة[١] . وفى حالة مصر ، طبق نظامه المتبع فى الولايات الجديدة ، فعين ولاتها (praefectus) من طبقة الفرسان (كما يتضح من نص المؤرخ تاكيتوس السالف ذكره : (Ann. 1.II) ولكن لما كان لا يجوز لأفراد طبقة الفرسان ـ حسب التقاليد الدستورية الرومانية ـ أن يتولوا قيادة جيوش مكونة من الفرق العسكرية الرومانية (Legiones) ، والتى كان أمر قيادتها قاصراً على أفراد من طبقة السناتو (يحق للفرسان قيادة وحدات الإمدادات العسكرية auxilia) ، فقد اتخذ أغسطس إجراء استثنائياً فى حالة مصر فقط ، بأن منح والى مصر من طبقة الفرسان سلطة الامبيريوم (Imperium)[٢] التى تخوله حق قيادة جيوش مكونة من فرق رومانية . والسبب فى اتخاذ هذا الإجراء غير العادى فى حالة مصر هو عدم ثقة أغسطس فى ولاء طبقة السناتو له : لقد تآمروا من قبل بقيصر وقتلوه ، كما امتحن أغسطس نفسه بتجربة قاسية على يدى أنطونيوس وحليفته كليوباترا ، حتى كادت من جرائها تتصدع الإمبراطورية بأسرها .

ولما كانت مصر ولاية بعيدة يصعب الوصول إليها بسبب ظروف الملاحة

---

(١) أنظر : R. Syme, The Roman Revolution, p. 326; and Cambridge Ancient History, X, p. 215.

(٢) Digest, 1, 47. 1. وقد سبق أن أوردنا نص هذا القانون .

قديما وارتباطها بمواسم الرياح ، لذلك كان أغسطس يخشى أن يتمكن أحـد أعضاء طبقة السناتو من اكتساب ولاء الجنود لشخصه – بحكم حقهم التقليدى فى قيادة الجيوش – ويستقل بمصر[١] ، فيحرم روما من مصدر هام للقمح ، مما قد يكون له عواقب خطيرة . من أجل هذا كان الإجراء الاستثنائى الوحيد الذى طبقه أغسطس فى مصر يتعلق بإقصاء هذه الطبقة عنها . فمنح والى مصر من طبقة الفرسان سلطان الامبيريوم لقيادة الجيوش ، كما منع أعضاء السناتو والشخصيات البارزة فى روما من دخول مصر إلا بإذن خاص من الإمبراطور شخصياً . ويوضح هذه السياسة عبارة المؤرخ تاكيتوس المعروفة التى يقول فيها: « إن من بين أسرار توطيد حكم أغسطس أنه أمّن مصر عن طريق منع أعضاء السناتو والشخصيات البارزة من الفرسان الرومان من دخولها إلا بإذنه ، وذلك حتى لا يصيب أحـد إيطاليا بمجاعة عن طريق السيطرة على تلك الولاية ومنافذها البرية والبحرية ، فيصمد بقوة مهمـا كانت صغيرة أمام جيوش عظيمة[٢] » .

* * *

ننتقل الآن إلى النقطة الثانية فى النظام الذى وضعه أغسطس لحـكم مصر وهى السلطة العليا فى الولاية . بالنسبة للمصريين احتل أغسطس مكان الملوك

---

(١) لعل من المناسب أن نذكر هنا أن الملك بطلميوس الزمار كان قد أعيد إلى عرشه بمساعدة فرقة من الجيش الرومانى من رجال پومپى، وكان قائدها هو أحد رجاله المسمى جابينيوس. وقد بقيت هذه الفرقة فى الأسكندرية. ولعل هذا هو السبب فى أن پومپى حاول الفرار لمصر بالذات بعد هزيمة فارسالوس . ولقد حارب جنود جابينيوس ضد قيصر فى حرب الأسكندرية . ولا بد أن أنطونيوس قد ترك فى مصر جنوداً آخرين قد لا يترددون فى الثورة ضد أغسطس إذا ما وجدوا لهم قائداً مناسباً . كما أن المصريين وأهل الأسكندرية لم يكونوا راضين عن الحـكم الرومانى الجديد .

(٢) لاحظ أنه يستخدم هنا أيضاً لفظ provincia Tacitus, Ann. II. 59, حول هذا الإجراء أنظر أيضاً . Dio Cassius, 51. 17.

البطالمة ، أى أن الإمبراطور الرومانى أصبح ملك البلاد الرسمى ، يتمثل فى شخصه كل ما تمثل فى شخص فرعون من قداسة وتأليه ، وكانت تخلع عليه الألقاب الفرعونية المألوفة . هذا من الناحية الرسمية البحتة بما يتفق وتقاليد الفكر السياسى والدينى والاجتماعى المصرى .

أما من حيث إدارة الولاية وتولى السلطة العليا فيها فقد عين أغسطس لذلك موظفاً من طبقة الفرسان ، كما سبق أن بينا ، وهو الذى يحمل لقب بريفكتوس praefectus أى والى ، ثم منح هذا الوالى سلطانا على مصر (imperium) يكافىء سلطان البروقنصل على ولايته (imperium quod ad similitudinem proconsulis) لهذا كان . (lege sub Augusto ei datum est)[1] والى مصر يعتبر أهم والى من طبقة الفرسان فى الإمبراطورية بأسرها .

وقد منح والى مصر بفضل هذا الإمبريوم سلطانا مطلقا فى الولاية ، حتى ليمكن أن يقال إنه مارس معظم ما كان للملك البطلمى من سلطان[2] ، بحيث أن جميع ما يقرره كان له قوة القانون فى مصر . ولا يحد سلطانه سوى إرادة الإمبراطور وما وضعه من نظم عامة للولاية . فقد كان من سلطة الوالى مثلا أن يحرر العبيد ، ولكن لم يكن فى سلطانه أن يمنح أحداً حق المواطنة فى مدينة الأسكندرية ، لأن ذلك كان من سلطة الإمبراطور نفسه . وإذا عرض للوالى أمر لا يشمله ما منح من سلطان كان يرجع الى الامبراطور شخصيا ليقرر الأمر أولا . وعدا ذلك كان له سلطة قيادة الحامية الرومانية فى مصر وأن

---

(١) Digest. I. 17.1 . ويبدو أن من مراسيم منح الوالى هذا السلطان الاستثنائى أن تقرر الجمعية التشريعية فى روما Comitia ، أنظر : Jones Legacy of Egypt, p. 288.

(٢) أنظر : Tacitus, Ann. I. 11, Strabo. 17, 1. 12.

يستخدمها مباشرة لمواجهة أى ظرف حسب ما يتراءى له ، كما كان له سلطة تعيين الموظفين وعزلهم ومحاسبتهم (عدا كبار الموظفين المعينين من قبل الإمبراطور). ومن الناحية القضائية يعتبر الوالى القاضى الأول للولاية وأحكامه نهائية . وكانت له دورة قضائية ، ليعقد محكمته فى أنحاء مختلفة من مصر فى أوقات مختلفة حتى لا يضطر الأهالى إلى أن يحضروا إلى الأسكندرية بأنفسهم . ومن الناحية الدينية كان يتمتع بمنزلة كبيرة واحترام عظيم من الكهنة ، وعند زيارته للمعابد يعامل معاملة تقرب من معاملة الملوك . وبعبارة أخرى كان الوالى هو الرئيس المباشر للإدارة فى مصر بكل ما فى كلة الرياسة من معنى ، لأن الإدارة الرومانية فى مصر كما أرادها أغسطس كان طابعها المركزية إلى أقصى حد [١] .

بقى أن نذكر كلة أخيرة عن الحامية العسكرية الرومانية فى مصر : سبق أن بينا أن أهمية مصر الأساسية بالنسبة لروما ترجع إلى القمح والمال الذى كان يرسل سنويا إلى روما على سبيل الجزية . وإذا أضفنا إلى ذلك ما اشتهر به المصريون فى ذلك الوقت من كثرة ثوراتهم وخاصة فى الجزء الأخير من حكم الأسرة البطلمية بسبب ضعف ملوكهم ؛ لذلك وجدنا أغسطس يقيم فى مصر حامية احتلال كبيرة نسبيا إذا قورنت بالحاميات الرومانية فى كثير من الولايات الرومانية الأخرى ويذكر استرابون أن هذه الحامية تكونت من ثلاث فرق وتسع سرايا وثلاث وحدات من الفرسان [٢] . وتقدر قوة هذه الحامية بعدد ٢٢٫٨٠٠

---

(١) خير دراستين عن الوالى الرومانى فى مصر هما : O. W. Reinmuth, The Prefect of Egypt from Augustus to Diocletion (1935); and A. Stein, Dié Prafekten von ägypten in der Römischen Kaiserzeit (1950).

ولعرض مختصر أنظر Milne, Egypt Under The Roman Rule, pp. 122 ff .

(٢) Strabo. 17: 1. 12.

جندى فى عصر أغسطس . وكانت هذه الفرق والوحدات موزعة بين الأسكندرية وسائر أنحاء القطر حسب المواقع الاستراتيجية فى البلاد ، وخاصة عند الحدود الجنوبية فى أسوان . ولـكن ما إن استتب الأمر للحكم الرومانى الجديد وقضى على الثورة الأولى فى عصر أغسطس حتى رأى خليفته الإمبراطور تبيريوس أن الأمر لا يحتاج إلى بقاء كل هذه الحامية الضخمة فى مصر ، وقرر فى عام ٢٣(١) سحب فرقة بأسرها ، وبذلك انخفض العدد إلى ١٦٫٧٠٠ جندى ، بعد ذلك فى القرن الثانى خفضت هـذه القوة مرة ثانية وأصبحت ١١٫١٠٠ جندى فقط ، ومنذ تبيريوس أصبحت الأسكندرية هى المقر الرئيسى للحامية الرومانية ومن هناك كانت تصدر الأوامر للوحدات بالتحرك إلى أى منطقة فى مصر حسب الحاجة ، ولم تقتصر مهمة هـذا الجيش على الأعمال العسكرية بل كثيرا ما كلف أفراده بأعمال الأمن والشرطة والإدارة وخاصة المساعـدة فى جمع الضرائب(٢) .

* * *

أما عن تاريخ مصر السياسى تحت الحـكم الرومانى فهو يختلف تمام الاختلاف عن تاريخها فى عصر البطالمة. فقد كانت مصر فى العصر البطلمى دولة مستقلة تسيطر على إمبراطورية ، ومن ثم كان لها سياسة وتاريخ مستقل ، أما فى العصر الرومانى

---

(١) جميع التواريخ فى هذا الفصل والذى يليه ميلادية ، ما لم ينص على غير ذلك .

(٢) أهم دراسة تمت عن الجيش الرومانى فى مصر عموماً لا زالت : J. Lesquier, L'Armée Romaine d'Egypte d'Auguste à Dioclétien. Le Caire, 1918.

ويوجد عرض مختصر جيد فى J. G Milne, Egypt Under Roman Rule, pp. 101—114; and Bell in Camb. Anc Hist. X, p. 286—7.

من الوثائق الجديدة الهامة Abdullatif Ahmed Ali, New Light on the Roman Army in Egypt, Annals of the Faculty of Arts, Ain Shams University, III (1955) pp. 113—146.

فالأمر مختلف ، إذ أصبحت مصر ولاية تتبع الإمبراطور فى روما ، تصدر لها التوجيهات المختلفة من روما ، ومن ثم لم يكن لمصر سياسة أو تاريخ مستقل. ومع ذلك كان لمصر تاريخ سياسى فى العصر الرومانى ، ولكن أحداثه كانت بمثابة رد فعل للسياسة الرومانية فى مصر أو بسبب انقسام الساسة حول الحكم فى روما . ومن أهم معالم السياسة الرومانية فى مصر التى كانت من أسباب إثارة مشاعر المصريين :

أولا موقف أغسطس وخلفاءه من الأسكندريين واليهود . فمن بين وسائل أغسطس فى إخضاع مصر القضاء على أى نشاط سياسى منظم بها ، ولذلك لم يسمح للأسكندريين أن يكون لهم مجلس تشريعى (boulé[1]) وذلك حتى لا يمكن لتيارات سياسية أن تظهر بينهم . وفى الوقت ذاته اتخذ من اليهود موقفاً متساهلا ليستميلهم إليه ، فاعترف بجميع امتيازات اليهود فى مصر وضمن لهم استمرار جميع نظمهم الخاصة التى كانت تشتمل على مجلس للشيوخ (gerousia) يدير ويشرف على شئون الجالية اليهودية فى مصر ولقد أوغرت هذه السياسة صدور الأسكندريين والإغريق فى مصر على الرومان واليهود معاً[2] .

ومن ناحية أخرى فرض أغسطس على سكان مصر ضريبة رأس جديدة تعرف باسم laogaphia . هذه الضريبة فرضت على جميع المصريين باستثناء مواطنى الأسكندرية — على سبيل الاعتراف لهم بوضع ممتاز على قمة الهرم الطبقى فى الولاية . ولكن هذه الضريبة لم تفرض على الجميع بنفس القيمة ، فبينما كان الفلاحون من أهل القرى يدفعون أربعين دراخمة ، كان أهل عواصم النومات (metropolites) يدفعون اثنى عشر دراخمة فقط . هذه الضريبة لم

---

(١) Dio Cassius, 51, 17.

(٢) Josephus, Jud Ant. XIV. 7 2t XIX. 5.2; and Philo, ed Gauim, 10.

تميز من حيث اليد بين الإغريق والمصريين ، مما جعل الإغريق الذين اعتادوا المعاملة الممتازة زمن البطالمة ، يضيعون بها ، أما المصريون فقد كانت بالنسبة لأكثرهم باهظة جداً ، وكانت بالإضافة إلى ضريبة القمح (Annona) من أكبر أسباب إرهاقهم[1] .

وما كاد أغسطس يغادر مصر وبدأ الموظفون يجمعون الضريبة الجديدة حتى اشتعلت نيران الثورة عام ٢٩ ق.م. فى أنحاء مختلفة من البلاد : فى شرق الدلتا والأسكندرية وطيبة بأعلى الصعيد . وفى الحال قام أول والى رومانى على مصر كورنيليوس جالوس بإخماد الثورة فى شيء من السرعة والعنف ، مما أشعر المصريين بأن الحاكم الجديد يختلف عن الملوك المتأخرين من البطالمة ، وأنه لن يضعف أمام ثوراتهم . وقد انتهز الوالى الجديد فرصة تأمين طيبة ليؤكد سلطان روما على الحدود الجنوبية مع جيران مصر هناك من الإثيوبيين . وبعد مفاوضات سريعة مع ممثلى هذا الإقليم ، تم الاتفاق على أن تصبح المنطقة إلى جنوب أسوان تحت الحماية الرومانية . هذا النجاح السريع جعل الغرور يلعب برأس الوالى الرومانى ، فسجل أعماله فى نقش مشهور عثر عليه فى جزيرة فيليه[2] Philae ، وأمر بأن تقام له تماثيل على سبيل التكريم . غضب الإمبراطور أغسطس لمسلك جالوس ، فعزله وأمره بالمثول بين يديه ، ولكن جالوس خشى سوء العاقبة فانتحر فى الحال .

---

(١) عن ضريبة الرأس Lographia فى العصر الرومانى أنظر : Wallace, Taxation in Egypt from Augustus to Diocletion, (1938) pp. 116 ff.

(٢) = C.I.L. 14147₅ = O.G.I.S. 654 = Emanbery—Jones, I.L.S. 8995 Documents allustrating the Reings of Augustus and Tiberius, 2nd ed, No 24.

وتوجد ترجمة عربية النص فى كتاب دكتور عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية ص ٥٩ .

بعد استتباب الأمن فى مصر قام الوالى التالى بحملة إلى منطقة البحر الأحمر حتى منطقة اليمن لإخضاع القبائل العربية التى كانت متحكمة فى نقل التجارة بين الهند وشرق أفريقيا ومصر . ورغم أن نجاح هذه الحملة لم يكن باهراً إلا أن من نتائجها أن تحولت بعد ذلك معظم تجارة البحر الأحمر إلى شاطئه الغربى إلى ميوس هورموس (Myos Hormos) ومنها إلى قفط وبعد ذلك عن طريق النيل إلى الأسكندرية . ولكن يبدو أن انشغال الحامية الرومانية فى مصر بحملة البحر الأحمر أغرت الإثيوبيين بشق عصا الطاعة ومحاولة التخلص من الحماية الرومانية . وفى عام ٢٥ ق م. عين والى جديد على مصر يسمى بترونيوس ، فقاد حملة إلى حدود مصر الجنوبية أمنت المنطقة الإثيوبية دون عناء كبير ، وانتهت بمفاوضات مباشرة بين رسل ملكة إثيوبيا والإمبراطور أغسطس شخصياً . وقد أدت هذه المفاوضات إلى ترضية الإثيوبيين على نحو ضمن مسالمتهم لروما لأمد طويل (١) .

بعد ذلك تفرغ بترونيوس لتنفيذ خطة أغسطس فى إصلاح الأحوال فى مصر ، فاهتم بأعمال الرى إهتماما بالغاً ، فعمل على شق الترع وتنظيف القنوات القديمة التى كانت قد سدت أثناء عهود الفوضى تحت حكم البطالمة المتأخرين . ولكن تعتبر من أهم أعماله نقل ملكية المعابد إلى ملكية الدولة واعتبارها جزءاً من أملاك الإمبراطور ، يشرف عليها ويديرها رئيس الإدارة المالية ويشرف أيضاً على أملاك الإمبراطور وهو الموظف المعروف باسم إديوس لوجوس Idiologos والذى كان يحمل بين ألقابه لقب كبير كهنة مصر والأسكندرية رغم أن منصبه إدارى بحت . وكان الهدف الرئيسى لهذه السياسية هو إضعاف

---

(١) يوجد عرض وافى لهذه الأحداث ومصادرها فى كتاب مصر والإمبراطورية الرومانية للدكتور عبد اللطيف أحمد على ص ٦٣ — ٦٩ .

طبقة الكهنة المصريين الذين يمثلون القيادة المنظمة الوحيدة للأهالى[1] .

تبيريوس : هذه هى أهم الأحداث التى حدثت فى الأعوام الأولى بعد فتح مصر زمن الامبراطور أغسطس . ولما خلفه الإمبراطور تبيريوس بعث أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية البارزين المعروف باسم جرمانيكوس كحاكم عام للولايات الشرقية فى آسيا ، وانتهز جرمانيكوس فرصة وجوده فى الشرق وقام بزيارة مصر فى سنة ١٩ . وكان يقصد من القيام بهذه الزيارة التعرف على آثار مصر ، ولو أنه ادعى الحرص على مصلحة الولاية سبباً له . ولكن جرمانيكوس حين ذهب إلى مصر لم يستأذن من الإمبراطور ، حسب قرار أغسطس بعدم السماح لأعضاء مجلس السناتو بدخول هذه الولاية دون إذن الإمبراطور . وزيادة على ذلك وصلت الأخبار للإمبراطور أن جرمانيكوس أثناء زيارته للأسكندرية لم يحافظ على المظهر الرسمى للحكام الرومان، بل سار بين الناس بغير حرس خاص مرتديا الملابس الإغريقية ومنتعلا صندلا ، كما فتح صوامع الغلال وخفض أسعار القمح ، لأنه صادف أن كانت مصر تعانى من قلة القمح ، وارتفاع أسعاره بسبب انخفاض الفيضان فى ذلك العام . كل ذلك قربه إلى قلوب الناس ، وجعلهم يخلعون عليه من مظاهر التعظيم والتمجيد مما يليق بشخص الإمبراطور فقط ، حتى اضطر جرمانيكوس إلى إصدار أوامره ينهاهم عن ذلك .

ويبدو أن الإمبراطور تبيريوس لم يرض عن هذه الزيارة وجميع ملابساتها ، ولعله ضاق بأعمال جرمانيكوس ومسلكه الذى زاد من شعبيته بين الأهالى ويبدو أن ثورة تبيريوس لهذه الزيارة كانت شديدة ، حتى أنه أثار موضوعها فى الحال فى مجلس السناتو وهاجم جرمانيكوس ، ولامه نوعاً ما

(١) أنظر : Milne, Egypt, p. 11; and Camb. Anc. Hist. X, 290

لمسلكه من حيث اتخاذه الزى الإغريقى وإهماله للمظهر الرومانى ، ولكنه اتخذ من عدم استإذانه ذريعة لتوجيه أعنف النقد له لأنه قد خالف قاعدة من قواعد الحكم التى وضعها أغسطس [١] .

اشتهر تبيريوس عامة بالحزم فى الإدارة والعناية بشئون الولايات خاصة ، ومن ذلك ما يروى أن والى مصر فى عهده بالغ فى جمع الجزية حتى زادت على المبلغ المقدر سنويا ، فلامه على ذلك ، وقال له كلمته المشهورة « إنما أرسلتك لتجز وبر الأغنام لا لتسلخها » [٢] . وهناك من الدلائل ما يبين أن مصر قد بدأت تدخل فى عهده مرحلة الانتظام والاستقرار الاقتصادى وأن جهود أغسطس لإنعاش اقتصاد البلاد قد بدأت تؤتى ثمارها . وأهم دليل على هذا الاتجاه هو إصدار عملة جديدة فى مصر . ذلك أن أغسطس منع إصدار عملة فضية فى مصر ، واكتفى بأن تصدر دار السكة فى الأسكندرية دراخمات برنزية فقط . وفى الوقت نفسه حدد قيمة العملة البرنزية بالنسبة للدينار الرومانى الذى على أساسه تقدر الجزية السنوية . أدرك تبيريوس التعقيد الذى ينجم عن نظام العملة فى مصر ، ولذلك قرر إصدار عملة فضية جديدة من فئة الأربع دراخمات ، (ويبدو أن هذه [illegible] كانت خليطاً من الفضة والبرنز) ، وكان لهذه العملة الجديدة قيمة الدينار الرومانى [٣] ذاته .

(١) أهم مصدر عن زيارة جرمانيكوس لمصر هو Tacitus, Ann. II. 59. (وتوجد ترجمة عربية للنص اللاتينى فى كتاب مصر والإمبراطورية الرومانية للدكتور عبد اللطيف أحمد على ص ٧٢ — ٧٥) . وتوجد إشارات متعددة أخرى لهذه الزيارة فى . Pliny, Nat. Hist; VIII. 185; Josephus, Contia Apion, II. 63; Suetonius, Tiberius, 52, 2; S. B. 3924; f p. OX, XXV. 2435, early 1st. cent. A. D. (?)

(٢) Dio Cassius, 57, 10. 5,

(٣) تعتبر دراسة نظام العملة المصرية فى العصر الرومانى من أعقد الدراسات ويكتنفها كثير من الغموض حول سياسة أغسطس وتبيريوس فى هذا الصدد أنظر : L. C. West and A. C. Johnson, Currency in Roman and Bysantine Egypt (1944) Chaps i—ii; Johnson, Roman Egypt, pp. 424 ff; and id. : Egypt and the Roman Empire (1951) pp. 179

ويعتبر إصدار هذه العملة أهم عمل قام به تبيريوس فى مصر وخاصة من ناحية تنظيم علاقة مصر الاقتصادية بالإمبراطرية الرومانية . فهو من ناحية نظم أمر تحديد الجزية السنوية ويسر طريقة تقديرها وجمعها ، ومن ناحية أخرى وضع أساساً ثابتاً للتبادل التجارى بين مصر والإمبراطورية ، مما يسر عملية الدفع بالدينار أو تحويل الدينار إلى عملة مصرية جديدة مباشرة أو بالعكس . وقد ظهر أثر هذا جليا فى مدى الانتشار العالمى الذى أصابته تجارة الأسكندرية فى العصر الرومانى .

فتنة عام ٣٨ بين الأسكندريين واليهود:

ذكرنا من قبل أن الرومان نظروا إلى اليهود فى مصر على أنهم جالية أجنبية يمكن اصطناعها إلى جانبهم ، فهى تختلف عن المصريين أصحاب البلاد الأصليين ، وعن الإغريق الذين أكسبهم الفتح المقدونى والسلطان البطلمى حقا وقوة تشعرانهم بانتمائهم إلى البلاد . لذلك عامل الرومان اليهود معاملة فيها كثير من المحاباة ، وابتدأ هذه السياسة أغسطس بأن أقر جميع حقوق اليهود وامتيازاتهم ، ومن بينها مجلس شيوخهم المسمى جيروزيا (gerousia) . فى حين أن الأسكندريين — أرقى فئة بين الإغريق — لم يعاملوا مثل هذه المعاملة وسلبوا مجلسهم التشريعى المسمى بولى (boulé) . وفى الوقت نفسه كان الأسكندريون يضيقون بالحكم الرومانى أشد الضيق ، لأنه سلب مدينتهم مجدها السياسى ، فأصبحت عاصمة لولاية رومانية بعد أن كانت عاصمة إمبراطورية مستقلة . ويبدو أن اليهود لم يقنعوا بما كان عليه حالهم ، وحاولوا أن يزيدوا من امتيازاتهم ، فادعوا لأنفسهم مواطنة الأسكندرية ، وراحوا يترددون على جمنازيوم المدينة ويقحمون أنفسهم فى مبارياته وتدريباته . ويبدو أن خلافاً عنيفاً نشأ بين الأسكندريين واليهود حول مواطنة الأسكندرية وحق اليهود

فيها . وراح كل فريق يفند أسانيد الجانب الآخر . وقد وصلتنا فى هذا الصدد كتابات يوسيفوس المؤرخ اليهودى الذى تولى أمر الدفاع عن وجهة النظر اليهودية . ولم يقتصر فى دفاعه على محاولة إثبات حق اليهود فى مواطنة الأسكندرية بشتى الأساليب فحسب ، بل لجأ إلى مهاجمة قادة الأسكندريين واتهامهم بزيف انتسابهم إلى الأسكندرية ، كما فعل فى هجومه على أبيون فى كتابه Contra Apionem. ولكن لا ينبغى أن نأخذ ما يقال فى هذه الاتهامات مأخذ الجد ، فهى لا تعدو أن تكون نوعاً من المهاترات السياسية التى تكثر أيام المحن والأزمات السياسية .

لم يكن مستغرباً إذن أن يضيق الإسكندريون بموقف اليهود ومحاباة الرومان لهم ، فاتخذوهم هدفا للتنفيث عن سخطهم على الحكم الجديد . وأخذت بوادر النزاع بين اليهود والأسكندريين تظهر جلية منذ نهاية حكم الإمبراطور الثانى تيبريوس ، حين اضطر الوالى على مصر ويسمى فلاكوس أن يقوم بحملة لجمع الأسلحة من الأهالى . ولكن ذلك لم يجد شيئاً ، وما إن تولى العرش الإمبراطور الثالث جايوس الملقب كاليجولا حتى نشب صراع مسلح بين اليهود والأسكندريين ، فيما يعرف بفتنة عام ٣٨ . وذلك عندما مر بالأسكندرية أجريبا (Agrippa) الملك اليهودى أثناء عودته من روما بعد أن ولاه كاليجولا ملكا على إيتوريا ، وهى إمارة صغيرة إلى الشمال الشرقى من يهوذا (أى فلسطين) .

وكان هذا الملك معروفاً من قبل لدى الأسكندريين بأنه ربيب القصر الإمبراطورى فى روما ، حيث توطدت العلاقات بينه وبين الإمبراطور الجديد كاليجولا ؛ وأنه كان مبذراً متلافا إلى درجة الإفلاس . فعجبوا إذ رأوه يصبح ملكا فجأة ، فأطلقوا عليه ألسنتهم الحداد بالسخرية والتجريح . ولما

كان أجزيبا صديقا لـكاليجولا ، خشوا أن يغضب الإمبراطور لما أصاب صديقه من إهانات . فراحوا يتلمسون علة يبررون بها مسلكهم ، ووجدوها فى إعراض اليهود عن عبادة الإمبراطور ورفضهم إقامة التماثيل له فى دور عبادتهم . فهاجم الأسكندريون اليهود واقتحموا دور عبادتهم محاولين إقامة تماثيل الإمبراطور بها . وبذلك أحرجوا الوالى فلاكوس أشد الإحراج . وقد سبق أن اضطهد هذا الوالى الأسكندريين وأغلق أنديتهم ومنعهم من حمل السلاح . فإذا حاول هذه المرة قمع الأسكندريين ، فربما يفسر ذلك بأنه عدم ولاء من جانبه للإمبراطور . وبذلك نجح الأسكندريون فى استمالة فلاكوس إلى جانبهم ، ولعلهم تمكنوا من رشوته أيضا [1] ، فسلط على الحى اليهودى جنود الجيش الرومانى يعاونهم الأسكندريون بالقتل والسلب والنهب والتدمير. أمام هذه المحنة سعى اليهود إلى أجريبا ليتوسط لدى صديقه الإمبراطور وفعلا نجح المسعى وبعث الإمبراطور قوة عسكرية إلى الأسكندرية ، دخلتها ليلا وألقت القبض على فلاكوس وأخذته إلى روما حيث حوكم ونفى ثم قتل فى منفاه . عند ذلك أرسل كل من اليهود والأسكندريين وفوداً تمثلهم إلى الإمبراطور وتبرىء ساحتهم من التهم الموجهة إليهم . وقد بقى لنا وصف لهذه السفارات فى كتاب « سفارة إلى جايوس » للفيلسوف فيلون ، رئيس الوفد اليهودى ، ومنه نعرف أن هذه السفارات لم تسفر عن نتيجة ذات بال ، لأن الإمبراطور شغل عنها ببعض شئونه الخاصة [2] .

---

(١) كما قد توحى P. OX., 1089. 57 = Musurillo acts of the Pagan Martyrs, No. II.

(٢) وردت أخبار هذه الفتنة فى كتابى الفيلسوف اليهودى فيلون In Flaccum, ed by Legatio ad Gaium; Box,

الإمبراطور كلوديوس :

استمر النزاع بعد ذلك بين الأسكندريين واليهود ، بينما اجتهد الوالى الرومانى فى مصر قمعه بشتى الوسائل ، حتى تولى كلوديوس عرش روما عقب اغتيال جايوس كاليجولا فى ٢٤ يناير عام ٤١ . فانتهز الجانبان فرصة تولى إمبراطور جديد العرش وأرسل كل منهم بعوثا تهنئه بالحكم وتعرض عليه القضية برمتها .

ومن حسن الحظ أنه قد عثر حديثا على بردية يونانية تحتوى على الرد الكامل لكلوديوس وهو عبارة عن رسالة من الإمبراطور موجهة إلى الأسكندريين (١) . وكل عبارة فيها تنطق بما اتصف به هذا الإمبراطور من الاتزان وسعة الحيلة . فهو فى هذه الرسالة يتناول مطالب الأسكندريين واليهود جميعا ويردعليها واحداً واحداً ، على نحو يضع الأمور فى نصابها ويُرى كلا من الأسكندريين واليهود موقف الإمبراطور النهائى .

ومن دراسةهذه الرسالة نعرف كثيراً من الأوضاع الداخلية فى الأسكندرية وبعض ما كان يعانى منه كل من الأسكندريين واليهود وما كانوا يسعون للحصول عليه ، فالإمبراطور كلوديوس يقسم رسالة إلى ثلاثة أقسام رئيسية (عدا الخطاب والمقدمة والخاتمة) : الأول للرد على ما رفعه إليه الأسكندريون من آيات الولاء والتمجيد ، والثانى للرد على مطالب الأسكندريين ، والثالث خاص بمسألة اليهود فى الأسكندرية .

فى القسم الأول من الرسالة يعلن كلوديوس قبوله لبعض اقتراحات الأسكندريين بتكريمه وتمجيده ، عن طريق الاحتفال بعيد ميلاده وإقامة عدة تماثيل له ولأفراد أسرته فى أنحاء مختلفة من مصر ، وإطلاق اسمه على إحدى

---

(١) H. I. Bell, Jews and Christians in Egypt, P. Lond, 1912,

قبائل مدينة الأسكندرية ، ولكنه يرفض رفضاً تاما اقتراحهم بتعيين كاهن خاص لعبادته وإقامة معابد خاصة لذلك ، وينبههم إلى أن مثل هذه الفكرة تمس مشاعر معاصريه ، لأن الناس جميعا ألفوا أن يكون الكهنة والمعابد للآلهة فقط . وهذا الموقف من كلاديوس يبين لنا مدى اتزانه وأنه لا يضعف أمام الملق والمديح .

وفى القسم الثانى يتناول كلوديوس أموراً أكثر أهمية تتعلق بنظم مدينة الأسكندرية . فمن ذلك مثلا ما يتعلق بمواطنة الأسكندرية ، التى كانت تمنح صاحبها امتيازات جمة مثل الإعفاء من ضريبة الرأس وإمكان الحصول على المواطنة الرومانية مباشرة فضلا عن المركز الأدبى الممتاز الذى كان يتمتع به الأسكندريون . من أجل ذلك حرص كثير من فئات السكان المختلفة على إقحام أنفسهم ضمن مواطنى الأسكندرية دون وجه حق . ويبدو أن هذه المشكلة قد أصبحت مصدر قلق شديد للمشرفين على أمور المدينة [1] ، حتى أنهم اضطروا آخر الأمر إلى رفعها إلى الإمبراطور شخصياً . وكان رد كلوديوس هو تثبيت المواطنة وامتيازاتها على كل المواطنين فى عهده ، باستثناء من كان من نسل جارية . وكذلك يوافق كلوديوس على اقتراحات الأسكندريين بأن يكون اختيار كاهن المعبد الإمبراطورى فى المدينة يتم بطريق الاقتراع ، وأن يكون مدة تولى الوظائف المدنية ثلاث سنوات . ويضيف الإمبراطور إلى ذلك قوله « سوف يتصرف الموظفون على نحو أكثر حذراً واعتدالا حينما يحسون بقرب تقديم الحساب عن أى إساءة ارتكبوها وهم فى الوظيفة » . ونفهم من إدخال نظام الاقتراع على وظيفة الكاهن أن تولى الوظائف الأخرى كان يتم بطريق آخر ولعله الانتخاب ؛ كما نفهم من تعليق الإمبراطور على تحديد مدة

---

(١) ورد ذكر هذه المشكلة أيضاً فى البردية المشهورة P. S. I., 1160 (early empire);

الوظائف بثلاث سنوات أنها كانت قبل ذلك غير محددة أو أطول من ثلاث سنوات على أى حال .

وفى ختام هذه الفقرة يتناول الإمبراطور مطلبا عزيزا على الأسكندريين طالما سعوا للحصول عليه منذ عهد الإمبراطور أغسطس نفسه ، ألا وهو إنشاء مجلس تشريعى للمدينة ، وهنا يجب على كلوديوس أن يكون على حذر فيما يقول ، فهو يعرف مدى حرص الأسكندريين على تحقيق هذا المطلب ، ولكنه يعرف أيضاً أن الإمبراطور أغسطس قد سبق أن رفض إجابتهم إلى رغبتهم ، إن لم يكن هو الذى سلبهم مجلسهم التشريعى ، وكل ما صدر عن أغسطس من نظم وتشريعات لا يجرؤ كلوديوس أن يتناولها بالنقض أو التغيير . ولهذا وجدناه يرد على طلب الأسكندريين بأنه سوف يتصل بواليه على مصر ليبحث له الأمر ، وفى الواقع كان معنى هذا الرد هو تأجيل النظر فى المسألة إلى أجل غير مسمى كما نقول الآن :

بعد ذلك ينتقل كلوديوس إلى القسم الثالث من رسالته الخاص بالمسألة اليهودية ، وهنا تتبدل لهجته فى الحديث كل التبدل ، فبدلا من أسلوب المجاملة والسياسة نجده يصطنع الصرامة والحزم ، وينذر كلا من الأسكندريين واليهود ، أنه لن يسكت على استمرار منازعاتهم ، فبينما ينصح الأسكندريين بحسن معاملة اليهود ، ينبه اليهود إلى حقيقة وضعهم فى المدينة ، لأنها ليست وطنهم الأصلى وليست مدينتهم ، وأن عليهم أن ينعموا بما أتيح لهم فيها من رغد العيش وألا يسعوا إلى نيل أكثر مما لهم (ولعله يقصد مواطنة الأسكندرية) ، وألا يثيروا القلاقل بإحضار مزيد من اليهود إلى المدينة من خارجها سواء من مصر أو من سوريا .

هذه هى رسالة الإمبراطور كلوديوس إلى الأسكندريين ، وتعتبر من أهم

الوثائق التى وصلتنا عن مصر فى العصر الرومانى . ونحن لا نعرف مدى ما أحدثته هذه الرسالة الحكيمة من تأثير فى الخلاف بين اليهود والإغريق فى الأسكندرية فإحدى برديات المجموعة المعروفة باسم أعمال الشهداء الوثنيين أو أعمال الأسكندريين تبين أن فى عام ٥٣ على أغلب الاحتمالات قدم إزيدور ولامبسون من زعماء الأسكندريين للمحاكمة أمام الإمبراطور كلوديوس فى روما ، وكان الطرف الآخر فى القضية أجريبا الملك اليهودى وصديق الإمبراطور[1] . والبرديات التى تحتوى على أخبار هذه المحاكمة ناقصة ومبتورة فى أكثر من موضع بحيث لا يمكننا معرفة حقيقة التهمة التى من أجلها حوكم إزيدور ولامبسون، ومع ذلك فلهذه الوثيقة أهميتها الخاصة لأنها تعطينا مثالا من أمثلة ذلك الأدب السياسى الذى روج له الأسكندريون فى جهادهم ضد الحكم الرومانى وهو الذى يطلق عليه إصطلاحاً « أعمال الشهداء الوثنيين أو أعمال الأسكندريين » للتشابه بينه وبين « أعمال الشهداء المسيحيين » فيما بعد . وأدب الشهداء الوثنيين يمثل زعماء الأسكندرية وهم يحاكمون ويستشهدون دفاعاً عن مدينتهم ، مظهرين فى ذلك ألواناً من الجرأة والبطولة مما يضعهم فى مصاف شهداء أصحاب المبادىء . فمن النسخ المختلفة التى وصلتنا عن محاكمة إزيدور نجد هذه المواقف المثيرة :

إزيدور : مولاى قيصر ، أرجوك أن تسمع منى قصة مآسى وطنى .
الإمبراطور : سأهبك هذا اليوم .

وهنا وافق على ذلك جميع أعضاء السناتو الحاضرين كمساعدين للإمبراطور لعلمهم من هو إزيدور .

كلوديوس قيصر : لا تقل شيئاً ضد صديقى (أى أجريبا) . لقد سبق أن.

---

(١) Musurillo. acts of the Pagan Martyrs (acta Alexandrinorum), No, IV. acta Isidori.

قضيت على اثنين من أصدقائى ، ثيون رئيس المدينة (ا كسيجيتيس) . . لامبسون لإيزيدور : لقد رأيت الموت بعينى . . .

كلوديوس قيصر : إزيدور ، لقد قتلت كثيرين من أصدقائى .

إزيدور : كنت أطيع أوامر الإمبراطور حينئذ . وكذلك بالنسبة لك ، فأنا مستعد لإدانة أى شخص تشاء .

كلوديوس قيصر : أحقاً أنت ابن راقصة يا إزيدور ؟

إزيدور : أنا لست عبداً ولا ابناً لراقصة ، وإنما جمنازيارخس لمدينة الإسكندرية العظيمة . ولكن أنت ابن منبوذ لسالوم اليهودية ، ولذلك ..

لامبسون لإزيدور : قد لا نملك سوى الإذعان لإرادة ملك مجنون (بعد ذلك يتحدث كلوديوس ، ونفهم أن الحكم قد صدر بإعدام إزيدور ولامبسون) .

وفى نسخة أخرى من المحاكمة ذاتها ، يهاجم إزيدور الملك أجريبا ؛ وذلك عندما يدافع عنه الإمبراطور ، فيقول إزيدور : « مولاى قيصر ، ماذا يعنيك من أمر أجريبا ، وهو يهودى لا يساوى شروى نقير » كلوديوس قيصر : ماذا تقول ؟! إنك لأوقح الناس جميعاً ..

هذا مثال من الأدب السياسى الذى استمد الأسكندريون مادته من مواقف حقيقية فى تاريخ صراعهم ضد السيطرة الرومانية . وهذا هو سر أهمية ذلك الأدب بالنسبة للمؤرخ ، فرغم المبالغة التى قد يصطنعها الكاتب فى وصف الموقف إلا أنه يعتمد فى أغلب الأحيان على معلومات حقيقية . ولهذا فنحن لا نشك أن هذه المحاكمة حدثت فى عهد الإمبراطور كلوديوس وأن إزيدور ولامبسون

لقيا حتفهما نتيجة للمحاكمة ، كما تؤيد ذلك بردية أخرى من القرن الثانى [١].

نيرون (٥٤ - ٦٨) :

بعد كلوديوس الحازم المعتدل تولى حكم روما نيرون الذى تمتاز شخصيته بالتطرف وعدم الاتزان فى معظم مايصدر عنه . ورغم كثرة جرائمه فى روما ، فيبدو أن ميله المحموم نحو الفن قد جعله يكن لمصر كثيراً من الإعجاب بها ورغبة قوية لزيارة آثارها . ويقال إنه أراد أن يصيب عصفورين بحجر واحد ، فاعتزم القيام بحملة عسكرية إلى إثيوبيا وراء حدود مصر الجنوبيـــة ، وفى الوقت نفسه يزور مصر ويشاهد آثارها العجيبة [٢] . وبذلك يكون قد أدى واجبه كحاكم من ناحية ، وكذلك أرضى رغبته الشخصية من ناحية أخرى . ورغم الشروع فى تنفيذ هذه الخطة الهائلة ، إلا أن شيئاً منهـا لا يتحقق نظراً لقيام ثورة يهودية كبيرة فى فلسطين ، شغلت الإمبراطور وجيوشه ، وجعلته يحول استعداداته من إثيوبيا إلى فلسطين . وما كان من الممكن أن تحدث مثل تلك الثورة فى فلسطين ولا يكون لها صدى فى مصر ، حيث العـلاقات بين الإغريق واليهود دائمة التوتر . وفعلا نشبت فتنة بين الفريقين فى الأسكندرية وكان نيرون فى عام ٦٦ قد عين والياً على مصر تيبريوس يوليوس إسكندر ، وهو من حيث النشأة يهودى مصرى من الأسكندرية ، ولـكنه ارتد عن دينه واكتسب المواطنة الرومانية وأمكنه التدرج فى سلك الوظائف الرومانية . وقد حاول تيبريوس اسكندر أن ينصح رؤساء الجالية اليهودية بالتزام الحكمة ، ولـكن دون جدوى ، فاضطر إلى أن ينزل قوات الجيش الرومانى المعسكرة فى معسكر نيقوبوليس (مصطفى كامل برمل الأسكندرية) وأن يوجهها إلى مصدر الثورة

---

(١) Musurillo, acts, No. XI. 78—80.

(٢) عن هذه الحملة أنظر Anderson. in Camb. anc. Hist. Vol.X, pp. 880 ff.

فى منطقة اليهود ، حتى ليقال إن خمسين ألفاً منهم هلكوا فى تلك الفتنة .

ويبدو مع هذا كله أن مصر لم تضرب عن فكر نيرون ، فحينما سمع بثورة الجند ضده واختيارهم جالبا Galba إمبراطورا ، فكر فى أن يعتزل فى مصر أو أن يطلب أن يعين واليا عليها .

قسبسيان (٦٩ — ٧٩) :

كان العام الذى أعقب مقتل نيرون (٦٨ — ٦٩) عام فتن وفوضى فى روما ، تعاقب فيه على العرش أربعة أباطر ، جالبا وأوتو وفيتلسيوس وقسبسيان وقد عرف لهذا السبب بعام الأباطرة الأربعة . فلم يكن الإمبراطور يستقر على عرشه سوى أسابيع أو أشهر قليلة وذلك بسبب تدخل الجيوش الرومانية فى الغرب فى شئون السياسة والحكم . فكان الجنود يعينون ويعزلون الأباطرة حسب أهوائهم المتفرقة . ولم تتدخل الجيوش فى الولايات الشرقية فى عملية تعيين الأباطرة وعزلهم فى أول الأمر ، حتى إذا كان عام ٦٩ أعلن قسبسيان قائد الجيوش فى سوريا نفسه إمبراطورا ، وقد بقى مركزه غير مؤكد حتى أول يوليو حين أعلن والى مصر مناصرته له وأخذ له يمين الولاء من الجيش الرومانى فى الأسكندرية، وكان لا يزال فى روما إمبراطورا آخر له ولاء الجيوش الغربية . عند ذلك اتجه قسبسيان نحو الأسكندرية ليحارب الإمبراطور القائم فى روما وهو فيتليوس من هناك ، عن طريق منع إرسال قمح مصر إلى روما . ولكنه لم يضطر إلى تنفيذ تلك الخطة لأن الجنود فى الولايات الغربية وفى روما أعلنوا ولاءهم لقسبسيان بسرعة لم تكن متوقعة . هذه الحادثة تدل على مدى خطورة مصر بالنسبة لروما، وليس أدل على ذلك من أن قسبسيان اعتبر تاريخ بدء حكمه منذ أول يوليو عام ٦٩ . وهو تاريخ إعلان والى مصر ولاءه له ، رغم أن الإمبراطور فيتليوس بقى متربعاً على عرش روما حتى ٢١ ديسمبر من العام نفسه.

وقبل أن يذهب ڤسبسيان إلى روما حضر إلى مصر لأخذ البيعة بنفسه . فاستقبله الناس فى الأسكندرية استقبالا رائعاً ، وعاملوه معاملة الإله . وسرعان ماظهرت له معجزات فأبرأ ضريرا ، ورد ذا عاهة سليما معافى . ولـكن بعد أيام النشوة والفرح الأولى باستقبال أول إمبراطور يحضر إلى مصر شخصياً منــذ أغسطس ، سرعان ماتبين الأهالى أن إمبراطورهم المؤله ليس سوى رجل أعمال دقيقة ، يعرف صالح خزائنه قبل كل شيء ، فزاد الضرائب وتشدد فى جبـايتها إلى آخر درهم . وهنا أطلق الأسكندريون عليـه ألسنتهم الحداد بالسخرية ، وأطلقوا عليه من الأسماء كل ماهو ساخر لاذع حسب ماتوحى المناسبة . من ذلك أنه طالب أحد الأفراد بمبلغ ستة أوبل (وهو مبلغ زهيد لاتزيد قيمتـه على ثلاثة قروش) ، فأطلق عليه أهل الأسكندرية لقب « أبو ستةأوبل) فانتقم منهم ڤسبسيان بأن فرض على مواطنى مدينة الأسكندرية ضريبة الرأس بنفس المقدار وهو ستة أوبل . وهو مبلغ تافه ، ولـكن مجرد إخضاع الأسكندريين لضريبة الرأس . كان يعتبر إهانة ومساساً بمكانتهم ، نظراً لأنهم كانوا معفين منها وكانوا يعتزون بهذا الامتياز كل الاعتزاز . على أى حال يقال إن تيتوس ابن الامبراطور شفع للأسكندريين وألغيت الضريبة[1] .

ومن مصر أرسل ڤسبسيان ابنه تيتوس مع جيوش من مصر ليتولى أمر حصار بيت المقدس . وقد انتهى هذا الحصار بسقوط بيت المقدس وتدمير المدينة نهائياً سنة ٧٠ ، الذى يعتبر تاريخ نهاية دولة بنى إسرائيل فى فلسطين . ويبدو أن بعض عناصر من يهود فلسطين فرت إلى مصر وحاولت تأليب اليهود بها للثورة ضد الرومان ، ولـكنهم لم يصيبوا نجاحا كبيراً . وبعد عودة تيتوس إلى مصر ، أظهر كثيراً من التودد والعطف نحو الأهالى ، كما شهد حفلة تكريس

(١) عن ڤسبسيان فى مصر أنظر Milne, Egypt under Roman Rull, 28 ff.

عجل أبيس إلهاً ، مما زاد من تعلق المصريين وحبهم له .

ويبدو أن مظاهرة الإجلال التى أبداها تيتوس نحو الآلهة المصرية تمثل اتجاهاً جديداً فى السياسة الرومانية نحو الديانة المصرية ، لأن الإمبراطور دوميتيان من بعده (٨١—٩٦) أنشأ معابد فى روما ذاتها لكل من إزيس وسرابيس . ورغم أن هذه الآلهة — وخاصة إيزيس — كانت معروفة ومعبودة من قبل فى روما وإيطاليا ، إلا أن إنشاء الإمبراطور معابد خاصة لها فى روما كان بمثابة اعتراف رسمى بهذه الآلهة ، بعد أن استمرت تعبد هناك بصورة غير رسمية .

تراجان (٩٨— ١١٧)

تنشط الحياة السياسية من جديد بصورة عنيفة فى عهد الإمبراطور تراجان . وتأتلف عدة عوامل لإثارة الشعور العام وبعث روح الثورة ، من ذلك سوء إدارة وسلوك الوالى الرومانى فى ذلك الوقت ، ولكن أخطر من ذلك حدوث مجاعة بسبب انخفاض النيل ، وأخيراً تجدد الصراع بين اليهود والإغريق على نحو لم يسبق له مثيل .

ويبدأ تاريخ مصر فى عصر تراجان بالحادثة الأولى الخاصة بالوالى الرومانى ، إذ قد وصلتنا عنها بردية على جانب كبير من الأهمية . هذه البردية هى إحدى وثائق أعمال الشهداء الوثنيين (١) . وهى تصف محاكمة الوالى لمصر أمام الإمبراطور فى روما ؛ ويتولى أمر مهاجمته التحدث باسم وفد الأسكندريين الماثل أمام الإمبراطور لهذه المناسبة . ومما تحتويه هذه البردية نعرف أن التهم الموجهة إلى الوالى المتهم ، ويسمى فيبيوس ماكسيموس ؛ متعددة متشعبة ، وهى الابتزاز والربا واستغلال السلطة والتعسف مع مخالفة القانون إلى جانب

(١) Musurillo, acts, No. VII.

الفساد الأخلاقى والانحراف الخلقى. ويدلى المتحدث بأقواله فى قوة وثبات ، وفى كل مرة يأتى بالأدلة التى تدين الوالى ، ويقف وقفة طويلة عند موضوع الفساد الخلقى ويصف هيام الوالى بغلام وظهورهما معا بمنظر يسىء إلى الشعور العام .

ورغم أن التهمة الأصلية هى تهمة الابتزاز، فإن إيراد المسائل الأخلاقية كان المقصود منه إثارة الإمبراطور ضد الوالى وكسبه إلى جانب الأسكندريين ، ولا يبعد أن كاتب البردية قد أسهم فى المبالغة أيضاً بعض الشىء ليزيد من العنصر الروائى للمحاكمة ، بما يتفق وطابع أدب الشهداء الوثنيين ، خاصة وأن الهدف الأساسى من حفظها ونشرها هو الدعاية ضد الحكم الرومانى فى مصر ، ومما لا شك فيه أن هذه التهم والشكاوى أنهت ولاية ماكسيموس على مصر فى شىء كثير من الخزى ، حتى أن اسمه أزيل من ثلاثة نقوش عثر عليها(١) .

ولعل ما سمعه تراجان من سوء الحكم فى مصر حفزه على الاهتمام بأحوال هذه الولاية ، فما أن ألمت بمصر المجاعة بسبب انخفاض فيضان النيل ، اهتم تراجان بالأمر كل الاهتمام ، فأرسل إلى مصر أسطولا محملا بالغلال مما كان محفوظا لحاجة روما ، وبذلك خفف من ضائقة البلاد (٢) .

ولكن سحائب اضطراب جديد أخذت تتجمع فى أنحاء البلاد ، إذ أخذ النزاع التقليدى بين اليهود والإغريق يظهر من جديد ، ولكن يبدو أنها كانت حركة قصد اليهود من ورائها إحراج الحكومة الرومانية عموما . بدأت من الأسكندرية ثم أخمدت هناك (١١٠ أو ١١٣) ، وأرسل بعض زعماء اليهود والأسكندريين للمحاكمة أمام الإمبراطور الرومانى ، كما توضح إحدى برديات أعمال الشهداء الوثنيين المعروفة باسم ,,Acta Hermaici,,(٣) .

(١) I. G. R. 1148; 1175; 1357 = C. I. L. 14148_2.

(٢) Pliny Jun. Paneg, 31—32.

(٣) Musurillo, Acts, No. VIII.

ومن هذه البردية نعرف أن أفلوطينا ، زوجة الإمبراطور ، كانت متشيعة إلى جانب اليهود ، وأنها سعت للتأثير على تراجان ليكون فى جانب اليهود . ويدرك هرميسكوس هذه الظاهرة ، ويشيرها فى حديثه إلى الإمبراطور ، إذ يقول له إن مجلسه غاص باليهود، فيغضب الإمبراطور . ولكن هرميسكوس يستمر مخاطباً الإمبراطور فى ثبات تام « أيزعجك إذن أن أذكر اليهود ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فأولى بك أن تساعد بنى قومك وأن لا تتصدى للدفاع عن اليهود الملحدين » .

وتنتهى البردية بعد ذلك دون أن تذكر نتيجة المحاكمة ولكنها تذكر أن معجزة حدثت حينئذ ، وهى أن تمثال الإله سرابيس الذى كان يحمله الوفد الأسكندرى تصبب عرقاً فجأة ؛ فدهش الإمبراطور وتصايح الناس فى روما وهرعوا إلى الجبال خشية نذير الإله .

ويبدو أن الاضطرابات تجددت فى الأسكندرية بعد ذلك فى عام ١١٤ ثم أخمدت فى الحال . ثم انتهز اليهود فرصة انشغال الإمبراطور فى الحرب ضد البارثيين فى الشرق حتى أشعلوا نار ثورة جامحة فى أنحاء مختلفة من مصر وبرقة؛ واستطاعوا أن يسيطروا على البلاد بعض الوقت . وعجزت الجيوش الرومانية القليلة الموجودة فى مصر عن مواجهة الموقف ؛ فاضطر الوالى أن يلجأ إلى تجنيد الأهالى فى فرق محلية فى كل نوموس أو مقاطعة تحت قيادة الحاكم المحلى (Stiategos) ومن حسن الحظ أن لدينا مجموعة كبيرة من أوراق البردى خاصة بأبولونيوس[1] استراتيجوس إحدى مقاطعات الصعيد وتلقى ضوءاً على ظروف

---

(١) وقد نشرت هذه الأوراق فى مجموعة P. Giessen (= Griechische Papyri im Museum des oberhessischen Geschichtsuereins Zu Giessen, 1910 — 1912); Die Bremen Papyri, ed. U. Wileken, (1936).

هذه « الحرب ضد اليهود » كما أسماها الأهالى . ونعرف من أوراق أپولونيوس أنه لم تحدث معركة فاصلة بين الجانبين ؛ وقام استراتيجوس كل نوموس بمعاونة الأهالى المسلحين لتأمين منطقته وتصيد الثوار المارقين من اليهود حتى قضى عليهم تماما .

ومن الإجراءات العسكرية التى تمت على عهد تراجان فى مصر إدخال بعض التعديل فى الحامية الرومانية ؛ وإقامة حصن جديد عند رأس الدلتا وهو المعروف باسم حصن بابليون ؛ ومنذ هذا التاريخ بقى هذا الحصن من أهم نقط الدفاع عن مصر .

هادريان (١١٧ — ١٣٨) :

وفى عهده شهدت مصر ثالث زيارة من إمبراطور رومانى ؛ إذ حضر هادريان إلى مصر فى شتاء عام ١٣٠ عن طريق فلسطين والفرما إلى رأس الدلتا ثم صعد فى جنوب مصر إلى طيبة ثم عاد إلى الأسكندرية . وما من شك أن الهدف الرسمى للرحلة هو التفتيش على ولايات الإمبراطورية الشرقية ؛ ولكن هذه الزيارات فى مصر تأخذ عادة طابع الرحلات السياحية فقد اهتم هادريان أثناء وجوده فى الصعيد بدراسة أحوال البلاد قدر ما اهتم بزيارة معالم آثار مصر الشهيرة وكان من أحبها إلى نفوس الزوار حينئذ زيارة تمثالى ممنون اللذين كان يخرج منهما صوت جميل عند مشرق الشمس بفضل تبخر الندى وهبوب نسيم الصباح.

ومن أهم أعمال هادريان فى مصر هو إنشاء مدينة يونانية جديدة ؛ وهى مدينة أنتينوبوليس ؛ فكانت أول مدينة يونانية ينشئها الرومان فى مصر إلى جانب المدن الأربع السابقة . وقيل إن هادريان أنشأ هذه المدينة تخليداً لأحد أفراد حاشيته المقربين إليه الذى يسمى أنتينوس Antinous والذى توفى أثناء الرحلة المصرية . ونظراً لميل هادريان القوى إلى الحضارة اليونانية فقد أراد أن

تكون هذه المدينة بمثابة مركز جديد لنشر الحضارة الإغريقية فى صعيد مصر ، ولهذا جعل مواطنيها من الإغريق فى مصر ، الذين نقلهم من مدينة بطلمية ومن الجالية الإغريقية فى الفيوم المعروفة باسم « الـ ٦٤٧٥ إغريقيا المستقرين فى مقاطعة أرسنوى » وقد تمتع مواطنو هذه المدينة بجميع النظم المألوفه فى المدن اليونانية كما كانت فى مدينة نقراطس القديمة بما فى ذلك مجلس تشريعى الذى كانوا يعتزون به كل الاعتزاز ومن بين ماتميز به مواطنو أنتينوبوليس أيضاً هو تمتعهم بحق الزواج من مصريات ، وهو ما لم تتمتع به المدن اليونانية الأخرى فى مصر (١) . ولعل هادريان أراد من وراء ذلك محاولة إيجاد جيل يجرى فى عروقه الدم المصرى ومثقف ثقافة يونانية . ولكى ييسر للمدينة الجديدة سبيل الازدهار الاقتصادى مد طريقاً بينها وبين برنيقة على البحر الأحمر ، وزود هذا الطريق بمحطات للحراسة والمياه (٢) . وهو مشروع عاد على المدينة بالخير العميم ، لأن تجارة مصر الشرقية كانت فى ذلك الوقت قد بلغت ذروة من القوة والنشاط وشملت الهند . وبذلك استطاع هادريان أن يربط مدينته الجديدة منذ نشأتها بعجلة الاقتصاد المصرى .

بعد رحلة الصعيد ذهب هادريان إلى الأسكندرية حيث أعلن حمايته للمكتبة والموسيون ، وجلس مع العلماء وتحدث إليهم ، كما زاد عددهم بإضافة عدد من العلماء المتنقلين إلى سجل علماء الموسيون (٣) .

وكان لاهتمام هادريان بالثقافة اليونانية فى مصر أثر واضح فى بعث نشاط فنى ذى طابع يونانى مصرى تجلى فى الرسوم الجميلة لوجوه الأفراد التى وجدت

---

(١) حول مدينة أنتينوبوليس أنظر E. Kuhn, Antinooupolis (1913); H. I. Bell, Antinooupolis, a Hadrian Foundation, Journal of Roman Studies, 30 (1940) pp. 130 ff.

(٢) I. G. R., No. 1142.

(٣) Historia Augusta. Hadirianus. 20.

على عدد من الموميات المحنطة والتى عثر عليها فى منطقة الفيوم ، وبلغت أوجها الفنى فى منتصف القرن الثانى[١] .

أنطونينوس التقى (١٣٨ — ١٦١) Antoninus Pius

رغم طول مدة حكمه فإن تاريخ مصر السياسى فى عهده يكاد يكون خاليا إلا من ثورة جامحة فى الأسكندرية نجهل أسبابها، ولكن نعلم أن الوالى الرومانى ذهب ضحيتها (سنة ١٥٣) . وقد قاست الأسكندرية كثيراً جزاء ثورتها ، ولكن الإمبراطور بعد ذلك حضر لزيارة المدينة وأقام بها بعض المنشآت مثل ميدان للسباق وباب الشمس فى الشرق وباب القمر فى الغرب .

ماركوس أوريليوس (١٦١—١٨٠) Marcus Aurelius

فى عهد هذا الإمبراطور الحكيم الفيلسوف بدأت الإدارة الرومانية فى مصر تتكشف عن عيوبها الحقيقية . فمنذ ثورة المصريين ضد جباة الضرائب الرومان فى عصر الإمبراطور أغسطس لم يشترك المصريون من أهل الريف اشتراكا إيجابياً فى حركة ضد الحكم الرومانى وظلت الفتن والثورات قاصرة على أهل الأسكندرية واليهود . أما منذ منتصف القرن الثانى لم يستطع المصريون احتمال شدة وطأة الحكم الرومانى ونظام الضرائب المرهق وضروب مختلفة من أنواع الخدمة والعمل الإجبارية بجانب ضريبة القمح وضريبة الرأس وضريبة الملح وضرائب الأرض المتعددة وضرائب التجارة والصناعة النوعية والتغذية ، كان على الأهالى أن يقوموا بأعمال إجبارية مجانية تتدرج من تولى وظائف مختلفة فى الإدارة المحلية إلى تسخير ما يمتلكه الأفراد من دواب وفى سبيل نقل الغلال من القرى إلى الأسكندرية لتشحن بعد ذلك فى السفن إلى روما . ويأتى فى الدرج الأسفل

---

(٢) Edgar Cairo Catalogue, Graeco—Egyptian Coffins, p. XIV; Hilde Zaloscer, Potrats aus dem Wusten—Sand,(1961)

من هذه الخدمات الأعمال اليدوية مثل بناء السدود والجسور وتقوية ضفاف النيل وقت الفيضان حتى لا تفيض مياهه فتغرق القرى والمدن . وكانت هذه الأعمال تفرض على الأهالى كرها دون أجر ، كل حسب منزلته وأملاكه . فالعمل الأرقى للأكثر مالا والعمل الأحقر للأكثر فقرا. ولكن جهود الأباطرة الأولية فى شق الترع والعمل على إصلاح الأراضى وتحسين الحالة الاقتصادية عموما إلى جانب، وجود الجيش الرومانى الذى أشرف على تنفيذ رغبات الإدارة الرومانية، كل ذلك كان كفيلا باستمرار سير العمل ومنع المصريين من التعقيد فى القيام بمسئولياتهم نحو الإدارة الرومانية. ولكن حين أهملت الترع والمصارف وتعاقبت بعض الفتن والثورات مثل ثورة اليهود فى عهد الإمبراطور تراجان ساءت ظروف الزراعة كثيرا ولم يقبل الأهالى على العناية بأرضهم لعلمهم بعدم جدوى جهودهم وأن ثمرة أعمالهم ستذهب إلى روما دون أن يبقى لهم منها شيء يذكر .

وليس أدل على خطورة الأحوال الزراعية من أن كثيرين من أصحاب الأرض لجأوا إلى الفرار من أرضهم لعجزهم عن دفع الضرائب ؛ وكانوا يلجأون إلى المدن الكبرى وخاصة الأسكندرية حيث يمكنهم الاختفاء والعثور على عمل فى خضم حياتها التجارية والصناعية النشطة. فإذا تعذرت أمامهم سبل الحياة فى الأسكندرية لجأوا إلى أحراش شمال الدلتا ومستنقعاتها ليحيوا حياة تشرد فطرى .

هذه هى الحالة التى واجهتها الإدارة الرومانية فى مصر فى الجزء الأخير من القرن الثانى ، وكانت أول نتيجة لهذه الحالة السيئة أن انتهز المصريون إرسال الرومانية للحرب فى منطقة الدانوب ، فقاموا بثورة عنيفة تحت زعامة أحد الكهنة يدعى إزيدور سنة ١٧٢ ، وكان مركز الثورة هو منطقة شمال الدلتا . ويبدو أن حركة إزيدور كانت من القوة بحيث أن القوات الرومانية

الموجودة فى البلاد عجزت عن مواجهتهم حتى كادت الأسكندرية ذاتها تسقط فى أيدى الثوار . ولإنقاذ الموقف فى مصر اضطرت روما إلى إرسال قوات من سوريا يقودها الحاكم هناك المسمى أفيديوس كاسيوس (Avidius Cassius) ، وبدلا من أن يقابل الثوار فى معركة فاصلة ، لجأ كاسيوس إلى الحيلة والمكيدة وإحداث الفرقة بين صفوف الثوار ، حتى نجح فى استمالة بعضهم ، ثم تعقب من تبقى منهم فى شكل جماعات صغيرة حتى قضى على الثورة .

ولكن ما إن أخمدت ثورة المصريين حتى واجهت روما فى مصر فتنة أخرى أشد خطورة ، صاحبها ومدبرها هو القائد الرومانى المنتصر نفسه أفيديوس كاسيوس . ويقال إن كاسيوس تآمر مع الإمبراطورة فوستينا على اغتصاب الحكم بعد موت ماركوس أوريليوس ؛ ولما بلغه نبأ كاذب بموت الإمبراطور ، اندفع كاسيوس فى الكشف عن مؤامرته وإعلان نفسه إمبراطورا وأخذه البيعة من الجنود فى عام ١٧٥ . ولم تتردد مصر كثيرا وعلى رأسها مدينة الأسكندرية فى مناصرته ، لأن المصريين فى ذلك الوقت كانوا يؤيدون كل انشقاق أو فتنة ضد السلطة المركزية فى روما ، وليس ذلك عن حب فى الثائر أو المنشق ولكن كرها للسلطان الرومانى عموماً . ويبدو أن مثل هذا الشعور كان شائعاً أيضاً فى الولايات الشرقية ، إذ سرعان ما اعترف به السوريون وغيرهم فى الولايات الشرقية . ولكن ثورة كاسيوس فشلت بنفس السرعة التى قامت بها ، إذ اغتاله أحد ضباطه بعد مضى ثلاثة أشهر من قيام ثورته .

وفى العام التالى (١٧٦) زار ماركوس أوريليوس الولايات الشرقية بما فيها مصر ، وبدلا من أن ينتقم منهم لمناصرتهم ثورة كاسيوس عفا عنهم وأظهر

من ضروب الرحمة والشفقة ما يتفق وما اشتهر به هذا الإمبراطور من الحكمة والفلسفة . فقد اكتفى بعزل الوالى ونفيه وكذلك أفراد أسرة كاسيوس ذاته وكان المتوقع أن يصدر عليهم جميعاً الجزاء التقليدى للثوار والمنشقين وهو الإعدام(١) .

كومودوس (١٧٦ — ١٩٢) :Commodus

لم تستمر طويلا سياسة المسالمة وروح العطف والتسامح التى اتبعها ماركوس أوريليوس ، إذ كان ابنه وخليفته كومودوس على النقيض من ذلك ، ميالا إلى العنف والانتقام . فأثار الأحقاد القديمة وصمم على تعقب أسرة أفيديوس كاسيوس وقضى عليهم جميعاً ، كما انتقم من الأسكندريين فحاكم زعماءهم وقتل كثيرين منهم . وقد وصلتنا بردية من عهد الإمبراطور كومودوس تعتبر مثالا متأخراً من مجموعة أعمال الشهداء الوثنيين . وتحتوى هذه البردية على أجزاء من محضر محاكمة هليودوروس (ابن كاسيوس ؟) وأبيانوس رئيس جمنازيوم الأسكندرية . ويبين الحوار الذى دار بين أبيانوس والإمبراطور مـدى الكراهية التى احتفظ بها أهل الأسكندرية ومصر عامة تجاه الحكم الرومانى ، كما تكشف عن جوانب من سوء الحكم وكذلك عن شخصية كومودوس نفسه . ولعل من المناسب أن نورد ترجمة الفقرات الهامة من هذه الوثيقة :

أبيانوس : . . . الذين يرسلون القمح إلى المدن الأخرى ، فيبيعونه بأربعة أضعاف ثمنه ، حتى تعوضوا ما أنفقوا .

الإمبراطور . ومن الذى يأخذ هذه الأموال ؟

---

(١) عن ثورة كاسيوس ومسلك أوريليوس الحليم حيالها أنظر :
Historia Augusta, Harcus Aurèlius Antoninus, 25—26; and ibid, Avidius Cassius, VII.

أبيانوس : أنت

الإمبراطور : أواثق أنت من ذلك ؟

أبيانوس : كلا ، ولـكن سمعنا ذلك .

الإمبراطور : ما كان ينبغى أن تنشر هذه الدعوى قبل أن تستيقن من النبأ . (إلى) بالجلاد !

وفى موضع آخر ، حينما يؤخذ أبيانوس إلى ساحة الإعدام يرى هليو دوروس فيقول له :

أليس لديك ما تقوله عنى يا هليودوروس بينما أنا أساق إلى الموت ؟

هليودوروس : لن يمكننا أن نتكلم ، إذا لم يكن هناك من يستمع الينا ؟

فامض يا بنى إلى الموت ، ذلك المجد ، إذ أنك تموت من أجـــل وطنك الجليل ، فلا تبتئس .

عند ذلك يستدعى الإمبراطور أبيانوس مرة ثانية ويقول له :

ألا تعرف إلى من تتحدث الآن ؟

أبيانوس : (أجل) أبيانوس يتحدث إلى طاغية .

الإمبراطور : لا ، بل إلى ملك .

أبيانوس : لا تقل أنت هذا ! كان يحق لوالدك أنطونينوس المؤله أن يكون إمبراطوراً . ولتعلم أنه كان أولا فيلسوفا ، وثانيا زاهدا ، وثالثاً خيراً . أما أنت فلك عكس هذه الصفات : طاغية وشرير وفاسد الأخلاق .

فأمر قيصر بأن يساق أبيانوس إلى الإعدام . وبينما كان أبيانوس يؤخذ بعيداً قال :

امنحنى شيئاً واحدا ، يا مولاى قيصر !

الإمبراطور : ماذا ؟

أبيانوس : امنحنى أن أعدم وأنا أرتدى شارات الشرف الخاصة بى

الإمبراطور : لك ما سألت (١)

هذه فقرات من هذه المحاكمة الهامة ، لما اشتملت عليه من إشارات لها دلالتها التاريخية . من ذلك مايتهم به أبيانوس الإمبراطور من أن الرومان كانوا يمارسون تجارة خبيثة وهى أخذ القمح من مصر وبيعه فى الخارج بأربعة أضعاف ثمنه الأصلى . كما تكشف كلمات أبيانوس عن مدى التقدير والحب الذى احتفظ به أهل الأسكندرية لذكرى الإمبراطور أوريليوس ، فوصف بالفلسفة والزهد والخير، وهو ما لم يوصف بها إمبراطور رومانى آخر فى جميع أعمال الشهداء الوثنيين التى يغلب عليها — كما سبق أن ذكرنا — طابع مهاجمة الرومان عموماً . ويتضح من هذه المحاكمة أيضاً، التى حدثت حوالى عام ١٩٠ أنه بعد أكثر من مائتى سنة من الحكم الرومانى أن جذوة المقاومة لازالت معتقدة فى نفوس المصريين ؛ بل نلحظ فى هذه المحاكمة أن الموقف ازداد صراحة إذ غاب عنصر النزاع مع اليهود وأصبح الصراع ضد الرومان وجها لوجه . ولعل الموجهين للسياسة فى روما قد بدأوا يخشون من ازدياد تفاقم الأحوال فى مصر ، وخاصة بعد ثورة الرعاة فى شمال الدلتا وثورة كاسيوس بعد ذلك ومناصرة المصريين له ، فقام كومودوس ببناء أسطول جديد لنقل الغلال من شمال إفريقيا إلى روما ، لإمكان مواجهة الموقف إذا تأخر قمح مصر (٢) . هذه الخطوة الهامة لم يقدم عليها الرومان إلا فى نهاية القرن الثانى مما يدل على أن الأحوال فى مصر لم تعد تبعث على الاطمئنان الكامل .

---

(١) Musurillo, Acts, No. XI "Acta Appiani".

(٢) Historia Augusta, Commodus, 17. 7.

ب - مصر فى فترة المحنة الكبرى للإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث

يعتبر القرن الثالث الميلادى من أخطر فترات التاريخ لأنه يمثل مرحلة الانتقال — الكبرى من الحضارة القديمة إلى حضارة العصور الوسطى . وكما يحدث فى فترات الانتقال الكبرى تكثر الأزمات المختلفة فى المجتمع من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية ، وذلك لأن النظم القديمة تتكشف عن عيوبها وقصورها أمام الظروف الجديدة فتنهار ، بينما تأخذ نظم جديدة أو متطورة عن النظم القديمة فى الظهور . وهذا هو ماحدث فى القرن الثالث فى الإمبراطورية الرومانية. ولكن ليس هنا مجال الحديث عن أوضاع الإمبراطورية عامة ، وإنما سنكتفى من ذلك بما يمس مصر فقط .

ومن أبرز معالم التاريخ السياسى لهذه الفترة كثرة الانقسامات السياسية ، والتنازع حول العرش وتدخل الجيش فى هذه المنازعات السياسية، يعينون الأباطرة ويعزلونهم أو يقتلونهم حسب انقسام ولائهم وتوزع أهوائهم . ونلاحظ أنه كان للمصريين موقف يكاد يكون موحداً فى أثناء ذلك كله، وهو مناصرة كل وعى للعرش أو ثائر على السلطة المركزية فى روما . وكان السبب الأساسى لهذا الموقف من المصريين هو كراهيتهم الشديدة للحكم الرومانى . وقد رأينا مثلا من ذلك فى ثورة أفيديوس كاسيوس ضد الإمبراطور الحكيم ماركوس أوريليوس . وسوف تتكرر الأمثلة بعد ذلك فى خلال هذا القرن .

سبتميوس سيفيروس Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١) :

بعد موت كومودوس تولى العرش برتينا كى (Pertinax) فى أول يناير

سنة ١٩٣ ؛ ولكنه لم يبق فى الحكم سوى ثلاثة أشهر حتى لقى مصرعه على أيدى بعض فرق الجيش فى ٢٨ مارس سنة ١٩٣ . بعد ذلك تنازع الحكم عدد من الأدعياء رشحتهم الجيوش المختلفة هم سبتميوس سيفيروس بانونيا (بمنطقة الدانوب) وألبينوس فى شمال الغالة ونيجير فى سوريا . وقد ناصرت مصر حاكم سوريا فصدرت باسمه العملة كما استخدم اسمه فى تأريخ الوثائق أيضاً . ولكن سرعان ما تمكن سيفيروس من القضاء على منافسيه الواحد بعد الآخر ودانت له الإمبراطورية بأسرها .

وفى شتاء ١٩٩ — ٢٠٠ زار سيفيروس مصر وقام بالجولة المألوفة للسائح الرومانى فى ذلك الوقت وهى زيارة بعض معالم الآثار المصرية ومنها تمثالى ممنون بطبيعة الحال . ويقال إن سيفيروس أصلح رأس أحد التمثالين ، ولكن نتج عن هذا الإصلاح توقف صدور الصوت الذى كان ينبعث منهما عند شروق الشمس . ولكن زيارة سيفيروس لمصر لم تكن لمجرد النزهة أو السياحة والترويح عن النفس ، بل كان لها هدف ونتائج على جانب كبير من الأهمية . فلابد أن سيفيروس كان على علم تام بسوء ما وصلت إليه الأحوال فى مصر ، فقد ساءت الحالة الزراعية كثيراً فى الجزء الأخير من القرن الثانى ، وأصيب الجهاز الإدارى بعجز بيّن تبعاً لذلك ، إذ تعذر وجود عدد كاف من أصحاب الأراضى لتولى جميع مناصب الإدارة المحلية فى النومات المختلفة . وكان لابد من القيام بإصلاح أساسى لتدارك الحالة قبل أن ينهار النظام الإدارى فى الولاية تماماً ، ولهذا أقدم سيفيروس على إدخال أول إصلاح جذرى على النظام الذى وضعه أغسطس لمصر منذ أكثر من قرنين من الزمان . ويتلخص إصلاح سيفيروس فى أنه قرر إنشاء مجلس تشريعى (بوى boule) فى الأسكندرية وفى مراكز النومات (متروبوليس وجمعها متروبولات) . وسوف نتناول أهمية هذا الإصلاح فى معرض الحديث عن الإدارة ، ولكن يكفى هنا أن نقول إن الهدف الأساسى

من هذا الإصلاح لم يكن العمل على تقوية النظم السياسية الحرة فى المدن ، بل جعل هذه الجمعيات التشريعية الجديدة مسئولة عن ملء الوظائف الإدارية فى النوموس ، وبعبارة أخرى ألقى عبء الإدارة المحلية على كاهل أعضاء هـذا المجلس التشريعى بدلا من سلطات الإدارة المركزية(١) . ويجب أن نذكر هنا أن المدن فى الولايات الرومانية الأخرى كانت تتمتع من قبل بنظام المجالس التشريعية ، وكانت مصر استثناء من هذه القاعدة . ولهذا يعتبر إنشاء المجالس التشريعية فى مدن مصر محاولة لتوحيد نظم الإدارة والحكم بين مصر وسائر ولايات الإمبراطورية .

كاراكلا Caracalla (٢١١ - ٢١٧) :

كان تشريع سيفيروس الخطوة الأولى فى محاولات إصلاح النظم الرومانية وقد أعقبتها خطوة ثانية على جانب كبير من الأهمية . ذلك أن ابنه وخليفته الإمبراطور كاراكلا أصدر فى عام ٢١٢ تشريعاً هاماً فحواه منح المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية من الأحرار . ويفهم من المصادر الأدبية والقانونية القديمة — كما ورد عند ديون كاسيوس وأدلبيان — أن هـذا المنح كان عاماً شاملا(٢) . ولكن عثر حديثاً على بردية تحتوى على نص

---

(١) المصادر الأدبية تجعل منح المجلس التشريعى قاصراً على الأسكندرية : (Dio Cassius, 75, 13 : Historia Augusta, Severus, 17) ولكن ثبت من الوثائق البردية أن هذه المجالس أنشئت فى جميع مراكز النومات منذ زمن سيفيروس وقد جمعت المصادر البردية ودرست بواسطة : P. Jougue, La Vie Municipale, pp. 334 ff; id., Les Boulai à la fin du IIIe Siecle, Revue d'Egypte, N. S. I. p. 73; A. H. M. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinees. p. 329 and notes; E, P. Wegener, in Symbolae van Oven, pp. 160 ff; and in Mnemosyne (1948) pp. 15—42; 115—132; 297—326.

(٢) Dio Cassius, 77: Ulpian, Digest I. 5. 17 : "In orbe Romano qui sunt ex constitutione imperatoris Antonini (i. e. Caracalla) cives Romani effecti - sunt".

قانون كارا كلا[1] ، ونظراً لأن هذه البردية مشوهة وناقصة فى أكثر من موضع صعب تفسير عبارة وردت بها توحى بأن منح المواطنة الرومانية لم يكن شاملا وأن هناك استثناء معيناً ينص على عدم تمتع الطبقة المسماة « بالخاضعين » (dediticii) بمنحة هـــذا القانون . ورغم أن المقصود بلفظ « الخاضعين dediticii » هم الأعداء الذين حملوا السلاح وحاربوا الشعب الرومانى ولما هزموا خضعوا[2] فقد اختلف المؤرخون المحدثون فيما إذا كان قانون كارا كلا (المعروف اصطلاحاً باسم Constitutio Antoiuiana) يشمل المصريين أو أنهم كانوا ضمن طبقة الـ dediticii ولذلك ظلوا خارج المواطنة الرومانية ، وأن قانون كارا كلا طبق فى مصر على أهل المدن وعواصم النومات (متروبولات) فقط. ورغم استمرار الاختلاف بين العلماء حول هذه المشكلة إلى الآن ، الا أن الدراسات الحديثة المعتمدة على الوثائق البردية بصفة خاصة قد أثبتت أن تطبيق قانون كارا كلا فى مصر كان عاماً شاملا للمصريين جميعاً سواء من أهل المدن أو الريف[3] . (ونكتفى الآن بهذا القدر عن قانون كارا كلا ، وسوف نعود للحديث عنه وعن نتائجه فى مصر فى فصل الإدارة) .

فى عام ٢١٥ زار الإمبراطور كارا كلا مصر ، أى بعد ثلاثة أعوام من صدور قانون المواطنة الرومانية ، ولعله كان ينتظر أن يستقبله الأهالى بالحفاوة

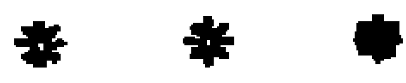
---

(١) P. Gissen, 40

(٢) Gauis, Inst. I, 14. "Vocantur autem peregrini deditucu hî qui quondam adversus populum Romanum grmis susceptis pugnaverunt, deinde victi se dediderunt.

(٣) أشمل دراسة حديثة لموضوع قانون كارا كلا هو كتاب : Christoph Sasse, Die Constitutio Antoniniana (1958). والتفسير الذى أخذت به فى النص أنظر : E. Bickermann, Das Edict des Kaisars Caracalla in P. Giss. 40 (Berlin, 1926): H. W. Beranio, The Dediditicu of the Gonstitiutio Antoniniana, in Trans action of the American Philological Association, 85 (1954) pp. 188—196.

والإ كبار ، شكراً وتقديراً لقانونه ، ولـكن يبدو أن الأسكندريين لم يحتفلوا بهذا القانون ولم يسعدوا بصدوره — كما سنبين فيما بعد، ولذلك سخروا من الإمبراطور الذى شبه نفسه بالإسكندر الأكبر ، وألحوا فيما أطلقوا عليـه من أسماء أنه قاتل أخيه جيتا ، الذى كان شريكه فى الحـكم . فلم يحتمل كارا كلا هذه السخرية وانتقم من الأسكندريين شر انتقام ، فاجتمع بهم فى الجمنازيوم وخاطبهم بلهجة قاسية وأمر بأن يجند شبان الجمنازيوم ثم قتلهم: ثم أرسل جيشه فى المدينة بالقتل والسلب والتدمير(١) . كما أمر بإخراج جميع المصريين الذين ازدحموا فى الأسكندرية فارين من قراهم ، حتى يتجنبوا دفع الضرائب أو القيام بالخدمات الإجبارية . ولم يستثن سوى بعض المصريين الذين لهم عمل أساسى فى المدينة (٢) .



الجزء الأكبر من القرن الثالث بعد ذلك بين كارا كلا ودقلديانوس يعتبر من أعصب فترات التاريخ ، كثرت فيها المحن والمؤامرات والانقسامات السياسية والحروب الأهلية فى معظم أجزاء الإمبراطورية الرومانية . وكان من الطبيعى أن تضعف السلطة المركزية فى روما نتيجة لذلك ، فـكثر أدعياء العرش ، كما كثرت محاولات الاستقلال فى الولايات ، قام بها زعماء محليون تارة أو قواد الجيوش الرومانية ذاتها تارة أخرى ولم يشذ تاريخ مصر فى تلك الفترة عن هذه الصورة العامة للإمبراطورية . وسوف نحاول الإيجاز قدر المستطاع فى تناول تاريخ هذه الفترة ، نظراً لأن أى إفاضة فى دراستها ستدخلنا فى تاريخ روما ذاتها وتخرجنا عن حدود موضوعنا وهو مصر فى العصر الرومانى . ولهذا

---

(١) Dio Cassius 77, 22—23; Historia Augusta, Caracalla,6.

(٢) P. Giss, 40

سنقتصر على الإشارة إلى أحداث الإمبراطورية التى شملت مصر ، فتأثرت بها أو أثرت فيها .

فمن بين الأحداث التى ابتدأت بها محنة الصراع من أجل السلطة الخلاف الذى نشأ بين مارقينوس (Marcinus) الذى خلف كارا كلا مباشرة سنة ٢١٧ وإيلاجبالوس (Elagabalus) الذى ادعى أنه ابن كارا كلا، وانحاز الأسكندريون إلى جانب مارقينوس ضد ابن كارا كلا خصمهم القديم ، بينما اتخذ الجيش جانب إيلاجبالوس ، وتعرضت الأسكندرية نتيجة لذلك لمعركة بين الفريقين قاست المدينة من جرائها أهوالا كثيرة . ويذكر أن مارقينوس عين قائدا لجيش مصر من بين أعضاء السناتو ، مخالفاً بذلك لأول مرة قاعدة وضعها أغسطس منذ حوالى قرنين ونصف قرن [١] . ولكن يجب ألا نبالغ فى أهمية هذه الحادثة ودلالتها ، فإن نظام أغسطس لحكم مصر قد نقض فى أركانه الأساسية بحيث فقد صفاته وملامحه الأصلية ، وخاصة على يدى سيفيروس وكارا كلا .

ومن المحتمل أن الإمبراطور سيفيروس اسكندر زار مصر فى عام ٢٢٨/٢٢٩ وحاول التخفيف عن الولاية بالتنازل عن بعض الضرائب . ولكن أباطرة تلك الأيام كانوا تحت سيطرة الجنود ، وكان سيفيروس اسكندر من هذا النوع من الأباطرة ، ورغم طيب طويته لم يتمكن من أن يمنع الجنود من القضاء على اثنين من خيرة رجال هذا العصر وهما أولبيانوس الفقيه القانونى الشهير ، وديون كاسيوس آخر مؤرخى روما الكبار . وأخيرا راح سيفيروس إسكندر نفسه ضحية مؤامرات الجند وقتل فى عام ٢٣٥ .

وتلاحقت على مصر أخبار الأباطرة وأحياناً تضاربت هذه الأخبار ، دون

(١) Dio Cassius. 78. 35.

أن تشترك مصر فى صنع هذه الأخبار ، ولم يزد تأثير هذه الأحداث فى مصر على تغيير اسم الإمبراطور فى كتابة تواريخ الوثائق . وكثيراً ما سقطت أسماء بعض الأباطرة من هذه التواريخ لشدة قصر الفترة التى قضوها على العرش فى روما . حتى إذا كان منتصف القرن الثالث تربع على عرش روما الإمبراطور ديقيوس ، وكان المسيحيون قد بدأوا يظهرون كقوة يحسب لها حساب فى الحياة العامة، فقرر هذا الإمبراطور القيام بحملة شاملة للقضاء على جميع أتباع الدين الجديد قضاء تاما فى الإمبراطورية . وكانت خطته هى أن يفرض على جميع الأهالى أن يعلنوا تمسكهم بعقيدته فى الآلهة القديمة عن طريق العبادة والتضحية لها ، وأن يتم ذلك أمام الموظفين المسئولين ، وعلى كل فرد أن يحصل على شهادة من هؤلاء الموظفين باستيفاء هذا الاختبار ، ومن يرفض القيام بهذا الاختبار كان جزاؤه الموت . وكانت فترة حكم هذا الإمبراطور (٢٤٩ — ٢٥١) محنة كبرى للمسيحيين عموماً ، وقد وجدنا نماذج من هذه الشهادات على بعض البرديات التى ترجع إلى هذا التاريخ[١] .

وقد بلغت الفوضى السياسية والعسكرية فى القرن الثالث أوجها فى الفترة التالية (٢٥٢ — ٢٦٨) حين كثر التطاحن بين أدعياء العرش وانقسم ولاء الجنود واشتد ضعف السلطة المركزية فى روما ، مما أدى إلى إعلان كثير من الولايات استقلالها عن روما ، بما فى ذلك مصر فمن الواضح أن مصر فى سنة ٢٦٠ اعترفت بمرقيانوس وكويتوس الأباطرة فى سوريا ، وكلها بعد ذلك أعلنت الوالى إيمليانوس إمبراطورا بها ، حتى تمكن أحد ممثلى السلطة المركزية فى روما من القضاء على هذه الفتن المحلية ، وألقى القبض على إيمليانوس ورد مصر إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية . ويبدو أن كثيرا من القتلى راحوا ضحية

---

(١) Eusebius, Hist. Eccles VI. 41; Bell. Gults and Creeds, p. 85.

هذه الأحداث حتى لقد قيل إن الأسكندرية فقدت نحوا من ثلثى أهلها [١] .

زينوبيا ملكة تدمر تبسط سلطانها على مصر :

فى أثناء القرون الثلاثة الأولى من الإمبراطورية ازدهرت فى الشرق إمارة تدمر (Palmmipa) الواقعة فى الصحراء التى تفصل بين سوريا ودولة بابل . وكان محور نشاطها ومصدر ثروتها الأساسى هو نقل التجارة بين الشرق الأقصى وبابل من ناحية وسواحل سوريا من ناحية أخرى . كما مدت نفوذها التجارى جنوبا ونافست الأسكندرية فى تجارة البحر الأحمر ، ومنذ القرن الثانى كثيرا ما تعاون تجار تدمر مع تجار الأسكندرية فى العمل معاً فى التجارة الشرقية ، ويشهد على ذلك عدد من النقوش التى تثبت وجود تجار تدمريين مستقرين فى مدينة قفط فى صعيد مصر ، ومركز النقل التجارى من البحر الأحمر إلى الأسكندرية [٢] .

هذه الجمهورية التجارية فى الشرق دخلت سلطان الإمبراطورية الرومانية منذ عصر مبكر ، ولعله يرجع إلى زمن الإمبراطور تيبريوس [٣] ، ولكنها عوملت معاملة ودية وتمتعت بنوع من الاستقلال الداخلى ، واستطاعت أن تفيد كثيراً من ظروف النشاط التجارى فى الإمبراطورية الذى تزعمته الأسكندرية فى القرنين الأول والثانى ، مما مكنها من أن تلعب دوراً سياسياً إيجابيا فى القرن الثالث . منذ استطاع أحد حكامها . . أودينات . . Odenathus أن يستخدم ثروة مدينته فى تكوين جيش قوى ساعد به الإمبراطور الرومانى جالينوس (Gallinus) ، حتى أن هذا الإمبراطور عينه قائدا عاما على

---

(١) Eusebuis, Hist. Eccles. VII. 21.

(٢) A. J. Reinach, Rapport sur Les Fouilles de Coptos. p. 17; C. I. S, II. 3. 3910; O. G. L, S. 639: S E G. VIII. 703

(٣) يذكر جوجيه أن تدمر أضيفت إلى الإمبراطورية زمن تراجان (Precis de l'Histoire d'Egypte, p 398) ولكن جونز يبين أن ضمها إلى الإمبراطورية كان أقدم من ذلك كثيراً. Jones, Cities, 267 and notes.

ولايات الشرق . ولما توفى أودينات خلفه ابنه الطفل « وهب اللات » (Vaballa) (Thus) الذى سيطرت عليه وعلى الدولة معا والدته الملكة الطموح المعروفة باسم زينوبيا . هذه الملكة لم تقنع بالمركز الممتاز والثراء العريض اللذين كانت تتمتع بهما تدمر وإنما أرادت أن تكون لها إمبراطورية ، وبدأت تبسط سلطانها على الولايات الشرقية ، بما فيها مصر ، فأرسلت إلى مصر جيشاً ضخماً عام ٢٦٩ واحتلتها ، بناء على اتفاق سابق مع بعض الزعماء المحليين المسمى

تيماجينيس (Timagenes) ورغم مقاومة الحامية الرومانية فى مصر وصمودها ضد جيوش زينوبيا فى أكثر من موقع إلا أنها فشلت فى الاحتفاظ بمصر من أيديهم . حتى إذا تولى عرش روما الإمبراطور أوربليانوس عام ٢٧٠ ، لجأ إلى أعمال السياسة فى مواجهة الخطر التدمرى فاعترف أولا بوهب اللات ابن زينوبيا شريكا له فى الحكم ، وصدرت العملة فى الأسكندرية تحمل صورة الإمبراطورين على الوجهين . ولكن بعد مرور عام واحد رفض وهب اللات الاستمرار فى هذا الحكم المشترك وقرر الاستقلال وأعلن نفسه امبراطورا ، مما أدى إلى قيام الحرب بين روما وتدمر . وصدرت العملة فى الأسكندرية تحمل صورة وهب اللات وزينوبيا فقط ، مما يكشف عن مدى نفوذ هذه الملكة فى توجيه السياسة فى تلك الأيام . على أى حال فى الحرب التى نشبت بين تدمر وروما ، هاجم الإمبراطور بنفسه من الشمال فى آسيا الصغرى ، بينما أرسل القائد بروبوس (Probus) إلى مصر ، وسرعان ماسقطت مصر فى أيدى الرومان من جديد فى عام ٢٧١ . ورغم انتصار الإمبراطور أدريليانوس على تدمر أيضاً وأخذه زينوبيا أسيرة فى موكب نصره إلى روما ، فإن قياد هذه الولايات الشرقية لم يسلس له تماما ، وسرعان ما قامت ثورة فى كل من تدمر والأسكندرية عام ٢٧٢ . وكان قائد الثورة فى الأسكندرية أحد كبار تجارها يسمى فيرموس (Firmus) ، الذى يقال إنه جمع ثروة طائلة من تجارة البردى

والصمغ العربى ، واستطاع أن يجمع جيشاً من ماله الخاص . إن قيام تاجر مثل فيرموس بثورة الأسكندرية يوحى بأنه كان على علاقة مع ثوار تدمر أيضاً . أمام هاتين الثورتين فى وقت واحد ، اتجه الامبراطور أدريليانوس إلى تدمر أولا ، وقضى على الثورة هناك ، ثم تحول إلى مصر حيث انتصر على فيرموس وحاصر الثوار فى حى البروخيون فى الأسكندرية ؛ حتى اضطروا إلى التسليم ولكن بعد أن دمر هذا الحى تماما وكان مركزا لأهم مبانى المدينة [1] .

بعد ذلك غادر أدرياليانوس مصر وتركها فى أيدى قائده پروبوس (Probus) لإخضاع قبائل البليمى فى الجنوب ، الذين استغلوا فرصة الثورات المتتالية وتوغلوا فى مصر الجنوبية . وبينما كان پروبوس يعمل على إخضاع مصر العليا توفى أدريليانوس ، فانتهز الجيش فى مصر هذه الفرصة وأعلنوا قائدهم إمبراطوراً . وقد استطاع پروبوس أن يفرض نفسه على الإمبراطورية بأسرها وأن يبقى فى الحكم مدة خمسة أعوام (٢٧٦ — ٢٨٢) ، قضاها فى نشاط جم فى حروب ومواقع مستمرة على حدود الإمبراطورية المختلفة . ولكنه قتل فى عام ٢٨٢ بواسطة الجنود ، الذين قتلوا ثلاثة من الأباطرة أيضاً فى العامين التاليين حتى تولى عرش الإمبراطورية دقلديانوس الذى سيتولى مهمة بناء الإمبراطورية من جديد على أسس جديدة تعتبر فاتحة طور جديد من أطوار الإمبراطورية الرومانية .

---

(١) عن مصادر هذه الفترة أنظر :

Jouguet, Precis de l'Hist. d'Egypte, I. p. 404.

وأهم مصدر عن فيرموس وثورته Historia Augusta, Firmus.

الفصل الثانى

معالم النظم والحضارة فى مصر فى العصر الرومانى

١ - تكوين المجتمع

يذكر المؤرخ جوزيفوس فى نهاية القرن الأول أن عدد سكان مصر — باستثناء سكان الأسكندرية — كان سبعة ملايين ونصف مليون(١) . فإذا قدرنا للأسكندرية نصف مليون من السكان(٢) ، أصبح المجموع ثمانية ملايين نسمة تقريباً . وهو رقم تقريبى ويجب أن نكون على حذر من تطبيقه على مصر فى جميع عصورها القديمة ، فنحن نعرف مايصيب السكان من الزيادة والنقصان حسب ظروف الرخاء أو ظروف الأوبئة والقحط والحروب . أما من حيث تكوين هذه الملايين الثمانية ، فهى لم تختلف كثيراً عن تكوينها فى عصر الأسرة البطلمية ، فلا زالوا غالبية من المصريين وأقليات متفاوتة الحجم من الإغريق واليهود وجماعات مختلفة من السوريين والفينيقيين والليبيين وغيرهم . ولكن أهم تغير طرأ على المجتمع المصرى هو وجود عنصر جديد هام ، وهم المواطنون الرومان الذين جاءوا مع الحكم الجديد سواء ممن جاءوا للعمل كموظفين فى إدارة الولاية أو جنود فى الجيش الرومانى ، أو من رجال الأعمال والتجار . وكثير

(١) Josephus, Bell. Jud, II. 16 4.

(٢) يذكر ديودور الصقلى (XVII. 52. 6.) أن عدد الرجال الأحرار فى الأسكندرية فى عام ٦٠ ق. م. يزيد على ٣٠٠٠٠٠ رجل . فاذا أضفنا إلى هؤلاء النساء والأطفال والعبيد . فان اقتراح نصف مليون سكان الأسكندرية — فى المتوسط — يكون رقما محافظا لا مبالغة فيه .

من هؤلاء استقر فى مصر وكونوا بمرور الزمن جالية رومانية وجدت فى مناطق مختلفة من مصر بعد ذلك .

ومن وجهة النظر القانونية الرومانية قسم سكان مصر إلى قسمين أساسيين رومان ومصريين ، ثم اعتبر الأسكندريون طبقة ممتازة من المصريين أحيطت بكثير من الامتيازات الخاصة . ومن ثم أصبح لفظ المصريين يطلق اصطلاحا على جميع سكان مصر عدا الأسكندريين ، من إغريق ويهود ومصريين وغيرهم [١] . ومقياس هذا التقسيم هو ضريبة الرأس Laographia التى فرضت على المصريين ، ولهذا فهى لاتقع على المواطنين الرومان فى مصر ، أما الأسكندريون فقد «أعفوا» منها [٢] ، أما سائر السكان فكانوا يدفعون ضريبة الرأس . ومع ذلك فقد حرص الرومان على إبقاء المجتمع للصرى مقسما تقسيما طبقياً . فميز بين فئات « المصريين » فى المعاملة ، فتفاوت مقدار ضريبة الرأس بالنسبة للعناصر الإغريقية أو المتأخرة من سكان عواصم النومات (المتربوليين Metropolites) وبالنسبة للمصريين الفلاحين من أهل القرى والريف [٣]

ولنبدأ بالحديث عن الطبقة الجديدة فى المجتمع المصرى وهى طبقة الرومان ، أرقى طبقة فى مصر فى ذلك الوقت وتمتعت بأكبر قدر من الامتيازات . من حيث تكوينها ، نجدها تتكون أساساً من الموظفين الرومان الذين عينهم الإمبراطور فى المناصب الكبرى بالإدارة المصرية ، ومن رجال الأعمال الرومان

---

(١) E. Bickermann, in Archiv of Papyrsforsching, (1927) p. 239; (1428) pp. 40 ff.

(٢) أشير إلى هذا الاعتقاد أكثر من مرة فى المصادر القديمة = P. S. I. 1160 Musurillo, No. 1; and No. IV, col, ii, 25—30; Dio Cassius, 66, 8. 5; cf Wallace, Taxation, pp. 118 ff. (بشأن الضريبة التى فرضها فسبسيان عليهم) .

(٣) Wallace, Taxation, pp. 121 ff.

الذين حضروا إلى مصر من أجل عقد صفقات تجـارية فى الأسكندرية ، ومن جنود الحامية الرومانية . ومامن شك أن الحامية الرومانية كانت أهم مصـدر لإحضار الأجانب إلى مصر ، ذلك أنها كانت تضم أصلا أفراداً من جميع أنحاء الإمبراطورية فى أعداد كبيرة . وعند تسريحهم كانوا يمنحون الجنسية الرومانية ، وكثيراً ما آثروا البقاء فى مصر بعد ذلك لأسباب مختلفة . ولـكى نعرف مقدار ما أسهم به الجيش الرومانى فى تكوين الطبقة الجديدة يجب أن نذكر أولا أن عدد ذلك الجيش فى عصر الإمبراطور أغسطس كان ٢٢٫٨٠٠ ، جندى ، ثم خفض إلى ١٦٫٧٠٠ جندى فى عصر الإمبراطور تيبريوس ، ثم خفض أخيراً فى القرن الثانى إلى ١١٫١٠٠ جنـدى (١) . ورغم أن الجيش الرومانى كان يسمح لمواطنى المدن اليونانية فى مصر بالانخراط فى سلكه ، إلا أن العدد الأكبر من أفراده كان يؤخذ عادة من مواطن الولايات الرومانية الأخرى ، وخاصـة فى أثناء المائة وخمسين عاماً الأولى من الحـكم الرومانى ، وبعد ذلك ازداد عدد من الجند محلياً فى مصر حتى أصبحوا الغالبية فى جيش مصر البيزنطية (٢) .

ولم يبق جنود الحامية الرومانية معزولين عن الأهالى داخل معسكراتهم ، لا يظهرون أمام الناس إلا وقت الثورات والمحن . بل على العكس من ذلك ، فإن ثورات المصريين فى ذلك الوقت كانت فى معظم الأحيان فى فترات متباعدة

---

(١) J. Les quier, L'Armèe Romaine d'Egypte, esp. pp. 101—114

(٢) المصادر الأساسية الخاصة بالجيش الرومانى فى مصر هى: C. I. L. III.6627 (Early first century); Musè d'Alexandrie, Ino. No. 2577, (157 A. D.). ed by Abdullatif Aly, in Annals of the Faculty of arts, Ain Shams University, (1955) pp. 113—146; C. I. L. III. 5680 (194 A. D.). وتوجد إشارة إلى كثير من المعلومات الجزئية الأخرى الواردة فى البردى والنقوش فى كتاب : G. Forni : Il Re crutamento delle Legioni de Augusto a Dio Clezisno (1953) in Appenidice, B. Tab. 1, p. 167, Tab III, p. 185. Tab IV, p. 204, and p. 95,

وكثيراً ماطالت فترات الهدوء والاستقرار . فكان من الطبيعى أن يبحث الجنود لأنفسهم عن مجالات أخرى لنشاطهم ، خاصة وأن فترة الجندية فى الجيش الرومانى كانت تمتد عادة إلى خمسة وعشرين عاماً ، وهى سنوات شباب ونضج الإنسان . ولذلك لم يكن مستغرباً أن يخرج من معسكراتهم وأن يتصلوا بالأهالى فى مختلف وجوه الحياة اجتماعياً واقتصاديا ، رغم مخالفة ذلك لقوانين الجيش الرومانى . فمن الناحية القانونية مثلا ، كان محظوراً على الجندى أن يتزوج طوال مدة خدمته العسكرية ، ولكن فى الواقع كثيراً ما أنشأ الجنود علاقات خاصة مع النساء من أهل البلد وخاصة فى الأسكندرية ، وأنجبوا منهم أطفالا غير شرعيين. وكان من المستحيل أن تقف السلطات الرومانية فى مصر من هذه الحالات موقفا متزمتاً ، وإنما أغمضت أعينها عما كان جاريا ، وعند تسريح الجنود كان يعترف بزواجهم (Epigamia) الذى تم بصورة غير قانونية أثناء الخدمة، وكان الجنود وزوجاتهم وأبناؤهم يمنحون المواطنة الرومانية [١] .

وتبين لنا أوراق البردى كيف كان هؤلاء الجنود يعقدون هذه الزيجات أثناء الخدمة العسكرية . ففى إحدى البرديات نجد خطابا موجهاً من شخص فى الأسكندرية إلى والده يذكر فيه أن جنديا قد طلب الزواج من أخته وهو يستشير والده فى الأمر [٢] . ولكن مادام مثل هذا الزواج معتبراً غير قانونى فإن عقد زواج حقيقى لا يمكن تسجيله . ولذلك لجأ الطرفان إلى حيلة قانونية تجعل الاتفاق بين الجندى والمرأة فى صورة عقد يكفل للزوجة ضماناً كافياً ،

---

(١) كان يتم ذلك على الأقل بالنسبة للوحدات المعروفة باسم auxilia وخير مثال على ذلك هو البردية المشهورة

B, G. U. 113 (140 A. D.) = Wiicken, Chrest. No. 458.

بشأن زواج الجنود أنظر : Lesquier, L'armèe Romaine. pp. 263—279.

G. L. Chessman, The Auxilia of the Roman Army, (1914) pp 119 ff.

(٢) P. S. I., VIII, 967 (1st or 2nd Century A. D.)

وذلك عن طريق اعتبار «المهر» ـ الذى كانت تقدمه الزوجة عادة عند زواجها ـ بمثابة وديعة لدى الزوج، ووقع الطرفان عقد وديعة. وقد وصلتنا على أوراق البردى إحدى هذه العقود الذى تم بين جندى فى الجيش الرومانى يسمى جايوس يوليوس أبوليناريوس وامرأة تسمى بترونيا. وفى هذا العقد يعترف الجندى أنه استلم من بترونيا ملابس نسائية قيمتها ثلاثمائة دراخمة إلى جانب حلى من الذهب « المشغول » (١). ورغم أن جميع الشروط الواردة فى هذا العقد تشبه تماماً شروط عقد الوديعة، إلا أن الأشياء المودعة تكشف وجه التحايل على القانون، إذ من المستبعد والمستغرب أن تودع امرأة ملابس نسائية لدى جندى يقيم داخل معسكراته. خاصة وأن هذه الأشياء المودعة هى نفس الأشياء التى يرد ذكرها عادة فى وصف مهر المرأة فى عقود الزواج العادية (٢).

ويبدو أن مثل هذا الزواج عُمِّر وتكونت منه أسرات لها أبناء وعبيد أيضاً، ولدينا أدلة كثيرة تثبت أن هؤلاء الجنود كانوا يرعون أبناءهم من زوجاتهم غير الشرعيات رعاية جميع الآباء لأبنائهم. ففى عدد من الوثائق البردية نجد جنوداً يتعاقدون مع مرضعات لأطفالهم وأطفال عبيدهم أيضاً (٣). كما أن أبناء هؤلاء الجنود كانوا يجندون عادة فى فرق الحامية الرومانية، وكان يذكر رسمياً أمام أسمائهم أنهم من مواليد المعسكرات (Kastresios) باليونانية و ex castris باللاتينية) (٤).

لم يقتصر نشاط جنود الجيش الرومانى فى مصر على الزواج وتكوين

---

(١) B. G. U. III. 729 (144 A. D.)

(٢) مثل B. G. U. IV. 1050—2 (Augustan Age).

(٣) B. G. U. IV. Nos 1105 ; 1107 ; 1107 ; 1108 ; 1109 (Augustan age).

(٤) أنظر مثلا : C. I. L, III. 6627; and 5680؛ والجداول الواردة فى نهاية كتاب : Forni, II Recrutamento, Appendice B.

الأسر ، بل كثيراً مانقابلهم فى وثائقنا فى مجالات مختلفة من النشاط المالى والاقتصادى ، وخاصة كملاك للأراضى [1] وممولين ، بقروض المال نظير فوائد مجزية . وهى تجارة مربحة مارسها كثير من الأثرياء فى مصر الرومانية [2] .

يتضح من هذا العرض أن جنود الحامية الرومانية فى مصر لم يهبوا الحياة العسكرية كل وقتهم ، وأنهم بالتدريج امتزجوا بالحياة فى البيئة حولهم اجتماعياً واقتصادياً . ولعل الواجب العسكرى لم يحتل المكان الأول من اهتمامهم . ويبدو أن هذه الحال لم تكن قاصرة على الجيش الرومانى فى مصر ، فإن ظروف السلام والاستقرار النسبى التى سادت الجزء الأكبر من تاريخ الإمبراطورية فى القرنين الأولين شجعت الجنود الرومان فى الولايات المختلفة على الانغماس فى أوجه النشاط السلمى فى البيئات التى وجدوا بها [3] ولعل خير ما يصور هذه الحقيقة هو الوصف الذى يورده المؤرخ تاكيتوس لجنود الحامية الرومانية فى سوريا فى عصر الإمبراطور نيرون ، عندما عهد إلى كوربولا (Corbula) أن يقودهم ضد البارثيين : « فقد وجد خمول جنوده أشد خطراً عليه من مكيدة أعدائه ؛ إذ أن جيشه كان يتكون من فرق أتت من سوريا ؛ كسالى من جراء

---

(١) الاعتقاد السائد أن أغسطس منح إقطاعات عسكرية Colonia للجنود الرومان فى مصر . أنظر : Lesquier, L'Armée romaine. p. 328; Rostovtzeff. Soc. & Ec. Hist. of the Roman Empire, 2ad ed; p. 287, وقد ورد ذكر الإقطاعات العسكرية Kolonia فى بعض الوثائق البردية مثل : P. Giss. 60. Col iii, 6 (119 A. D.); Wilcken, Chrest. 461, 26 (beginning of 3nd. cent. A. D); of also P. Ryl.II. 202 (late 1st cent. A.D.) and the remarks of Rostovtzeff. op. cit, vol. II, p. 669, note44

(٢) P. Hamb. No. 1(57 A.D.); P, Lond. II. 142. p.203 (65A.D.) B, G. U. III, 741 (193—4 A. D); p. Found, 45 (153 A.D

(٣) ففى شمال إفريقيا مثلا نجد أن نحواً من نصف المجندين للفرقة الرومانية Legio III. Augusta يذكرون أنهم من مواليد المعسكرات : C. I. L. VIII 18067 (Castris)

السلام الذى استمر طويلا ، لا يكادون يحتملون حياة المعسكرات . وكان من بين هذا الجيش أيضاً جنود لم يقوموا بالحراسة أو الملاحظة ، فكانوا ينظرون إلى الأسوار والخنادق على أنها نوع من غرائب الوجود . ليس لديهم خوذات أو دروع، وإنما هم رجال أعمالمترهلون قضوا خدمتهم العسكريةداخلالمدن[1].

هذه كلمة مختصرة عن أفراد الجيش الرومانى كعنصر من عناصر المجتمع المصرى أثرت فيه وتأثرت به ثم اندمجت فى صفوفه آخر الأمر . لأن هؤلاء الجنود ، بعد أن ارتبطوا بالبيئة المصرية اجتماعيا عن طريق الزواج واقتصادياً عن طريق ملكية الأرض والمعاملات المالية الأخرى ، لم يغادروا مصر بعد أن قضوا بهامدة خمسة وعشرين عاماتحت اسم الخدمة العسكرية ، واستقروا بالبلاد نهائياً أصبحوا الأساس الذى تكونت منه الجالية الرومانية فى مصر . ويمكن أن نضيف إليهم ، كما سبق أن ذكرنا بعض الموظفين الذين حضروا من روما للعمل فى إدارة الولاية ، وكذلك بعض من حضروا من أجل الاستفادة من عمليات التبادل التجارى . ولكن هؤلاء كانوا قلة بالنسبة لأعداد الجنود الذين استقروا فى مصر . على أن الجالية الرومانية لم تبق قاصرة على هؤلاء ، وإنما انضم إليهم عدد كبير من أبناء الطبقات الممتازة فى مصر الذين سمح لهم بالخدمة العسكرية فى الجيش الرومانى واكتسبوا الجنسية الرومانية عن هذا الطريق، وكذلك عدد من طبقة الأسكندريين الأرستقراطية الذين استطاعوا الحصول على المواطنة الرومانية . وقد زاد عدد الجالية الرومانية فى مصر كثيراً من هذا السبيل فوجدنا كثيراً من الرومان يحملون أسماء مختلفة ، الجزء الأول عن الاسم ـ رومانى ـ وهو عادة اسم الإمبراطور الذى اكتسب المواطن فى عهده المواطنة الرومانية ـ والجزء الأخير من الاسم يونانى ، مما يكشف عن أصله من بين

---

(١) Tacitus, Annales, XIII. 35.

صفوف الإغريق فى مصر وخاصة من مواطنى الأسكندرية[1] .

هؤلاء المواطنون الرومان ـ مهما كان أصلهم والطريقة التى حصلوا بها على المواطنة الرومانية ـ كانوا يمثلون الطبقة العليـــا فى مجتمع مصر الرومانية . فــكان يختار منهم كبار موظفى الإدارة ، كما كانوا يتمتعون بامتيازات كثيرة مثل الإعفاء من بعض الضرائب أو دفع ضرائب مخفضة ، والإعفاء من القيام بالخدمة الإجبارية وتولى الوظائف المحلية ـ فى بداية العصر الرومانى عــلى الاقل[2]. وحينما وجد الرومان فى مصر فى أعدادا كبيرة كونوا لأنفسهم رابطة تجمعهم (Conventus Civium Romanorum) ، وساهموا كمجموعة مستقلة فى حياة للدينة أو البلدة التى هم بها . ومن ذلك ما تــكشف عنه بردية من (البهنسا) فى صعيد مصر ، إذ تتحدث عن اجتماع عام لأهل مدينة أو كسير نخوس (البهنسا) ، وتذكر أنه اشترك فى هذا الاجتماع موظفو المدينة وشعبها والمواطنون الرومان والأسكندريون المستقرون بها[3] .

وقد بقى المواطنون الرومان فى مصر متمتعين بهذا الوضع الممتاز حتى بداية القرن الثالث عندما صدر قانون كاراكلا بمنح المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية .

* * *

إذا ما نظرنا إلى عناصر المجتمع الأخرى التى كانت موجودة من قبل ،

---

(١) مثل أسماء Sabina Apollonarion, Marcus Antonius Heliodorus, and Marcus Antōnius Aper, in P.S.I. No. 1325 (176—180 A.D)

(٢) المصادر الخاصة بهذه الامتيازات هى: B.G.U. 180 (172 A,D) Wilcken: Chrest 396. Wilcken Chrest 463, i, 10—20 (87—9) أنظر كذلك : Wilcken, Grundz, p 339 ff.; Oertel, Liturgie, p. 387 ff. Johnson, Roman Egypt, p. 609 ff.

(٣) P, Ox. III. 73 (138—160 A.D.)=Wilcken, Chrest, No. 33

نجد على قمة الهرم الطبقى المصرى طبقة الأسكندريين ، وقد بقيت محتلة هذه المكانة أيضا وتلى الرومان مباشرة . فجريا على عادة الرومان فى حكم الولايات من اصطناع أقلية أرستقراطية فى الولاية ، يمنحونها امتيازات خاصة ، لذلك فعلوا فى مصر وحافظوا على وضع الأسكندريين الممتاز . بل يمكن أن يقال إن الوضع القانونى لمواطنى الأسكندرية اكتسب أهمية خاصة فى العصر الرومانى فعدا بعض الامتيازات التى تمتعوا بها مثل الإعفاء من ضريبة الرأس التى فرضت على جميع المصريين ، وحق الالتحاق بالجيش الرومانى جعل للرومان حق اكتساب المواطنة الرومانية مباشرة (وليس عن طريق الخدمة العسكرية) قاصرا على الأسكندريين ، بحيث أن أى مصرى آخر كان عليه أن ينال مواطنة الأسكندرية أولا حتى يسمح له باكتساب المواطنة الرومانية (١) . وقد انعكس هذا الوضع الممتاز للأسكندريين بالنسبة لسائر سكان مصر فى لغة الوثائق الرسمية الخاصة بالضرائب وقوائم أصحاب الأملاك فنجد هذه الوثائق فى بداية العصر الرومانى تقسم الملاك إلى فئتين هما « الأسكندريين » و « المحليين » (٢) (والمقصود بالفئة الأخيرة هم سائر الملاك من أهل المنطقة التى بها الأرض) . هذه المقابلة بين الأسكندريين وسائر الأهالى فى وثائق الضرائب تبين قوة الإسكندريين كطبقة اقتصادية ؛ وفى الواقع يسبب تحكمهم فى وسائل الإثراء عن طريق التجارة العالمية أصبحوا أثرى طبقة فى مصر وأكبر ملاك للأراضى .

ولكن الأسكندريين لم يقنعوا بكل هذه الامتيازات ، ولعلهم كانوا يضيقون بوجود طبقة أخرى أرقى منهم رسمياً داخل البلاد وهى طبقة المواطنين

---

(١) Pliny, Epist. X. 6—7

(١) P. Lond. II. 192, p. 222, l. 82 ff Augustus or Tiberius; and in the edict of the Prefect Tiberius Julius Alexander, O. G. I. S. II. 669 = S B. V, No, 8444.

الرومان ؛ فعملوا على الدخول فى دائرة المواطنين على أوسع نطاق ممكن . وقد تمكنوا من تحقيق ذلك بفضل بعض الامتيازات القانونية التى منحت لهم ، أولا عن طريق السماح لهم بالالتحاق بالجيش الرومانى . وثانيـــاً بجعل حق اكتساب المواطنة الرومانية مباشرة قاصراً عليهم فى مصر . وسرعان ما أصبح عدد كبير من المواطنين الرومان فى مصر أسكندريين أصلا . وإذا بهذا التطور ينعكس أيضا فى لغة الوثائق الرسمية ، وأصبحت قوائم الضرائب تقسم أصحاب الأراضى إلى فئتين ، هما « فئة الرومان والأسكندريين » و « فئة المحليين » . ظهر هذا الربط بين الرومان والأسكندريين فى الوثائق لأول مرة بعد منتصف القرن الأول بقليل ، واستمر استخدامه خلال القرن الثانى ، مما يبين أن الرومان والأسكندريين كانوا فى نظر الإدارة المركزية يكونون طبقة اقتصادية واحدة(١) . ويوضح ظاهرة هذا الترابط الطبقى ويؤكد وضعهم الممتاز وثيقة بردية ترجع إلى عام ١٣٩ وتحتوى على خطاب من إستراتيجوس قفط إلى الوالى ، ويشكو إليه أن المواطنين الرومان والأسكندريين والجنود القدماء المستقرين فى نوموس قفط والمكلفين بجمع الضرائب قد عصوا أوامره ، ويدعون أنهم لا يخضعون لسلطان الإستراتيجوس مثـــل جامعى الضرائب المحليـــين (enchorioi) ومن الغريب أن رد الوالى على هذا الخطاب يأتى مؤيداً لموقف الرومان والأسكندريين والجنود القدماء ؛ إذ يأمر الوالى بأن يرفع الإستراتيجوس هذه المسألة إلى موظف أرقى منه مرتبة وهو الإبيستراتيجوس (epistrategos) ، الذى كان من اختصاصه الإشراف على عدد من النومات معا (٢) . هـــذه الوثيقة الهامة توضح مدى ما تمتعوا به من امتيازات إلى درجة عدم خضوعهم للموظفين المحليين .

---

(١) P, Merton, II. 63, 7 ff. (58 A. D.): Stud Pal. p. 62 ff., i, 331 f. (72—3 A. D.); B. G. U. IX. 1894 (158 A. D.)

(٢) B. G. U. III. 747 (129 A. D.)

غير أن الإصلاحات التى تمت فى خلال القرن الثالث من نشر نظام الحكم المحلى فى النومات ومنح المواطنة الرومانية للجميع فى أول هذا القرن ثم إلغاء امتيازات الأقليات وتطبيق اللامركزية تطبيقاً مطلقاً على يد دقلديانوس فى نهاية القرن نفسه ، قضى امتيازات الأسكندريين والرومان معا ، إذ أصبح الجميع مواطنين رومانا ، يدفعون الضرائب على قدر سواء ويتحملون نصيبهم كاملا فى الحكم المحلى ، كل حسب قدرته المالية .

* * *

عدا الرومان والأسكندريين يأتى سائر السكان الذين كانوا اصطلاحا يسمون « مصريين » (١) . وليس معنى هذا أنهم جميعاً كانوا يكونون طبقة واحدة ، فقد كانوا ينقسمون بدورهم إلى طبقات وفئات مختلفة المنزلة والمكانة . ولكن الصفة المميزة لهم جميعا هى خضوعهم لضريبة الرأس ، ومع ذلك لم يعاملوا كلهم بخصوص هذه الضريبة معاملة سواء . فوجدنا الفئات الأكثر رقياً وأكثر ثراءمثل الإغريق والمتأغرقين من أهل المتربولات يدفعون ضريبة الرأس مخفضة الى اثنى عشر دراخمة أو ثمانية عشر دراخمة ، حسب منزلتهم الاجتماعية . أما الغالبية الكبرى من فقراء الفلاحين المصريين فكانوا يدفعون الضريبة كاملة وهى أربعون دراخمة (٢) .

وقد حرص الرومان منذ البداية على هذا التقسيم الاجتماعى والتفرقة الطبقية (٣) . فظهرت فى مناطق مختلفة جماعات عرفت باسم الهيلينيين وخاصة

---

(١) يتضح هذا التقسيم بين أسكندريين ومصريين أيضا فى P. Columbia, 123 التى نشرت فى Apokrimata, Decisions of Septimius severus on Legal Matters, ed by W. L. Westermann and A. A. Schiller, New-York, (1954).

(٢) Wallace, Taxation, pp.

(٣) خير وثيقة تظهر هذه الحالة هى مذكرة القوانين المالية للابديوس لوجوس B.G.U.V.I وتوجد ترجمة إنجليزية لهذه البردية فى كتاب : Johnaux, Roman Egypt. No. 444

فى الدلتا والفيوم ، وكان أرقى مظهر لهم جماعة مواطنى مدينة أنتينوبوليس التى أنشأها هادريان ، وكانوا يسمون « بالهيلينيين الجدد » [1] . وقد كان هادريان شديد العطف على مدينته الجديدة ومنح مواطنيها كثيرا من الامتيازات ، كما سبق أن ذكرنا فى حديثنا عن هادريان ومن هذه الامتيازات أنه أعفى مواطنى هذه المدينة من القيام بتولى الوظائف خارج مدينتهم [2] ، ومن المحتمل أنهم أعفوا أيضا من ضريبة الرأس ولو أننا لا نملك نصاً صريحاً فى هذا الصدد .

ووجد فى كل نوموس بعد ذلك طبقة ممتازة من أهل عاصمتها المتروبوليس ، وعرفوا باسم المتروبوليين (metropolitai)، وكان الطابع الغالب على هؤلاء هو الطابع الإغريقى سواء فى اللغة أو أسلوب الحياة ، رغم أن كثيرين منهم كانوا مصريين متأغرقين [3] . ويبدو أنه وجدت بين هؤلاء المتروبوليين طبقة ضيقة ممتازة تعرف باسم أبنــاء الجمنازيوم (apo tou gymnasiom) [4] وهم المواطنون الذين تعلموا وتخرجوا فى معهد المدينة . وكان أبناء الجمنازيوم يكونون ما يشبه بطبقة أرستقراطية محلية فى الريف وكان منهم موظفو الحكم المحلى .

أما خارج المتروبوليس وجد ملايين الفلاحين وصغار المزارعين من المصريين المنتشرين فى القرى والكفور . وكانوا أكثر الطبقات فقراً وأكثرها أعباءً ، يدفعون ضريبة الرأس كاملة (أربعين دراخمة) ، ويؤدون جميع الضرائب الأخرى ، كما كانوا يخضعون لأعمال السخرة ، مثل بناء الجسور وترميمها وشق الترع وحفر المصارف ، إلى غير ذلك من أعمال الحراسة والنقل.

---

(١) ورد ذكر الهيلينيين فى الدلتا وطيبة وأنتينوبولس فى O, G .I. S. 709 وفى الفيوم (أرسنوى) P. M. Meyer, Jun. Pap., No. 48; and P. Tebt. II. 566 (131—2 A. D.).

(٢) B. G. U. IV. 1022 (196 A. D) = Wildeem, Cluest. 29.

(٣) أنظر : Bickerman, in Archiv für Papyrusforschuns (1928) p, 356.;

(٤) Ibid. p. 376.

وقد استمر هؤلاء المصريون على أسلوب حياتهم القديمة التي ألفوها منذ آلاف السنين . يتحدثون اللغة المصرية الشعبية ، (التي وصلت إلينا في حروفها الديموطيقية) ويعبدون الآلهة المصرية القديمة ، ويقومون بالواجبات نفسها نحو الأرض ونحو سادة الأرض . ولكن لما اشتدت وطأة الحكم الروماني على البلاد وكثرت أعباء التزامات طبقة الفلاحين وصغار المزارعين مع تأخر الأحوال الاقتصادية ، ضاق أفراد هذه الطبقة بالحال ولجأوا إلى الفرار من أراضيهم ، باحثين عن مخبأ في مستنقعات الدلتا الشمالية وأحراشها ، أو ملجأ في مدينة كبيرة مثل الأسكندرية حيث يمكنهم الاختفاء في زحمة سكانها وربما وجدوا بها عملا يقيمون به أودهم[1] . وليس أدل على خطورة الفرار من الموطن الأصلي على هذا النحو من الثورة المعروفة باسم ثورة الرعاة عام ١٧٢ في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس . وكان السبب الرئيسي للفرار من الأرض هو شدة وطأة الضرائب التي عجز كثير من الزراع عن دفعها ، وخشوا وحشية معاملة جامعي الضرائب فآثروا الفرار دون أن يخبروا أحدا . ولكن جامعي الضرائب كانوا يذيقون أهل المزارعين الفارين أسوأ أنواع العذاب ليعرفوا منهم مكان مخبإهم أو ليأخذوا منهم الضريبة . وقد وصلتنا بردية من القرن الثاني تحتوي على خطاب من صبي علم باعتزام والده الفرار سرا ، فكتب إلى أحد أقاربه يطلب منه أن يحصل له من والده على مبلغ من المال يمكنه هو أيضاً من الفرار إلى الأسكندرية خشية أن يقتص موظفو الإدارة منه بعد اختفاء والده[2] .

---

(١) P. Princ. 1, 9; III, 8, 16 (31 A. D,); and 14, III, 20, V, 21 (23—40 A. D.); P. Graux, nos. 1 (45 A. D.); 2 (55—9 A. D.); and 3 (51 A. D.); P. Uppsala, 7 (163 A. D.)

(٢) P. Philadelphie. No. 33 (2nd cent. A. D.)

وقد عرض المؤلف لهذه البردية في الفصل الذي كتبه عن « الأسكندرية في العصر الروماني » في كتاب « تاريخ الأسكندرية منذ أقدم العصور » الذي قامت بنشره محافظة الأسكندرية (١٩٦٣) ص ٨١ .

ويبدو أن حالات الفرار هذه نت كثيرة ومتكررة بحيث أنها كانت تصيب الحياة فى الريف بضرر شديد لقلة الأيدى العاملة ، بقدر ما كانت تفسد الحياة فى المدن الكبرى حين تكتظ بالمتعطلين . ولهذا وجدنا الولاة يصدرون بيانات خاصة بهذا الشأن ، يطلبون فيه من كل شخص أن يعود إلى موطنه وعمله الأصلى . وقد وصلنا بيانان من العصر الرومانى بهذا الشأن ، الأول أصدره الوالى فيبيوس ماكسيموس عام ١٠٤ ، يعلن فيه أنه بمناسبة الإعداد لإجراء إحصاء عام للسكان يجب على كل من ترك موطنه لأى سبب من الأسباب أن يعود ثانية وأن يستأنف عمله فى زراعة الأرض . ومع ذلك يتضمن البيان إستثناء واحدا بشأن الذين تحتاج مدينة الأسكندرية إلى عملهم ، وهؤلاء كانوا معروفين ومسجلين لدى السلطات الرسمية[(١)] . أما البيان الثانى فهو بيان الإمبراطور كاراكلا الذى أصدره عند زيارته لمصر سنة ٢١٥ ، وصاحبها اضطرابات عنيفة فى الأسكندرية ، أدت إلى قتل الكثيرين من أهلها . وسواء أكان اصدور هذا البيان علاقة باضطرابات الأسكندرية أو أنه محاولة لإقرار الناس على موطنهم الأصلى ولإنعاش الريف ، وخاصة بعد تصميم المواطنة الرومانية وإلغاء التفرقة بين فئات المجتمع المختلفة من الناحية القانونية ، فقد أمر كاراكلا بأن يطرد من الأسكندرية المصريين ، واستثنى من ذلك فئات معينة ، مثل تجار الخنزير ، ورجال القوارب النيلية وجالبو الحطب لوقود الحمامات . ولعل هذه هى الفئات التى استثناها بيان ماكسيموس السابق ، لأن الوقود واللحوم (ومن بينها وأهمها للمدينة لحم الخنزير) كان المواد الأساسية التى كانت تجلب إلى الأسكندرية من داخل البلاد ؛ ورجال القوارب هم الذين يقومون بالمواصلات بشتى صنوفها بين الريف والعاصمة . ويتعلق هذا البيان

(١) لدينا من العصر البطلمى العفو العام الذى أصدره الملك يوارجنيس الثانى .

(٢) P. London, 904 (104 A D.) = Wilcken, Chrest. 202.

بطبيعة الحال بالمصريين الذين لم يكن مقرهم الأصلى الأسكندرية ، أى المصريون الغرباء بها ، الفارين من الريف لسبب أو لآخر . فقد كان من بين سكان الأسكندرية الأصليين كثير من المصريين ، وهؤلاء لا يشملهم قرار الطرد . وينبه إلى ذلك الجزء الأخير من البيان حيث يقول : من اليسير التميز بين عمال النسيج المصريين (من أهل المدينة) وبين الفلاحين المصريين (الفارين من الريف) عن طريق لغتهم ومظهرهم وعاداتهم[1] . وهو يبين ما سبق أن ذكرناه من أن للمصريين وخاصة من أهل الريف ظلوا محافظين على أساليب حياتهم ولغتهم وتقاليدهم ولم يتأثروا كثيراً بالأجانب الذين حكموا مصر فى العصرين البطلمى والرومانى .

* * *

جالية أخيرة يجب أن نتحدث عنها وهى جالية اليهود فى مصر الرومانية . عرفنا فى دراستنا للسكان فى العصر البطلمى أن اليهود كانوا من أقدم الجاليات الأجنبية فى مصر وأكثرها عددا ، ولا شك أنهم استمروا كذلك فى العصر الرومانى . فمن حيث كبر حجم هذه الجالية يذكر فيلون أن عدد اليهود فى مصر فى بداية العصر الرومانى بلغ المليون[2] . ورغم أننا لا نستطيع تحقيق هذا النبأ ، إلا أن ذكر فيلون لمثل هذا الرقم يدل على ضخامة الجالية اليهودية فى مصر فى ذلك العصر ، بل لعل عددهم زاد فى الأسكندرية فأصبحوا يشغلون اثنين أو أكثر من أحياء المدينة الخمس ، بعد أن كانوا يقطنون حياً واحداً وهو المعروف باسم « دلتا »[3] .

---

(١) عثر على بيان كارا كلا هذا فى البردية المشهورة : P. Giss. 40, lines 16 ff. = Wilcken Chrest 22.

(٢) Philo, In Flaccum. 6. 43

(٣) Philo, In Flacc. 55; and Legatio, 20, 132; Joseph. Bell. Jud. II. 487; Apion, No. 33.

وقد وجد الرومان فى اليهود فئة أجنبية عن البلاد يمكن استمالتها واستخدامها لصالحهم ، ولذلك سارع الإمبراطور أغسطس إلى الاعتراف بجميع الامتيازات والنظم التى تمتع بها اليهود فى العصر البطلمى[(١)]. فأقر حريتهم الدينية وسمح لهم بالمحافظة على رابطتهم العنصرية المعروفة باسم بوليتيوما (politeuma) ، بما لها من رئيس (ethnarch) ومجلس شيوخ (gerusia) ، وهو أمر اعتزوا به كل الاعتزاز نظرا لأن أغسطس رفض السماح للأسكندريين بممارسة حياة سياسية عن طريق مجلس تشريعى . وكان وضع اليهود الممتاز وعطف الرومان عليهم ، مصدر إثارة لحقد الأسكندريين عليهم ، مما أدى إلى كثير من حوادث الفتن والاضطراب بين الفريقين فى الأسكندرية فى العصر الرومانى ، كما سبق أن بينا فى الفصل الخاص بالتاريخ السياسى .

ويبدو أن اليهود لم يقنعوا بما نالوه من عطف ورعاية الرومان ، فأخذوا يدعون لأنفسهم مزيداً من الحقوق والامتيازات . فمن ذلك أنهم ادعوا أن يهود الأسكندرية كانوا مواطنين أسكندريين ، متمتعين بمواطنة المدينة كاملة . وقد انقسم العلماء قديما وحديثاً بشأن هذه القضية أشد الانقسام ، وليس هنا مجال العرض التفصيلى لجميع جوانب هذه المشكلة التاريخية ، وإنما سنكتفى بالعرض لها باختصار ، خاصة وأن حدة الخلاف قد هدأت فى الأعوام الأخيرة وأن الرأى السائد الآن هو عدم صحة دعوى اليهود القديمة وأنهم لم يكونوا مواطنين أسكندريين .[(٢)]

---

(١) عن معاملة أغسطس لليهود أنظر : Joseph. Antiq XIV. 7. 2; XIX. 5, 2; P. Lond. 1912, 85 ff. in « Jews and Christians ». by Bell; Strabo, 17.1; Philo, Legatio, 10.

(٢) الدراسات الأساسية لهذا الموضوع هى : Schubart, in Archiv Pap V (1909 — 1913) pp. 118 — 120. Bell, Jews and Christians. pp. 10—21. esp. p. 10 note 1; Corpus Papyrorum Judaiarum, 1, Introduction by Tcherikover, pp. XIII. ff.; Cl. Préaux, Les Etrangers à l'Epoque Hellenistique, Societé Jean Bodin, IX. (1958) pp. 157 ff.

ظهرت هذه المشكلة فى بداية العصر الرومانى ، ولعل السبب فى قيامها هو أن مواطنة الأسكندرية اكتسبت فى ذلك الوقت امتيازين جديدين ، وهما أن مواطنة الأسكندرية أصبحت الطريق المؤدى إلى الحصول على المواطنة الرومانية بالنسبة للمصريين (ويهود مصر كانوا مصريين من وجهة النظر الرسمية)؛ ومن ناحية أخرى تمتع مواطنو الأسكندرية بامتياز هام آخر وهو إعفاؤهم من ضريبة الرأس التى زحفت على المصريين جميعاً . فأراد اليهود أن ينتهزوا فرصة عطف الرومان عليهم واكتساب هذه الامتيازات عن طريق اعتبارهم مواطنين أسكندريين . وراح زعماء اليهود وكتابهم قديماً من أمثال جوزيفوس يثبتون صدق هذه الدعوى ويدللون عليها بشتى الحجج والأساليب ، وأن تمتعهم بهذا الحق قديم قدم المدينة ذاتها .[١] وفى الوقت نفسه انبرى زعماء الأسكندريين يفندون حجج اليهود ويدحضون دعواهم .[٢] وبذلك غاب وجه الحق فى هذه المشكلة ، وانقسم العلماء المحدثون بشأنها انقسام القدماء ، ولم يخل انقسامهم من ميل إلى نزعة عنصرية أو دينية أحيانا . وظل الأمر كذلك حتى مطلع القرن العشرين حين نشرت بردية على جانب كبير من الأهمية .[٣] وبالرغم من أن البردية مهشمة فى بعض أجزائها ، إلا أن ما بقى منها واضح المعنى وله أهمية كبيرة. فالبردية تحتوى على شكوى مقدمة إلى والى مصر من شخص يهودى من مدينة الأسكندرية يسمى هيلينوس ، ويطلب أن يعفى من دفع ضريبة الرأس نظراً لبلوغه سن الستين . وأهمية هذه البردية ترجع إلى الطريقة التى وصف بها هيلينوس وضعه الرسمى فى المجتمع ، فوصف نفسه أولا بأنه مواطن أسكندرى (Alexandreus)؛ ولكن موظفاً رسمياً فيما يبدو أصلح هذا الوصف وجعله

---

(١) Joseph. C. Apion, 1, 189; II, 37; Bel'. Jud. II. 487; Antiq. XIV. 188; XIX, 281; Philo, In Flacc. 8. 53.

(٢) نجد رأى أبيون الأسكندرى فى : Joseph. C. Apron, II. 38.

(٣) B.G.U. IV 1140 (Angustan age); cf Archiv Pap. V. pp. 118—120.

يهودى من الأسكندرية . (١) ثم يذكر هيلينوس بعد ذلك أن والده مواطن أسكندرى Alexandreus . من هذه المعلومات القليلة يمكن استنتاج بعض الحقائق الهامة :

أولا : أن هناك فرقا فنياً بين الصفتين «مواطن أسكندرى» (Alexandreus) و «يهودى من مدينة الأسكندرية » (Joudaios the apo Alexandrias) ، وإلا لما لزم تصحيح التعبير من الواحدة إلى الأخرى ، لأن المواطن مواطن مهما كان عنصره (١) .

ثانياً : أن من الممكن لليهودى أن يصبح مواطناً أسكندريا ، كما يثبت لقب والد هيلينوس الرسمى . ولكن لما لم يكن الابن هيلينوس نفسه مواطنا ، اقترح جوجيه أنه حينما منح اليهودى مواطنة الأسكندرية كانت المنحة شخصيــة إلى درجة أنه لم يستطع توريثها لأبنائه . (٢) ولكن ليس لدينا مايثبت صحة هذا الإقتراح ، لأن مواطنة الأسكندرية كانت وراثية ولعل تفسير اختلاف الصفة الرسمية بين الابن ووالده ، هو أن الابن ولد قبل أن يحصل والده على المواطنة ولهذا اكتسب الوضع الاجتماعى لوالده الذى ولد فيه ، ولما حصــل الوالد على المواطنة فيما بعد لم يكتسبها هيلينوس لهذا السبب .

ثالثا : من أهم مميزات المواطن الأسكندرى أنه كان معفى من ضريبة الرأس ، ومن الواضح من هذه البردية أن يهود الأسكندرية وبالتالى يهود مصر جميعا كانوا يدفعون هذه الضريبة .

من هذا يتضح أن اليهود فى مصر الرومانية استمروا فى الوضع الاجتماعى نفسه الذى كان لهم فى العصر البطلمى ، وأن أغسطس والأباطرة الرومان من

---

(١) أنظر Bell, Jews and Christians. p. 14 ;

(٢) Jouguet, La Vie Municipale , p. 21.

بعده أقروا لهم الامتيازات التى منحها لهم الملوك البطالمة . فكانت لهم حرية العبادة الدينية ورابطة خاصة بهم تسمى پوليتيوما ، ومجلس شيوخ ، ورئيس جالية ، وأن هذا الرئيس ومجلس الشيوخ كانوا يكونون محكمة خاصة باليهود تفصل فى القضايا التى تتعلق بالشئون الدينية ، كما كان لهم مكتب خاص لتسجيل الوثائق المتعلقة بهم . ورغم العطف الذى ناله يهود الأسكندرية على أيدى الرومان إلا أنهم لم يصبحوا جزءاً من جماعة مواطنى الأسكندرية وظلوا من الناحية القانونية فى نظر الإدارة الرومانية بعض « المصريين » يدفعون ضريبة الرأس (١) ، كما كان يدفعها سائر سكان مصر عدا المواطنين الرومان والأسكندريين .

عرضنا فيما سبق للعناصر الأساسية الكبرى التى تكون منها المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ؛ وقد وجدت أيضاً فئات أخرى من الأجانب من بلاد أسيوية مختلفة أو بلاد إفريقية مجاورة أو من الولايات الرومانية المختلفة . منهم من كان يقيم فى مصر أو فى الأسكندرية إقامة مؤقتة من أجل التجارة أو أى سبب آخر، ومنهم من كان يقيم إقامة مستديمة . هذه الأقليات الأجنبية التى استوطنت مصر لم تبق طويلا محتفظة بث خصيتها القومية وسرعان ما تأغرقت واصطبغت بالطابع الإغريقى فى اللغة والمظهر والعادات وأصبحوا ضمن الفئة المصرية اليونانية

---

(١) هناك بردية أخرى تتعلق أيضا بدفع اليهود ضريبة الرأس هى Acta Isidori من أعمال الشهداء الوثنيين (Musurillo, Acta. IV) وفيها إشارة غير واضحة من جانب إزيدوروس إلى أن اليهود كانوا مثل المصريين . ومساوين لدافعى الضريبة . فيرد أجريبا ملك اليهود قائلا « إن الحكام فرضوا الضريبة على المصريين . أما (اليهود) فلم يفرضها عليهم أحد» . وقد نتج عن هذا التعارض الظاهر فى النص انقسام بين العلماء . ولكن يبدو لى أن التفسير الصحيح هو ما يقترحه روبرتز (C. H. Roberts) وهو أن أجريبا يتحدث عن اليهود كأمة خارج مصر وأن ضريبة الرأس لم تفرض عليهم . أما اليهود فى مصر فيدفعونها لأن هذه الضريبة قد فرضت فى مصر (أنظر الاقتراح الذى ورد فى Musurillo' Acta, pp. 139—140)

الذين سكنوا عواصم النومات ، وكانوا يمثلون الطبقة البوجوازية فى الريف المصرى .

وأخيرا يجب أن نعلق هنا على اصطلاح وجد فى وثائق مصر اليونانية الرومانية وكثيرا ما أسىء فهمه ، وهو لقب « فارسى من السلالة » (Perses les epigones) معلوماتنا عن أصل هذا الاصطلاح قليلة جداً ، ولا نكاد نعرف الظروف التى نشأ واستعمل فيها بادىء ذى بدء وأول ما قد يتبادر إلى الذهن أنه لقب لأفراد من سلالة الجالية الفارسية كانت موجودة بمصر فى عصر السيادة الفارسية قبل الفتح المقدونى . وسواء أكان هذا هو المعنى الأول لهذا الاصطلاح أو لم يكن ، فالوثائق البردية التى نشرت حديثاً تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن لقب « فارسى من السلالة » لم يعن منذ نهاية القرن الثانى قبل الميلاد قومية أو جنساً أو طبقة اجتماعية ، كما ظن بعض الدراسين[1] ؛ وأن استخدامه ، اقتصر فى نهاية العصر البطلمى والعصر الرومانى على كونه تعبير قانونى يستخدم اختيارا فى العقود بواسطة الأفراد الذين يقع عليهم الإلزام للادى ، وخاصة فى حالة المدين . ولقد أمكن إثبات هذا التفسير عندما لاحظنا فى عقود الديون أن أفراداً من طبقات وجنسيات مختلفة يستخدمون هذا التعبير عندما يكونون مدينين فقط وأهمية استخدام هذا الاصطلاح فى العقد ، أنه بمثابة ضمان إضافى للدائن ، إذ يصبح له شخصياً حق اعتقال المدين فى الحال أى (agogimos) إذا ما أخل بشروط العقد .

---

(١) أنظر مثلا : R. Taubenschlag, The Law of Greco-Roman Egypt, pp. 7—8; Schubart, in Archiv Pap. V, p. 112 ff.

(٢) صاحب هذا التفسير هو T. G. Tait, in Archiv Pap. VII. p. 180 والمصادر الأساسية هى : P. Reinach, 25 (105 B. C.); P. Ryl. IV. 588 (84 — 78 B. C.) esp. Introduction to it by Turner; P. Hamb 1. 2 (59 A. D.).

(٣) حول دلالة اصطلاح agogimos أنظر : Taubenschlav, Law, p.407,4.

١ — الأسماء والألقاب :

من وسائل التنظيم الاجتماعى فى أى دولة ضبط أسماء المواطنين حتى لا تضطرب الحقوق . وقد كان هذا التنظيم ممارساً فى مصر القديمة ، فكان كل فرد يسجل عند ميلاده ووفاته . وفى العصرين اليونانى والرومانى ازداد الاهتمام بهذه الناحية اهتماماً كبيراً نظراً لوجود جنسيات متباينة تمتعت بعضها بامتيازات خاصة ، كما وجدت المدن اليونانية التى تمتع مواطنوها بقوانين وحقوق خاصة . وفى العصر الرومانى زداد الأمر تعقيدا نظراً لأن حق الانضمام إلى الجيش الرومانى كان قاصرا على مواطنى المدن اليونانية ، كما أن ضريبة الرأس التى فرضت على السكان طبقت بنسب مختلفة للفئات والطبقات المختلفة كما أعفى منها الأسكندريون نهائياً . لذلك كله كان ضبط السلم الاجتماعى والطبقى أمراً بالغ الأهمية من الناحية المالية بالذات بالنسبة للقائمين على الإدارة والحكم . فوضعت قواعد دقيقة جداً لمراعاة كتابة الاسم واللقب والوضع الاجتماعى بطريقة وافية . وأى محاولة للتزوير بتغيير الاسم أو الوصف الاجتماعى كانت تجازى بأشد العقاب(١) .

وفيما يتعلق بأسماء الأفراد ، كان هناك ميل متزايد بين المصريين نحو اتخاذ أسماء إغريقية . فلو تركت هذه الظاهرة دون تنظيم فلابد أنها ستنتهى إلى حالة من الفوضى ؛ لهذا عهد إلى رئيس الإدارة المالية فى العصر الرومانى المعروف باسم « إديوس لوجوس » للإشراف على مسألة تسجيل الأسماء، وكان على كل من يرغب فى تغيير اسمه أن يتقدم إليه بطلبه(٢) ولعل الأسماء المختلطة التى نقابلها فى الوثائق (مصرية ويونانية) تبين أن أصحابها قد اكتسبوا أسماء

---

(١) يتضح من مرسوم ملكى أنه فى العصر البطلمى أن فى بعض حالات التزوير قد تصل العقوبة إلى حكم الإعدام : B G. U. VI. 1250 (II B. C.)

(٢) Wilcken, Chrest. 52 (194 A. D.); of Suetonius, Claudius, 25,

يونانية مؤخراً ، فاستخدموا أسماءهم المصرية القديمة إلى جانب أسمائهم اليونانية الجديدة للدلالة على شخصياتهم . من هذا يتضح مدى اهتمام البطالمة أولا والرومان من بعدهم بضبط الأسماء والألقاب ؛ ولا غرو فالاسم واللقب يعينان الوضع الاجتماعى للفرد فى البناء الطبقى للمجتمع والوضع الاجتماعى يعين مسئولية الفرد والطريقة التى يعامل بها فيما يتعلق ببعض الأعمال والضرائب وخاصة ضريبة الرأس .

فيما يتعلق باختلاط الدم بين عناصر المجتمع المختلفة ، فمما لا شك فيه أن ذلك تم عن طريق الزواج بينهم(١) . فلا بد أن الدم الذى جرى فى عروق فئة المتروبوليين من أهل عواصم النومات كان مختلطا أشد الاختلاط ، من إغريق ومصريين وأسيويين وغيرهم ؛ إذ لم يمنع القانون زواج هذه العناصر بعضها من بعض . وحتى مؤسسة هادريان الهيلينية فى مصر مدينة انتنوبوليس ، منح لمواطنيها « الهيلينيين الجدد » امتياز حق الزواج من المصريات . اما المـــدن اليونانية الأخرى فى مصر فقد حظر على مواطنيها الزواج من المصريات ، ومع ذلك فتنص بعض مواد قانون الإيديوس لوجوس بأنه إذا حدث زواج بين مواطنى الأسكندرية المصريين ، « على جهل منهم بحقيقة الأمر » ، فإن الدولة كانت تعترف بالأمر الواقع وتمنح أبناءها مواطنة الأسكندرية(٢) . أما الزواج بين الرومان والمصريين ، فيبدو أنه منع من حيث المبدأ(٣) .

يتضح من ذلك على أى حال أن العناصر الأجنبية اختلطت بالمصريين ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الاتجـــاه بمرور الزمن هو زيادة تمصير الإغريق وغيرهم بالتدريج ، حتى إذا العصر البيزنطى بعد ذلك غلب الطابع المصرى فى كثير من أوجه النشاط فى الدولة ، وخاصة فى المجال المذهبى الدينى .

---

(١) Wilcken, Grundz., p. 23.

(٢) P. Gnomon, articles, 45—47,

(٣) P. Gnomon, article, 52,

ب - نظم الإدارة

كانت السياسة الرومانية فى مصر محافظة إلى حد بعيد ، ولم تدخل النظام الإدارى المصرى من التعديلات إلا ما كان ضروريا جداً وفى أضيق الحدود فى بادىء الأمر . فيمكن أن يقال إن التعديل الأساسى الذى أدخله أغسطس فى نظام مصر هو إقامة موظفين جدد ليقوموا بمهام منصب الملك البطلمى السابق، أما سائر الموظفين والنظم فقد بقى كما هو، حتى أن الأسماء والاصطلاحات الرسمية بقيت دون تغيير هام فى معظم الأحيان (١) .

فيما يتعلق بمنصب الملك ، فقد أصبح الإمبراطور الرومانى هو الملك الشرعى وفرعون مصر ؛ فمثل على المعابد ، كما كان البطالمة يمثلون من قبل ، فى زى الفراعين المصريين . وفوق رأسه التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى ، وأمامه اسمه محفوراً داخل « خرطوشة » بالحروف الهيروغليفية . ولكن كان ذلك كله ضرورة من ضرورات الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية المصرية ، التى لا تستقيم إلا بوجود فرعون على رأسها ، ولو كان مجرد رمز بعيد ، كما كان الإمبراطور الرومانى .

أما من الناحية العملية فقد أقام أغسطس موظفا جديداً ليمارس جميع سلطات الملك السابقة وسمى Praefectus أو والى. وكان اسمه الرسمى والى مصر

---

(١) قام عدد من العلماء بدراسة النظام الإدارى لمصر الرومانية مثل :
Jouguet, La Vie Municipale; Oertel. Die Liturgie; U. Chapot, L'Egypte Romains, pp. 271 ff.; Milune. Egypt Under The Romans Rule, pp. 120 ff; A. H. M. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces, pp.311 ff.

(Praefectus Aegypti) وأحيـــــانا سمى والى الأسكندرية ومصر (Praefectus Alexandreae et Aegypti)[1]. وكما سبق أن ذكرنا، كان والى مصر يختار عادة من طبقة الفرسان الرومان، ولكنه منح سلطانا برو قنصليا[2] — بصفة استثنائية — ليتولى قيادة الجيش الرومانى فى مصر. فقد كان هذا الوالى هو الحاكم الفعلى للبلاد، هو الرئيس الإدارى، وقائد الحامية الرومانية، والقاضى الأعلى لجميع أنواع القضايا. وهو يستمد هذا السلطان من الإمبراطور شخصياً الذى يعينه، وبذلك يصبح الوالى ممثل الإمبراطور فى الولاية. وعدا كبار الموظفين الذين كانوا يعينون بواسطة الإمبراطور، كان الوالى يعين سائر الموظفين فى جميع المستويات الإدارية. ويبدو أنه كان له حق تعيين حكام المدن اليونانية فى مصر بعد أن يتم ترشيحهم واختيارهم بواسطة المواطنين. ومن حيث سلطته القضائية، فقد كان من حق الأفراد والجماعات أن يرفعوا شكاياتهم وقضاياهم إلى الوالى، سواء فى الأسكندرية، أو فى أثناء الدورة القضائية التى كان يقوم بها مع هيئة محكمة فى مراكز الولاية الرئيسية (الأسكندرية فى منتصف الصيف، يناير فى الفرما، وأول الربيع فى ممفيس). عدا هذه المسئوليات الإدارية والقضائية والعسكرية، كان من أهم واجباته الإشراف على الناحية المالية للولاية، وخاصة جمع الضرائب وإرسالها إلى روما، سواء من القمح أو نقداً بالعملة[3] ولا يخفى أن الوالى كان فى حاجة إلى معاونة مجموعة من كبار الموظفين تساعده على إنجاز مسئولياته المتعددة. ويأتى على رأس هذه الجماعة من المساعدين الرئيس القضائى

---

(١) كما فى نقش جالوس أول والى رومانى فى مصر O. G. I. S. 654 = د. عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية، ص ٥٩ (مع ترجمة عربية).

(٢) Ulpianus in Digest, I. 17. 1

(٣) أهم دراستين عن الوالى الرومانى فى مصر هما: O.W. Reinmuth. The Prefect of Egypt from Augustus to Diocletian (1935); and Stein, Die Praefekten Von Aegypten in der römischen Kaiserzeit (1950).

أو وزير العدل (juridicus أو dicaiodites) الذى يعتبر مع الوالى أهم تجديد أدخله الرومان على نظام الموظفين فى مصر . ورغم قلة مالدينا من المعلومات عن منصب الرئيس القضائى (juridicus) واختصاصاته ، إلا أن الهدف الأساسى من إنشاء هذه الوظيفة الجديدة هو تزويد الإدارة الرومانية فى مصر « بخبير قانونى » ، نظراً لأن الوالى من طبقة الفرسان التى يشتغل أفرادها عادة بالقضاء والقانون فى روما، وإنما كان معظمهم من رجال الجيش أو السلك الإدارى أو الأعمال التجارية والمالية ، ممن لم تكن لديهم خبرة خاصة بالقانون الرومانى . ولهذا أنشأ أغسطس وظيفة الرئيس القضائى ليكون بمثابة مستشار قانونى ورقيب فى نفس الوقت على تصرفات الوالى حتى لا تتعارض أحكامه وإجراءاته مع مبادىء القانون العام فى روما . وفى كثير من الأحيان كان الوالى يستشيره فى الأحكام قبل إصدارها أو أن ينيبه عن نفسه فى النظر فى القضايا الكثيرة التى كانت ترفع إليه. الرئيس القضائى (juridicus) على هذا النحو قام فى بعض اختصاصاته بمهام قاضى القضاة (archidicastes) فى العصر البطلمى .

عدا هذين المنصبين الجديدين بقى النظام الإدارى لمصر فى أساسه دون تغيير هام ، ولو أن اختصاصات بعض الموظفين أصابها شىء من الزيادة أو النقصان حسب اتجاهات الحكام الجدد . ففيما يتعلق بالإدارة المالية للبلاد استمر يشرف عليها المشرف المالى (Dioicetes) ورئيس الحساب الخاص أو الإديوس لوجوس (idios logos) ولكن الأول (dioicetes) فقد كثيراً من أهميته السابقة فى العصر البطلمى ، وأصبح الآن مجرد موظف إدارى يساعد الوالى فى الجانب الاعتيادى من المالية ، وهو تقدير الضرائب سنوياً وجمعها . وذلك لأن الوالى أصبح المسئول الأول عن مالية البلاد . أما الإديوس لوجوس فقد زادت أهميته كثيرا ، وأصبح هو المشرف على الجانب غير الاعتيادى من المالية. ونظرا لاضطراب الحياة الاقتصادية للبلاد فى نهاية العصر البطلمى ومحاولة الرومان

إصلاحها على أسس جديدة فقدعهد إلى الإديوس لوجوس بمهمة تنفيذ القوانين الجديدة . ومن أهم واجباته الإشراف على إدارة الأراضى والممتلكات التى قرر القانون مصادرتها باسم الدولة سواء لأن أصحابها قد هجروها أو تأخروا فى دفع الضرائب المستحقة عليها أو لأنهم ارتكبوا مخالفة قانونية جزاؤها استيلاء الدولة على أملاكهم أو جزء منها (١) . ثم زيد فى مهام هذا الموظف مرة أخرى حين استولت الدولة على ممتلكات المعابد وجعلت الإديوس لوجوس الكاهن الأكبر للمعابد والمشرف المالى على ماليتها وممتلكاتها (٢) .

وفيما يتعلق بالإدارة المالية للبلاد عين عدد من الموظفين يحملون لقب procurator أو epitiopos للإشراف على إدارات فرعية معينة . ومن أهم هؤلاء الموظفين بروكوراتوس مخازن الغلال فى الأسكندرية(وعرف الحى الذى وجدت فيه هذه المخازن باسم نيابوليس Neapol is ومن اختصاصاته الإشراف على جمع الغلال ونقلها إلى الأسكندرية حيث كانت تخزن استعدادا لشحنها إلى روما . وهناك موظف آخر من هذه الطبقة وهو المشرف على أملاك الإمبراطور الخاصة (Procurator usiacus) وكانت هذه الأملاك تشتمل على مساحات كبيرة من الأرض الزراعية ، وكان للإشراف عليها أهمية خاصة للإمبراطور شخصياً (٣) . وكان هذان الموظفان يعينان عادة من بين عبيد الإمبراطور المحررين ، وهى فئة استخدمها أغسطس وخلفاؤه فى كثير من مرافق الإدارة فى شتى أنحاء الإمبرطورية ؟ وذلك نظرا للولاء الذى يربط عبد الإمبراطور المحرر بشخص الإمبراطور .

(١) اختصاصات الإديوس لوجوس المالية محددة فى مصدرين رئيسين : Strabo, 17. 1. 12 (c. 797); P. Gnomom, in B G.U. Vol. V.

(٢) P. Tebt. II 302 (71—2 A. D.) = Wilcken, Chrest. 368, of. Wilcken, Grundz. pp: 158—9, 300 ff; and Jones. Cities, p. 316.

(٣) ef. Milne, Egypt, p. 125.

عدا هؤلاء الموظفين الكبار فى الإدارة المركزية فى الأسكندرية والذين كانوا يختارون بواسطة الإمبراطور شخصيا من المواطنين الرومان من طبقة الفرسان عادة ، وجد موظفان نعرفهما من العصر البطلمى أيضا وهما قاضى القضاة (archidicastes)والسكرتير العام(hypomnematographos)يبدوأن هذين الموظفين كانا يعملان كمساعدين للوالى ، يستشيرهما فى الشئون القانونية والإدارية المصرية المحلية ، ويمكن أن ينيبهما فى تقرير بعض الأمور . ولكن يبدو أن وظيفة قاضى القضاة (archidicastes) قد طرأ على طبيعتها بعض التغيير ، إذ استولى الرئيس القضائى الرومانى الجديد (juridicus) على اختصاصاته القضائية ، وأصبحت وظيفة قاضى القضاة إدارية قبل كل شىء ، وهى رئاسة دار المحفوظات الرسمية التى تحفظ بها نسخ من جميع الوثائق والعقود التى تعقد فى أنحاء مصر جميعا ، وكان مقر عمله هو الأسكندرية ، وترفع إليه الوثائق من جميع الأهالى فى النومات المختلفة وكانت وظيفتا قاضى القضاة (archidciastes) والسكرتير العام (hppomnematographos) يمثلان أرقى منصب يستطيع أن يشغله مواطن فى مصر ، ويبدو أنه كان يعين فيهما عادة مواطنون من مدينة الأسكندرية [1] .

وظيفة أخيرة أصبح يتولاها مواطنون رومانيون من طبقة الفرسان هى وظيفة الإبيستراتيجوس (epistrategos) ، وهى تعتبر حلقة الوصل بين الإدارة المركزية فى الأسكندرية والإدارة المحلية فى سائر البلاد. ذلك أن مصر كانت مقسمة إلى ثلاث أجزاء إدارية كبرى هى الدلتا ومصر الوسطى(Heptakomia) ومنطقة طيبية فى

---

(١) كما اقترح تيرنر Turner فى تعليقه على P. Ox. XXII. 2349 فيما يتعلق بوظيفة archidicastes . أنظر قائمة بأسماء من شغلوا هذه الوظيفة فى A. Calaki Aegyptus, 32, (1952). pp. 408 ff.

الجنوب (Thebaid) ، ويشرف على إدارة كل إقليم موظف كبير هو الإيبستراتيجوس . ومن الثابت أن هذا التقسيم وهذه الوظيفة ترجع الى العصر البطلمى[١]، وأن الجديدفى نظامها الرومانىهو أن من تولوها كانوا من المواطنين الرومانيين ؛ وفى حين أن إيبستراتيجوس طيبة فى العصر البطلمى كانت له سلطة عسكرية وإدارية فإن هذا الموظف فى العصر الرومانى أصبح موظفاً إدارياً فقط . فالإيبستراتيجوس كان الرئيس الإدارى لعدد من النومات تنقسم إليها منطقته ، وكان مرؤوسه المباشر هو لإستراتيجوس ، رئيس النوموس، ولكن يبدو أن الإيبستراتيجوس لم يكن يقيم فى منطقـــة إدارته ، بل فى العاصمة بالأسكندرية ، وكان يكتفى بالقيام بجولات إدارية وتفتيشية فى النومات التى تتبع إدارته ؛ كما كانت ترفع له التقارير أو المظالم فى مقره بالعاصمة بانتظام ، أما عن طبيعة وظيفته فهى الإشراف على حسن سير العمل فى منطقة اختصاصه من الناحية الإدارية ، والقيام بأى تحقيقات إدارية ، إلى جانب رفع ترشيحات الموظفين فى الإدارة المحلية ليتم تعيينهم بواسطة الوالى . وقد بقيت هذه الوظيفة حتى نهاية القرن الثالث حين ألغاها الإمبراطور دقلديانوس[٢] .

هذا من حيث الوظائف الرئيسية فى الإدارة المركزية فى العاصمـــة والتى تولاها عادة مواطنون رومانيون أو مواطنون أسكندريون فى الوظائف الأقل أهمية ؛ أما عن الإدارة المحلية بدرجاتها المختلفة فى الريف فيمكن تقسيمها إلى طبقات ثلاث . الأولى هى إدارة المدن اليونانية والتى بقيت متمتعة بنوع من

---

(١) كان هناك خلاف حول نشأة هذه الوظيفة وتاريخها ولكن P. Tebtunis. No. 778 (1788. c.) قد أثبتت أنها ترجع على الأقل الى بداية القرن الثانى ق . م . فى مصر الو طى أيضاً .

(٢) حول هذه الوظيفة أنظر: V. Martin, Les Epistrateges, Geneva (1911).

الحكم المحلى المستقل كما كانت فى العصر البطلمى . والثانية هى إدارة النومات التى كانت تنقسم إليها البلاد إداريا ؛ والثالثة هى إدارة القرى التى كانت تنقسم إليها كل نوموس بدورها .

ولنتناول أولا إدارة النوموس التى كانت أساساً جزءاً من الإدارة المركزية العامة . ويمكن تقسيم إدارة النوموس إلى نوعين من الوظائف ، النوع الأول يشمل وظائف تمثل الإدارة المركزية العامة فى البلاد ، وأهمها وظيفتا الإستراتيجوس (strategos) والكاتب الملكى (Basilico—grammateus). والإستراتيجوس هو الرئيس الفعلى لإدارة النوموس وممثل الوالى فيه ، ويشمل إشرافه جميع النواحى الإدارية والمالية . فهو الذى يصدر تقديرات الضرائب السنوية على الأراضى والأفراد حسب الإحصاءات التى يجمعها بمعاونة مرؤوسيه من الموظفين المختلفين. كما كان مسئولا عن نظام الشرطة فى النوموس ، ولكن لم تكن له سلطة النظر فى القضايا وإصدار الأحكام إلا بناء عن تفويض رسمى من الوالى أو أحد كبار الموظفين القانونيين فى الإدارة المركزية فى العاصمة . ولكن كان يجوز له أن يقوم بتحقيق أولى فيما يرفع له من مظالم أو يقع من خلاف فى منطقة اختصاصه ثم يرفع الأمر إلى الوالى ليفصل فيه فى الأسكندرية أو أثناء القيام بجولته القضائية فى الأقاليم . وكان لكل نوموس إستراتيجوس واحد ، باستثناء الفيوم فوجد بها اثنان ، وذلك أنها قسمت إلى ثلاث مناطق ، فتولى إدارة منطقتين منهـــا إستراتيجوس ، وآخر للمنطقة الثالثة . وكان الإستراتيجوس تختار من بين أفراد الطبقة الإغريقية المصرية من أهل عاصمة النوموس (متروبوليس Metropolis) ، وكان يراعى ألا يعين الإستراتيجوس فى النوموس التى ينتمى إليها .

وكان التعيين لهذه الوظيفة يصدر من الوالى بناء على ترشيح الإستراتيجوس، ويستمر لمدة ثلاث سنوات عادة ، كما كان شاغلها يتقاضى راتبا سنويا ، ولو أننا

لا نعرف مقدار هذا الراتب [١] .

أما عن الكاتب الملكي (basilicogrammateus) فهو الساعد الأيمن للإستراتيجوس ، وقد احتفظت وظيفته بالاسم البطلمي رغم زوال الملكية . ويعتبر الكاتب الملكي من أهم من يمثل البيروقراطية المصرية في ذلك العصر ، فجميع الإحصاءات والتقديرات والتقارير التي كانت تكتب عن النوموس وترفع إلى الإستراتيجوس كانت تخرج من مكتب هذا الموظف . ومن ثم تظهر أهميته الإدارية وخاصة في مسألة الضرائب وتقديرها ، ومسألة الترشيح للوظائف الأخرى والأعمال الإجبارية ، لأن الكاتب الملكي كان الموظف المختص بعمل قوائم المرشحين المناسبين للأعمال المختلفة ، كل حسب ما يمتلك من عقار . ونظرا لأهمية هذا الموظف فقد كان له راتب سنوي ، وكان يختار مثل الإستراتيجوس من بين أفراد الطبقة الإغريقية المصرية في المتروبوليس . وكان يوجد في كل متروبوليس دار لحفظ الوثائق والأوراق الرسمية يشرف عليها موظف أرشيف كما نقول الآن ، ولقبه الرسمي bibiophylakes ويعتبر المساعد المباشر للكاتب الملكي [٢] .

إلى جانب هذه الوظائف التي تمثل السلطة المركزية في النوموس وجدت منذ بداية العصر الروماني وظائف أخرى ذات صبغة محلية في عاصمة النوموس (المتروبوليس metropolis) [٣] .

الغرض الأساسي من وجود هذه الوظائف هو أن يهتم مواطنو كل

---

(١) أنظر : V. Martin, Strateges et Basilicogrammates du nome Arsinoites à l'epoque romaine, Archiv Pap, VI, (1920) pp. 137 ff.; of. Milne, Egypt Under Roman Rule, pp. 126 ff.

(٢) أنظر المرجع السابق .

(٣) أنظر Jones. Cities of the Eastern Roman Provinces, p.319

متروبوليس بشئون مدينتهم الخاصة ، مثل الإشراف على الجنازيوم أو تموين المدينة بمواد الغذاء الأسياسية من القمح والزيت مثلا ، أو الإشراف على سوق المدينة ومراقبة عمليات البيع والشراء حتى لايحدث تلاعب . هذه الوظـائف لم تـكن مأجورة وإنما اعتبرت تشريفاً لمن يتولاها ، ومن هنا سمى أصحابهـا «حكاما» (archontes) واشتملت على رئيس الجمنازيوم أو جمنازيارخس ورئيس هيئة الموظفين أو exegetes ، ومسجل الجمنـازيوم أو كوزميتيس ، والموثق أو المشرف على السوق (agoranomos) والمشرف على التموين (euthenarches) وأخيرا رئيس الـكهنة الرسمى للمدينة (archiereus) . وكما يتضح من ألقاب هؤلاء الحـكام هى نفس الوظائف التى عرفتها المدن اليونانية من قبل فى نظام حكمها المحلى ، ولعلها اقتبست من مدينة الأسكندرية ، التى كانت المثل الأعلى للمدن فى مصر . ولـكن يجب أن نذكر أن المتروبوليس فى مصر لم تعرف هذه الوظائف جميعا دفعة واحدة ، لأن الغرض الأول من نشر نظام هذه الوظائف المحلية فى عواصم الريف كان للتخفيف عن الإدارة المركزية ولم يسعيا وراء تطبيق نظام الحـكم المحلى فيها . ويمكن أن يقال إن الإدارة الرومانية لم تشرع فى تطبيق نظام الحـكم المحلى فى المتربولات إلا تحت ضغط الظروف الاقتصـــادية والإدارية السيئة فى الولاية كما سنبين عند الـكلام عن إصلاحات الإمبراطور سيفيروس والقرن الثالث .

المرحلة الأخيرة فى نظام الإدارة الرومانية فى مصر هى إدارة القرية ، إذ كانت كل نوموس تنقسم إدارياً إلى قرى . وهنا أيضاً نجـد النظام الإدارى المزدوج ممثلا أيضاً ، فالإدارة المركزية ممثــــلة فى شخص كاتب القرية Komogrammateu) ، وهو الموظف المسئول عن إمداد الإدارة المركزية بالمعلومات الضرورية عن القرية فيما يتعلق بالضرائب أو الخدمة الإجبارية . فهو

المسئول عن عمل قوائم بأهل القرية وعدد الرجال البالغين بها ، ومقدار ملكية كل شخص وما يقع عليه من ضرائب أو القيام بالخدمات الإجبارية مثل بناء الجسور وحفر الترع وتنظيف القنوات وغير ذلك . وهو الذى يرفع التقارير السنوية عن حالة الأرض فى القرية وهل روتها مياه الفيضان أو لم تروها ونوع المحصول الذى تنتجه كل أرض وهكذا ، حتى يمكن تقدير الضرائب السنوية تقديراً صحيحاً . أما عن مسئولية الأهالى فى الإشراف على شئون قريتهم فكانت ممثلة فى لجنة من «شيوخ القرية» ، اختلف عددهم حسب ظروف كل قرية . ومهمتهم الرئيسية هى قيامهم بدور الوسطاء بين الدولة والأهالى فى مسألة جمع الضرائب وإمداد الدولة بالعمال للأغراض المختلفة عند الضرورة ويبدو أن العضوية فى لجنة شيوخ القرية كانت من ضمن الأعمال الإجبارية (leiturgia) التى كانت تقع على طبقة ملاك الأراضى من الأهالى ، وتستمر العضوية لمدة سنة واحدة على الأرجح[١] .

المدن الإغريقية :

لم تكن الإدارة الرومانية أكثر حرصاً من الحكومة البطلمية على نحو نظام المدن اليونانية فى مصر ، ولهذا اكتفت بأن تركت المدن الأربع التى كانت موجودة زمن البطالمة ، ولم تقدم على زيادة عددها إلا بعد مضى ما يزيد على مائة وخمسين عاماً على حكمهم ، أى فى سنة ١٢٠ حين أنشأ هادريان مدينة أنتينوبوليس فى الصعيد . ورغم ندرة معلوماتنا عن ثلاثة من المدن الأربع القديمة وهى نوقراطيس وبطلميسة وبريتونيوم ، إلا أن مالدينا من دليل يكفى لإثبات أنها جميعاً احتفظت بنظام المدينة اليونانية ؛ فكان لها حكام منتخبون

---

(١) Wilcken, Chrest. No. 272 (136 A.D.); and id. Grundz pp. 43 and 217. Also of. Milne, Egypt, 129 f.

(archontes)ومجلس تشريعى (boulé) ولكل مدينة مواطنيها (politeia) الخاصة بمواطنيها[1].

أما عن مدينة الأسكندرية فقد أصاب نظامها ووضعها بعض التغيير. لقد سبق أن أوضحنا فى العصر البطلمى أن الأسكندرية تمتعت منذ البداية بنظام المدينة اليونانية كاملا، بما فى ذلك المجلس التشريعى (boulé)، أهم أركان ذلك النظام. ومن سوء الحظ أن معلوماتنا عن تاريخ هذا المجلس قليلة جداً فى العصر البطلمى إجمالا، ومنعدمة فى الجزء الأخير منه، مما دعى بعض العلماء إلى إنكار وجود مجلس تشريعى فى الأسكندرية وخاصة فى الجزء الأخير من العصر البطلمى[2]. ولكن كل من عانى دراسة التاريخ يعلم خطورة استنتاج حقائق التاريخ بطريق الاستدلال من صمت المصادر؛ فلا بد من وجود دليل قاطع للاطمئنان إلى صحة الاستنتاج التاريخى. ولهذا فنحن أميل إلى الاعتقاد بأن المجلس التشريعى استمر فى الأسكندرية طوال العصر البطلمى، وأنه ألغى فى بداية العصر الرومانى[3]. فالمصادر الأدبية والوثائق البردية المعاصرة تذكر فى غير مواربة أن الإمبراطور أغسطس أمر الأسكندريين بتدبير الحياة العامة فى المدينة دون مجلس تشريعى، وأن الأباطرة من رفضوا إجابة مطلب الأسكندريين بإقامة المجلس

---

(١) خير مرجعين عن المدن اليونانية فى هذا العصر هما : Jouguet. La Vie Municipale, pp. 115 ff.; and Jones, Cities, pp. 311 f.

(٢) Bell. The Problem of tne Alexandrian Senate, Aegyptus, 12, (1932) 172 ff.; Norsa and Vitelli, in Bulletin dela Sociètè d'Archeolog ie d'Alexandrie, Supp. Fase,, 25 (1930) pp. 9 ff.; and Ibid 27 (1932) pp. 1—17; Mommsen, Roman Hist., Provinces, Transl. W. P. Dickson, II, p. 236 ff, and Tarn, Hellenistic Civilization (1950) p. 161,

(٣) من هذا الرأى أيضاً : Milne, Egypt, pp. 282 ff.

لأن أغسطس أقر نظام المدينة بدون مجلس تشريعى (boulé)(١) . هذا الإجراء من جانب أغسطس يعتبر طعنة لكبرياء الأسكندرية ، ولعل الغرض الحقيقى منها هو إشعار مواطنيها بتبعيتهم الجديدة لروما . ومع ذلك فقد بقيت الأسكندرية المدينة الأولى فى مصر والمثال الذى تقاس به وتحتذيه سائر المدن . فمن ناحية أخرى اكتسبت مواطنة الأسكندرية أهمية خاصة فى العصر الرومانى — كما سبق أن ذكرنا — لأن مواطنى الأسكندرية أعفوا من ضريبة الرأس ، كما أصبح لزاما على كل مصرى أن يحصل على مواطنة الأسكندرية قبل أن يجوز له أن يحصل على المواطنة الرومانية . هذان الامتيازان جعلا مواطنى الأسكندرية يكونون رسمياً طبقة أرستقراطية بين سكان مصر جميعاً .

أما عن نظام حكم مدينة الأسكندرية وإدارتها ، فقد كان مبدأ الازدواج الإدارى ممثلا فيها أيضاً : موظفون مدنيون يمثلون المواطنين، وموظفون معينون يمثلون السلطة المركزية . ولعل الأسكندرية فى ذلك كانت المثال الذى احتذى فى نظام المتربوليس (٢) . فقد وجدت فى الأسكندرية جميع الوظائف المدنية التى وجدت فى المتروبولات وهى : الاكسيجيتيس (exegetes) وجمنازيارخس (gymnasiarchos)وكوسميتيس(cosmetes)وأجورانوموس(agoranomos) والكاهن (neocoros) . وكانوا فى مجموعهم يكونون لجنة تسمى (prytan is) تحت رياسة الاكسيجيتيس ؛ وكان يضاف إليهم أعضاء آخرون معينون من قبل الإمبراطور شخصياً ، وكانوا عادة من عبيده المحررين (Kaisarioi) .

أما عن طريقة تولى هذه المناصب ، فنعلم من خطاب الإمبراطور كلوديوس المشهور أنه قد وافق على جعل وظيفة الكاهن فقط بالاقتراع بين المتقدمين ، مما يدل على أن سائر المناصب تتم بطريقة أخرى وهى الانتخاب بواسطة المواطنين.

---

(١) Dio cassius, 51, 17; P.S.I. 1160; P. Lond. No. 1912 in Bell, Jews and Christians.

(٢) نظر : Jouguet, loc. cit; and Jones, loc. cit.

ومما يؤيد هذا الاعتقاد أن رئيس الجمنازيوم أو الجمناريارخس كان يقوم دائما في العصر الروماني بدور الزعيم الشعبي ضد الحكم الروماني ، كما يتضح من مجموعة أعمال الشهداء الوثنيين . وفيما يتعلق بمدة تولي المناصب فإن كلوديوس في الخطاب ذاته يقر جعلها مدة ثلاث سنوات فقط .

ورغم وجود هذه الوظائف الدينية فيجب ألا نظن أن الرومان كانوا أرحب صدراً فيما يتعلق بحرية المدن واستقلالها ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان للسلطة المركزية موظفين في المدينة يشرفون ويتدخلون في كثير من شئونها. وقد رأينا رجال الإمبراطور معينين في لجنة حكام المدينة ؛ وفوق ذلك وجد أيضاً حاكم للمدينة (shatezos) وقائد للبوليس . ويبدو أخيراً أن النظام القضائي قد تعرض لتغير جذري ، فلم نعد نسمع عن محاكم المدينة ، وجميع القضاة أصبح الآن بيد السلطة المركزية أو من يمثلها فقط [1] . وحتى منح مواطنة المدينة لغير أبناء الأسكندريين كانت في يد الإمبراطور [2] . ومحاكمة من أقحموا أنفسهم في سجل المدينة بغير وجه حق من سلطة الوالي [3] .

أما عن المدينة الإغريقية الجديدة التي أنشأها الرومان في مصر وهي أنتينوبوليس ، فقد أسسها هادريان في عام ١٣٠ على موقع مدينة مصرية قديماً، تخليداً لأحد أصفيائه الذي غرق في مياه النيل . ويعتبر تأسيس هذه المدينة من دلائل اهتمام هادريان بالحضارة الإغريقية ، فقد منحها نظام المدن اليونانية المستقلة، وأنها نظمت على مثال أقدم مدينة يونانية في مصر وهي نوقراطس ، فكان

---

(١) أهم مصدرين هما : P. Lond. 1912, in Bell.,
(ولكن أنظر قد نص استرابون في كتاب (Jeuguet, op. cit. pp. 167 ff
Strabo. 17. 1. 12 Jews and Christians.

(٢) Pliny; Epist. X. 7.

(٣) P. Gnomon. 40.

لما نظام الحكم المحلى عن طريق الموظفين المدنيين المنتخبين ومجلس تشريعى (boulé) وهو ما قد حرمت منه الأسكندرية ذاتها فضلا عن سائر المتروبولات أما مواطنو هذه المدينة الجديدة فقدجلب بهم من إغريق مدينة بطلميسة فى منطقة طيبة ومن إغريق منطقة الفيوم الذين عرفوا باسم « الـ ٦٤٧٥ إغريقيا فى نوموس أرسنوى » ؛ وكذلك من الجنود المسرحين من الجيش الرومانى . وقد منح مواطنو أنتينوبوليس امتيازاً خاصاً لم يمنح للمدن اليونانية الأخرى وهو حق الزواج من المصريين . وقد قسم المواطنون إلى قبائل وأحياء (phylai ، demoi) ، كما كان الأمر فى الأسكندرية وأثينا أيضا . هذه هى أهم معالم المدينة الجديدة ومنها يتضح أنها قد ولدت من حيث النظام مدينة يونانية كاملة ، وقد ساعد على ازدهارها المادى أول الأمر ، ذلك الطريق التجارى الذى بناه هادريان ليصل مدينته الجديدة بالبحر الأحمر ، فى فترة بلغت فيها تجارة مصر الشرقية مرحلة من أزهى مراحل نشاطها[1] .

إصلاحات القرن الثالث :

هذه هى المعالم الرئيسية لنظام الحكم فى مصر فى خلال القرنين الأولين من الحكم الرومانى . وقد أمكن العمل بهذا النظام بنجاح خلال القرن الأول وأكثر من نصف القرن الثانى ، ولكن فى النصف الثانى من القرن أخذ يتكشف عن قصور وعيوب مختلفة أنذرت فى نهاية القرن بفشله وسقوطه . وكان من الطبيعى أن يتعرض مثل هذا النظام للفشل بعد مضى بعض الوقت ، لأن كل نظام إدارى أو سياسى مرتبط ضرورة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد . ولتوضيح ذلك نقول أن سكان

---

(١) خير مرجعين عن مدينة أنتنيبوليس هما : E. Kuhn, Antinoopolis (1913). Bell, Antinooponis. A. Hadrianic Foundatino in Egypt, J. R. S., 30 (1940), 133—147.

كل نوموس فى الريف المصرى كانوا فى القرنين الأولين ينقسمون أساساً إلى فئات أو طبقات ثلاث :

أولا : أقليات من الرومان والأسكندريين تتمتع بامتيازات مختلفة .

ثانياً : أهل عواصم النومات الأصليون (متربوليون) وهم من أصل إغريقى أو مصريون متأغرقون . ويمثلون الطبقة الوسطى فى المجتمع المصرى .

ثالثاً : أهل القرى والريف من صغار المزارعين والفلاحين . ويمثلون الطبقة الدنيا فى المجتمع المصرى .

وقد رأينا عند وصف النظام الإدارى فى مصر الرومانية أنه كان ينقسم إلى قسمين أساسيين : الأول مأجور أى يتقاضى الموظف فيه راتباً سنوياً ، وهذا القسم يشمل المناصب الكبرى فى سلك الإدارة المركزية مثل وظائف الإستراتيجوس والكاتب الملكى . والقسم الآخر غير مأجور ويشمل فى درجاته العليا مناصب الحكم المحلى فى المتروبولات التى كانت تعتبر تشريفاً لمن يتولاها ، وفى درجاته السفلى وظائف الأعمال والخدمات الإجبارية (leiturgia) بما فيها كاتب القرية أو العضوية فى لجنة شيوخ القرية وما دون ذلك من أعمال الحراسة والنقل والحفر ، مما كانت الدولة تفرضه فرضاً على الأهالى حسب قدراتهم المادية .

فإذا ما بحثنا عن نصيب كل طبقة من الطبقات الثلاث من هذه المسئوليات الإدارية بأنواعها المختلفة ، سهل علينا تبيان وجه الخلل فى النظام بأسره خلال القرنين الأولين كثيراً ما تولى الرومان والأسكندريون المقيمون فى الريف المناصب الهامة فى الإدارة المركزية فى النومات مثل مناصب الإستراتيجوس والكاتب الملكى ؛ ولكنهم قلما تولوا الوظائف الدنية الأخرى غير المأجورة أو وظائف الخدمة الإجبارية ، مع استثناء القيام بعملية جمع الضرائب بطريق

الالتزام ، التى كثيراً ما كانت تدر عليهم الربح الوفير . فيبدو أن المواطنين الرومانيين والأسكندريين لجأوا إلى كل وسيلة ممكنة للتهرب من تحمل أى أعباء إدارية فى الريف[1] ؛ ولا شك أن مواطنتهم ساعدتهم على إثبات أنهم لا يمتون إلى المتربولات ، ولهذا لا يجوز أن يتحملوا تبعات وظائفها — لأن المبدأ الأساسى فى تولى الوظائف المدنية هو الوطن (origo)[2] ، أى أن كل شخص فى موطنه . لهذا السبب وقع عبء الإدارة فى الريف على كاهل الفئتين الثانية والثالثة فكانت : وظائف الحكم المحلى فى المتروبولات تقع على المتروبوليين ؛ بينما تحمل القرويون الأعمال اليدوية والوظائف القروية من الخدمات الإجبارية العامة . ومن تتبع الحياة العامة فى الريف المصرى فى القرن الثانى يتبين أن الأعباء التى ألقيت على كاهل هاتين الطبقتين الأخيرتين كانت أكثر من أن تتحملها طاقتهم المادية . فكثير من أهل القرى فروا من قراهم إلى المدن الكبيرة أو إلى مجاهل شمال الدلتا ، هرباً من الضرائب والخدمات الإجبارية ؛ بينما تحولت الوظائف الإدارية المختلفة فى المتروبولات إلى خدمات إجبارية تفرض على القادرين من الأهالى فرضاً دون اعتراف بأى نظام من نظم الاختيار الشخصى . ونظرا لكثرة تكاليف هذه المناصب ، فقد عانى المتروبوليون كثيرا من جرائها ، حتى أصبح من المتعذر فى نهاية القرن الثانى العثور على عدد كاف من الأفراد ممن تتوفر فيهم الشروط اللازمة لشغل جميع الوظائف حتى أوشك النظام الإدارى بأسره على الانهيار[3] .

زار مصر فى ذلك الوقت الإمبراطور سيتميون سيفيروس (١٩٩ — ٢٠٠)

(١) وحتى القيام بالتزام جمع الضرائب كانوا يتهربون منه عند الضرورة كما يتضح من :
B.G.U. 747 (137 A.D.)=Wilcken, Chrest 35

(٢) حول الوطن (origo) أنظر : Jouguet, La Vie Mun. 91 ff.

(٣) يوجد وصف واف لدلائل هذا الإنهيار فى كتاب Jones, Cities, pp 319 ff

ومنح مدينة الأسكندرية وعواصم النومات (متروبولات) نظام المجلس التشريعي (boulé) ؛ وهى محاولة لتوحيد النظام الإدارى فى مصر وسائر ولايات الإمبراطورية الرومانية . ولكن هدف سيفيروس الحقيقى من وراء هذا الإصلاح لم يكن تعميم نظام الحكم المحلى وتعزيز الحريات السياسية ، بقدر ما كان من محاولة لإلقاء مسئولية الإدارة على الأهالى بدلا من السلطة المركزية . فمنذ ذلك التاريخ أصبحت طبقة أصحاب الأملاك فى كل متربوليس مسئولة بأجمعها فى هيئة مجلس عن شغل وتمويل المناصب العامة [(١)] . من أهم نتائج هذا الإصلاح فى مصر على أى حال هو الزيادة من أهمية المتروبولات بعد أن سووا بالعاصمة الأسكندرية وأصبحوا جميعاً يتمتعون بمجلس تشريعى . ويبدو من ناحية أخرى أنه لم يسمح للفئات الممتازة من الرومان والأسكندريين المقيمين فى الريف بالتهرب من تحمل نصيبها فى الإدارة المحلية فى ظل نظام المسئولية الجماعية الجديد . فلعله من الطريف أن أول عضو فى المجلس التشريعى الجديد فى مدينة أوكسيرنخوس (البهنسا) فى سنه ٢٠١ كان مواطناً أسكندرياً [(٢)] .

ومن الإصلاحات الخطيرة أيضاً التى جاءت فى أعقاب تشريع سيفيروس قانون الإمبراطور كاراكلا الذى صدر فى سنة ٢١٢ بمنح للمواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار فى الإمبراطورية باستثناء طبقة الخاضعين (dediticii) فى مصر ، على أى حال ، شمل هذا القانون الجديد المصريين جميعا ، وكانت له النتائج التالية :

---

(١) أنظر : Jones, Cities, 329 f.; and E. P. Wegener, The Bouleutai of the Metropoleis, in Symbolae Van Oven, P. 160 6.; and in Mnemosene (1947) pp. 15—42, 115—132, and 297—326.

(٢) P.S.I., XII. Nc. 1328 (201 A.D.) وانظر R. Calderini. Bouleutica. Aegyptus (1951) 13

أولا من الناحية القانونية ، أصبح جميع السكان قانونا مواطنين رومانيين، رغم أنه استمر تطبيق القانون المصرى الإغريقى[١] . ثانيا من الناحية السياسية، لم يعد هناك تمييز رسمى بين المواطنين الرومانيين والأسكندريين من ناحية والمتروبوليين من ناحية أخرى . القاعدة الجديدة لتحديد مسئولية الأفراد هى الوطن (origo) ، والذى كان وراثيا ؛ حتى أن الأسكندريين المقيمين فى الريف الذين كان يحق لهم أن يدعوا أن موطنهم الأصلى هو الأسكندرية ، لم يجدوا فائدة تجنى من تمسكهم بكبريائهم القديم ، وكثيرون منهم تدريجيا اتخذوا مكان إقامتهم فى الريف بمثابة موطن لهم (origo)[٢] . يتضح من هذا أن نتيجة هامة لقانون كاراكلا من وجهة النظر السياسية أنه قد تمت عملية تسوية هابطة فى اتجاهها بين الفئات القديمة الممتازة من الرومان والأسكندريين وفئة المتروبوليين أى أن قانون كاراكلا ألغى جميع الامتيازات المحلية . ويبدو أن هذه التغييرات لم تكن قاصرة على مصر وحدها ، بل كانت عامة فى ولايات الإمبراطورية المختلفة نتيجة لتطبيق قانون كاراكلا[٣] .

ثالثا من الناحية الإدارية : نتيجة أخيرة وثيقة الصلة بالنتيجة السالفة هى أن الرومان والأسكندريين المقيمين فى المتروبولات أصبحوا ملزمين بالدخول فى عضوية المجالس التشريعية المحلية الجديدة وفى تولى مناصب الحكم المحلى ، شأنهم فى ذلك شأن المتربوليين سواء بسواء . ولم تقتصر هذه المسئولية على أولئك الذين

---

(١) V. Arangio—Ruiz, L'Application du droit Romain en Egypte àprês la Constitution Antoninienne, Bull Ialt. d'Egypte, 29 (1948) pp. 83 ff.

(٢) أنظر مثلا : S.B. 178 (III A.D); P. Ox VIII, 1115 (237 A.D.); P. S. I., XII, 1249 (255 A. D.); P. S. I. No. 203 (III A.D.); P. For. 50 (III A.D.).

(٣) أنظر Jones, A.H.M.: Studies to Roman Government and Law (1960) pp. 136 ff.

اتخذوا من المتروبوليس موطنا لهم، ولكن شملت الأفراد الذين كانوا مقيمين فقط فى المتروبوليس وكانوا يمتلكون النصاب المالى اللازم لتولى الوظائف . وذلك لأن الرومان والأسكندريين — كما سبق أن ذكرنا — لم يعودوا فئات ممتازة ذوى مواطنة خاصة، ولذلك لم يكن هناك من سبيل إلى التهرب من تحمل نصيبهم فى الإدارة المحلية [1] . ولا نجد استثناء من هذه القاعدة إلا مواطنى مدينة أنتينوبوليس الذين كانوا يتمتعون بامتياز قديم كان قد منح لهم وهو إعفاؤهم من تولى مناصب الحكم المحلى والخدمات الإجبارية خارج مدينتهم . ويبدو أنهم ظلوا يتمتعون بهذا الامتياز حتى عام ٢٥٤[1] ، ثم ألغى بعد ذلك مباشرة ، وطبق عليهم المبدأ العام من إمكان تولى المناصب فى أكثر من مكان عند توفر الشروط اللازمة[2] .

وفيما يتعلق بطبقة القرويين والفلاحين التى شملها أيضا قانون كارا كلا ، فقد كان يحدث أحيانا أن يطالب أفراد منهم بتولى الوظائف فى المتروبولات ،

---

(١) لقد وردت مسألة تولى الوظائف المدنية فى الموطن أو فى محل الإقامة فى النص القانونى: "Digest 50.1.17.4" «Sed eodem tempore non sunt honores in duabus civitatibus ab eodem gerendi : cum simul igitur utrabique defereintur, potior est originis causa» ويعنى أنه لا يجوز أن يتولى الشخص الواحد مناصب الحكم المحلى المدنية (honores) فى مدينتين فى الوقت ذاته . ولكن عند حدوثهما فى مكانين فى وقت واحد ، فإن الموطن الأصلى (origo) أولى بخدمات مواطنيه. نستنتج من هذا النص أنه عند مطالبة مواطن مقيم فى غير موطنه الأصلى بتولى المناصب فى مكانين (الموطن ومحل الإقامة) فى وقت واحد ، فلهذا المواطن أن يختار بينهما ، ولو أن القانون يفضل الموطن . ولكن يبدو أيضا أن القانون يبيح للفرد أن يتولى الوظائف فى مكانين مختلفين إذا حدث ذلك فى أوقات مختلفة.

(١) أنظر P. Ox. 1119, (253—4 A.D) = Wilcken, Chrest 397.

(٢) أنظر P. Ox. 2130 (267 A.D); P. Flor. I. 95 (365—376 A.D.); and P. Vindob. Gr. Inv. 25—945 (242 A.D) in Wegener, The Bouleutai et, Symbola van Dven, pp. 181—182.

إلا أن القاعدة العامة أنهم لم يتولوا هذه المناصب إما لفقرهم عموما أو لأنه كان من حقهم ان يتمسكوا بالخدمة فى موطنهم الأصلى (origo) فقط وهى القرية حيث كانوا يقيمون(١) . وعلى ذلك فيمكن أن يقال إن أهم نتيجة إدارية لقانون كاراكلا أن عددا لا بأس به من أفراد الطبقات الثرية من الرومان والأسكندريين وغيرهم المقيمين فى الريف قد أدمجوا نهائيا فى طبقة أهل عواصم النومات من المتربوليين .

(١) S.B. 7696 (250 A.D.); cf. Wegener, Moemosene, (1947) pp. 115 ff.

ح - الحيــاة الثقــافية

نظام الأراضى :

لم يكن الإمبراطور أغسطس ولوعاً بالظهور بمظهر التأثر المغير ، بل لعله كان أكثر ولعاً بالإصلاح . دون أن يصبغه بالصبغة الثورية ، فكان حريصاً على أن يضفى على أعماله مظهرا تقليديا ، بعيدا فى الظاهر عن مظهر الثورة والتبديل، رغم أن أعماله كثيرا ما كانت ثورية فى واقع الأمر ، جذرية فى آثارها فى عصره ومن بعده إلى زمن بعيد . وتتضح هذه السياسة بجلاء فى الخطة التى اختطهـا أغسطس بشأن نظام الأراضى فى مصر . فمن حيث المظهر تبدو وكأنها استمرار لنظام الأراضى البطلمى ، إذ أبقى على تقسيم الأرض بأنواعهـا البطلمية مستخدما نفس الإصطلاحات البطلمية فى أغلب الأحيـان . فبقيت أرض مصر تنقسم أساساً إلى نوعين من الأرض : العامة التى تمتلـكها الدولة ، والخاصة التى يمتلـــكها الأفراد . هذا من حيث المظهر فقط ، أما من حيث الواقع فإن أغسطس أسس سياسة تختلف تماما مع سياسة البطالمة الرسمية . فبقدر ما كان البطالمة يأخـذون بمبدأ ملـكية الدولة ممثلة فى شخص الملك ، اتجهت السياسة الرومانية الجـديدة نحو تشجيع الملـكية الخاصة والاستثمارات الشخصية بأنواعها المختلفة . هـذه هى نقطة التحول فى الاقتصاد المصرى بين العصرين البطلمى والرومانى . فبالرغم من أن الملـكية الخاصة وجدت ونمت فى العصر البطلمى إلا أنها كانت ظاهرة تسير فى عكس اتجاه السياسة الرسمية للدولة ، أما فى العصر الرومانى فإن السياسة العامة كانت تدفع نظام الملـكية الخاصة دفعاً إلى الانتشار والنماء .

فى ظل هذه السياسة العامة يمكننا أن نتحـدث عن كل نوع من أنواع

الأرض ونبين ما أصاب كل واحد منهـــا من تطور فى العصر الرومانى .[١]

ونبدأ بالأرض التى كانت تمتلكها الدولة وكانت تسمى عموماً الأرض العامة (gé demosia) ، وكانت تتكون أساســاً من الأرض الملكية (gé basiliké) المعروفة منذ العصر البطلمى . وظل هذا النوع من الأرض كما كان من قبل يؤجر فى شكل قطع صغيرة إلى الفلاحين المزارعين الملكيين مقابل إيجار معلوم يقدر بنسبة معينة من المحصول السنوى للأرض .

وفى نطاق أراضى الدولة نمى نوع من الأرض عرف باسم الأرض العــامة أيضاً (gê demosia) ولكن معناه لم يتحدد بعد ، ولعل هذا النوع المعين من الأرض كان يضم قطعا صغيرة من الأرض مثل شواطىء النهر أو الزيادة التى تطرأ على مساحة الجزر النهرية ، والتى لم يتم وضعها ضمن قسم معين من أقسام الأرض الأخرى[٢] .

أما عن أرض المعابد (gé hierétiké) التى كانت ضمن أقسام الأرض الرئيسية فى العصر البطلمى ؛ فلم يسمح أغسطس باستمرارها وصادرها وألحقها بملكية الدولة . ورغم أن الإصلاح القديم يظهر أيضا فى وثائق العصر الرومانى ، فإن ذلك خطأ كان يرتكب عمدا بواسطة الموظفين الذين اعتادوا استخدام هذه الاصطلاحات فى أوراقهم ، واستسهلوا إطلاق الأسماء القديمة على الأرض بعد أن تغيرت صفتها الرسمية . أما عن طريقة إدارة أرض المعابد بعد استيلاء الدولة عليها ، فقد أضيفت هذه المسئولية إلى الموظف المالى المعروف باسم الإيديوس لوجوس ؛ الذى تولى أيضاً منصب رئيس الكهنة فى مصر . وهى أ كبر

---

(١) فيما يتعلق بنظام الأراضى فى مصر الرومانية أنظر: Rostovtzeff, Soc: and Econ. Hist. of Roman Empire, 2nd. ed., pp. 281 ff. and notes; Wilcken, Grunzuge Vol. 1, ch. VII., pp. 287 ff.; and Johnson, Roman Egypt, pp 25 ff.

(٢) Johnson, Roman Egypt, p. 25.

خطوة اتخذها أغسطس للسيطرة على المعابد والكهنة ماديا وسياسيا[١] .

ولم يكتف أغسطس بالاستيلاء على أرض المعابد ، بل استولى على أراضى أخرى وضمها إلى ملكية الدولة ، مثل الأراضى الخاصة أو التى كانت هبة من الملك البطلمى ثم أهملها أصحابها أو هجروها أو قصروا فى دفع ما كان مستحقا عليهم من الضرائب فكان من حق السلطة المركزية الاستيلاء على هذه الأراضى وضمها إلى أملاك الدولة ، وكان يشرف عليها أيضا الإيديوس لوجوس[٢] .

هذه هى الأقسام الرئيسية التى كانت تشملها الأرض العامة ؛ وقد وجدت أنواع أخرى ولكنها كانت أقل أهمية من الناحية الاقتصادية ، وليس مجال الإفاضة عنها . وقد يتبادر إلى الذهن بعد ذكر هذه المصادرات المختلفة أن سياسة أغسطس لم تختلف كثيراً عن سياسة البطالمة من حيث الحرص على جعل الملكية العامة هى أساس الاقتصاد المصرى فى مجال الزراعة . ولكن فى الواقع لم تكن هذه المصادرات إلا إجراءات أولية الغرض الأساسى منها هو ضبط الاقتصاد المصرى فى أول الأمر ومنعه من التدهور الشديد كما كانت الحال فى الجزء الأخير من العصر البطلمى . لأن كل الدلائل تثبت أنه بالرغم من أن ملكية الدولة ظلت تتحكم فى قطاع هام من الأرض الزراعية ، فان الرومان انتهجوا سياسة جديدة أكيدة تهدف نحو تشجيع الملكية الخاصة بشكل لم يسبق له نظير . وكانت هذه السياسة جزءاً من سياسة أغسطس العامة فى سبيل استعادة اقتصاد البلاد . ومن أجل تنفيذ هذه السياسة لجأ إلى أساليب مختلفة ؛ من ذلك أنه اعتبر الإقطاعات العسكرية البطلمية Kleroi ملكية خاصة لأصحابها بعد أن

---

(١) P. Tebt. II. 302 (71—2 A.D.) = Wilcken, Chrest. No. 368; cf. also Wilcken, Grundz., pp. 300 ff,

(٢) Strabo, 17. 12 (c. 797. 12); P. Ox. IV. 721 (13—14 A. D.) = Wilcken, Chrest. 369.

كانت من الناحية الرسمية على الأقل هبة مؤقتة ، كما سبق أن بينا [1] . وبذلك يمكن أن يقال إن الاتجاه العام الذى ظل ينمو فى العصر البطلمى نحو خروج هذه الإقطاعات من ملكية الدولة تحقق نهائياً فى العصر الرومانى ، وعلى هذا النحو زادت الملكية الخاصة (gé idiotiké) سيادة كبيرة .

بعد أن أتم أغسطس فتح مصر مباشرة ، يبدو أنه منح جنوده الذين استقروا فى البلاد إقطاعات عسكرية لتكون ملكا لهم ، ولكن التقليد الذى اتبع بعد ذلك هو منح الجنود مكافآت مالية وتشجيعهم على شراء الأرض من الدولة بأسعار إسمية . [2] ولم يكن بيع هذه الأراضى التابعة للدولة قاصراً على الجنود ، بل كان مباحاً للجميع ، لأن الهدف الرئيسى هو تشجيع شتى الطبقات على استثمار أموالهم فى الزراعة من أجل النهوض بحالة البلاد اقتصاديا . فقد كانت أسعار الأراضى المباعة مشجعة للغاية حتى بالنسبة لسعر الأراضى البور التى كان يتكون منها معظم هذا النوع من الأرض . ولنضرب على سبيل المثال بعض الأسعار التى أمكن جمعها من الوثائق البردية : ١٢ دراخمة للأرورا فى أوكسيرنخوس ، [3] ٢٠ دراخمة للأرورا فى هرموبوليس ، [4] ٢٨ دراخمة للأرورا فى تبتونس وكذلك فى كرانس (وكلاهما فى الفيوم) . [5] وفى بردية أخرى من هرموبوليس نجد أن قطعة أرض صادرتها الدولة وباعتها بالمزاد العلنى ، قد زاد سعرها قليلا إلى ٤٠ دراخمة للأرورا . [6] ولكى يتضح مدى

---

(١) Wilchen, Grundz; pp. 303—306.

(٢) Rostovtzeff, Soc. Ec. Hist. Rom. Emp., pp. 147 f.; Lesquier, L'Armée romaine d'Egypte, p. 328.

(٣) P. Ox. 721 (14 A.D.); P.S.I. 320 (18 A.D.).

(٤) P. Amh. 68 (60 A.D.)

(٥) S.B. V. 7599 (95 A.D); B.G.U. 422 (140 A.D.)

(٦) S.B. 5675 (147 A.D.)

انخفاض هذه الأسعار عموماً نذكر أن متوسط سعر الأرورا من الأرض الزراعية كان ١٨٥ دراخمة في القرن الأول ، و٣٢٤ دراخمة في القرن الثاني.

هذه الإجراءات التشجيعية قفزت بالملكية الشخصية في الأرض قفزة كبرى منذ بداية العصر الروماني ، [1] ولكن نوعاً معيناً من الملكية الخاصة يستحق مزيداً من الإفاضة هنا نظرا لأهميتها الاقتصادية ، وهي الملكية الكبيرة التي عرفت باسم ousia (أو الوسية في الاستعمال الدارج الآن) . والسبب في نشأتها أن الإمبراطور أغسطس ، من أجل الإسراع بعملية استصلاح الأراضي على نطاق كبير — لجأ إلى أسلوب شبيه بأسلوب الملك فيلادلفوس ، وإن اختلفت وسيلة التطبيق في الحالين . فبدلا من منح إقطاعات كبيرة من الأرض (doreae) إلى أصفيائه وكبار موظفيه، دعا أغسطس أفراد الطبقة الأرستقراطية في كل من روما والأسكندرية إلى أن يستثمروا أموالهم في زراعة مسحات كبيرة من الأرض في مصر . الإقطاعات أو الملكيات الكبيرة من الأرض هي التي عرفت في العصر الروماني الأول باسم « وسية » ousia ، وكانت تمنح أو تباع للأفراد من الأراضي الكثيرة التي صادرتها الدولة في بداية العصر الروماني . ولقد أثبتت تجربة الوسية هذه نجاحها ، كما فعلت سابقتها إقطاعات البطالمة (dorea) في القرن الثالث قبل الميلاد ، ويبدو أن «وسيات» العصر الروماني لعبت دوراً كبيرا في إنعاش الحياة الاقتصادية للبلاد على أسس رأسمالية في القرن الأول الميلادي .

ويكفي النظر إلى قوائم أسماء أصحاب الوسيات لنتبين أهمية هذه الطبقة، فجميعهم أفراد ذوو ثروة وسلطان . أباطرة أو أفراد العائلة الإمبراطورية أو أصفياء الإمبراطور أو وزراء رومان أو المحررون من عبيد الإمبراطور ، أو

---

(١) Johnson, Roman Egypt, pp. 14 ff.

رؤساء المجتمع الأسكندرى. وبفضل أموالهم الطائلة تمكنوا من تحويل كثير من الأراضى البور إلى أراضى زراعية تنتج ما كانت تنتجه قديماً من محاصيل. كانت الوسية من الناحية القانونية ملكية خاصة لصاحبها ، أما من حيث الضرائب فلم تكن هناك قاعدة محدودة ، ولكن تمتع أصحاب الوسيات عموماً بامتيازات مختلفة ، تدرجت بين الإعفاء من الضرائب ودفع ضرائب مخفضة . (١)

ولدينا بردية تلقى ضوءاً عن كيفية حصول أحد أفراد الأرستقراطية فى الأسكندرية على أرض وسيته ، وهو جايوس يوليوس ثيون الذى شغل مناصب كبيرة فى الدولة وابنه بالاسم ذاته ويبدو من الوثيقة أن جايوس يوليوس ثيون الكبير تقدم أصلا بطلب شراء أرض من الدولة ، وأن الوالى تورانيوس (سنة ٧ — ٤ ق . م) صرح له بشراء أرض من أملاك الإمبراطور على أن يسدد جميع استحقاقات الدولة . ولكن لسبب غير معلوم لم يتم تعيين الأرض وتسجيلها ولم يدفع المبلغ المستحق عليها . على أى حال بعد ذلك بقليل تقدم ابن الطالب الأول بطلب جديد فى عام ١٠ / ١١ م . وعين له الوالى أكويلا فى نوموس أوكسيرنخوس أرضاً كانت تنتمى أصلا إلى معبد إيزيس . ونعلم من البردية أن مجموع استحقاقات الدولة من ثيون الصغير زاد على تالنتين (٢) ، أى ما يساوى ١٢٠٠ دراخمة . فإذا ما فرضنا أن السعر الذى دفعه ثيون هو متوسط السعر الذى كان يدفع لأرض الدولة المباعة فى ذلك الوقت وهو عشرون دراخمة للأرورا، فإن مساحة الأرض التى اشتراها تزيد على الستمائة أرورا . هذا مع العلم أن من

(١) خير عرض لموضوع الوسية فى بداية العصر الرومانى هو مؤلف : Rostovtzeff, Soc. l Ec. Hist. of Rom. Emp., 2nd ed., pp. 292 ff., esp. notes 45 and 40. See also P. Philad. No. 19 (I—II cent. A.D,).

(٢) P. Ox. XII. 1434, lines 6—17 (7—4 B. c.—11 A.D.).

المحتمل أن السعر كان أقل من ذلك بسبب كبر حجم الأرض ـ وكانت هذه الوسيات الكبيرة تعتبر وحدات اقتصادية هامة فى الريف المصرى ، وكان يديرها وكلاء عن أصحابها الذين كانوا يقيمون عادة بعيداً عن أرضهم فى الأسكندرية أو روما . وكثيراً ما نمت على الوسية حركة صناعة نشطة تعتمد على منتجات الأرض ، مثـــل صناعة الزيوت ، والخمور من الزيتـــون والأعناب التى تنتجها الوسية .

على أن هذه الموجة من ملكية الوسية لم تستمر كثيراً بنفس هذه القوة ، إذ سرعان ما تغيرت النظرة الرومانية الرسمية نحو الملكيات الكبيرة التى يمتلكها أفراد لا يقيمون فى البلاد ، واتجهت السياسة نحو قصر تمليك الأرض على سكان البلاد . ولذلك لم ينته القرن الأول الميلادى إلا وكانت معظم وسيات أعضاء الأسرة الإمبراطورية والأرستقراطية الرومانية قد آلت إلى ملكية الإمبراطور الشخصية إما عن طريق وراثتها أو مصادرتها حين يموت صاحب الأرض أو لأى سبب آخر . مجموع هذه الأراضى التى استولى عليها الإمبراطور أصبحت تكون قطاعاً جديداً من قطاعات الأرض فى مصر الرومانية يعرف باسم géousiaké (رغم أن الأراضى استمرت تحمل أسماء أصحابها الأصليين) .

ولكن يجب ألا نستنتج أن موجة مصادرة الوسية فى نهاية القرن الأول قضت على ظاهرة الملكيات الكبيرة فى مصر (١) ، فوثائق القرن الثانى الميلادى تثبت أن كثيراً من الملكيات الكبيرة استمرت موجودة من القرن الأول ؛ مما يدل على أن أثرياء الأسر فى الأسكندرية والريف المصرى ظلوا محافظين على

---

(١) كما ذهب كل من : Roslovtzeff. Soc. Ec. Hist. Rom. Emp, 294—5, and Johnson and West, Byzantine Egypt, p.39 f.

ملكياتهم الكبيرة التي حصلوا عليها في بداية العصر الروماني (١) . نتيجة لذلك كله نستنتج أن سياسة روما الجديدة في مصر وهي بيع الأراضي المصادرة سواء في مساحة كبيرة أو صغيرة أدت في النهاية إلى زيادة الملكية الخاصة زيادة لم يسبق لها مثيل .

أما عن أرض المدن الإغريقية ، فقد استمرت أيضاً في العصر الروماني ، وزادت أيضاً عن ذي قبل بسبب زيادة هذه المدن ، أولا بإنشاء مدينة أنتينوبوليس سنة ١٣٠ ؛ ثم بعد ذلك حين أصبحت عواصم النومات (المتروبولات) مدنا ، لها نظام المدن الإغريقية ، بفضل إصلاح سبتميوس سفيروس في بداية القرن الثالث . فجميع هذه المدن منحت قطعا من الأرض خاصة بها وأصبحت تسمى بالأرض المدنية gé politiké .

من سوء الحظ أننا لا نمتلك من العصر الروماني وثيقة توضح مدى انتشار الأنواع المختلفة في الأرض في مصر ، ولكن دراسة حديثة لمجموع وثائق هذه الفترة تبين أن نسبة الأرض الخاصة للأرض العامة كانت ٥٠ : ٥٠ خلال القرنين الأولين ؛ مع ازدياد نقصان مساحة الأرض العامة بصورة مضطردة حتى تختفي تماماً في القرن الرابع (٢) .

وتبين دراسة أحوال الأرض في القرن الثالث كيف حدث هذا التطور . فإن ظروف الاستقرار والرخاء التي عمت الإمبراطورية الرومانية في أثناء القرن الثاني لم تستمر إلى القرن الثالث حين تعرضت الإمبراطورية الرومانية لأزمات

---

(١) أمثلة من الملكيات الكبيرة توجد في : P. Strassb. I. no, 3; 24; 74-5; 78 (c. 118 A.D); P. R. Univ. Milan. No. 28 (162—3 A.D.); P-S.I. I, 31 (164 A.D.). and B.G.U. I. 603—4. (167—8 A.D.); B.G.U. III. 959 (148 A.D.) and P. Berl. Leihg. No. 18 (163 A.D.).

(٢) أنظر : A. Segré: The Byzantine Colanate, in Traditio, 5 (1947) pp. 103—133, esp. pp. 130—131,

سياسية متتالية أخذت بالأحوال الاقتصادية كل الضرر مما جعل المؤرخين يطلقون على هذا القرن اسم فترة المحنة الكبرى . ولم تسلم مصر من آثار تلك الأحداث العامة فى الإمبراطورية ؛ وبدا ذلك واضحاً منذ الجزء الأخير من القرن الثانى حين بدأ النظام الإدارى فى مصر يتكشف عن عيوبه ، وتحول نظام تولى الوظائف العامة من الاختيار إلى الإلزام ، وطبق نظام الخدمة الجبرية على معظم الوظائف فى الإدارة المحلية . وقد شرحنا فى فصل سابق كيف أصبح من المتعذر أن يقدم عدد كاف من أصحاب الأملاك على تولى الوظائف فى المتروبولات بدافع من رغبتهم الشخصية ، حتى اضطر الإمبراطور سيفيروس فى أول القرن الثالث إلى أن يقوم بإصلاحه المشهور وهو تعميم نظام المجالس boulac فى الأسكندرية والمتروبولات ، وإلقاء تبعة شغل وتمويل الوظائف المحلية على أعضاء هذه المجالس ، على أنهم مسئولون مسئولية جماعية .

ولما كانت الملكية الخاصة هى الضمان الأساسى لتولى الوظائف ، ازدادت نتيجة لذلك أهمية الملكية الشخصية ، فزاد حرص طبقة ملاك الأراضى على زيادة أملاكهم ليتمكنوا من القيام بالمسئوليات الإدارية التى أصبحت تفرض عليهم فرضاً . فزادت الملكيات الكبيرة بشكل ملحوظ ، وأصبحت « الوسية » من مظاهر الأرض المألوفة فى هذا القرن (١) . وقد ساعدت ظروف مختلفة من تمكين الأثرياء من شراء الأراضى على نطاق كبير من بين تلك الأسباب أن القانون يقضى بأن الشخص الذى يرشح لتولى أحد المناصب ويرفض توليها كان يفقد ثلثى ممتلكاته للدولة ، التى كانت تستولى عليها ، وتبيعها بالمزاد العلنى . ونظراً لاضطراب الأحوال الاقتصادية العامة فقد كثير من متوسطى وصغار الملاك أرضهم عن هذا السبيل . ومن الطبيعى أن يتمكن الأفراد الأكثر ثراء

(١) أنظر : Rostovtzeff, Soc, Ec, Hist. R. Emp. pp. 489 ff and notes

من شراء الأرض التى تستولى عليها الدولة وتبيعها بالمزاد العلنى[١] . وأحيانا أخرى تورط متوسطو وصغار الملاك فى ديون اقترضوها من كبار الملاك ، فإذا ماعجز هؤلاء المدينون عن سداد ديونهم – وكثيراً ما حدث هذا – استولى الدائنون على بعض أملاكهم التى يقدمها المدينون هنا . ضمانا لديونهم[٢] ،

ولقد وجدت كذلك السبل العادية للحصول على الأملاك عن طريق الشراء والميراث ، ولكن كثرة تكرار الظروف التى يضطر فيها الأفراد إلى التخلى عن أملاكهم هى التى تكشف عن عدم الاستقرار فى المجتمع . ففى مثل هذه الظروف يتمكن الأفراد الطموحون من أصحاب الثروة من زيادة ملكياتهم على حساب صغار الملاك ؛ وهو ما حدث فى القرن الثالث الميلادى ، حتى إذا ما جاء القرن الرابع رأينا أن الملكية الكبيرة هى الطابع المميز للحياة الزراعية فى مصر .

الصناعة والتجارة :

لئن كان الاحتلال الرومانى قد قضى على كل سيادة سياسية لمصر ، فإنه لم يصب اقتصادها بنفس الأثر ؛ بل على العكس من ذلك بذل الرومان جهوداً كبيرة فى سبيل إنعاش البلاد اقتصادياً ، لأن جزءاً كبيراً من فوائد ازدهار الحياة الاقتصادية فى مصر ، كان يذهب إلى روما ذاتها سواء عن طريق الضرائب أو عن طريق أرباح كبار المستثمرين من الرومان . وكما شجعت الإدارة الرومانية الملكية الخاصة فى المجال الزراعى ، كذلك شجعت سياسة الاقتصاد الحر فى كثير من أوجه الصناعة والتجارة ، ولو أننا لا نعرف معرفة يقينية مدى تطبيقهم لهذه

---

(١) أنظر مثلا: P.Ox. III. 513 (184 A.D.); and XX. 2269 (269 A.D).

(٢) P.Apokrimata, lines 16 ff.; P.Giss. 34 (265/6 A.D); P.S.I. XIII. 1328 (201 A,D.); P. Lips. I. 10 (240 A.D). P. Flor. I. 56 (234 A.D), P. Lips. 9 (233 A,D).

السياسة الجديدة . فبينما بقيت المناجم مثلاً محتكرة بواسطة الدولة، تركت صناعة الزيت حرة فى أيدى الأفراد ؛ فى حين أن الإدارة الرومانية مارست درجات مختلفة من التحكم والإشراف على صناعات أخرى مثل النسيج، والبردى والطوب والجعة[١].

ويبدو أن سياسة الرومان من ناحية وظروف الإمبراطورية العامة التى انتشر فيها السلام مدى قرنين من الزمان وموقع مصر المتوسط بين الولايات ثم موقعها على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، كل ذلك ساعد على ازدهار الصناعة والتجارة بها على نحو لم تبلغه مصر من قبل . ويكفى أن نقول أن الأسكندرية أصبحت أكبر مركز للصناعة والتجارة فى الإمبراطورية الرومانية بأسرها . ولدينا نص يصف الحياة الصناعية فى لأسكندرية بهذه العبارات : « إنها مدينة غنية تتمتع بالثراء والرخاء ، ولا يوجد بها عاطل عن العمل ، فالبعض يعمل فى صناعة الزجاج ، وآخرون يعملون فى صناعة أوراق البردى وكثيرون يعملون إما فى صناعة النسيج أو فى أية حرفة أو صناعة أخرى ، حتى أصحاب العاهات من العجزة والخصيان والعميان كل له عمله ، حتى من فقدوا أيديهم لا يقضون حياتهم عاطلين هناك . الجميع يعبد إلهاً واحداً هو المال ، هذا الإله يعبده المسيحيون واليهود وكل طائفة أخرى فى الواقع[٢] » إن البيئة الصناعية التى تصفها هذه العبارة ذات أهمية بالنسبة لدراستنا ، نظراً لأنها تذكر الصناعات الرئيسية التى عرفت بها مصر وليست الأسكندرية فقط ، وهى صناعات الزجاج والبردى والنسيج . فنحن نعرف أن المصريين القدماء تخصصوا فى صناعة الزجاج منذ

---

(١) خير عرض لصناعة مصر فى العصر الرومانى هو : **Johnson, Roman Egypt, pp. 325 ff.**

(٢) ينسب هذا النص إلى الإمبراطور هادريان فى مجموعة سير الأباطرة الرومان المعروفة باسم **Historis Augusta, Saturninus, VIII. 5—7** ، ولكن من الثابت أن هذه النسبة غير صحيحة وأنه من وضع أحد مؤلفى المجموعة. ومع ذلك فلهذا النص أهميته لأنه يلقي ضوءاً علي الحياة الصناعية في الأسكندرية .

أقدم العصور ، وأنهم ارتقوا بصناعته إلى درجة عالية من الإتقان حتى أنه كان يصدر إلى مناطق مختلفة من البحر الأبيض . ويبدو أن مصر تمكنت من المحافظة على تفوقها فى هذه الصناعة فى العصر اليونانى والرومانى[١] ؛ فهذا استرابون الجغرافى الذى زار مصر فى بداية العصر الرومانى يذكر أن صناع الزجاج فى الأسكندرية كانت لهم أسرار خاصة بصناعتهم ، وأن تربة مصر كانت تحوى مادة معينة تصلح لصناعة الزجاج المتعدد الألوان[٢] . ومن كتاب القرن الثانى يذكر أثينايوس أن صناع الزجاج فى الأسكندرية ارتقوا كثيراً بصناعتهم ليحافظوا على مكانتهم فى الأسواق الخارجية أمام المنافسة الأجنبية ، ومن ذلك أنهم صنعوا الزجاج على أشكال مختلفة محاكين فى ذلك أشكال الأوانى الفخارية التى كانت ترد إليهم من الخارج[٣].

أما صناعة ورق البردى وتصديره إلى الخارج فقد ظل احتكارا لمصر دون أن تخشى أى منافسة أجنبية فى هذا المجال . ولقد أدرك البطالمة من قبل مركز مصر الفريد ذلك وتمكنوا من التحكم فى أسعار البردى فى الأسواق العالمية عن طريق احتكار انتاجه فى الداخل وتصديره إلى الخارج . ولكن الرأى انقسم بين العلماء حول سياسة الإدارة الرومانية فى مصر من هذه السلعة والسبب فى ذلك هو أن مصادرنا الأدبية لم تكن واضحة فيما يتعلق بهذه النقطة : فالكاتب الرومانى بلينيوس الكبير[٤] رغم الوصف المفصل الذى يورده عن صناعة البردى فى مصر — لا يذكر شيئاً عن سياسة الحكومة . وأما الجغرافى استرابون فله جملة اختلف فى معناها ، وهى قوله « هناك فئة ممن يريدون زيادة دخولهم...

(١) أنظر : Johnson, Roman Egypt, pp. 336—7, and note 3

(٢) Strabo, 16, 2, 25.

(٣) Athenaeus, XI, 784. C.

(٤) Pliny, Natura Historia, 13, 11—12.

ولذا لا يسمحون بنمو البردى فى مواضع كثيرة، مما يؤدى إلى ندرته التى ينتج عنها ارتفاع أسعاره ، وبذلك تزداد دخولهم ، بينما هم يسيئون إلى الصالح العام[1] » ومن العلماء من يفسر هذه العبارة على أنها تصف سياسية المسئولين الرسميين، ومنهم من رأى أنها تضف كبار الرأسماليين المنتجين للبردى . والفرق الأساسى بين وجهتى النظر أن أصحاب الرأى الأول يذهبون إلى أن الرومان أقاموا احتكارا حكومياً لإنتاج البردى[2] ، أما أصحاب الرأى الأخير فيذهبون إلى أن إنتاج البردى فى العصر الرومانى كان حرا دون أن يخضع لاحتكار حكومى[3] . ولقد جاءت اكتشافات الوثائق البردية الحديثة مؤيدة لهذا الرأى الأخير وأن زراعة البردى وصناعته كانت حرة على الأقل فى بداية العصر الرومانى . ويبدو أن الإدارة الرومانية بدلا من أن تتدخل فى إنتاج البردى وتجارته تدخلا مباشرا ، اقتصرت فيما بعد على أن تفرض ضريبة مالية على البردى(chartera)[4] وضريبة نوعية أخرى منه (anabolica species)[5] تجبى سنوياً وترسل إلى روما ولعلها كانت من الحجم بحيث تكفى حاجة العاصمة .

الصناعة الكبرى الثالثة هى صناعة النسيج وكانت من أكثر الصناعات انتشارا فى مصر ، وقلما خلى منزل من منسج لنسيج حاجة الأسرة إلى الملابس .

---

(١) Strabo, 17. 1. 15.

(٢) أنظر : Wilcken, Grundz. pp. 55—6; Walbank, Decline of the Roman Empire, p. 12.

(٣) Lewis, L'Industrie du Papyrus, 101 ff., Johnson, Rom. Eg. 329.

(٤) B.G.U. IV. 1121. and 1146 (augustan age).

(٥) S.B. 5636 (2nd cent. A D.)- P. Mich. II. 123 (45 A.D.) P. Strassb. I. 59 (228 A.D.),

ولكن إلى جانب الصناعة المنزلية وجدت مصانع تخصصت فى إنتاج أنواع راقية من المنسوجات التيلية التى اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور . ويخبرنا بلينيوس الكبير عن تقدم هذه الصناعة فى مصر أن الأسكندرية اشتهرت بنوع التيل المزين بالرسوم والذى كان يصنع بنسج عدد من الخيوط معاً ويسمى لذلك « polimtta »[1] . ونحن نعرف أن المنسوجات المصرية كانت واسعة الانتشار فى الخارج وأنها كانت تصدر بكميات كبيرة إلى الأسواق الشرقية فى بلاد العرب والهند وكذلك إلى مواطن متعددة فى البحر الأبيض المتوسط . ولم تكن صناعة النسيج من أجل التصدير مركزة فى الأسكندرية فحسب ، بل يبدو أنها وجدت فى مراكز أخرى من مصر على قدر عظيم من النشاط والتقدم وكانت منطقة الفيوم إحدى كبريات هذه المراكز التى تخصصت فى تصدير إنتاجها إلى الأسواق الشرقية فى بلاد العرب والهند . وبقدر ازدياد التجارة الشرقية فى النشاط فى العصر الرومانى ازدادت صناعة النسيج المصرية قوة وإنتاجاً ، حتى أن الكاتب بلينيوس الكبير اعتقد أن مصر دفعت قيمة وارداتها من الهند وبلاد العرب عن طريق تصدير المنسوجات التيلية[2] .

ولكن ترى ماذا كان موقف الحكومة الرومانية من هذه الصناعة الهامة ، هل احتكرتها أو تركتها حرة فى أيدى الأفراد . نحن نعرف أن هذه الصناعة لها أهمية خاصة بالنسبة للرومان ، لحاجتهم المستمرة إلى كميات كبيرة من الملابس لأفراد الجيش ، ولذلك من صالحها التحكم فى إنتاج النسيج . ومع ذلك فلم تلجأ إلى سياسة الاحتكار الكامل بل لجأت انتهاج سياسة محكمة تحقق الإشراف الكامل عليها . وتتلخص هذه السياسة أولا فى امتلاك المصانع الخاصة

---

(١) Historia Augusta, Aureliani, 45. 1.

(٢) Plinius, Natura Historia, XIX. 7- The Periplus, 8 (See translation of W.H. Schaff), P. Hawara, 208.

بها . [١] أما سائر المشتغلين بالنسيج فى مصر فقد أخضعتهم الإدارة لإشرافها التام ، عن طريق جميع النساجين — مثل غيرهم من العمال والصناع — نقابات خاصة بهم حسب كل مدينة أو قرية [٢] ، وبعد ذلك عاملتهم معاملة خاصة فيها شيء من الامتياز عن كثير من فئات العمال الآخرين ، وهو إعفاء النساجين من القيام بالأعمال الإجبارية ، (liturgia) ، وذلك نظراً لفائدتهم بالنسبة للخزانة . [٣] ولم يكن الهدف من ذلك التنظيم هو حماية النساجين ولكن للاستفادة منهم حسب حاجة الدولة . ولذلك فرضت عليهم ضرائب مالية ونوعية يدفعها النساجون وأصحاب المصانع للدولة [٤] ، وحين لاتفى هذه الضرائب بحاجة الدولة ، كانت تفرض عليهم كميات إضافية أخرى [٥] .

هذه هى الصناعات الكبرى التى كانت تقوم عليها تجارة مصر الخارجية ، ولكن وجدت إلى جانبها صناعات أخرى ذات أهمية تجارية وازدهرت بصفة خاصة فى العصر الرومانى وهى صناعات التوابل والعطور وكذلك الصناعات الفنية الصغيرة . فيما يتعلق بصناعة العطور فلمصر شهرة قديمة فيها وكثيرا ماصدرت العطور والروائح معبأة فى زجاجات صغيرة فى العصر الفرعونى . أما التوابل فإن التجارة الشرقية جلبت الكثير منها إلى مصر حيث تم تصنيعها ثم أعيد تصديرها إلى روما وسائر ولايات الإمبراطورية .

---

(١) Johnson, Roman Egypt, pp. 333.

(٢) A. E. R. Boak, The Organisation of Guilds in Greco Roman Egypt T.A.P.A., 68 (1937) 212—220; Johnson, Roman Egypt, pp. 392 ff. and nos 247—255.

(٣) P. Ox. XXII. 2340, lines 8—10.

(٤) P. S. I., IX. 1060 (201 A. D.); Historia Augusta Aurelian, 45. 1.

(٥) P. Ox. XIX, 2230 (119 A. D.); B. G. U. VII. 1572. (139 A. D.)

أما الصناعات الفنية الصغيرة مثل صناعة التماثيل واللعب والآلات الموسيقية فهى قديمة ولكن فى العصر اليونانى والرومانى اكتسبت أهمية خاصة وصنعت للإنتاج الكبير من أجل التصدير للأسواق الخارجية وفى ظل الحكم الرومانى حينما فقدت الفنون حماية وتشجيع القصر الملكى والمعابد، وجدت تعويضاً عن ذلك من الناحية المالية فى زيادة الطلب من الخارج للأعمال الفنية. ولقد كشفت الحفائر الأثرية فى ممفيس عن التوصل فى هذا العصر إلى استخدام أساليب صناعية جديدة من أجل الإنتاج الكبير (mass production) عن طريق استخدام القوالب فى صنع أعداد كبيرة من التماثيل البرنزية والجيرية من مختلف الأحجام. [1] وتثبت الحفائر الحديثة عن سعة انتشار هذه المصنوعات الفنية وما يماثلها بين أفراد الطبقة البورجوازية فى أنحاء الإمبراطورية. [2] لم تقتصر الحياة الصناعية فى مصر الرومانية على الإنتاج من أجل التصدير ولكن وجدت كذلك صناعات قديمة أخرى مثل الأخشاب والمطاحن والزيوت والخمور والمعادن، وهى صناعات ضرورية للاستهلاك المحلى الداخلى وهو استهلاك كبير. ونحن نعرف مثلا مدى الاهتمام الذى أبداه البطالمة فى تطبيق إحتكار صناعة وتجارة الزيت داخلياً، هذه الصناعة استمرت أيضاً فى العصر الرومانى ولكن على أسس جديدة، وهى تركها فى أيدى الأفراد بعيداً عن احتكار الدولة، التى اكتفت بفرض الضرائب على مثل هذه الصناعات. أما صناعة الخمور فكانت دقيقة الاتصال بانتشار بساتين الفواكه والكروم

---

(١) أنظر الدراستين الأساسيتين
C. C. Edgar, Greek Moulds; and id. Greek Bronzes

(٢) Dorothy Kent Hill, An Egyptian Sculptural Type and Mass Productian of Bronze Statuettes, Hesperia, 27 (1958) 311 ff.; of. Sir Mortimer Wheeler, Rome Beyond the Impeial Frontiers, 200—201 (Penguin ed. 1955)

التى أقبل الإغريق على زراعتها إقبالا كبيرا منذ أن حضروا إلى مصر . وبلغ من وفرة إنتاج الخمور فى هذا العصر وخاصة بواسطة أصحاب الملكيات الكبيرة من الأرض حتى أن الخمر كانت تدفع للعمال والمزارعين مقابل جزء من أجورهم.(١)

ولقد أدى نشاط صناعة الزيت والخمر على هذا النحو إلى ازدهار صناعة أخرى لازمة بهما وهى صناعة الأوانى الفخارية ، فوجدت مصانع لصناعة الفخار وإنتاجه بكميات كبيرة وأحجام وأنواع مختلفة تصلح للأغراض المختلفة .(٢)

التجارة :

قامت هذه التجارة الضخمة فى العصر الرومانى استجابة لحاجيات تجارة عالمية لم يعرف لها مثيل من قبل ، ومامن شك أن الإمبراطورية الرومانية التى وحدت العالم القديم ويسرت الانتقال من إقليم إلى إقليم كانت من أكبر أسباب ازدهار التجارة العالمية . وكان من الطبيعى أن تحتل مصر مركز الصدارة فى هذه التجارة نظراً لموقعها للتوسط الممتاز على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، ولامتلاكها سواحل طويلة على كل من البحر الأحمر والبحر الأبيض . ولذلك لم يكن مستغربا أن تصبح الأسكندرية ، ميناء مصر الأولى، « أكبر مركز تجارى فى العالم بأسره » .(٣) إذ لم تقتصر تجارة مصر الخارجية التى تركزت فى الأسكندرية أساساً على ماتنتجه مصر محليا ، فقد كان يؤتى بالبضائع إلى مصر من كل قطر خارجى ثم يعاد تصنيعها وتصديرها ثانية إلى الأسواق الخارجية . ولذلك حضر إلى الأسكندرية تجار من جميع أرجاء

---

(١) أنظر مثلا P. Flor. III. nos 321—322.

(٢) فيما يتعلق بهذه الصناعات راجع فصل الصناعة فى كتاب Johnson Roman Egypt.

(٣) Strabo, 17. 1. 13 (C. 798)

العالم القديم ليعقدوا صفقاتهم من أجل شراء البضائع المصرية والأجنبية على السواء.[١]

وكانت مصر معدة للقيام بدورها أحسن إعداد بفضل موانيها البحرية وخاصة الأسكندرية. ولقد أدرك القدماء هذه الحقيقة، فكتب استرابون عن مدينة الأسكندرية فقرة تعتبر من أقيم التعليقات القديمة المعاصرة فى مجال الحياة الاقتصادية، فيقول: «تقع الأسكندرية على بحرين، من ناحية الشمال يوجد البحر المصرى — كما كان يسمى —، ومن ناحية الجنوب توجد بحيرة ماريا أو مريوط. وتملأ هذه البحيرة عدد من القنوات المتفرعة من نهر النيل، سواء من الناحية العلوية أو من الجوانب. وما يرد إلى المدينة عن طريق هذه القنوات يفوق كثيرا ما يأتى من البحر، حتى أن الميناء الواقع على البحيرة أغنى من الميناء البحرى. وكذلك فى هذا الميناء البحرى تفوق تجارة الصادر من الأسكندرية تجارة الوارد. ويستطيع الإنسان أن يرى بنفسه لو أنه وقف عند الأسكندرية أو دكيارخيا (Dicaearchia وهى حالياً پثيولى Puteoli ميناء إيطاليا الرئيسى فى ذلك الوقت)، كيف أن حمولة السفن تختلف ثقلا وخفة عند مجيئها وذهابها».[٢]

---

(١) المصادر الأساسية القديمة هى: Pliny. Nat. Hist. VI 101 sq.; the Periplus of the Erythraean Sea, translated by schoff (1912); Strabo, II. 101; XVII. 728.

أما الدراسات الحديثة فكثيرة وأهمها: Wilken, Grundz., 262 ff.; Johnson, Rom. Eg. 325 ff.; L. C. West, Phases of Commercial Life in Roman Egypt, J.R.S. VII. (1917) 95—58; E. Leider, Der Handel von Alexandreia (1933); E.H. Warmington, The Commerce Between the Roman Empire add India (1928); M. P. Charlesworth, Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (1924) esp. chapters 2 and 4.

(٢) Strabo, 17. 1. 7 (C. 793); and 17. 1. 9 (C. 794).

فى هـذه الفقرة يتحدث استرابون عن الظروف فى الأعوام الأولى من الإمبراطورية ، وهى فترة جديدة فى تاريخ مصر وتاريخ العالم ، ولذلك فإن ما يلاحظه عن اختلاف طبيعة النشاط فى الشحن بين الميناء الداخلى والميناء الخارجى فى الأسكندرية له أهمية خاصة . فهو يقرر حقيقة هامة بالنسبة لتجارة مصر الخارجية فى التاريخ القديم وهى أن صادرات مصر كانت تزيد كثيراً عن حجم وارداتها من البضائع . ولم تقتصر هذه الحقيقة على العصر الرومانى ، بل سادت فى جميع التاريخ القديم ، والسبب فى هـذه الظاهرة هو أن مصر تمتعت قديماً با كتفاء ذاتى فيما يتعلق بمواد الغذاء ، التى توفر لديها مزيد منها ، والتى كانت تصدره وخاصة القمح ، وتستورد بدلاً منه فضة وخشباً وبدرجة أقل مواد مصنوعة. ولـكن تجارة التصدير من مصر شملت أيضاً بضائع جىء بها أصلا من أفريقيا وبلاد العرب والهند ، مثل العاج والبخور والمنسوجات القطنية وغيرها. وما من شك أن مثل هذه التجارة قديمة ، ولـكنها فى عصر الأسرة البطلمية ازدادت تركيزاً وأهمية ، ومرت جميعها من الأسكندرية ، بفضل الشبكة المتقنة من القنوات التى كانت تصل الأسكندرية عن طريق بحيرة مريوط بجميع أجزاء القطر المصرى وجعلت النقل بين البحر الأحمر والأسكندرية سريعاً ومنتظماً .

أما فى عصر الإمبراطورية الرومانية فقد طرأ على هذه الظروف تطوران هامان جديدان . فمنذ أن ألحقت مصر بدولة روما ، تغيرت طبيعة صادرات مصر إلى البحر الأبيض المتوسط ؛ إذ لم تعد جميع البضائع تخرج من الأسكندرية لتباع فى أسواق البحر الأبيض وتتقاضى مصر ثمنها فضة أو عن طريق المبادلة ببضائع أخرى . لأن صادرات مصر الآن انقسمت إلى نوعين: أحدهما للتجارة، والآخر هو الضريبة النوعية التى كان على مصر أن تدفعها لروما سنويا ، وكان أهم مقوماتها القمح. ولذلك كادت تقتصر تجارة مصر الخارجية فى البحر الأبيض المتوسط على الـكماليات المرتفعة الثمن ، التى كانت تستورد من الشرق وتصنع فى مصر

ثم يعاد تصديرها إلى إيطاليا وسائر بلدان البحر الأبيض .

أما فيما يتعلق بتجارة الجنوب والشرق فقد زادت أضعافا مضاعفة فى القرنين الأولين من الإمبراطورية ، أولا بسبب اكتشاف الرياح الموسمية فى المحيط الهندى بواسطة هيبالوس حوالى القرن الأول ق.م[١] فأعان هذا الاكتشاف بحارى الأسكندرية أن يتخذوا طريقا مباشراً عبر المحيط بين مخرج البحر الأحمر الجنوبى ومصب نهر السند وملابار (Malabar) بدلا من السير بسفنهم بحذاء الساحل . إن الاكتشاف الجديد على العموم أدى إلى سرعة السفر بحيث أصبح ممكنا الآن إتمام الرحلة بين مصر والهند ذهابا وإيابا فى العام نفسه ، وهو ما لم يكن ممكنا من قبل[٢] .

وثانيا كان لسياسة أغسطس نحو حرية الاقتصاد آثار هامة فى إنعاش الحياة الاقتصادية فى الإمبراطورية . أما فى مصر فإن السياسة الجديدة كانت تعنى إحلال سياسة الاحتكار البطلمية بحركة إنعاش رأسمالية فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة وعلى ذلك فإن اكتشاف الرياح الموسمية الجديدة إلى جانب السياسة التى طبقها الرومان فى تشجيع الاستثمار الحر سمحت للأثرياء فى مصر أن يستثمروا أموالهم فى التجارة الشرقية على نحو لم يعرف من قبل ؛ فنتج عن ذلك زيادة كبيرة فجأة فى حجم التجارة الشرقية . ولقد تركت هذه الزيادة الفاجئة فى التجارة الشرقية آثارها فى الحال فى تجار البحر الأبيض المتوسط ولاحظها الكتاب المعاصرون وهذا استرابون مرة أخرى يمدنا بملاحظاته عن الظروف التجارية الجديدة فيقول : « لئن كان دخل مصر السنوى فى الماضى (فى العصر

---

(١) Periplus, 57; Plinius, Nat-Hist. VI. 100 sqq.; cf. Warmington The Commerce, 35 ff.

(٢) أنظر وصف الرحلة فى Plinius, Nat-Hist. VI. 101—106 ؛ وهناك حساب للمسافة والزمن فى Warmington, op. cit. 48 ff.

البطلمى المتأخر) هو ١٢٥٠٠ تالنتوم ، فترى كم يصل دخلها الآن (زمن الإمبراطورية) ، حينما أصبحت تدبر شئونها بعناية فائقة ، وحينما زادت التجارة مع الهند والصومال زيادة كبيرة . فلم تزد السفن التى كانت تسير فى البحر الأحمر ولم تتعد خليج العرب عن عشرين سفينة ، أما الآن فإن الأساطيل الكبيرة تسير إلى الهند وإلى أقصى حدود أثيوبيا ، ومن هناك تعود محملة بأغلى البضائع إلى مصر ، ثم توزع من مصر إلى سائر البلاد . وهكذا تجنى مصر ضريبة مزدوجة على البضائع حين ترد إليها وحين تصدر منها ، وترتفع الضريبة بقدر ارتفاع ثمن البضائع . »(١) وفى موضع آخر يذكر استرابون أن الفضل فى زيادة معلوماتنا عن البلاد الشرقية يرجع إلى تجار الأسكندرية ويضيف أن لهم أكثر من مائة وعشرين سفينة تعمل فى تجارة الهند الشرقية(٢) . أى أن عدد السفن زاد ستة أضعاف . ولكن يجب أن نذكر أن الزيادة لم تقتصر على عدد السفن فحسب ، بل إن حجم السفن ذاتها زاد كثيراً ، وأصبحت السفن المستخدمة فى البحار الشرقية من أحجام أكبر وقدرة أكثر فى سرعة الملاحة(٣) .

هذه التجارة الضخمة بين الشرق والغرب مر جزء كبير منها بمصر بين موانى البحر الأحمر والأسكندرية ؛ وفى الأسكندرية تجمع التجار من مصر وخارج مصر من كل قطر . وما من شك فى أن عدد التجار الأجانب كان كبيراً ولكن يبدو أن أقوى عنصر بينهم سماسرة كبار المستثمرين الرومان . ونحن نعرف مدى أهمية كبار الممولين الرومان فى نهاية العصر البطلمى ، كما فى مثال رابيريوس Rabirius وعلاقاته بالقصر البطلمى ؛ ويمكننا أن نتصور مدى ازدياد أهميتهم بعد ضم مصر إلى الإمبراطورية . ومع ذلك فيبدو أن هؤلاء

---

(١) Strabo, 17. 1. 13 (C. 798)

(٢) Strabo, 2. 5. 12 (C. 118)

(٣) Periplus, 10 and 56; Plinius, Nat-Hist. VI. 82.

المولين لم يكونوا خطراً شديداً على التجار المصريين ، لأن جهود المولين الرومان كانت موزعة على مراكز تجارية أخرى فى البحر الأبيض مصر وسوريا وآسيا الصغرى والغالة ، فى الوقت الذى احتكر تجار مصر وخاصة كبار التجار من الأسكندرية تجارة الشرق البحرية ، كما أن أساطيلهم التجارية الكبيرة مكنتهم من الاشتراك فى تجارة البحر الأبيض بنصيب وافر [١] .

أما فى تجارة البحر الأحمر والهند فلم يكن هناك منافسة حقيقية تهدد سيطرة الأسكندريين عليها ، لأن عرب الجزيرة العربية قصروا نشاطهم على تجارة القوافل البرية ، ولا يعرف سوى تجار تدمر (Palmyra) وبعض الرومان فقط الذين شاركوا فى تجارة البحر الأحمر ، ومن المستبعد أن هؤلاء كونوا خطراً حقيقياً طوال العصر الرومانى لأن تجار تدمر تخصصوا فى تجارة القوافل البرية أكثر من التجارة البحرية . من ذلك نرى أن تجار الأسكندرية احتكروا لأنفسهم تقريباً التجارة الشرقية ، حتى أنه أصبحت الأسكندرية والأسكندريون فى الهند بمثابة رمز للعالم الغربى بأسره بدلا من روما والرومان [٢] . ويبدو أيضاً أن اسم الأسكندرية كان أسبق الألفاظ الغربية فى الوصول إلى الصين ، حتى لقد اقترح أحد الباحثين مؤخراً أن كلمة « ليجيين » (Li-jien) كانت كلمة صينية محرفة عن كلمة الأسكندرية وأنها تعنى أصلا أسكندرية مصر [٣] .

من العسير أن نعرف على وجه التحديد قيمة هذه التجارة الشرقية ومقدار الفائدة التى عادت على مصر منها ، ولكن لحسن الحظ تذكر بعض المصادر المعاصرة معلومات قد تكون لها قيمتها فى تقريب الصورة إلى عقولنا .

---

(١) أنظر West, Phases of Commercial life, J.R.S., 7 (1917) 77 8.

(٢) Warmington, The Commerce, p. 68.

(٣) H. H. Dudo, A Roman City in Ancient China, London (1957) 2.

وأهم مصدر هو الـكاتب بلينيوس الذى يقول إن قيمة واردات الإمبراطورية من الهند وسيريس (seres) وبلاد العرب تربو على مائة مليون سستركيس (sesterces) ، ويضيف بعد ذلك قوله « هكذا ندفع غالياً من أجل كالياتنا ونسائنا » . (١) ولـكن نعلم أن نحواً من نصف هذه التجارة كان يسلك طريق القوافـل براً إلى الموانى السورية ، أما عن الجزء الآخر الذى كان ينقل عن طريق البحر الأحمر إلى مصر فيقول إن الهند تأخذ منا كل عام مالا يقل عن خمسين مليوناً سستركيس (sesterces) ، مقابل بضائع تباع لنا بأثمان تبلغ مائة ضعف ثمنها الأصلى . (٢) وما من شك أن هذه الأرقام بعيدة عن المبالغـة ولا يبعد أنها تمثل الحقيقة، خاصةوأن بلينيوس كان فى مركز يمكنه من الاطلاع على وثائق الدولة الرسمية . ولـكن يهمنا بصفة خاصة قوله إن هذه البضـائع الشرقية كانت تباع فى الغرب بمائة مثل ثمنها الأصلى . ذلك أن التجارة الشرقية كانت تقوم أساساً على الاتجار فى الـكماليات مثل اللؤلؤ والعـاج والحرير والبخور ... إلخ ، وأن ضرائب باهظة كانت تجبى عليها عند دخولهـا مصر وعند خروجها للتصدير مرة ثانية . (٣) وبالإضافة إلى هذه الضرائب المزدوجة تقاضى التجار مبالغ باهظة مقابل قيامهم بهذا العمل . فالملاحة فى البحار الشرقية كانت شديدة الخطورة ، نظرا لانتشار القرصان فى تلك البقاع ، حتى أن السفن التجارية كانت تسير عادة فى حراسة سفن مسلحة خير تسليح لمقاومة القرصان. (٤) لذلك كانت هذه الرحلات كثيرة التكاليف ، ومن الطبيعى أن يرفع التجار أسعارهم ليعوضوا تكاليفهم وخسائرهم وليغنموا ربحاً مناسباً .

---

(١) Pliniüs, Nat-Hist. 12 - 84

(٢) Ibid. 6. 101.

(٣) Strabo, 17. 1. 13 (C. 798)

(٤) Periplus, 53; Plinuis, Nat-Hist. 6. 26

هكذا تمكن كثير من الرأسماليين فى الأسكندرية ومصر من مضاعفة ثرواتهم ومنافسة كبار الرأسماليين فى روما ذاتها ، ويكفى للدلالة على خطورة هذه الطبقة من الأسكندريين أن نذكر أن بعضهم تمكن من شق طريقه إلى أرقى المناصب فى القصر الإمبراطورى فى روما ، كما أن واحدا منهم وهو فيرموس (Firmus) استطاع أن يقود ثورة ناجحة فى الأسكندرية تأييدا للملكة زينوبيا فى القرن الثالث . ويقال إنه تمكن من تسليح جيش بأسره من دخله من تجارة البردى والصمغ العربى .

(١) Cf. Juvenal, I. 26 f.; IV 24—5.
(٢) Historia Augusta, Firmus, III. 2.

الحياة الثقافية والدينية

رأينا فى دراستنا للتكوين الاجتماعى لمصر فى العصرين البطلمى والرومانى أن السكان كانوا خليطاً من شتى الجنسيات والشعوب القديمة : أغلبية مصرية وأقلية ممتازة من الإغريق ثم جاليات متفاوتة العدد من اليهود والسوريين والليبيين والرومان وغيرهم . وقد يسأل سائل عن الوسيلة التى تم بها التفاهم بين هذه العناصر جميعاً . ما من شك أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية للبلاد منذ بداية العصر البطلمى . ولكن لغة هذا العصر كانت لغة يونانية متطورة بحكم اختلاطها باللهجات واللغات المحيطة المختلفة . فهذه اللغة كانت لغة الحديث بين الإغريق وسائر الجاليات الأجنبية التى تأغرقت تماماً فى هذا العصر وبها كانت تصدر الأوامر الملكية والقوانين العامة . وكانت فوق ذلك لغة الثقافة والفكر ، كتب بها الكتاب والشعراء .

وقد أقر الرومان هذا الوضع كما هو ، وبقيت اللغة اليونانية هى لغة البلاد الرسمية تصدر بها كافة القرارات والقوانين والأوامر ، حتى بيانات الإمبراطور وخطاباته التى كانت تكتب أصلا باللاتينية كانت تترجم إلى اليونانية عند نشرها فى الأسكندرية . ولهذا فإن عدد الكتابات اللاتينية من مصر فى العصر الرومانى قليل جداً ويكاد يقتصر على شئون الجيش الرومانى . أما المصريون فكان على كثير منهم أن يتقن اللغة اليونانية حتى يستطيع أن يتولى الأعمال الإدارية فى الحكومة ، ولكن أكثرهم فى القرى والريف استمر يتحدث فى الحياة اليومية باللغة المصرية التى كان التعبير الكتابى لها الخط الديموطيقى الذى استخدمت فيه حروف منحدرة من الحروف الهيروغليفية والتى لم يكن بها حروف متحركة مما يفيد حرية اللغة ويمنعها من تقبل الألفاظ الجديدة فظلت جامدة لا تساير التطور . لهذا كان تعلم الديموطيقية أمراً عسيرا حتى على المصريين

أنفسهم . أمام هذه العقبات خطا المصريون خطوة ثورية لإنقاذ لغتهم من هذا المأزق بأن اتخذوا الحروف اليونانية لكتابة لغتهم . ولما وجدوا أن الأبجدية اليونانية لا تفى بحاجة جميع أصوات اللغة المصرية أضافوا إليها ستة حروف من الكتابة الديموطيقية . وهكذا ولدت اللغة القبطية فى القرن الثالث الميلادى ، وانطلقت اللغة من عقالها لتنقل ألفاظاً وأفكاراً جديدة ، ولتخرج بعد ذلك فكراً وأدباً جديدا . وكان أدل وأعظم أعمال اللغة القبطية الجديدة أنها نقلت الإنجيل إلى المصريين فى لغة مصرية وثوب مصرى ، ليس بالأجنبى اليونانى أو اللاتينى . ولعل هذا من الأسباب التى جعلت المسيحية تنتشر بين المصريين جميعاً كعقيدة شعبية .

هذه كلمة مختصرة عن اللغة رأينا أن نقدم بها للحديث الآن عن الثقافة والفكر الذى تميز به العصر الرومانى فى مصر ، والذى كانت وسيلته فى التعبير هى اللغة اليونانية التى كانت ذائعة الانتشار خارج مصر أيضاً .



رأينا فى العصر البطلمى كيف كانت الأسكندرية أشهر مركز فى العالم فى مجال الأدب والدراسة ، قصدها كثير من العلماء والدارسين إما لينضموا إلى هيئة علماء المكتبة والموسيون أو ليغترفوا من معين هؤلاء العلماء .

وقد تركت مدرسة الأسكندرية أثرها على مراكز الأدب اليونانى الأخرى حتى فى بلاد اليونان نفسها ثم تعدى تأثيرها العالم اليونانى إلى روما ، فظهر هناك أدباء وشعراء لاتينيون متأثرون باتجاهات الأدب الأسكندرى ويحاكون نماذجه كما يحاكى بعض أدبائنا الآن نماذج الأدب الأوربى . ومن الغريب أن هذا التأثير على روما بلغ ذروته فى عصر كليوباترة ، أى فى الفترة التى تم فى نهايتها ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية ، حتى أن من أراد من أدباء

روما أن يخرج على قوالب الأدب الأسكندرى كان يفعل ذلك بقصد الثورة على سيطرة هذا الأدب على عقول الأدباء الرومان [1] .

لم يكن مستغربا إذن أن يحتضن الرومان مؤسسات الثقافة والعلم فى الأسكندرية بعد الفتح ، فبقيت المكتبة والموسيون يلقيان التشجيع والتأييد من الأباطرة ، كما استمر العلماء يتلقون العطاءات والامتيازات المختلفة كالإعفاء من الضرائب وتناول الطعام فى الموسيون دون مقابل .

ويجب أن نذكر أن الموسيون كان بمثابة أكاديمية للبحث وليست جامعة للتدريس ، إلا أن بها قاعات يجتمع بها العلماء ويتباحثون فيها . ونحن نعرف أن الإمبراطور هادريان ، الذى كان شديد الحماس للحضارة اليونانية ، زار الموسيون وشهد بعض ندوات العلماء والفلاسفة هناك واشترك فى مناقشتهم . وبمناسبة هذه الزيارة زاد عدد العلماء بتعيين كثير من الأساتذة والفلاسفة ومنهم من كان من الفلاسفة المتجولين الذين لايقيمون فى الأسكندرية فكانوا أشبه بأعضاء مراسلين للموسيون كما نقول الآن. ويبدو أن التوسع فى عضوية الموسيون كان قد بدأ يتخذ اتجاهاً جديداً وهو جعل العضوية فيه شرفية بالنسبة لكثير من الشخصيات البارزة ، مثل كبار رجال الإدارة والجيش والأبطال الرياضيين .

وكان الموسيون وثيق العلاقة بالمكتبة التى أنشأها البطالمة ورعاها ملوكهم منذ الملك بطلميوس الأول وكانت لها شهرة عالية ؛ حتى إنه حينما احترق جزء منها بسبب الحريق الذى نشب فى أسطول يوليوس قيصر فى الميناء ، قرر أنطونيوس تقديم التعويض اللازم لكليوباترة بعد ذلك بإهدائها ٢٠٠,٠٠٠

---

(١) لقد عرض الكاتب لهذا الموضوع من قبل فى كتاب « تاريخ الأسكندرية منذ أقدم العصور » الذى أصدرته محافظة الأسكندرية عام ١٩٦٣ ص ٩٥ ــ ٩٩ . أنظر أيضاً د. إبراهيم نصحى فى كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » المجلد الثانى ص ١٧٧ ــ ١٩٣ .
Also cf. V. Chapot, l'Egypte Romane, pp. 361 ff.

مجلد من مكتبة مدينة برغامة الشهيرة فى آسيا الصغرى . وقد استمر للمكتبة أمناؤها من العلماء البارزين الذين اهتموا بأمرها طوال العصر الرومانى ، ولكننا لا نسمع عن اهتمام الأباطرة والولاة بتنمية المكتبة كما كان يفعل البطالمة من قبل . ومع ذلك فقد بقى للمكتبة الكبرى التى كانت ملحقة بمعبد السرابيوم شهرتها وكذلك المكتبة الصغرى الملحقة بمعبد القيصرون .

ولم تقتصر الحياة العلمية والثقافية فى الأسكندرية فى العصر الرومانى على الموسيون والمكتبة ، بل وجدت مدارس وقاعات للدراسة يُدرّس بها من شاء من هؤلاء العلماء أو غيرهم وكانت هذه المدارس والقاعات تكون ما يمكن أن يسمى بجامعة الأسكندرية كما نفهم الآن معنى الجامعة . وكان يقصد هذه المدارس كثير من الطلاب من الأسكندرية ومصر عموماً ومن خارج مصر أيضاً . ولكن يجب أن نذكر هنا أن الحياة التعليمية فى الأسكندرية فى العصر الرومانى كانت حياة معقدة إلى أبعد الحدود ، وذلك لاصطدامها بالظروف الدينية الجديدة . . فأصبح علماء الموسيون والمكتبة ومعاهد تدريبهم يمثلون الثقافة والحضارة الوثنية ؛ بينما نشأت مدارس جديدة : واحدة لدراسة الدين اليهودى دراسة فلسفية بين اليهود ، وأخرى لتدريس الدين المسيحى الجديد ، كما سنبين بعد قليل .

ولننتقل الآن إلى الحديث عما أسهمت به مصر فى مجال الثقافة والفكر والعلم فى العصر الرومانى . ولقد استمرت الأسكندرية أيضاً مركز الحركة الثقافية والعلمية فى مصر بطبيعة الحال رغم أن كثيرين ممن نبغوا فى هذه الفترة جاءوا إليها من داخل البلاد مثل أثينايوس Athenaeus من تقراطيس وأفلوطين من أسيوط .

ولكن نوع الإنتاج الفكرى الذى امتازت به الأسكندرية فى العصر

الرومانى اختلف عن الطابع الذى تميزت به فى العصر البطلمى . فقد اشتهرت أسكندرية البطالمة بالأدب ودراساته ، وكذلك بالبحث العلمى الذى أثر أحياناً على الإنتاج الأدبى أما أسكندرية العصر الرومانى فلم تحافظ على تفوقها الأدبى ويبدو أن عـــدم وجود القصر الملـكى البطلمى فى الأسكندرية أفقد الشعراء التشجيع الـكافى لبعث إلهامهم . فـكان شعر هذه الفترة على ى حال مجرد كلام منظوم بعيد كل البعد عن مفهوم الشعر الراقى واصطبغ هذا النظم بالصبغة العلمية فراح الشعراء يظهرون مهاراتهم فى نظم قصائد جغرافية فى وصف ليبيا مثلا كما فعل دنيس (Denys) ، أوفى وصف الواحات كما فعل سوتيريخوس (Soterichos) .

أما فى مجال العلم فقد حافظت مصر على حمل مشعل التقدم فيه . وأشهر علماء هذه الفترة غير منازع هو بطلميوس الجغرافى الذى اشتهر كثيرا بين العرب فيما بعد . وهو من أبناء مصر فى القرن الثانى الميلادى ، ويعتبر قمة فى علم الجغرافيا القديمة متميزا على سابقيه من أمثال استرابون ، وذلك لأنه لم يكن مثلهم جغرافياً فحسب بل رياضياً مجددا إلى جانب كونه فلـكياً وعلماً طبيعياً . وبهذا القدر العظيم من العلم تصدى بطلميوس لمشكلة أعجزت القدماء وهى دراسة الجغرافيا على أساس رياضى وفلـكى ، وعمل خريطة للعالم وضح عليها الأماكن كل إقليم بنسبة أبعادها الصحيحة . هذا العمل العظيم أنجزه بطلميوس الذى قفز بعلم الجغرافيا قفزة كبرى فى الاتجاه الصحيح ، كما أن أخطاءه ذاتها كانت لها قيمتها ، لأنها أصبحت فيما بعد بمثابة نقط ارتكاز لتصحيح معـــلوماتنا الجغرافية ، وأصبح عمله كله خير ممهد لقيام علم الجغرافيا الحديثة .

ولـكن مامن شك أن من أشهر ماتميزت به الأسكندرية فى هذا العصر هو الحركة الفلسفية التى عرفت بها مدرسة الأسكندرية . هذا الاتجاه الفلسفى كان جديدا على الأسكندرية ، لأنها لم تشتهر بالدراسات الفلسفيـــة فى العصر

البطلمى ، ولعل الملوك حينئذ لم يشجعوا دراستها ليريحوا أنفسهم من أخطار انتشار المعرفة الفلسفية وظهور مدارسها . ولم يكن الرومان بطبيعتهم أهل فلسفة ، ولكنهم لم يضيقوا بها . وتعرف كثيرون من قادة روما وأباطرتها ممن تشيعوا لبعض المذاهب الفسلفية والأخلاقية التى انتشرت آنذاك مثل الرواقية والأبيقورية . أما فى الأسكندرية فقد وجدت ظروف معينة فى هذا العصر ساعدت على بعث التفكير الفلسفى بين المثقفين . ولا نقصد بتلك الظروف سوى البيئة الدينية التى عاصرت قيام نظام الإمبراطورية الرومانية فى الجزء الأخير من القرن الأول ق . م . واستمرت فى القرون الثلاثة الأولى الميلادية فى هذه البيئة . ففى هذا العصر واجه الإنسان أخطر موقف دينى عرفه فى تاريخه بأسره . إذ تحت ظروف توحيد العالم فى ظل الإمبراطورية ونشاط الاتصال بين البيئات المختلفة سالت الأديان من بلد إلى بلد ومن بيئة إلى بيئة ونشأت فى الوقت نفسه دعوات دينية جديدة مثل الغنوسية والمسيحية وكلها تؤكد للإنسان أن الأديان القديمة كلها هراء وكذب . فى مثل هذه المواقف يلجأ الإنسان إلى تفكيره الشخصى ليبحث عن الطريق الصحيح . وهذا هو دفع إلى إثارة التفكير الفلسفى فى الأسكندرية فى ذلك الوقت متسما بطابع دينى .

وأول فيلسوف لمدرسة الأسكندرية هو فيلون اليهودى ، الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ، وكان من الطبيعى أن يتصدى لهذا الموقف فيلسوف يهودى لأن اليهود كانوا الفئة الوحيدة التى تدين بالتوحيد حينئذ ، وكان الدين الجديد بدعوته إلى التوحيد قد واجهت الموسوية بتحدى خطير ، كما أن الفلسفة اليونانية كانت تسلب الموسوية أحياناً بعض أبنائها . فقام فيلون بمحاولة تسويغ دينه للعقل الجديد مستعيناً بالفلسفة اليونانية على شرح الموسوية . فهو يبدأ بموقف دينى ثم يتطرق منه إلى الدليل الفاسفى على صدق الدعوة الدينية .

هذا الاتجاه الجديد كان خطيرا جدا على التفكير الفلسفى فيما بعد وسيصبح لمنهجه تأثير كبير على التفكير الفلسفى والدينى فى العصور الإسلامية والمسيحية ، حين يشغل المفكرون أنفسهم بإثبات قضايا الدين عن طريق الفلسفة.

أما الفيلسوف الكبير الذى تخرج فى الأسكندرية ويعتبر زعيم الأفلاطونية الحديثة فهو أفلوطين من أبناء أسيوط فى صعيد مصر فى القرن الثالث الميلادى وكانت الوثنية قد بدأت تضعف شوكتها أمام الاتجاه المسيحى الجديد . ولهذا تصدى أفلوطين لحل المشكلة الدينية عن طريق الفلسفة ، مبتدئا هذه المرة بالفلسفة ومنتهيا بالفكرة الإلهية .

ولقد حرص أفلوطين على استكمال ثقافته الفلسفية فالتحق بجيش رومانى كان ذاهباً إلى الشرق كى يلم بحكم الهند وفارس . ولكن بعد الإمبراطور قائد الحملة عاد مسرعاً إلى أنطاكية ومنها إلى روما حيث قضى بقية حياته يحاضر هناك. وكان لما عرف عنه من عفة ونقاء وسلوك تصوفى أثر كبير على أتباعه ومريديه من جميع الطبقات .

لم يكن غريباً إذن أن تجمع فلسفة أفلوطين بين الفلسفة اليونانية والفكر الشرقى ، فهو يعتمد أساساً على فلسفة أفلاطون والفيثاغورية الجديدة إلى جانب الفيض الإلهى الشرقية. ومجمل نظريته تدعو إلى وجود عالمين: عالم الحس وعالم العقل المجرد . ويتوقف علينا أن نتجه بأفكارنا نحو أى العالمين . وعالم العقل المجرد هو الأسمى وينبغى أن يتجه نحوه كل إنسان عاقل . وبقدر ما نتجرد من التعلق بأسباب الدنيا والانطلاق نحو التأمل الفكرى نقترب من الهدف ، وبقدر ما نرتفع فى هذا العالم العقلى نزداد اقتراباً من الخير المطلق حتى تتم عودة النفس إلى المبدأ الأول والاتحاد بالله .

* * *

أما عن الحياة الدينية فقد استمرت عبادة الثالوث البطلمى المكون من سرابيس وإيزيس وهربوكراتيس والذى كان من صنع البطالمة وظل محتفظاً بمكان الصدارة بين الآلهة فى العصر الرومانى ، بل لعلها نمت فى الخارج عن ذى قبل ، وأعلن إدخالها رسمياً إلى روما حين أنشأ الإمبراطور دوميتيان (٨١ ـ ٩٦) معابد فى روما لعبادة سرابيس وإيزيس .

وكان ذلك بمثابة إعلان رسمى لقبول الآلهة المصرية فى روما بعد أن كانت قد وصلت هناك قبل الفتح بصفة غير رسمية وخاصة الآلهة إيزيس التى تمثل الإلهة الزوجة لسرابيس والإلهة الأم لهربوكراتيس . ولقد احتفظت إيزيس فى العصر الرومانى بشخصيتها المصرية رغم محاولة تشبيهها بديميتير وأفروديتى اليونانيتين. ولكن شخصيتها المصرية كانت قوية بذاتها خاصة وأنها تكون مع هربوكراتيس صفة أساسية فى الفكر الدينى الإنسانى ، وهى فكرة الإلهة الأم. وبتلك الشخصية استطاعت الإلهة إيزيس أن تغزو روما قبل أن يفتح أغسطس مصر ، وأن تنافس فى اتساع امبراطوريتها روما ذاتها . فقد انتشرت عبادتها كالبرق فى سرعة غريبة إلى جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية ثم تعدت حدود الإمبراطورية إلى أقاليم أكثر بعداً شرقاً وغرباً فى ركب تجارة الأسكندرية . وليس أدل على ذلك من بردية مشهورة من البهنسا ترجع إلى القرن الثانى الميلادى تذكر الأماكن التى انتشرت فيها عبادة إيزيس فى أرجاء المعمورة . هذه الأماكن تشمل معظم مدن مصر إذ أن هناك ذكراً لسبع وستين مدينة فى الدلتا فقط ، أما خارج مصر فتذكر أسماء خمس وخمسين مدينة مرتبة حسب البلاد التى تقع فيها .

ومن دراسة هذه البردية نتبين أن سلطان الإلهة إيزيس شمل الهند وبلاد العرب وفارس شرقاً ، وسينوب على البحر الأسود شمالا ، وروما وإيطاليا غرباً .

أما عن هربوكراتيس فقد كان مصرى الأصل أيضاً ، باعتباره إحدى صور حورس ، ولكن سرعان ما اتخذ لنفسه صوراً أخرى لحورس ولآلهة أخرى مصرية وغير مصرية وانتشرت خارج مصر فى العالم اليونانى وفى خطوط تجارة الأسكندرية وخاصة فى ركب إيزيس التى كان يشاركها معبدها عادة ، إذ لم يعرف أنه تفرد بمعبد خاص ، باعتبار أنه حورس الصغير ويجب أن يبقى فى رعاية والدته . ومع ذلك فقد كان منتشرا ومحبوبا بين الطبقات الفقيرة ولكنه عبد مستقلا بشخصه فى البيوت .

إلى جانب هذا الثالوث حلت فى مصر عبادة الأباطرة الرومان محل عبادة البطالمة، ولكن يجب أن نذكر هنا أن الأباطرة عبدوا على أن أشخاصهم مقدسة وليس بوصفهم آلهة . وكانت العبادة قاصرة على الأباطرة بعد موتهم ، فكان لهم كاهن فى الأسكندرية وتقام تماثيلهم فى معابد الآلهة الكبرى،ولم تفرد لهم معابد خاصة . ولكن بقيت عبادة الأباطرة عبادة رسمية تمارس فى المناسبات العامة دون أن يكون لها طابع شخصى أو تعبد فى البيوت .

إلى جانب هذه العبادات ذات الطابع السياسى والدينى معاً استمرت عبادة الآلهة المصرية واليونانية والشرقية القديمة فى هـذا العصر أيضاً ، بل وازداد اختلاطها وانتقالها عن ذى قبل ، حتى ليمكن أن يقال إن العالم لم يشهد فترة امتزجت فيها الأديان القديمة جميعاً كما حدث فى ظل الإمبراطورية الرومانية . فإن تعدد الشعوب والحضارات التى شملتها الإمبراطورية وسياسة التسامح الدينى التى اتبعها الرومان سمح لجميع الأديان أن تزدهر . كما أن السلام الذى ساد العالم فى الفترة الأولى من تاريخ الإمبراطورية والنشاط التجارى الذى انتشر بين أرجاء العالم مكن الأديان المختلفة من أن تنتشر وأن تؤثر بعضها فى بعض . وكانت روما والأسكندرية من أهم مراكز التقاء هـذه الديانات المتباينة كما

كانت نقطاً لإشعاعها . فى هذه البيئة الدينية المتعددة نشأت المسيحية وأقامت كنيستها وطردت الأديان القديمة .

- بداية الحركة المسيحية فى مصر(١) :

كان ظهور المسيحية مع مولد الإمبراطورية الرومانية فى الجزء الأخير من القرن الأول ق . م .من أخطر أحداث التاريخ وأكثرها تأثيراً فى سير الأحداث والحياة بكل مظاهرها بعد ذلك . غير أن ظهورها كان خافتا ضعيفا أول الأمر يكتنفه كثيرمن الغموض ، حتى أننالا نعرف كيف نشأت وكيف انتشرت على وجه التحديد . ولكن من المرجح أنها وصلت إلى مصر منذ عصر مبكر جدا . فيوسيبيوس ، أعظم مؤرخى الكنيسة الأولين والذى عاش فى القرن الرابع الميلادى ، يروى أن القديس مرقص نفسه حضرإلى مصر وأنه بشر للدين الجديد فى الأسكندرية فى أواسط القرن الأول الميلادى وتروى إحدى أساطير القديس مرقص أن أول أتباعة كان إسكافيا يهوديا .

هذا هو ما تذكره الروايات المسيحية الأولى ، ولكن ليس هناك أى دليل معاصر يثبت وجود المسيحية فى مصر خلال القرن الميلادى الأول . ومع ذلك فنحن ندرك عقلاً أن عدم وجود الدليل لا ينهض شاهداً على عدم وجود المسيحية فى مصر فى ذلك الوقت . فإن المبادىء والأفكار كانت تنتقل حينئذ بسرعة لا تقل عما تنتقل بها الآن . فعبادة إيزيس مثلا انتشرت فى سرعة هائلة مع انتشار تجارة الأسكندرية إلى أرجاء العالم زمن الإمبراطورية الرومانية . فليس بمستغرب إذن أن تسرى المسيحية من فلسطين وسوريا إلى مصر فى مسرى التجارة أو فى موكب الجيوش عن طريق البر والبحر وكلاهما آمن منتظم .

(١) عرض الكاتب لهذا الموضوع فى مقال « حول نشأة المسيحية فى مصر » نشر فى « المجلة » عدد أغسطس ١٩٦٣ .

وأكبر دليل على صدق هذه الدعوى أنه منذ القرن الثانى الميلادى ظهر فى مصر نشاط وكتابات مسيحية على جانب كبير من الأهمية. فقد حفظت لنا أوراق البردى نصا من إنجيل القديس يوحنا يرجع إلى النصف الأول من القرن الثانى. وكذلك عثر على إنجيل مسيحى جديد غير الأناجيل الأربعة المعروفة، ويرجع تاريخ تدوينه إلى الفترة نفسها أو بعدها بقليل. مثل هـذه النصوص المسيحية المبكرة وغيرها لها دلالتها رغم ندرتها[1]، خاصة حين نقدر الظروف التى تمت فيها هذه الأعمال. فنحن نعرف أن الأباطرة الرومان تعقبوا المسيحية بالمقاومة والاضطهاد الشديدين منذ البداية، ورغم ذلك استمر المسيحيون ينتشرون ويعملون فى الخفاء سواء فى مصر أو فى أنحاء الإمبراطورية المختلفة.

ولقد كان للظروف الدينية والفكرية التى سادت فى الأسكندرية فى ذلك الوقت تأثير كبير على المسيحية الناشئة. فبسبب توحيد العالم فى ظل الإمبراطوية الرومانية وكثرة الانتقال والاتصال بين البيئات المختلفة سرت الأديان والأفكار من بيئة إلى أخرى — كما سبق أن ذكرنا؛ فواجهها الإنسان لأول مرة مجتمعة متنافسة وكان من أهمها الأسكندرية. وفى هـذه المدينة وجدت مدرسة فلسفية نامية، تأثرت بهذه الظروف الدينية واستجابت لها، فاصطبغت فلسفتها بالطابع الدينى والروحانى، ومن أكبر أعلامها فيلون وأفلوطين — وقد سبقت الإشارة إليهما. وفى هذه البيئة المعقدة ظهرت دعوة دينية جديدة على جانب كبير من الخطورة وهى الغنوسية أو الأدرية (Gnosticism). كان أصحاب هـذه الحركة ينكرون الدين القديم ويميلون

(١) يوجد ثبت بالنصوص المسيحية فى البردى فى مقال: C. H. Roberts. The Christian Book and the Greek Papyri, Journal of Theological Studies, Vol. I. (1949) 155 ff.

إلى الاعتقاد فى فكرة إلهية عليا تتمثل فيها المثل الدينية الرفيعة دون التقيد بدين معين ؛ أى أنها نوع من الفلسفة الدينية . هذه الغنوسية أو الأدرية كانت النتيجة الطبيعية لتضارب الأديان فى هذه الفترة من ناحية ، ولانتشار المدارس الفلسفية من ناحية أخرى فقد أخذت من الأديان جوهرها فى الإيمان بفكرة إلهية ، وأخذت من فلسفة فيلون وأفلوطين الجانب التصوفى فى الوصول إلى المعرفة الإلهية ، لأنه فى عقيدتهم كان إدراك المعرفة اليقينية — أى معرفة الإله والكون معاً — هبة من الله ، ولكن لابد للوصول إليها من رياضة خاصة وتأمل فى الذات الإلهية .

هذه الحركة الغنوسية ، رغم أنها كانت منافساً خطيراً للمسيحية فى فترة البداية القاسية ، خلقت بيئة مناسبة لأن تسود المسيحية بعد ذلك ، إذ شجعت على الاتجاه نحو ترك الديانات القديمة لقصورها ، فأدت بذلك للمسيحية مساعدة كبرى . إلا أن الغنوسية من ناحية أخرى كانت غامضة سلبية ، كما كانت حركة مفككة تعتمد على العمل الفردى ، ولهذا لم يتوفر لها عامل الإثارة والإيجابية الذى يلهب الحماس الدينى فى الجماهير . ورغم أن الغنوسية هزمت فى معركة الصراع الدينى إلا أنها تركت فى المسيحية أثرين هامين : الأول أنها فرضت على زعماء المسيحية فى القرون الثانى والثالث والرابع أن يعيدوا التفكير فى أسس عقيدتهم وأن يرجعوا إلى جذور الفكرة المسيحية وأن يحددوها . لأن المسيحيين الأولين بعد المسيح مباشرة شغلهم الحماس الدينى فى انتظار عودة المسيح عن التفكير فى جوهر الفكرة الدينية الجديدة . أما الأثر الثانى — وتشترك فيه الغنوسية مع الفلسفة — فهو قوة الاتجاه التصوفى والروحانى الذى عرف فى المسيحية فيما بعد. (١)

(١) يوجد عرض قيم للبيئة الدينية فى مصر قبل المسيحية وعند ظهورها فى كتاب :
H. I. Bell, Cults and Creeds in Greco-Roman Egypt (1953).

فى وسط هذا المعترك العنيف بين المذاهب والفلسفات والأديان المختلفة من ناحية ، ومقاومة الدولة من ناحية أخرى شقت المسيحية طريقها وأصبح لها فى الأسكندرية مركز ورئيس ومدرسة غير رسمية لتدريس تعاليمها[١] وكان الهدف من هذه المدرسة هو معارضة الجامعة الوثنية الشهيرة فى الأسكندرية القديمة . ولقد استطاعت هذه المدرسة منذ وقت مبكر أن تكتسب مجداً وقوة على أيدى أساتذتها الكبار أمثال كليمنس وخليفته فى الأستاذية أوريجينيس .

أما كليمنس فكان شخصية إنسانية جذابة ولد فى أثينا فى أواسط القرن الثانى الميلادى ونشأ وثنياً واسع الثقافة اليونانية متبحراً فى الأدب والفلسفة. ثم حضر إلى الأسكندرية ، وبعد أن استمع إلى محاضرات فى المدرسة المسيحية هناك اعتنق الدين الجديد وأصبح أستاذا بالمدرسة نفسها بعد ذلك . وقد امتازت دروسه وكتاباته بأثر الفلسفة اليونانية وكذلك بأثر غنوس مما جعله معتدلا متسامحاً واسع الأفق بعيدا عن التعصب . وفى سنة ٢٠٣ ميلادية وهو فى ذروة مجده الدينى والعلمى تعرض المسيحيون لاضطهاد شديد سلطه عليهم الإمبراطور سفيروس، فاضطر كليمنس إلى أن يهاجر إلى فلسطين وأن يعيش متخفياً حتى يموت فى ظروف لا نعرفها.

جاء بعده أوريجينيس أعظم مفكرى المسيحية فى عصره، وقد نشأ أسكندرياً مسيحياً، ورأى وهو فى سن السابعة عشرة والده يستشهد أثناء اضطهاد سفيروس، وفى فورة الانفعال أراد أن يلحق بوالده لولا حيلة من والدته التى أخفت ملابسه. ولقد كان الاضطهاد شديداً على المدرسة فلم يترك أحداً من أفرادها سوى أوريجينيس،

(١) عن المسيحية فى مصر أنظر E. R. Hardy, Christian Egypt: Church and People (1952).

فاضطر الأسقف ديمتريوس – رئيس المسيحيين فى مصر آنذاك – أن يعينه فى العام التالى وهو فى سن الثامنة عشرة رئيساً للمدرسة خليفة لكليمنس . ولقد كان أوريجينيس صاحب دراسة فلسفية عميقة وشديد التأثر بالغنوسية إلى جانب دراسة عظيمة باللغة العبرية والتوراة ، حتى أنه قام بدراسة مقارنة بين النص العبرى والنص اليونانى فى الترجمة السبعينية عندما لاحظ اختلافا بين النصين. ولقد اكتسب أوريجينيس شهرة عظيمة بين المسيحيين فى عصره حتى أنه كان يدعى ليحل مشاكلهم حينما كانوا يختلفون حول قضيـــة دينية . وقد اكتشفت أخيراً بردية تتضمن محاورات لأوريجينيس مع بعض قادة الحركة المسيحية حول الأب والإبن والروح القدس [1] . ومن الغريب أن أوريجينيس قد نجا من الاضطهاد أثناء توليه الأستاذية رغم أن عددا من تلاميذه لاقوا الموت مستشهدين ، علما بأنه كان يلازم الشهداء حتى ساعة الاستشهاد الأخيرة، فى وجه غضب الجماهير من الوثنيين . على أى حال بقى أوريجينيس حتى عام ٢٣٢م. ولكن يبدو أن اتجاهه الفلسفى قد أوقعه فى خلاف مع رجال الدين الآخرين وعلى رأسهم الأسقف ديمتريوس . فاضطر أوريجينيس أن يترك الأسكندرية ويذهب إلى فلسطين حيث أكمل دراسته للكتاب المقدس . وكان لطريقتـــه تأثير كبير فى بلاد الشام ، حتى ليمكن أن يقال إن له الفضل الكبير فى إنشاء المدرسة المسيحية فى أنطاكية . وقد بقى فى تلك البقاع فى سنة ٢٥٣ فى مدينة صور فى بعض حركات الاضطهاد التى حدثت آنذاك ، كما سيأتى فيما بعد .

فالمسيحية إذن دخلت الأسكندرية وأصبح لها هناك حركة قوية، وفى نفس الوقت انتشرت أيضاً إلى أنحاء القطر المصرى وكانت الجماعات المسيحية المحلية

---

(١) J. Scherer, Entretién d'Origène auec Heraclide et les évêques ses collegues sur le Pére, le Fils, et l'âme, Cairo (1949).

على اتصال مستمر بالحركة المسيحية بالأسكندرية والتى كانت بدورها واسطة الاتصال مع المسيحية العالمية فى الخارج. هذا الاتصال بين مراكز الحركة المسيحية تكشفه لنا بردية طريفة ترجع إلى عام ٢٦٤— ٢٨٢ ميلادية [(١)] ، وهى تحتوى على خطاب كتبه شخص له مكانته فيما يبدو ويؤرخه من روما ، ويبعث به إلى جماعة المسيحيين إلى منطقة الفيوم وهو يخاطبهم بلفظ « إخوانى » التى تعتبر تعبيرا مسيحياً جديدا فى لغة الخطابات فى ذلك الوقت ، ويطلب إليهم أن يجمعوا مبلغاً من المال ويرسله إلى الأسكندرية حتى يمكن أن يجده فى انتظاره حين يصل إلى المدينة. وفى الخطاب إشارة إلى البابا «ماكسيموس» الذى كان أسقفا فى الأسكندرية ، هذا الخطاب له طرافته ، إذ أنه يبين نوعا من التعاون بين البيئات المسيحية الأولى سواء محلياً أو على نطاق عالمى . ولا غرو فقد كانت الحركة فى الأسكندرية بمثابة رأس الحركة فى القطر كله ، وحين قامت الكنيسة فى الأسكندرية كانت كنائس الأقاليم تابعة لها . وهذا واضح أيضاً من الخطاب، فالإشارة إلى أسقف الأسكندرية بلقب « بابا » يدل على أنه فى ذلك الوقت كان رئيساً لجميع المسيحيين فى مصر . ومن الطريف أن نذكر هنا أن لقب « بابا » أطلق أول مرة على أسقف الأسكندرية هرقليس (٢٣٢—٢٤٩) قبل أن يطلق على رأس الكنيسة فى روما ذاتها .[(١)]

ولكن رغم هذا النشاط الجم ورغم وجود المدرسة ورئيس للمسيحيين فى الأسكندرية ومصر يدين له الجميع بالولاء والطاعة ، لم تكن حياة المسيحيين سهلة هينة . فلقد كانت حياتهم حلقات من الخوف والتعرض لأشد أنواع الإيذاء

---

(١) The Amherst Papyri, I. 3.

(٢) Eusebius, Hist. Ecclesiastica. VII. 754.

والاضطهاد على يد السلطات الرومانية . وقد يعجب القارىء لتعمد الرومان اضطهاد المسيحيين ، فى حين عرف عن الحكومة الرومانية التسامح الدينى تجاه الديانات القديمة جميعاً . ولكن الرومان تسامحوا طالما كانت الأديان لا تكون خطراً اجتماعياً أو سياسياً ، وكانت المسيحية فى ذلك خطراً سياسياً لا تقبل التعايش مع أى عبادة أخرى ، ومن العبادات القديمة عبادة الإمبراطور . فالمسيحية بدعوتها إلى التوحيد كانت تسلب الإمبراطور صفته المقدسة وهى من ألزم مقومات سلطاته وخاصة فى امبراطورية معقدة التركيب كالإمبراطورية الرومانية . ولذلك تعقبت السلطات الرومانية المسيحيين بالاضطهاد منذ تاريخ مبكر فى روما ، ولكن أول اضطهاد منظم ضد المسيحيين فى مصر حدث عام ٢٠٣ زمن الإمبراطور سيفيروس ، وقد سبقت الإشارة إليه . والاضطهاد الثانى الكبير حدث فى منتصف القرن الثالث زمن الإمبراطور ديكيوس حين تمت محاولة منظمة لإبادة المسيحية نهائياً فى الإمبراطورية الرومانية ، فصدر قرار يحتم على الأفراد أن يستخرجوا من لجنة عينت لهذا الأمر خاصة شهادة تثبت أنهم يمارسون العبادات الوثنية وأنهم يضحون للآلهة(١) أمام هذه الحملة الغاشمة تزعزع ثبات بعض المسيحيين ، فشاركوا فى التضحيات الوثنية اتقاء للعذاب . وقد كان مسلك هؤلاء موضع خلاف كبير بين المسيحيين فيما يتعلق بتوبتهم بعد ذلك . ولكن بعضاً آخر من الرجال والنساء واجه الاضطهاد بثبات ، وتحمل العذاب المرير من ضرب بالعصى وسمل للعين وجر فوق حصى الشوارع إلى خارج المدينة . وممن لقى حتفهم فى هذا الاضطهاد العالم المسيحى الكبير أوريجين متأثراً بآثار العذاب فى مدينة صور ، كما ذكرنا من قبل .

على أى حال بعد ديكيوس أوقف الإمبراطور جالينيوس اضطهاد المسيحيين

---

(١) P. Ox. no. 658.

وسمح لهم بحرية العبادة ، وهكذا استطاع المسيحيون لأول مرة أن يبنوا كنيسة لهم. وأول ذكر لكنيسة مصرية يوجد في بردية من البهنسا في سنة ٣٠٠ (١). أما عن تاريخ المسيحية بعد ذلك فيقع في الفترة التاريخية التالية التي تبدأ بعصر دقلديانوس ، وفيها تنتصر المسيحية نهائياً ، وتصبح سيدة الدولة والسياسة في المجتمع الجديد بعد أن كانت طريدتهما في المجتمع القديم .

---

(١) P. Ox., no. 43, verso.

مراجع مصر فى العصر الرومانى

— H. I. Bell :— Egypt under the Early Principate (in Cambridge Ancient History, vol. X. chap X)

— Jeus and Christians in Egypt.

— V. Chapot :— L'Egypte Romaine (dans G. Hanotaux, Histoire de la Nation Égyptienne, Tome III.)

— A.C. Johnson:— Roman Egypt (being vol II. in An Economic Survey of Ancient Rome ed. by T. Frank).

— Egypt and the Roman Empire.

— A.H.M. Jones:— Cities of the Eastern Roman Provinces. Oxford (1937)

— Egypt and Rome (in the Legacy of Egypt. ed by S. R. K. Glanville, pp 283 — 300)

— P. Jougue :— La Vie Municipale dans L'Egypte Romaine (1911)

— P. Jouguet :— L'Egypte Greco - Romaine de la Conquête d'Alexandre à Diocletien (dans Précis de l'Histoire d'Egypte, Toem I.), le Caire 1932

— La Domination Romaine en Egypte aux deux premiers siècles aprés Jesus Christ), Alexandrie, 1947.

— J. Lesquier:— L'Armée romaine d'Egypte d'Auguste à Dioclétien. Le Caire, 1918.

— J. G. Milne :— A History of Egypt Under Roman Rule (1924)

— Th. Mommsen:— The Provinces of the Roman Empire (translated into English by W. P. Dickson) London, 1886.

مراجع مصر فى العصر الرومانى (تابع)

— H.A. Musurillo:—The Acts of the Pagan Martyrs or Acta Alexandrinorum, Oxford (1954)

— M. Rostovtzif :— Social and Economic History of the Roman Empire (وقد ترجمه إلى اللغة العربية الاستاذ زكى على)

— R. Taubenschlag :— Law of Greco - Roman Egypt.

— S. Le Roy Wallace :— Taxation in Egypt from Augustas to Diocletian.

دكتور ابراهيم نصحى :

حضارة مصر فى العصر الرومانى (تاريخ الحضارة المصرية . المجلد الثانى جـ ٢)

دكتور عبد اللطيف أحمد على :

مصر والإمبراطورية الرومانية .

دكتور عبد اللطيف أحمد على (وآخرون) :

كفاحنا ضد الغزاة (العصر الرومانى ١٢٥ ــ ٢٠٢)

الباب الثالث

مصر في العصر البيزنطي

(٢٨٤ — ٦٤٠ م.)

الفصل الأول

الدولة والدين في مصر البيزنطية

دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م.)

انتهت الحروب الأهلية والانقسامات العسكرية المتوالية التى شغلت معظم سنى القرن الثالث والتى تركت الامبراطورية الرومانية منفصمة الأوصال تعبث فيها الفوضى والاضطرابات دون سلطة مركزية يحسب لها حساب باستيلاء دقلديانوس على الحكم. وكان هذا الإمبراطور يشبه فئة الأباطرة فى الفترة الأخيرة فى بعض الجوانب، ويختلف عنهم كل الاختلاف فى جوانب أخرى، مثلهم من حيث أنه جندى فى الجيش الرومانى من أصل متواضع وتمكن من الوصول إلى منصب رفيع فى الجيش؛ ومثلهم أيضاً من حيث أنه توصل إلى السلطة عن طريق الجيش والمؤامرة والحرب الأهلية. ولكنه يختلف عنهم فى أنه كان شخصية قوية ذا مواهب فذة فى الإدارة والحكم بالرغم من أنه لم يكن قائداً عسكرياً عظيماً، وكثيراً ما عهد بقيادة الجيوش إلى غيره من أعوانه الضباط. وبالرغم من أنه شخصية محافظة إلى أبعد حدود المحافظة، وخاصة من الناحية الدينية، ولكنه كرس نفسه لمهمة أعجزت من سبقه من الأباطرة وهى وقف الإمبراطورية الرومانية من الانزلاق إلى هوة التدهور والفوضى التى كانت مندفعة إليها. وفى قيامه بهذا العمل لم ينظر إلى أمام بقدر ما نظر إلى خلف، فهو لم يعتبر نفسه واضع أسس نظام وعهد جديد، وإنما اعتقد أنه يعمل ليعيد

الدولة إلى سابق شأنها . ولكن النظام القديم كان فى معظمه قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يأتى دقلديانوس إلى الحكم ، ولهذا حين تصدى هذا الإمبراطور للإصلاح لم يجد بداً من وضع قواعد ونظم وقوانين جديدة ظلت أساس الإدارة والحكم فى الإمبراطورية طيلة القرون الثلاثة التالية حتى زمن الإمبراطور جستنيان فى القرن السادس . فلا غرو إذن إذا اعتبر المؤرخون المحدثون عصر دقلديانوس هو نقطة التحول فى التاريخ القديم من عصر الإمبراطورية الرومانية إلى العصر البيزنطى والعصر المتأخر من الإمبراطورية الرومانية [1] .

ومن أهم إصلاحاته التى تأثرت بها مصر أنه فصل بين السلطتين المدنية والعسكرية فى الولايات ، وبعد ذلك قسم الولايات الكبرى إلى عدد من الولايات الصغرى ليخفف عن كاهل الإدارة المركزية . فانقسمت مصر إلى ثلاث ولايات نتيجة لذلك (وسوف نتحدث عن هذا التنظيم الإدارى بمزيد من التفصيل فى فصل مستقل) . أما فى مجال المالية والاقتصاد فقد حاول دقلديانوس إصلاح نظام العملة بإصدار عملة جديدة ذهبية وفضية بالإضافة إلى الدينار البرنزى القديم بعد أن أدخل على وزنه بعض التعديل بما يتفق والنظام الجديد للعملة الذى كان الهدف الأساسى منه هو منع تدهور قيمة العملة الذى ساد فى القرن الثالث . ثم أتبع ذلك بإصدار قائمة تحدد أسعار السلع الضرورية فى أنحاء الإمبراطورية . وحين قاوم التجار هذه التشريعات حاول تطبيقها بقسوة بالغة ، ولكنه فشل أيضاً واختفت السلعة من الأسواق حتى اضطرت الحكومة إلى إغفال الأمر كلية . ولكن دقلديانوس كان أكثر توفيقاً فى محاولته إصلاح نظام الضرائب . فحسب منهجه فى توحيد نظم الإمبراطورية أخضع جميع الولايات

---

(١) جميع كتب التاريخ التى تعالج هذا العصر تتحدث عن دقلديانوس وإصلاحاته ، ولكن أنظر بصفة خاصة : W. Ensslin, The Reforms of Diocletian, in Cambridge Ancient History, vol. XII, pp. 383 ff.

لنظام ضرائبي جديد بدلا من النظم المتعددة المختلفة التي كانت متبعة من قبل . ويتلخص النظام الجديد في أبسط صورة في فرض ضريبة مزدوجة جديدة على الأفراد والأرض بقدر متساو في كل أنحاء الإمبراطورية . ولكن نظراً لأن القيمة النوعية للأرض تختلف حسب خصوبتها والغلة التي تنتجها فقد وضعت قواعد دقيقة لمراعاة ذلك ، بحيث أن بساتين الفاكهة ومزارع الزيتون كانت تقدر عليها ضريبة أكثر من أرض الحبوب أو المراعي وهكذا . وقد أمكن تنفيذ هذه السياسة الجديدة عن طريق إجراء إحصاءات للأفراد ومسح للأراضي في فترات متقاربة (كانت وحدة قياس الأرض في النظام الجديد هي اليوجوم Iugum وهي تعادل نصف فدان أو أقل قليلا) .

ولكن مهمة دقلديانوس في الحكم والإصلاح كانت غاية في الصعوبة ، إذ كان عليه في الوقت نفسه أن يؤمن حدود الإمبراطورية المترامية ضد غزوات المتبربرين من كل جانب ، ثم أن يقمع أي مقاومة أو ثورة محلية ضد حكمه أو تشريعاته ، ثم أخيراً أن يخمد الحركة الدينية الجديدة التي تهدف إلى القضاء على جميع العقائد الدينية التي ألفتها الإمبراطورية حكومة وشعوباً من قديم ، ونقصد بالدين الجديد المسيحية . ولقد تمثلت هذه العناصر الثلاثة في مصر في ذلك الوقت ، فكانت حدود مصر الجنوبية تعاني من هجمات القبائل المعروفة باسم Blemyes جنوب مصر ، وقد عالج دقلديانوس هذا الخطر بأن اشترى سلامهم بالمال ، ثم أقام قبيلة قوية من النوبيين على حدود مصر الجنوبية لتتكفل بحماية الحدود ضد أي خطر واتفق معهم على أن يمدهم سنويا بإعانة مالية مناسبة . ولكن ذلك لم يؤمن مصر ، فسرعان ماظهر خطر آخر أشد في داخل البلاد ، إذ استطاع أحد القواد الرومان دومتيانوس (Lucius Domitius Domitianus) والذي اشتهر في الأسكندرية باسم أخيليوس Achillens ، من الثورة ضد الإمبراطور الجديد وأعلن نفسه إمبراطوراً في الأسكندرية . تمثل هذه الثورة

بالنسبة لدقلديانوس خطراً حقيقياً ، نظراً لأنها تهدف إلى إيجاد إمبراطور جديد أولا ، وأنها تتخذ مصر مركزاً لها ، وفى ذلك تهديد صريح بمنع إرسال القمح إلى روما . ويكفى للدلالة على خطورة هذه الثوره أن دقلديانوس حضر بشخصه فى الحال إلى الأسكندرية وقمع الثورة بعد حصار المدينة مدة ثمانية أشهر و تدمير أجزاء كثيرة منها . ويبدو أن الحالة فى المدينة كانت سيئة جداً ، حتى أن الإمبراطور أمر بتوزيع جزء من القمح المرسل الى روما بين الأسكندريين . ومن المحتمل أن أهل الأسكندرية أظهروا سعادتهم بهذه المنحة من الإمبراطور بأن أقاموا له ذلك العامود الضخم المعروف باسم عامود بومبى ، ولايزال موجوداً بالمدينة .

بعد القضاء على هذه الثورة أمكن تطبيق السياسة والنظم الجديدة فى مصر ، ومن بين محاولات دقلديانوس فى إعادة تنظيم وبناء الإمبراطورية على أساس متجانس يبعد عنها الاختلافات والانقسامات ، حتى ولو كانت اختلافات فى الرأى أو العقيدة ، هى القضاء على الحركة المسيحية النامية فى ذلك الوقت . فبالرغم من أن المسيحية أساساً دعوة دينية مجردة بعيدة عن السياسة كل البعد ، إلا أنها بدعوتها إلى نبذ الآلهة القديمة جميعاً كانت تهدم ركنا أساسياً من أركان البناء الذى تقوم عليه الإمبراطورية خاصة وأن رفض العبادات القديمة كان معناه رفض قدسية شخص الإمبراطور . من أجل ذلك اعتبرت المسيحية فى عصرها الأول على أنها حركة مناهضة للنظام الإمبراطورى المتوارث . فإذا كان الأباطرة السابقون قد ضاقوا بالمسيحيين، فمن المتوقع ألا يقف دقلديانوس بسياسته التى تؤمن بوحدة التنظيم ووحدة الهدف فى البناء الإمبراطورى مكتوف الأيدى من هذه المشكلة أيضاً وكما فعل فى مجال إصلاح الإدارة والاقتصاد عن طريق وضع مبادىء ونظم جديدة ، كذلك حاول إصلاح الحالة الدينية بوضع مبدأ دينى جديد . هذا المبدأ الجديد هو زيادة

الصفـــة المقدسة لشخص الإمبراطور ، وأطلق على نفسه لقب چيوفيوس (Jouius) ومعناها ممثل جوپتير ، كبير الآلهـــة ، على الأرض . ومع ذلك فلم يسارع الى الاضطهاد بل بقى فترة طويلة من حكمه تبلغ عشرين عاماً تقريبـاً يؤكد مركزه على رأس الدولة ، دون أن يتعرض للمسيحيين بأذى كبير ، حتى إذا كان عام ٢٩٨ قام بمحاولة محدودة لتطهير الإدارة والجيش من المسيحيين ، بينما كان يستعد لحرب الفرس ، ولـكن فى سنة ٣٠٣ نجد دقلديانوس ييـأس من الوسائل السلمية فى حل مشكلة الانقسام الدينى فى الإمبراطورية ، ويبدأ أقسى اضطهاد عرفه المسيحيون . فصدرت الأوامر الإمبراطورية تقضى بجمع نسخ الـكتاب المقدس لحرقها وتدمير الـكنائس ومنع المسيحيين من الاجتماع والعبادة . وقد نفذت هذه الأوامر الإمبراطورية بقسوة بالغـــة فى كثير من الأحيان ، واستمرت نحوا من عشر سنوات ، أى ثمانى سنوات بعـد اعتزال دقلديانوس الحـكم . ونظراً لأن حاكم مصر فى ذلك الوقت كان من الحزب المتطرف في مقاومته وكراهيته للمسيحيين فقد كان الاضطهاد فى مصر أشد قسوة من بعض الولايات الأخرى ، وراح ضحيته ألوف كثيرة من شتى الطبقات والمدن [١] .

قسطنطين (٣٢٣ — ٣٣٧) :

استمر اضطهاد للمسيحيين على أيدى الأباطرة الرومان بعد دقلديانوس ، حتى إذا كان عام ٣٢٣ نجح قسطنطين فى تولى الحـكم وأصبح أول إمبراطور مسيحى للإمبراطورية الرومانية [٢] . وكان أول عمل قام به هذا الإمبراطور

---

(١) أنظر وصف يوسيبيوس عن الاضطهاد فى مصر
Eusebius: Hist. Eccles. VIII. 8.

(٢) أنظر عن قسطنطين وعصره كتاب A. H. M. Jones, Constantine and The Conversion of Europe, London, 1948.

هر الاعتراف الرسمى بالمسيحية ، وبذلك بدأت عهداً وتاريخاً جديداً يختلف كل الاختلاف عن سيرتها السابقة . فمنذ ذلك الوقت بدأ المسيحيون يعملون فى حرية واطمئنان ، وكان لذلك نتائجه السيئة أيضاً . ففى عصر الخوف والترقب السابق لم يجرؤ المسيحيون على إظهار خلافهم وانقسامهم فى الرأى ، لأنهم فى ذلك الوقت كانوا فى أشد الحاجة إلى تماسكهم وتساندهم ، وربما أودى أى انقسام بينهم بالحركة كلها . ولم يكن معنى ذلك أنه لم توجد بين المسيحيين خلافات فى الرأى قبل قسطنطين ، بل وجدت هذه الخلافات ، وقد أشرنا إلى الخلاف بين أوريجينيس والكنيسة فى الأسكندرية وإلى انقسام رأى الكنيسة بشأن المرتدين فى عصر الاضطهاد . ولكن المسيحيين فى ذلك الوقت كانوا يبقون هذه الانقسامات فى أضيق نطاق ممكن ، دون أن تتحول إلى خلافات جماعية . ولكن ما أن أمن المسيحيون على أنفسهم من الاضطهاد وضمنوا الدولة إلى جانبهم حتى وجدناهم يظهرون ما كانوا يضمرون من التشيع والانقسام ويهمنا من ذلك انقسامان حدثا فى مصر . الأول وهو ظهور الدعوة الأريوسية فى الإسكندرية ، والثانى هو موقف مليتيوس من المرتدين فى عصر الاضطهاد .

أما عن الدعوة الأريوسية فهى نسبة إلى أريوس (Arius) الذى كان من أصل ليبى وتعلم فى أنطاكية وأصبح أحد رجال الكنيسة فى الأسكندرية. ويبدو أنه كان على جانب كبير من الطموح وقوة الشخصية وحدة العقل ؛ ونظراً لتعلمه فى مدرسة أنطاكية المسيحية التى كانت تسود فيها فلسفة أوريجينيس الدينية التى كانت مشبعة بالفلسفة الأفلاطونية ، فقد بقى محافظاً على تعاليم هذه المدرسة وأخذ يطبقها ويمارسها فى الأسكندرية بصورة متطرفة . وسرعان ما صاغ آراء مستقلة فى العقيدة المسيحية تختلف عن العقائد السائدة ، مما أوقعه فى صدام عنيف مع أسقف كنيسة الأسكندرية فى ذلك الوقت المسمى إسكندر . وتتلخص عقيدة

أريوس فى أنه ابتدأ بموقف أفلاطونى وهو أن الإله وجود دائم ولا يمكن إدراكه ؛ ثم استنتج من ذلك نتيجة منطقية فى أن « الإبن » لا يمكن أن يكون إلهاً بنفس المعنى ، ولذلك يلزم منطقياً أن وجوده كان لاحقاً لوجود الإله ، وبعبارة أخرى أن « الإبن » له بداية ، فى حين أن الإله «الأب» قديم ودائم . وأخيراً بما أن الإله « الأب » ، لا يقبل الانقسام فلا بد أن « الإبن » خلق من العدم . مثل هذه الآراء صدمت كثيرين من رجال الكنيسة فى الأسكندرية الذين كانوا يعتقدون أن الإبن مثل الأب قديم دائم وأنهما من طبيعة واحدة ؛ وقد تحرج الموقف كثيراً نتيجة لذلك حتى اضطر الأسقف اسكندر إلى عقد مجمع من القساوسة فى مصر وليبيا وأصدروا استنكاراً لعقيدة أريوس وأعلنوا حرمانه وأتباعه من الكنيسة . ولكن خطر دعوة أريوس لم يقتصر على مصر بل انتشر خارجها فى فلسطين وليبيا وآسيا الصغرى . ولم يمكث اسكندر مكتوف الأيدى بل راح يعمل بنشاط جم بين أساقفة الكنائس فى الولايات الشرقية يحضهم على مقاومة دعوة أريوس فى مناطقهم بكل قوة . فى ذلك الوقت حاول قسطنطين أن يتدخل فى الأمر ويصالح بين أريوس واسكندر بدون جدوى فقرر عقد مجمع دينى عالمى يشترك فيه أساقفة الكنائس المختلفة فى الشرق والغرب لوضع حد للانقسامات العقائدية التى انتشرت فى ذلك الوقت ، وأرسلت الدعوة للاجتماع فى نيقيا فى آسيا الصغرى فى سنة ٣٢٥ .

أما عن المسألة الثانية وهى موقف ميليتيوس من معاملة الكنيسة للمرتدين فتتلخص فى أن ميليتيوس كان يدعو إلى اتخاذ موقف متطرف متزمت من الذين ضعفوا أمام الاضطهاد وارتدوا عن المسيحية ، فى حين أن الأسقف اسكندر كان يؤثر موقفاً متسامحاً ، يبيح العفو بعد التوبة(١) . ورغم عدم

(١) أنظر Bell, Jeus and Christians in Eg pt, pp. 38 ff.

خطورة موضوع الانقسام وبقائه مصرياً إلا أن ميليتيوس كان عنيداً متعصباً ، فلم يتزحزح عن آرائه قيد أنملة ، وشجعه على ذلك كثرة أتباعه ، حتى اضطرته الكنيسة المصرية إلى نفيه إلى فلسطين . وقد بلغ به التعصب أنه بنى له ولأتباعه كنيسة خاصة أطلقوا عليها اسم كنيسة الشهداء حتى لا يشاركوا المسيحيين الآخرين كنيستهم الكاثوليكية . ورفع الأمر إلى قسطنطين الذى قرر عرضه على مجمع نيقيا أيضاً .

وانعقد مجمع نيقيا فى سنة ٣٢٥ وشهده القساوسة من جميع أطراف الإمبراطورية ، ورأس الإمبراطور نفسه المجمع وشهد كثيراً من الجلسات وأشرف على إدارة المناقشات . وبالرغم من أن المجمع تناول كثيراً من مشاكل المسيحية فى ذلك الوقت إلا أن الخلاف بشأن العقيدة الأريوسية كان المشكلة الأساسية التى واجهها المجمع ، ولذلك شغل بأمر الوصول إلى صياغة للعقيدة المسيحية يمكن أن يقبلها المسيحيون من الفرق المختلفة . وفى المرحلة الأولى من المناقشة حاول أتباع مذهب أريوس اقتراح عقيدة ولكنها رفضت بأغلبية ساحقة ، وبعد مناقشات طويلة أمكن الوصول إلى صياغة عقيدة تتضمن المبادىء المسيحية الأساسية التى يقبلها الجميع ، ووضعت فى ألفاظ لا تثير الاختلافات المذهبية . ولكن بعد أن أقر المجمع هذه الصيغة اقترح قسطنطين إضافة لفظ واحد يصف العلاقة بين الأب والإبن بأنهما من طبيعة واحدة (homoousion) .

وتعتبر إضافة هذا اللفظ مجاملة كبرى من الإمبراطور للأكثرية التى رفضت عقيدة أريوس ، لأن قسطنطين كان يحرص فى الواقع على كسب ولاء الأكثرية قبل التفكير فى مناصرة مذهبهم الدينى . ولقد قبله أكثر الحاضرين بما فيهم أتباع مذهب أريوس ، ولم يعترض على هذا القرار سوى اثنين من أتباع أريوس المخلصين ، فأصدر المجمع فى الحال قراره بحرمانهما مع أريوس

نفسه من الكنيسة كما أصدر الإمبراطور أمره بطردهم من مصر .

أما فيما يتعلق بفتنة ميليتيوس فقد صدر قرار طابعه الرحمة والسعى إلى الصلح بين الطرفين ، وفحواه أن يحافظ ميليتيوس على لقبه الدينى ، دون أن يمارس عمله فى الكنيسة ، ولكن سمح لأتباعه من رجال الدين أن يعودوا إلى عملهم فى الكنيسة بعد قبول الأسقف اسكندر لهم [1] .

ولكن رغم الإجماع والسياسة الموحدة التى ظهرت فى مجمع نيقيا ، فإنه لم يضع الحل النهائى للمشاكل التى واجهها ، فالأريوسية لم تمت بنفى زعيمها ، والانقسام الميليتيوسى لم يربأ باقتراح ذلك الصلح الساذج .

وقد أدرك الإمبراطور قسطنطين ذلك فى الحال فسعى إلى استكمال وحدة الكلمة عن طريق إصدار عفو عن أريوس ، وأمر بإعادته الى منصبه فى الأسكندرية . ولكن اسكندر أسقف الأسكندرية رفض إجابة طلب الإمبراطور .

وبذلك بدأ خلاف عنيف بين كنيسه الأسكندرية والقصر الإمبراطورى فى القسطنطينية ، واتسم موقف مصر فى هذا الخلاف بالطابع الدينى والسياسى فى وقت واحد ، ويتضح المظهر السياسى بجلاء فى أنه بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية بعد قسطنطين إلى شرقية وغربية فى القسطنطينية وروما ، تتحسن العلاقات بين الأسكندرية وروما بقدر ماتسوء مع القسطنطينية . ولقد اكتسبت كنيسة الأسكندرية أهمية عالمية لايشابهها فى ذلك سوى كنيسة روما ذاتها . وكان لشخصية أثناسيوس ، الذى خلف اسكندر أسقفاً فى سنة ٣٢٨ ، تأثير كبير على نمو الكنيسة المصرية فى هذه الفترة . فقد منح أثناسيوس من طول

---

(١) هناك عرض قيم لمجمع نيقيا فى كتاب Jones, Constantine, pp. 152—171

العمر وقوة الشخصية وذكاء العقل ما مكنه من السيطرة على الكنيسة المصرية زهاء نصف قرن من الزمان .

وفى هذه السنين الطويلة واجه الأباطرة فى القسطنطينية الواحد بعد الآخر وتحمل النفى مرة بعد أخرى فى عناء وشدة مراس جعلت منه زعيما شعبياً وليس مجرد أسقف للكنيسة [١] .

ويبدأ الخلاف بين أثناسيوس وقسطنطين أول الأمر بسبب مسألة أريوس، إذ يتخذ أثناسيوس موقفاً شبيها بموقف سلفه ويصر على رفض أمر الإمبراطور بإعادة أريوس إلى كنيسة الأسكندرية . وبعد تكرار المحاولات يعقد الإمبراطور مجمعاً دينياً فى مدينة صور سنة ٣٣٥ لمحاكمة أثناسيوس الذى كيلت له تهم مختلفة لا تقتصر على موقفه من أريوس والإمبراطور وإنما بعضها ذات طابع سياسى مثل استخدام القوة فى معاملة أتباع ميليتيوس والتدخل فى تعطيل إبحار القمح المصرى الذى كان يرسل إلى القسطنطينية كل عام ، ثم تأييده ثورة قامت ضد الإمبراطور فى مصر قادها شخص يدعى فيلومينوس سنة ٣٣٥ . ويقرر مجمع صور عزل أثناسيوس من منصبه ، ويلحق الإمبراطور ذلك بأمر نفيه من مصر . ويذهب أثناسيوس إلى بلاد الغالة أى إلى القسم الغربى من الإمبراطورية .

ولكن ما أن يتوفى الإمبراطور قسطنطين فى عام ٣٣٧ حتى يعود أثناسيوس إلى الأسكندرية ، ويقاوم عودته أتباع أريوس وميليتيوس أشد المقاومة ، ولكنه يتمكن من القضاء على مقاومتهم عن طريق إحضار جماعات من الرهبان بزعامة أنطون الراهب إلى الأسكندرية ، وينجح فى تولى مقاليد الكنيسة من جديد . ولكن الأمر لا يستقيم له طويلا ، فإن الامبراطور الجديد فى الشرق ، قسطنطيوس الثانى يضيق

---

(١) أنظر عرضاً لشخصية أثناسيوس فى كتاب :
Hardy, Christian Egypt, pp. 47—78.

بهذا الأسقف الخطير ويصدر أمراً بطرده وأتباعه من الكنيسة فى سنة ٣٣٩ . وقد وجه إلى أثناسيوس اتهام آخر وهو أنه باع القمح الذى منحه الإمبراطور للكنيسة لتوزيعه مجاناً بين المحتاجين . ويبدو أن هذا الاتهام لم يكن خالياً من بعض الصدق ، لأن أثناسيوس كتب مفسراً بأنه وزع بعض القمح على مستحقيه مجاناً وأنه لم يبع القمح كله . على أى حال لم ينتظر أثناسيوس إلى أن يلقى القبض عليه بل فر إلى روما حيث كان يثق فى مناصرة البابا وإمبراطور الغرب له . وفعلا يتقبله أولوا الأمر فى روما بالترحاب ويساعده إمبراطور الغرب على العودة إلى الأسكندرية ، وينجح مسعاه فى سنة ٣٤٦ . وبذلك ينتهى فترة نفى أثناسيوس الثانية ويعود إلى الأسكندرية . وتبدأ أمجد فترة فى تاريخ رياسته لكنيسة الأسكندرية التى تستمر عشرة أعوام . وفى هذه الأعوام العشرة يعمل أثناسيوس على توطيد مركزه فى مصر ومحارب الأريوسية التى كان قد استشرى أمرها فى البلاد فى فترة نفيه . وفى هذه الفترة نمت الكنيسة المصرية نمواً كبيراً وتعددت حدود مصر ، فأنشأت كنيسة فى إثيوبيا فرعاً من كنيسة الأسكندرية .

وكان المسيحيون فى هذه الأثناء منذ عصر قسطنطين قد دمروا كثيراً من المعابد الوثنية أو حولوها كنائس. وكان ذلك يتم برضاء السلطات الرسمية وبأمرها أحياناً . ومن أشهر ما تم فى هذا المجال هو قرار الإمبراطور بإعادة بناء معبد القيصرون وتحويله إلى كنيسة بالأسكندرية ، وكان ذلك فى أثناء هذه السنين العشرة لأثناسيوس ، ويبدو أن أسقف الأسكندرية تعجل الأيام ولم ينتظر حتى يتم بناء القيصرون ، بل أقام الصلاة فيه قبل إتمامه نظراً لاتساعه . ويبدو أن الإمبراطور لم يكن راضياً عن زيادة نفوذ أثناسيوس ، فانتهز فرصة إقامته الصلاة فى الكنيسة الجديدة دون إذنه ، فاعتبر ذلك تعدياً من أسقف الأسكندرية على امتيازات الإمبراطور . وكان إمبراطور روما الذى يعطف على أثناسيوس

قد توفى ذلك الوقت وأصبح قسطنطيوس إمبراطورا مفرداً فى الإمبراطورية بقسميها الشرقى الغربى ، فقرر التخلص من أثناسيوس وأرسل قوة مسلحة لإلقاء القبض عليه فى سنة ٣٥٦ ، ولكنه تمكن من الفرار واختفى بما يشبه المعجزة . وظل مختفياً فترة تعتبر بمثابة نفيه الثالث ، ولكن فى هذه المرة لم يترك مصر بل اختفى بين الرهبان المصريين متنقلا بين الأديرة المختلفة التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت سواء فى الصعيد أو فى صحراء مصر الغربية . وقد حاول أثناسيوس أن يعود الى كنيسته مرة ثانية فى عهد الإمبراطور الجديد يوليانوس (٣٦١—٣٦٣) ولكنه فشل وأصدر الإمبراطور قراراً بنفيه من الأسكندرية ، فاضطر أثناسيوس إلى أن يختفى ثانية بين الرهبان . وفى عام ٣٦٣ — ٣٦٤ تولى العرش فى القسطنطينية إمبراطور مؤيد لأثناسيوس ، فعفى عنه وأعاده إلى كرسية فى كنيسه الأسكندرية .

ورغم تغير الإمبراطور فى القسطنطينية وتولى فالنس Valens الحكم فى التالى العام (٣٦٤—٣٧٨) وكان موالياً للحركة الأريوسية ، إلا أن أثناسيوس تمكن بفضل شعبيته الكبيرة بين المصريين عموما من البقاء فى أسقفيته حتى وفاته سنة ٣٧٣ .

بعد وفاة أثناسيوس خلفه أحد زملائه القدماء ، ويدعى بطرس ، ولكن الإمبراطور ڤالنس الذى كان متشيعاً للأريوسية أراد أن ينتهز فرصة موت أثناسيوس ويعين أسقفاً أريوسياً ، ولذلك لم يعترف ببطرس وعين لقيوس Lucius ، وأقامه فى أسقفية الأسكندرية بقوة السلاح حتى أن بطرس لجأ إلى الفرار إلى روما .

وتمثل أسقفية لقيوس آخر محاولة أريوسية للسيطرة على كنيسة مصر ، وقد تميزت أيامه ببعض الأحداث ذات الأهمية التاريخية . فراح ينتقم من أتباع

أثناسيوس وينكل بهم وخاصة بين رهبان الصحراء الغربية بالقرب من الأسكندرية . ولكن صاحب حركة اضطهاد الرهبان صدور قرارات من الإمبراطور تلقى ضوءاً على الحياة العامة فى مصر فى هذه الفترة . ذلك أن بعض الأثرياء الذين تقع عليهم مسئولية تولى الوظائف العامة . انتهزوا فرصة انتشار حركة الرهبنة وانضموا إلى صفوفها تاركين الحياة فى المدينة علهم بذلك يتجنبون مسئولية تولى الوظائف العامة التى كانت تكلفهم مبالغ كثيرة دون فائدة تذكر فى تلك الأيام . وقد أضر هذا الاتجاه بالنظام الإدارى فى مصر أيما ضرر . فأصدر الإمبراطور قراراً يقضى بأنه يجب على الأثرياء من المواطنين الذين يهجرون المدن بدعوى الانضمام إلى صفوف الرهبان أن يعودوا ثانية أو أن يسلموا جميع ممتلكاتهم للدولة .

ولكن إجراءات الدولة لم تمنع أفراداً من كل الطبقات أن يتركوا مواطنهم ويذهبوا إلى الأديرة ، مما أخذ يؤثر على حركة التجنيد للجيش ، فاضطر الإمبراطور إلى إصدار أوامره بتجنيد القادرين من الرهبان للخدمة فى الجيش الرومانى . وفعلا ذهبت قوات عسكرية إلى الأديرة فى الصحراء الغربية، فاعتقلوا من اعتقلوا وقتلوا من قاوم ، كما نفت الدولة عدداً من رؤسائهم . كل ذلك أدى إلى ثورة الأهالى والرهبان على الأسقف الأريوسى ، حتى أنه اضطر إلى الفرار إلى القسطنطينية ؛ فى حين تمكن بطرس الذى كان منفياً فى روما من العودة إلى الأسكندرية (فى عام ٣٧٥ أو ٣٧٦) .

بعد ذلك تولى الحكم فى القسطنطينية إمبراطور جديد هو نيودوسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥) ، وأراد أن يعالج المشاكل الدينية فى الإمبراطورية بطريقة تظهر بساطة تفكيره وأنه لم يعرف مدى عمق هذه الانقسامات . فابتدأ بأن أعلن ضرورة تعميم عقيدة مجمع نيقيا فى كل الكنائس ، ثم أكد ذلك الإعلان بأن عقد

مجمعاً فى القسطنطينية دون أن يشهده ممثلون عن الكنيسة المصرية خطا فيه خطوة جديدة نحو زيادة أهمية عاصمته من الناحية الدينية ، فأعلن أن كنيسة القسنطينية يجب أن يكون لها مكان الشرف التالى لكنيسة روما لأن القسطنطينية كانت « روما الجديدة » معنى ذلك أن الأسكندرية فقدت مركزها كثانى كنيسة بعد روما . ثم أصدر المجمع قراراً آخر يقضى بأن تقتصر كل كنيسة على الإقليم الذى تقع فيه ، وهذا يعنى أيضاً أن تقتصر كنيسة الأسكندرية على مصر بعد أن كان لها نشاط خارجى ملحوظ . هـذه القرارات لم يكن لها رد فعل مباشر فى مصر ، ولكنه سيظهر بعد قليل ، والسبب فى ذلك هو أن الإمبراطور الجديد شغل الكنائس جميعاً والإدارة الإمبراطورية فى أمر القضاء على الوثنية فى أرجاء الإمبراطورية . وفى مصر تولى أسقف الأسكندرية فى ذلك الوقت وهو ثيوفيلوس مهمة تنفيذ هذه السياسة ، التى نفذها بكل قسوة ووحشية . ولما كان معبد السرابيوم فى الأسكندرية من أشهر معاقل الوثنية القديمة ، وكثيراً ما احتمى به الوثنيون . لذلك استعان ثيوفيلوس بالسلطات العامة فى المدينة وهاجم المعبد ومن فيه . فدمر المعبد والمكتبة الكبيرة التى كانت ملحقة به . وفى أثناء هذه المحنة فر كثير من رجال العلم والفلسفة الذين كانوا يشرفون على مدارس الأسكندرية ، نظراً لأنها كانت مركزاً للفكر الوثنى . بعد ذلك تحول ثيوفيلوس إلى اضطهاد خصومه فى الرأى من رهبان الصحراء الغربية مستخدماً فى ذلك قوة من الجنود الرومان أيضاً .

الانقسام المذهبى بين الأسكندرية والقسطنطينية :

فى سنة ٤١٢ توفى ثيوفيلوس وخلفه الأسقف كيرلس الذى يعتبر أهم من تولى أمر الكنيسة المصرية بعد أثناسيوس . ويغلب على شخصية كيرلس طابع التطرف سواء فى أعماله أو أفكاره ، مع ميل إلى العنف . وقد بدا ذلك واضحاً

فيما حدث فى أيامه من تجديده اضطهاد اليهود فى الأسكندرية بعد أن خمد نحواً من ثلاثة قرون ، وفى هذا الاضطهاد لم يعتمد على جنود الحامية العسكرية ، بل اعتمد على العامة فى المدينة والرهبان فى الصحراء الغربية بالقرب من الأسكندرية . وبلغ من عنف هذه الأحداث أن اضطرب الأمن كل الاضطراب ، وأخذ الغوغاء ينهبون بيوت الأثرياء وممتلكاتهم ، وعجز الوالى ورجال الجيش عن إخماد هذه الاضطرابات لأن كيرلس بدأ يقوم بدور سياسى شبيه بدور أثناسيوس وهو تولى زعامة الشعب المصرى ضد الإمبراطور وممثليه فى مصر وهم الوالى وأعوانه.

وقد بلغ بكيرلس التطرف حتى أنه ضاق بمدارس الفلسفة فى الأسكندرية باعتبارها مراكز للفكر الوثنى . ومن أبرز شخصيات الحياة الفكرية والأدبية فى الأسكندرية فى ذلك الوقت الفيلسوفة المشهورة هيباثيا ، التى كانت على جانب كبير من العلم والجمال معاً . وكان يؤم دروسها الشباب من المسيحيين والوثنيين على السواء ، وكانت لها علاقات طيبة مع كثير من علية القوم فى الأسكندرية من أصحاب الاتجاهات المختلفة . وقد وجه كيرلس اضطهاده ضد هذه السيدة العالمة وهاجمها الرهبان وقتلوها فى سنة ٤١٥ . بعد ذلك تدخل الإمبراطور وأرسل بعثة للتحقيق فكف كيرلس عن هذه الأعمال .

على أن أهم ما يتميز به كيرلس وعصره هو نشأة الصراع المذهبى بين القسطنطينية والأسكندرية الذى سينتهى بانفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية الشرقية نهائياً فيما بعد . فمنذ أن أعلن ثيودوسيوس فى سنة ٣٨١ جعل كنيسة القسطنطينية بمثابة الكنيسة الرسمية والأولى للإمبراطورية الشرقية ، كان معنى هذا أن أصبح أسقف القسطنطينية بمثابة المتحدث الرسمى عن وجهة نظر القصر الإمبراطورى من الناحية الدينية . وقد حدث فى ذلك الوقت أن نشأ خلاف جديد بين المسيحيين حول طبيعة المسيح من الناحيتين الإلهية والبشرية . وكان من الطبيعى أن تفرز

الكنيسة الرسمية فى القسطنطينية موقفها من هذه المشاكل، وفعلاً أصدر نسطور أسقف القسطنطينية رأيه فى الأمر منادياً ببشرية المسيح إلى جانب ألوهيته. وفى الحال انقسمت الكنائس المختلفة إلى فريقين: فريق يؤيد الدعوة النسطورية أو الملكانية كما أصبحت تدعى فيما بعد نظراً لأنها تعبر عن رأى الإمبراطور أيضاً، وفريق يعارضها أشد المعارضة، وقد تمثل الفريق المعارض فى مصر وسوريا وأرمينيا، وكانوا يدعون إلى اعتبار المسيح ذا طبيعة إلهية واحدة ولذلك أطلق عليهم اسم أصحاب الطبيعة الواحدة (monophysites) وقد أطلق على المسيحيين فى سوريا من أصحاب هذا المذهب اسم اليعاقبة نسبة إلى زعيمهم يعقوب. ولم يكن موقف كل من سوريا ومصر دينياً مجرداً (وكانا على صلة وثيقة فى ذلك الوقت)، بل كانت تكمن وراء موقفهما دوافع قومية ورغبة ملحة فى معارضة الإمبراطور وكل ما يصدر عن السلطات الحاكمة؛ وكانوا يجدون فى الخلافات المذهبية سبيلا لإظهار ذلك كله.

ولذلك ما أن أعلن نسطور عقيدته فى القسطنطينية حتى راح كيرلس فى الأسكندرية يهاجمها ويفندها، ويعمل جاهداً على بلورة الفكرة المعارضة على أساس من الفقه الدينى ليروج لها فى مصر وخارج مصر. حتى أنه نجح فى مجمع أفسوس سنة ٤٣١ أن يفرض رأيه على الأعضاء ويصدر حكما ضد نسطور نفسه.

وهكذا بقى كيرلس متمتعاً بمكانة عالية حتى نهاية حياته سنة ٤٤٤، وخلفه الأسقف ديوسقورس (٤٤٤ — ٤٥١) واستأنف الصراع ضد القسطنطينية، إذ تجدد الخلاف مرة ثانية. ذلك أن أسقف القسطنطينية الجديد (فلافيانوس)، بعث الفكرة النسطورية من جديد، ودعا لضرورة إثبات الطبيعتين للمسيح. وقد استطاع ديوسقورس أن ينزع لنفسه انتصاراً سريعاً فى مجمع أفسوس سنة ٤٤٩؛ ولكن يبدو أن انتصاره تم بأساليب غير

مشروعة مثل الرشوة والتهديد ، حتى أطلق على هـذا المجمع اسم « مجمع اللصوص » .

وفى العام التالى توفى الإمبراطور ثيودوسيوس الضعيف وخلفه ماركيانوس الذى قرر إلغاء قرارات مجمع أفسوس الأخير ودعا إلى عقد أكبر مجمع قديم فى خلقيدون سنة ٤٥١ . وعن هـذا المجمع خرجت عقيدة دينية جديدة تؤكد « أن للمسيح طبيعتين ، غير مندمجتين ، ولا متغيرتين ، ولا منقسمتين ، ولا منفصلتين[1] » .

وقد حوكم ديوسقورس أمام هذا المجمع ، وصدر الحكم بعزله من منصبه لا بسبب انحرافه عن العقيدة التى أقرها المجمع ولكن بسبب سوء سلوكه . وبعد ذلك صدر أمر الإمبراطور بنفيه إلى جانجرا بآسيا الصغرى (Gangra) ، حيث توفى فى سنة ٤٥٤ .

ولكن قرارات مؤتمر خلقيدون ونفى ديوسقورس لم تنه الخلاف ولم تنجح فى إيجاد الوحدة الدينية للإمبراطورية ؛ وحين حاول الإمبراطور تطبيق هذه القرارات بالقوة ، أدى الأمر إلى اضطرابات عنيفة راح ضحيتها كثير من الأفراد وخاصة فى مصر وسوريا ، حيث بقيت دعوة الطبيعة الواحدة قوية ، بل أخذت كل من سوريا ومصر تنزعان إلى الانفصال عن القسطنطينية وكان تاريخ الكنيسة المصرية بعد ذلك سلسلة من المنازعات بشأن اختيار الأسقف ، فمن ينتخبه المصريون لا يعينه الإمبراطور ، ومن يعينه الإمبراطور لا يقبله المصريون ؛ إلى أن تم الاتفاق أخيراً سنة ٤٨٢ على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل الإمبراطور حتى ليمكن أن يتخذ هذا التاريخ بداية انفصال

---

(١) أنظر نص العبارة ومصادرها : Hardy, Christian Egypt, p. 112
وفى كتاب الدكتور السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ص ٧٣ .

كنيسة الأسكندرية عن القسطنطينية ، رغم أن بعض الأباطرة سيحاولون التدخل فى شئون الكنيسة المصرية بعد ذلك . .

هذه الانقسامات المذهبية — كما سبق أن بينا — كانت دوافعها الحقيقية عصبية قومية ورغبة فى الانفصال ، لأن الاختلافات لم تكن جوهرية على النحو الذى قد يبدو لأول وهلة . فعند تحليل هذه الآراء المتعارضة كما صاغها زعماؤها من أمثال كيرلس وسيفيروس السوزى وكما فى عقيدة خلقيدون ، نجدهم جميعاً يقررون ببشرية المسيح وألوهيته معاً ، ولكن فريقاً منهم (مثل المصريين والسوريين) كانوا يرون أن الاندماج كان كاملا بحيث لا يجوز تصور التميز بينهما ، أما الفريق الآخر (خلقيدون) فكان يرى ضرورة تصور الطبيعتين لإدراك معنى التضحية التى قام بها المسيح . فالمبدأ الدينى فى العقيدتين واحد ، ولكن الاختلاف حول استخدام لفظ « الطبيعتين » فى نص العقيدة .

ولكن هذا الاختلاف حول الألفاظ الدينية فى ذلك الوقت كانت له عواقب وخيمة . فقد انقسم الناس فى كل مكان إلى فرق ومذاهب كثيرة ، خاصة وأن بعض هذه المذاهب الكبرى انقسم على نفسه إلى أحزاب مختلفة كما لليعاقبة فى سوريا ومصر . وبذلك فقدت الإمبراطورية وحدتها ، كما أن الفتن والاضطهادات أفقدت الإمبراطورية الكثير من شبابها وأضرت بالحياة الاقتصادية كل الضرر ، كما كان للنظام الإدارى كما وضعه دقلديانوس من تفتيت الإدارة وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية فى الولايات آثار سيئة فى إضعاف الجهاز الإدارى . كل ذلك أدى إلى سوء الأحوال عموماً فى الإمبراطورية فى النصف الثانى من القرن الخامس وبداية القرن السادس مما شجع على توالى الهجمات الأجنبية على الحدود .

وفى مصر نشطت القبائل النوبية من جديد ، وفى الشرق انتهز الفرس

فرصة سوء الأحوال فى الإمبراطورية وأخذوا يتقدمون غربا حتى هددوا حدود مصر الشرقية. وبدا كأن الإمبراطورية توشك أن تتصدع بسبب الأنقسامات الداخلية والهجمات الخارجية.

جستنيان (٥٢٨ — ٥٦٥)

فى هذه الظروف تولى الحكم فى القسطنطينية الإمبراطور جستنيان الأول الذى يعتبر آخر الأباطرة العظام فى الإمبراطورية الرومانية فى عصرها المتأخر. فقد كان واسع الطموح، ذا مواهب فذة مكنته من الإصلاح. وكان فى الإصلاح هو إعادة الوحدة للإمبراطورية عن طريق تحقيق الوحدة الدينية، وإعادة تنظيم الإدارة، وتقوية الجيش لتأمين الحدود، ثم العمل على ازدهار الحياة الاقتصادية وتنشيط الصناعة والتجارة من جديد[1]. وقد تمكن من تحقيق كثير مما سعى إليه من الإصلاح باستثناء الوحدة الدينية. ومن العسير حقاً أن نتوقع له النجاح فى تطبيق سياسته الدينية لسببين، السبب الأول يرجع إلى عمق الانقسامات الدينية رغم جهوده الكبيرة فى تعميم عقيدة خلقيدون فى جميع أنحاء الإمبراطورية. والسبب الثانى هو وجود الانقسام المذهبى داخل أسرة الإمبراطور ذاته، ذلك أن زوجته الإمبراطورة تيودور، التى ابتدأت حياتها راقصة، وأصبحت فيما بعد زوجة جستنيان وإمبراطورة الدولة ومن أمهر نساء التاريخ، كانت تدين بالمذهب اليعقوبى أى مذهب الطبيعة الواحدة، فإذا كان الإمبراطور لم يتمكن من تحقيق الوحدة الدينية داخل أسرته فكيف نتوقع له تحقيقها فى الإمبراطورية!

ومع ذلك فعند تدقيق النظر فى سياسة جستنيان الدينية نجده أكثر حرصا

---

(١) أهم دراسة حديثة لعصر جستنيان هى
E. Stein, Histore du Bas-Empire, II, (1949).

على تحقيق الوحدة السياسية من الوحدة الدينية . فكان يهدف إلى أن يكون رؤساء الكنائس الأساسية فى الإمبراطورية من نفس المذهب الإمبراطورى وهو الملكانى (أى مذهب خلقيدون) وأن يكون هؤلاء الأساقفة كمندوبين أو ممثلين دينيين للامبراطور شخصيا فى الولايات ، حتى لا يتمكن أسقف محلى من معارضة الإمبراطور كما حدث من قبل . وهو لم يعبأ بعد ذلك إذا كان سائر القساوسة فى داخل الولاية يتبعون مذهبا ، ما داموا لا يصلون إلى رياسة الكنيسة فى ولايتهم . ويتضح تنفيذ هذه السياسة فى مصر ، إذ لم يترك للمصريين حرية اختيار أسقف الأسكندرية بل أصر على أن يعين هو الأسقف . ونظراً لمقاومة المصريين لهذا الاتجاه وصعوبة العثور على أسقف مصرى يقبل هذا الوضع ، وإذا وجد فمن العسير إتمام مراسم التعيين الدينية دون ثورة المصريين عليه قبل أن يرسم ، فكان جستنيان يختار من يشاء ويجرى له المراسيم الدينية فى الخارج ثم يرسله إلى الأسكندرية فى حراسة قوة عسكرية تفرضه على الكنيسة فرضا . وبذلك فقط تمكن جستنيان من إقامة أساقفة ملكانيين فى الأسكندرية ، ولكن ذلك لم يتعد أشخاص الأساقفة وعدداً من المحيطين بهم ، أما سائر المصريين فقد بقوا على مذهبهم يؤمنون بالطبيعة الواحدة ، ولكن دون أن تكون لهم الصدارة التى تمتعوا بها زمن كيرلس وديوسقورس . وزاد موقف الأساقفة الملكانيين صعوبة أنهم حينما حاولوا فرض مذهبهم فى مصر كانت الإمبراطورة تيودورا تحمى المصريين الذين كانت تشاركهم مذهبهم .

أما فى المجالات الأخرى كان جستنيان أكثر توفيقاً ، فقد أدخل على الإدارة بعض الإصلاحات الأساسية سنتحدث عنها فى فصل آخر ، ولكن يكفى أن نذكر هنا أنه أعاد توحيد السلطتين المدنية والعسكرية فى شخص الولاية ، بينما أبقى على تقسيم مصر إلى عدة ولايات .

ومع ذلك فتوحيد السلطتين المدنية والعسكرية ساعد على استتباب الأمن فى البلاد وتأمين الحدود فى الوقت نفسه . وفى أيامه استطاع المصريون أن يمدوا نفوذهم الدينى جنوباً فدخلت القبائل النوبية فى المسيحية على المذهب اليعقوبى ، رغم جهود الأسقف فى الأسكندرية أن يكون للمذهب الملكانى السبق. ولكن الإمبراطور السياسى لم يعبأ بانتشار أى المذهبين فى هذه البقاع ، ولعله كان يعلم أنها كانت خاضعة لتأثير مسيحى من صعيد مصر من قبل ، ولكنه كان سعيداً بتحويل هذه القبائل إلى المسيحية ، لأنه اعتقد أن ذلك يعنى امتدادا لنفوذه وتأميناً لحدود مصر الجنوبية أيضاً .

نهاية مصر البيزنطية وفتح العرب :

ولكن خلفاء جستنيان لم يكونوا فى مثل قدرته ، ولذلك لم يتمكنوا من الاستمرار فى الإصلاح ، وسرعان ما ظهرت العيوب التى حاول جستنيان جاهدا أن يصلحها ، وعادت الفوضى إلى الإدارة والجيش معاً . فتجددت الهجمات الأجنبية على الحدود ، وإذا بالنوبيين يعاودون تهديدهم وغزوهم لحدود مصر الجنوبية ؛ ولم يكن لدخولهم فى المسيحية أى أثر . وفى الوقت نفسه عاد الخلاف المذهبى فى مصر إلى سابق عهده ، من مقاومة المصريين للأسقف الملكانى فى الأسكندرية . ولذلك حين أعلن هرقل شعار الثورة ضد الإمبراطور ، وجدنا المصريين ينحازون إلى جانبه ، ليس عن رغبة صادقة فى مناصرته ولكن كرها فى الإمبراطور الحاكم . حتى إذا أصبح هرقل نفسه إمبراطورا ، ضاقوا من جديد بأساقفته الملكانيين ، رغم محاولته الوصول إلى سبيل للتفاهم مع الأقباط المصريين .

ولكن حدث فى ذلك الوقت أن هددت الدولة الفارسية حدود الإمبراطورية الشرقية ، وأنها نجحت فى التوغل الى داخل الإمبراطورية ذاتها فاستولت على

سوريا وفلسطين ثم مصر فى عام ٦١٦ . ولكن امتداد النفوذ الفارسى على هذا النحو لم يدم سوى عشرة أعوام ، تمكن بعدها هرقل من إعادة هذه الولايات الى حظيرة الإمبراطورية من جديد . ولم يكن استردادها بالأمر العسير لما عرفت به فترة الاحتلال الفارسى من القسوة والعنف . وعاود هرقل جهوده فى التفاهم مع الأقباط المصريين على عقيدة دينية واحدة ، على أساس إدخال فكرة جديدة وهى بدعة « الإرادة الواحدة » . ولكن المصريين لم يكونوا مستعدين للتفاهم بحال . فعين هرقل أسقف الأسكندرية الملكانى قورش المعروف باسم المقوقس ليكون حاكما لمصر أيضاً . وكان المقوقس هذا معروفاً بقسوته وكراهيته لأصحاب الطبيعة الواحدة ، ومنحه الإمبراطور سلطة مطلقة لتحقيق سياسته فى مصر . فأطلق على المصريين حملة من الاضطهاد العنيف مما زاد كراهية المصريين ونفورهم من الحكم الرومانى .

وهنا تظهر على مسرح الأحداث العالمية دولة شرقية جديدة هى الدولة العربية ، خرجت من قلب الجزيرة العربية تحمل معها ديناً جديداً هو الإسلام . وبعد أن اطمأنت هذه الدولة إلى سيادتها فى الجزيرة العربية أولا ، أخذت تتطلع إلى خارج حدودها ، فوجدت إمبراطوريتين متداعيتين هما الإمبراطورية الفارسية فى الشرق والإمبراطورية الرومانية أو البيزنطية فى الغرب . وعند أول محاولة لبسط الدولة العربية الجديدة نفوذها فى الخارج انهارت الإمبراطوريتان معاً . وكان سقوط مصر فى يد العرب على يد عمرو بن العاص سنة ٦٤٠ .

الفصل الرابع

معالم النظم والحضارة فى مصر البيزنطية

(١) النظام الإدارى

لقد سبق أن تحدثنا فى هذا الباب عن آثار الاضطرابات والانقسامات السياسية والعسكرية التى قطعت أوصال الإمبراطورية الرومانية خلال الجزء الأكبر من القرن الثالث . وكان من نتائج ذلك أن أصيبت الإدارة بعطل شديد بحيث أصبحت عاجزة عن القيام بوظيفتها على نحو مرضى ؛ وليس هناك حاجة إلى إثبات مدى الضرر والخطر الذى تتعرض له امبراطورية عالمية بدون إدارة قوية . ولعلنا لا نبالغ فى شىء إذا قلنا إن أشد ما كانت الإمبراطورية فى حاجة إليه هو رجل يصلح إدارتها ، وأن دقلديانوس كان ذلك الرجل . فإذا لم يكن لدقلديانوس مواهب عسكرية تخلد اسمه فى تاريخ روما الحربى ، فقد كان له من مواهب الإدارة والتنظيم ما مكنه من القيام بإصلاحات فى نظم الإدارة والحكم والاقتصاد سادت من بعده مدة ثلاثة قرون تقريباً ، وأصبح عهده يمثل نقطة تحول فى التاريخ القديم بأسره بدخــــول الإمبراطورية الرومانية فى مرحلتها المتأخرة وأكبر ممهد لقيام العصر البيزنطى فى الشرق .

وكما سبق أن رأينا فى وصف نظامه الضرائبى كانت مبادئه فى الإصــلاح تتلخص فى التبسيط والتوحيد ، تبسيط النظم وتوحيدها فى ولايات الإمبراطورية المختلفة . وفى سبيل تحقيق ذلك قرر العمل بمبدأ اللامركزية فى إدارة الإمبراطورية ، حتى يخفف عن الإدارة المركزية فى العاصمة من أعباء الروتين الإدارى ، أولا عن

طريق إشراك غيره معه فى الإدارة ثم عن طريق إنشاء وحدة إدارية كبيرة ، تمثل حلقه متوسطة بين الإدارة المركزية وإدارة الولاية . هذه الحلقة المتوسطة أطلق عليها لفظ دوقية (diocesis) وقسمت الإمبراطورية إلى اثنى عشر دوقية هى بريطانيا والغالة (وشملت شمال فرنسا وأرض الرين وهولنـــدا) وڤيننسيس Viennensis (جنوب فرنسا) وأسبانيا (بما فيها البرتغال ومراكش)وإيطاليا (ومعها صقلية وسردينيا وكورسيكا) وإفريقيا (الجزائر وتونس وطرابلس) وپانونيا وموسيا وطراقيا(وتمثل كل منها غرب ووسط وشرق البلقان) وأسيانا وپونتيكا (وتمثلان جنوب غرب وشمال شرق آسيــا الصغرى) ثم الشرق (وشملت كيليكيا وسوريا وفلسطين ومصر وقورينة) وبذلك قضى نهائياً على تنظيم الإمبراطور أغسطس فى تقسيم الولايات بين الإمبراطور والسناتو .

على هذا الأساس وقعت مصر فى دوقية الشرق ، ولـكن إصلاح دقلديانوس لم يتوقف عند هذا الحد، بل رأى أن يقسم الولايات الـكبيرة إلى ولايات أصغر ، وذلك عملا بمبدأ اللامركزية . فقسمت الولايات الـكبيرة مثل إيطاليا وأسبانيا والغالة ومصر إلى ثلاث أو أربع أو خمس ولايات صـغرى . فمصر التى كانت طوال تاريخها القديم وحدة سياسية وإدارية واحدة قسمت إلى ثلاث ولايات أساسية[1] : ولاية مصر الجويتيرية(Agyptus Jovia) وتشمل غرب الدلتــا بما فيها الأسكندرية (وسميت كذلك لأنها كانت الولاية الأولى فى مصر ولأن

---

(١) الدراسات الأساسية لنظم مصر الإدارية فى العصر البيزنطى هى :

M. Gelzer, Studien Zur byzantinischen Verwaltung Aegyptens (1909) ;

G. Rouilliard, L'Administration Civile de L'Egypte Byzantine (1928) ;

A. H. M. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces, pp. 338—350 (1937).

والدكتور السيد الباز العرينى : مصر البزنطية ص ٨١ ــ ٩٥ و ١٠٥ ــ ١٧٧ .

دقلديانوس اتخذ لنفسه لقب چوڤيوس Jovius أى أنه بمثابة ممثل كبير الآلهة على الأرض) ، وولاية مصر الهرقلية (Aegyptus Herculia) وتشمل شرق الدلتا ومصر الوسطى المعروفة باسم هيتانوميا (وسميت الهرقلية نسبة إلى اللقب الذى اتخذه شريك دقلديانوس فى إدارة الولايات الغربية Maximian Herculius) ثم ولاية طيبة (وتشمل الصعيد جنوبى أسيوط Panopolis) أما الصحراء الغربية فقد أصبحت ولاية مستقلة أطلق عليها اسم ليبيا . وقد تم تنفيذ هذا التقسيم فى عام ٢٩٧ بعد أن انتصر دقلديانوس على أخيليوس الذى ادعى لنفسه الإمبراطورية فى الأسكندرية ، ثم عدلت أسماء الولايتين الشماليتين إلى مصر (Aegyptus) فى غرب الدلتا ، وأوغسطمنيكا Augustamnica لشرق الدلتا ومصر الوسطى .

هكذا انقسمت مصر إلى ولايات ثلاثة منفصلة ، ومع ذلك فإن الفصل التام لم يتحقق ، إذ منح حاكم الولاية الأولى وهى مصر (الجوبتيرية) الذى كان مقره الأسكندرية سلطاناً أسمى من حكام الولايتين الأخريين ، فحمل ذلك الحاكم الأول لقب Praefectus Aegypti ، بينما أطلق على الحاكمين الآخرين لقب Praeses ، ولكنهم جميعا كانوا يتبعون المشرف على دوقية الشرق الذى حمل لقب كونت (Comes) .

ولكن طرأ على هذا النظام بعض التعديل فى آخر القرن الرابع ، إذ أصبحت مصر تكون فى سنة ٣٨٢ دوقية مستقلة وألحقت بها ليبيا ، وبذلك استردت وحدتها الإدارية من جديد ، وأصبح يحكمها حاكم عام يسمى Praefectus Augustalis . وعقب ذلك فصلت مصر الوسطى (هيتانوميا) إدارياً ، وأصبحت تكون ولاية إدارية أطلق عليها اسم أركاديا Arcadia (فى سنة ٣٨٦) . وبعد ذلك أعيد تقسيم كل من طيبة وأوغسطمنيكا ومصر ، كل إلى قسمين :

ملاحظة أخيرة بشأن تقسيم السلطة فى الولاية حسب نظام دقلديانوس ،

هى فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية . فحكام الولايات الثلاثة الجدد حكام مدنيون ليس لهم سلطان عسكرى كما كان الأمر فى النظام الذى وضعه الإمبراطور أغسطس قديماً ، أما جيش الحامية العسكرية الرومانيــة فى مصر بأسرها فقد وضع له قائد مستقل .

وقد تبع هذا الإصلاح الأساسى تعديل آخر يتعلق بالأقسام الإدارية المحلية فى الريف . ذلك أن تعميم نظام الحكم المحلى فى مطلع القرن الثالث على يد سپتميوس سيڤيروس قد استكمل نموه فى عصر دقلديانوس وخلفائه ، إذ حولت النومات الإدارية إلى مدن مستقلة ، ولم يعد هناك فى المدن الجديدة سوى إدارة محلية حلت محل النظام المزدوج القديم ، الذى كان يقوم على وجود موظفين يمثلون السلطة المركزية وموظفون يمثلون الحكم المحلى . وهكذا اختفى منصب الاستراتيجوس الذى كان يحكم النوموس طيلة العصرين اليونانى والرومانى . ثم أتبع ذلك بإلغاء أقسام النوموس القديمة وهى التوپارخيا (Toparchia) ، وقسمت النومات إلى عدد من الوحدات الجديدة أطلق عليهـا اسم پاجوس (Pagus) يتولى إدارتها موظف يعرف باسم Praeposities . ولفظ پاجوس (Pagus) هو الاصطلاح اللاتينى التقليدى لأقســام الإقليم الزراعى للمدينة (Chora) . وهكذا استكمل نظام الحكم المحلى تطبيقــه فى مصر وأصبحت الولايات الثلاثة تنقسم إلى عدد من المدن Poleis ، لكل مدينة أرض زراعية تتبعها (Chora) وقسمت هذه الأرض الزراعية الى عدد الوحدات المسماة باغوس .

ما من شك فى أن الهدف الحقيقى من تدعيم نظام الحكم المحلى ليس توطيد الحرية السياسية على أساس الحكم المحلى الحق ، ولــكن أدرك دقلديانوس أن النظام القديم المزدوج قد ثبت فشله وعجزه ، وخاصة بعد أزملت القرن الثالث

المتلاحقة التى تركت الحكومة المركزية مساوية السلطة . ولذلك سعى فى إصلاحه الجديد إلى إلقاء عبء الإدارة المحلية بأكمله على كاهل الأهالى ممثلين فى هيئات الحكم المحلى . ولعله ظن أنه فى ظل نظام الحكم المحلى الكامل سوف يزداد مجالس المدن وموظفوها إقبالا على تحمل مسئولياتهم مدفوعين بفكرة الشعور بالاستقلال وفى سبيل صبغ التعديلات الإدارية بصبغة جديدة تماماً واستجابة تطورات عامة أخرى تمت فى القرن الرابع ، أدخلت تعديلات فى الوظائف المدنية القديمة فاختفت معظمها وحلت محلها وظائف جديدة . فمن ذلك مناصب الكهنة والإشراف على الجنازيوم ، اختفت وحل محلها الكنيسة ورجالها ، كما أن مناصب أكسجيتيس exegetes والمشرف للتموين Euthenarches اختفت تدريجياً . أما المناصب الأساسية الجديدة فهى ثلاثة :

أولا : المشرف على المدينة (Curater Civitatis أو Logistes) الذى أصبح خلال القرن الرابع أحد موظفى المدينة النظاميين ينتخبه مجلس المدينة . وأصبح فى الواقع بمثابة رئيس المدينة ، له سلطات متعددة تشمل بعض اختصاصات الإستراتيجوس القديم وبعض الموظفين الآخرين أيضاً : وأصبح هو ومعاونوه الإداريون مسئولين عن أعمال مختلفة ، مثل ميزانية المدينة والإشراف على نقابات العمال والتجار ، وتقدير الضرائب ، والإشراف على الأمن وتموين المدينة .

ثانياً : حامى المدينة أو العامة (defensor civitatis or plebis أو ekdikos) وكان واجبه الأساسى حماية دافعى الضرائب من جامعى الضرائب . وكان له سلطة اعتقال أى شخص أو وضعه تحت المراقبة وتحديد إقامته فى المدينة ، اذا كان متهما بإضرار شخص آخر .

ثالثاً : للموظف المالى exactor الذى تولى أهم وظيفة بالنسبة للحكومة

المركزية وهى جمع الضرائب . ولكن يبدو أن هـذا الموظف كان قاصراً على مدن الريف فى مصر ، أما فى الأسكندرية فقد وجد موظف مالى آخر أطلق عليه لفظ « vindex » ويبدو أن هـذه الوظيفة أنشئت فى القرن الخامس فقط وبقيت بعد ذلك(١) .

أما عن المجالس المنتخبة (boulé) فقد استمرت تحمل المسئوليات الإدارية، ولكن فقدت كل معانى الحكم المحلى . إذ أصبح أعضاء هذه المجالس يكونون منذ القرن الرابع طبقة وراثية ، هى الطبقة الثرية فى كل مدينة .

هذه هى معالم النظام الإدارى الذى ساد مصر فى القرنين الرابع والخامس والثلث الأول من القرن السادس ، حتى أصدر جستنيان قانونه الثالث عشر المشهور سنة ٥٣٨ . وليس هنا مجال دراسة هذا القانون دراسة تفصيلية ، وإنما نلاحظ أن جستنيان لم يعد يحفل بالنظم المدنية ، ولا حتى فى الظاهر ، وإنما سعى إلى تقوية الإدارة المباشرة بكل أسلوب . وأهم تعديل قام به جستنيان هو تقسيم دوقية مصر إلى أقسامها الأربع القديمة وأضاف إليها ولاية ليبيا ، فأصبحت مصر تنقسم إلى خمس ولايات . ولكن أخطر تعديل أدخله جستنيان على نظام دقلديانوس هو توحيد السلطة المدنية والعسكرية فى يد حاكم كل ولاية ولعله كان يهدف من وراء هذا التعديل تقوية سلطة الحاكم على ولايته ، ولكن الذى حدث هو أنه زاد من تقسيم عرى الدولة إدارياً وعسكرياً معاً ، لأن الإدارة كانت رغم محاولة كل إصلاح — أضعف من أن تتغلب على ظروف البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فأعضاء المجالس التشريعية كانوا قد أصبحوا مجرد جامعى ضرائب ، كما أن تقسيم البلاد زاد من سلطان كبار الملاك الذين سيطروا على أقاليمهم سيطرة تامة فى القرن السادس كما بينا عند الحديث عن نظام

---

(١) Evagrius, Hist. Eccl. III. 42; Justinian, Edict, XIII. 1. 13

الأراضى . ولهذا فإن توحيد السلطة المدنية والعسكرية فى أيدى الحكام المحليين لم يأت بالنتيجة المرجوة ، وكثيراً ما نشأت المنافسات الصغيرة بين هؤلاء الحكام علما بأن قوتهم العسكرية لم تكن قادرة فى معظم الأحيان سوى القيام بأعمال البوليس ، أو قمع فتنة صغيرة محلية . ولكنها كانت عاجزة كل العجز عن مواجهة أى خطر حقيقى من الخارج ، وقد اتضح ذلك تماماً فى القرن السابع أمام الفتح العربى ، فسقطت البلاد دون مقاومة تذكر .

وكان من نتائج تقسيم البلاد وضعف الإدارة المركزية أن زاد شأن الكنيسة ، حتى ليمكن أن يقال أنها كانت العامل الأساسى الباقى من وحدة الدولة . ويتجلى ازدياد نفوذ الكنيسة فى ذلك الوقت من أنها اضطلعت بكثير من أعمال الدولة ؛ وخير مثال على ذلك سيرة يوحنا بطريرك الأسكندرية فى مطلع القرن السابع ، إذ كانت الكنيسة تهتم بشئون تموين المدينة وقت الأزمات الاقتصاديه، فتستورد القمح من الخارج وتوزعه بين الناس ؛ كما كان لها مستشفيات لعلاج المرضى وبيوت لإيواء الغرباء واللاجئين . كل ذلك يثبت اضطراب الإدارة وضعف الحكومة المركزية ضعفاً شديداً جعلها عاجزة عن تحمل أعبائها ، ولذلك قام بها كل من الكنيسة وكبار الملاك .

ب - الحياة الاقتصادية

أولا نظام الأراضي :

بالرغم من أن المعالم الأساسية لنظام الأراضي فى مصر البيزنطية واضحة بصورة عامة ، إلا أن معلوماتنا عن بعض مراحل تطورها لا زالت قليلة أو غير موجودة . والسبب فى ذلك أن مصادرنا عن هذه الفترة قد عراها بعض التغيير، فالوثائق البردية تعتبر نسبياً أقل كثيراً من وثائق الفترة السابقة ، وإلى جانب قلتها فهى غير متصلة زمنياً ، وأكبر مثال على ذلك أنه لا تكاد توجد لدينا وثائق بردية ذات قيمة اقتصادية من القرن الخامس ، إلى جانب أوراق البردى وصلت إلينا مجموعات كبيرة من قوانين هذا العصر ، وهى المعروفة باسم المجموعة القانونية . لثيودوسيوس والمجموعة القانونية لجستنيان . وبعض قوانين هاتين المجموعتين تمدنا بالجانب التشريعى من أعمال الدولة فيما يتعلق بنظام الأرض ، إلا أنها لا تعطينا أيضاً الصورة كاملة ولا تملأ جميع الفجوات التى تركتها الوثائق البردية . وأخيراً يجد علينا نوع جديد من المصادر وهو الكتابات الدينية التى تتناول سير آباء الكنيسة الأول والرهبان . ورغم أن الظروف الاقتصادية هى أبعد شىء عن طبيعة هذه الكتابات ، إلا أن الدارس لها يجد فيهـا إشارات متفرقة تلقى ضوءاً على حياة مصر الاقتصادية فى ذلك العصر (١) .

---

(١) عن نظام الأرض فى مصر البيزنطية أنظر :

Johnson—West, Byzantine Egypt, Economic Studies, 19 ff.;

G. Rouillard, Lavie Rurale dans l'Empire Byzantin, (Premier partie : dans L'Egypte) pp. 14—79; E. R. Hardy, Large Estates of Byzantine Egypte; A. H. M. Jones, Cansus Records of the Later Roman Empire, J. R. S. 43, (1953) 49 ff.; Wilcken, Grudzüge, 309 ff.

أما عن نظام الأراضى فيمكننا أن نتخذ عام ٢٩٧ نقطة الابتداء ، حين حضر دقلديانوس إلى مصر للقضاء على فتنة أخيليوس ، وقام بعدد من الإصلاحات والتشريعات كان الغرض الأساسى منها هو توحيد النظم فى مصر مع سائر أقطار الإمبراطورية وفيما يتعلق بالضرائب الزراعية ، نعرف أنه فرض ضريبة موحدة فى جميع أنحاء البلاد على أساس مساحة الأرض ونوع المحصول[1] ، وألغى جميع الضرائب السابقة التى كانت معقدة أشد التعقيد ، فكانت تختلف من مكان إلى مكان ، وتختلف أيضاً حسب الأشخاص ، فهناك من ملاك الأراضى من تمتع بإعفاء كامل من الضرائب أو من بعضها . ولكن عدا النظام الضرائبى لا نعرف أنه أدخل أى تعديل على نظام الأراضى ، فأقسام الأرض المألوفة فى العصر الرومانى استمرت بعد دقلديانوس خلال الثلث الأول من القرن الرابع على الأقل. ولكن نلحظ بعد ذلك فى الفترة بين ٣٣٢ ـ ٣٥٠ أن قسما رئيسياً من الأقسام السابقة وهو أرض الدولة بأنواعها basiliké , demosia , Ousiaké يختفى تماماً من الوثائق المصرية ، ولا يعود إلى الظهور ثانية ؛ ومن المحتمل أنها ألغيت زمن الإمبراطور قسطنطين أو بعده بقليل[2] . والمتتبع للحياة الزراعية فى مصر الرومانية لا يعجب لهذه الظاهرة الجديدة فى القرن الرابع ؛ فقد لاحظنا من قبل نمو الملكية الخاصة فى الأرض بصورة مضطردة على مدى القرون الثلاثة السابقة ومنذ منتصف القرن الثالث نجد أن أرض الدولة (basiliké) قد بدأت تنتقل إلى أيدى الأفراد[3] . وقد استمر هذا الاتجاه بصورة أقوى فى أثناء القرن الرابع ، أى

---

(١) أنظر Samenelbuch, V, 7622 (297 A. O.) Originally published by Boak, in Etude de Papyrologie II, no. 1.

(٢) Johnson-West, Byz. Eg. p. 19 f.

(٣) أنظر Sammelbuch, IV, 7474, Fayum (254 A. D.); P. Flor. 50, Hermopolis (268 A. D)

فى الوقت الذى ازداد فيه قطاع الملكية الخاصة عموماً والملكيات الكبيرة التى ابتدأت فى القرن الثالث بصفة خاصة ؛ حتى ليمكن أن يقال أنه عندما ألغيت الأرض العامة (basiliké) كانت قد تضاءلت جداً بسبب بيعها للأفراد أو منحها للكنائس المسيحية الجديدة .

فالطابع العام لتطور نظام الأرض فى مصر فى القرن الرابع يشير إلى زيادة قطاع الملكية الخاصة من الأرض على حساب قطاع الملكية العامة التى تختفى تماماً فى منتصف القرن .

ومن الطريف أن نوضح هذه الصورة عن طريق الإشارة إلى بعض قوائم مسح الأرض فى مصر فى القرن الرابع[1] . فإحدى وثائق الفيوم البردية من الربع الأول من القرن[2] تبين أن مساحة الأرض العامة (basiliké) تكافىء مساحة الأرض الخاصة (idiotiké) فى قرية ثيادلفيا (بطن هريت حالياً) ونحن لا نمتلك لسوء الحظ سجلات أخرى لمسح الأرض فى هذه القرية ، ولذلك نضطر إلى البحث فى السجلات التى وصلتنا من أماكن أخرى فى مصر . فهناك وثيقة من مدينة هرموبوليس (الأشمونين) تؤرخ فى الربع الثانى من القرن الرابع[3] لا تظهر فيها أرض التاج (basiliké) ، ولكن تذكر الأرض العامة (demosia) فقط . وفى هذا السجل نلاحظ أن مساحة الأرض الخاصة تبلغ ٢٩٥٠ أرورا والأرض العامة ١٠٩٣ (أى ما يعادل نسبة ٣ : ١) .

---

(١) أنظر Jones, Census Records of the later Roman Empire, J. R. S., 43 (1953) 48 ff.

(٢) P. Princ, 134 (322 A. D. ?)

(٣) P. Flor. 71.

وفى وثيقة ثالثة[1] ، من المحتمل أنها من المدينة نفسها وحوالى تاريخ الوثيقة السابقة أو بعده بقليل ، تؤكد النتيجة ذاتها ؛ ويمكن تلخيص المعلومات الأساسية التى تتضمنها فيما يلى :

مساحة الأرض الكلية	١٦٫٤٣٩	أرورا
مساحة الأرض الخاصة	١٢٫٥٥٧	«
مساحة الأرض العامة	٢٫٤٨٦	«
مساحة أرض الحدائق	٤٤٤	«
مساحة أرض خاصة (أخرى)	٢٣	«

يتضح من هذه الإحصائية أن مساحة الأرض العامة كانت فى انكماش مستمر بالنسبة للأرض الخاصة ، فهى فى هذه الحالة تبلغ ٢٫٤٨٦ أرورا بينما بلغت أرض الملكية الخاصة ١٢٫٥٥٧ أرورا (أى ما يعادل ١:٥ تقريباً)

يتضح من هذا العرض أن الملكية الخاصة زادت كثيراً فى أثناء القرن الرابع ؛ وما من شك أن الملكية الكبيرة كانت الطابع المميز لهذه الزيادة[2] . ولسوء الحظ أننا لا نستطيع تتبع هذا التطور فى القرن الخامس الذى يكون فى مرحلة مظلمة فى معلوماتنا عن مصر البيزنطية . ولكن كل الأدلة الموجودة تشير إلى أن الاتجاه الذى لاحظناه فى القرن الرابع استمر أيضاً فى القرن الخامس . ولإثبات ذلك يجب أن نشير إلى ظاهرة خطيرة صاحبت نمو الملكيات الكبيرة فى القرن الرابع ألا وهى ظهور نظام « الحماية » .

(١) P. Ryl. IV. 655, Hermopolis (first half of IV cent. A. D. ?)

(٢) أنظر قوائم تكوين الملكيات الكبيرة فى مقالة جونز السالفة الذكر ، وراجع أيضاً Johnson-West, of. cit. 39 ff.

لقد أراد دقلديانوس بنظام الضرائب الذى فرضه على الإمبراطورية أن يبسط مهمة جمع الضرائب وبذلك يصعب التحايل والهروب. ولكن هذا النظام الجديد لم يحقق الهدف منه، لأن الأثرياء من أهل السلطة والحكم استطاعوا دائماً استخدام نفوذهم أو مالهم فى تجنب دفع الضرائب.

ونظراً لأن مسئولية دفع الضرائب فى ذلك الوقت كانت مسئولية جماعية، أى على جميع سكان القرية أو المنطقة دفع أى عجز، فقد كان من الممكن إرهاب أو حتى تعذيب صغار الملاك حتى يدفعوا العجز المطلوب. وباستمرار هذا الظلم فى جمع الضرائب وسوء الأحوال الاقتصادية من جراء الاضطهادات المتوالية التى كانت طابع هذا العصر، وجد صغار الملاك أن لا فائدة تجنى من امتلاك أراضيهم. فلجأوا إلى حيلة غريبة تنجيهم من مواجهة مسئولية دفع الضرائب وهى أنهم طلبوا حماية أحد كبار الملاك من أصحاب النفوذ فى المنطقة، على أساس أن يتنازل له المالك الصغير عن أرضه ويتولى السيد الكبير أمر دفع الضرائب للدولة. وهكذا تحول من مالك حر إلى تابع أولا ثم رقيق أرض، يستأجر من سيده الأرض التى كان يمتلكها (١)،

وقد حاولت الحكومة جاهدة إيقاف هذا التيار طوال القرن الرابع (٢)، ولكن دون جدوى. فإن الكثيرين من المزارعين رأوا فى نظام الحماية المنقذ الوحيد لهم من ظروف لم يقووا على تحملها، وفى الوقت نفسه كان كبار الملاك سعداء بزيادة رقعة أرضهم وزيادة أتباعهم. ومن أشهر جهود الحكومة فى محاولة ضبط نظام الحماية على الأقل هو القانون الذى صدر سنة ٤١٥ (٣)، ويقضى بالاعتراف بأعمال الحماية التى تمت قبل سنة ٣٩٧ ويلغى جميع محاولات الحماية بعد

(١) Bell, in Legacy of Egypt. p. 335—6

(٢) Hardy, Large Estates. 22, ff.

(٣) Code Theodosius, XI. 24, 6.

هذا التاريخ ، ولكن استثنيت الكنيسة من هذا الحد التاريخي . ويتضح من هذه القوانين أن قرى بأسرها قد أصبحت تحت حماية السادة من كبار الملاك .

وتأتى بعد ذلك فترة القرن الخامس التى لا نعرف عنها شيئاً ، ولكن ما أن يرفع الستار مرة ثانية عن حالة الأرض فى القرن السادس ، ندرك أن التطور الذى حدث فى القرن الرابع سار إلى مداه الطبيعى ، وإذا بالاقطاعات الكبيرة هى الطابع المميز للحياة الزراعية فى مصر فى القرن السادس . وكانت هذه الإقطاعات على نحو يفوق كل ما عرف فى مصر من قبل ، وإنما هو أشبه بالإقطاعات الكبرى التى عرفت فى أوربا فى العصور الوسطى . فصاحب الإقطاع الآن يمتلك قرى ومدنا بأسرها ، وهو صاحب الأمر والنهى فى إقليمه دون أن يكون لموظفى الإدارة أى سلطة ، وكثير من هؤلاء الموظفين من بين أتباعه . وقد بلغ من سلطان بعض هؤلاء الإقطاعيين أنهم اتخذوا لأنفسهم جنوداً وشرطة وحرساً خاصة ، كما كانت لهم محاكم وسجون خاصة بهم ، ولهم حق دفع ضرائبهم لخزانة الولاية مباشرة أو فى الأسكندرية (وهو المعروف بنظام autopragia). وليس عن طريق الموظفين جامعى الضرائب [1] .

ولكن يجب ألا نتصور أن أرض مصر كانت مقسمة إلى عدد من الإقطاعات الكبيرة فحسب ، بل وجدت أيضاً فى القرن السادس قرى حرة يمتلك أرضها صغار الملاك ويدفعون ضرائبهم للدولة مباشرة ، كما تثبت ذلك مجموعة من الوثائق البردية تنتمى إلى بعض مناطق مصر الوسطى [2] . وإلى جانب هذه القرى الحرة وجدت قرى أخرى وممتلكات كثيرة تتبع الكنائس المختلفة وخاصة كنيسة الأسكندرية . وقد سبقت الإشارة إلى قانون ثيودوسيوس سنة ٤١٥

---

(١) خير دراسة لهذا الموضوع هى كتاب Hardy, Large Estetes.

(٢) هذه المجموعة منشورة فى : P. London, vol. IV.

الذى يؤكد أملاك الكنيسة حتى عام ٣٩٧ ومابعده . ويبدو أن أملاك الكنائس كانت كبيرة بفضل الأوقاف والمنح التى كانت تأتيها سواء من الحكام أو الأفراد . وليس أدل على ضخامة هذه الممتلكات مما ترويه المصادر عن ثروة كنيسة الأسكندرية والنشاط التجارى الكبير الذى كانت تقوم به [1] .

الصناعة والتجارة :

يروى أحد الكتاب المسيحيين قصة ثلاثة عميان من الأسكندرية مبيناً كيف فقد كل واحد منهم بصره . فأحدهم كان يعمل صانع زجاج ثم فقد بصره بسبب النار التى يستخدمها فى صنعته ؛ والثانى كان يعمل قبطان سفينة وأصابه مرض فى عينيه أثناء رحلة بعيدة ولم يتمكن من علاج عينيه .

أما ثالثهم فكان لصاً وأصيب فى بصره بينما كان يسرق قبراً [2] . ولا تخلو هذه القصة من دلالة ، فهى تعكس لنا صورة من العمل الشائع فى الميناء الكبير . فقد استمرت الأسكندرية فى العصر البيزنطى أيضاً أكبر مركز للصناعة والتجارة فى مصر ، ولكن مامن شك أن سوء الأحوال العامة وكثرة الاضطرابات وتوالى الاضطهادات أثر فى قدرة البلاد الإنتاجية وفى نوع الإنتاج أيضاً . فصناعة الزجاج مثلا استمرت فى الأسكندرية ولكن ما عثر عليه فى الحفائر الحديثة فى منطقة الفيوم يدل على تأخر المستوى عما عرف عن الزجاج المصرى من قبل ، ويؤيد هذه النتيجة أيضاً قدرة ماعثر عليه من الزجاج المصرى فى الخارج ، إذ يبدو أن تأخر الصناعة المصرية من ناحية وقوة المنافسة الخارجية صرف الأسواق الأجنبية عنه [3] .

---

(١) أنظر مثلا Sophronius, Miracles of SS. Cyrus and John, 8; Life of St. John. The Almgiver; cf. Johnson-West, Byz. Eg. pp. 67. ff.

(٢) John Moschus: Pratum Sprituale.

(٣) Harden, Roman Glass from Karauis, pp. 34 ff.

وكذلك صناعة البردى التى اشتهرت بها مصر منذ القدم فقد استمرت ، ولكن تأخر مستواها عن ذى قبل ، ويمكن أن نذكر هنا أيضاً أنه ربما كان لرواج صناعة الكتب من رق الجلد (Codex) ، الذى كان يسجل عليه الأدب والفكر المسيحى الجديد[١] ، تأثير على عدم العناية بإنتاج الأنواع الراقية من البردى القديم . ومع ذلك استمرت صناعة البردى وتصديره إلى الخارج بكميات كبيرة كما كان الحال من قبل . ويثبت ذلك ماجاء فى حسابات كنيسة روما التى كان لها ممتلكات بالقرب من الأسكندرية وبين هذه الممتلكات مصانع تنتج أوراق البردى[٢] . ومما يدل على أن البردى المصرى كان لا يزال سلعة عالمية أنه ذكر فى نقش يحتوى على جـــزء من قائمة الأسعار التى أصدرها دقلديانوس ، ولكن لسوء الحظ أن الثمن غير موجود[٣] .

أما الصناعة المصرية الثالثة التى كانت منتشرة أيضاً وهى نسج الكتان ، فقد وجدت أيضاً فى ذلك العصر ، ويذكر دقلديانوس فى قائمة أسعاره كتان الأسكندرية على أنه ضمن أفضل خمس أنواع من الكتان فى الإمبراطورية بأسرها[٤] .

أما صناعة العطور والتوابل التى كانت تستورد من الأسواق الشرقية ثم تصنع فى مصر ويعاد تصديرها فقد استمر أيضاً ، نظراً لأن التجارة الشرقية لم

---

(١) F. G. Kenyon, Readers and Books in Ancient Greece and Rome, ch. IV.

(٢) Liber Pontificalios, ed. Duscheve, I. 34, p. 177.

(٣) The text in T. A. P. A., 71 (1940) p. 158

(٤) T. Frank: Rome and Italy of the Empire, pp. 305 ff., sects. 26—7

تتوقف وإن قابلت بعض الصعوبات أحياناً . ويذكر كشف حساب ممتلكات كنيسة روما فى مصر ، المشار إليه سابقاً ، أن مئات الأرطال من الزيوت والتوابل والعطور بأنواعها كانت تصنع فى مصانعهم بالقرب من الأسكندرية .

نستنتج من كل هذا أنه رغم سوء الأحوال العامة فى مصر فى العصر البيزنطى حين تقاس بالعصر الرومانى الأول ، فإن الصناعات الأساسية استمرت فى مصر وإن كانت قد تأخرت فى مستواها عن ذى قبل .

أما التجارة الخارجية فلها قصة أخرى فقد رأينا فى الفصل السابق مدى النشاط الذى حققته مصر فى مجال التجارة العالمية على أيدى تجار مدينة الأسكندرية، الذين تمكنوا من احتكار التجارة الشرقية لأنفسهم إلى حد بعيد، كما كان أسطولهم التجارى فى البحر الأبيض يعتبر الأول بين الولايات جميعاً . ورأينا مقدار الثروات الضخمة التى أفادها الأسكندريون من وراء هذه التجارة. ويكفى أن نذكر فيرموس ، الذى تمكن من دخله من تجارة البردى والصمغ العربى ، فى أسوأ فترات الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث ، أن يكوّن جيشاً وأن يطمح إلى منصب الإمبراطور لنفسه .

لذلك ليس بمستغرب أن يتمسك تجار الأسكندرية بهذه التجارة بكل ما أوتوا من قوة ، ويبدو أنهم نجحوا فى المحافظة على مراكزهم على رأس التجارة العالمية فى العصر البيزنطى أيضاً . فقد استمر الاتصال مع الصومال وبلاد العرب والهند مستمراً دون انقطاع .

ويبدو أن النشاط الذى أبداه الأثيوبيون كوسطاء فى التجارة الشرقية لم يؤثر كثيراً على نشاط الأسكندرية فى هذا المجال ، وتثبت إحدى قوائم الضرائب من منتصف القرن الرابع والتى تحتوى على قائمة بالمكوس المستحقة

عند مدخل قناة الأسكندرية أن الملاحين الأسكندريين كانوا على اتصال مباشر بالهند (nautai Indias)[١] . وفى النصف الأول من القرن السادس تثبت مرة أخرى رحلات الراهب المصرى كوزماس ، الذى كان يعمل فى التجارة الشرقية من قبل ، وفى الفصل الأخير من كتابه بصفة خاصة ، أن التجارة المباشرة مع كل من الهند وسيلان لم تتوقف .

أما فى البحر الأبيض المتوسط فإن خطوط الملاحة كانت تمتد من الأسكندرية إلى جميع الموانى الرئيسية[٢] .

ولكن يجب أن نذكر تغيراً جديداً حدث فى خطوط الملاحة ، وهو أن الخط بين الأسكندرية والقسطنطينية أصبح أهمها بدلا من خط روما . والسبب فى ذلك التغيير هو تحويل القمح المصرى من روما إلى القسطنطينية التى اتخذها قسطنطين عاصمته الجديدة فى ١١ مايو سنة ٣٣٠[٣] . ومع ذلك فيبدو أن العلاقة التجارية بين مصر وروما لم تهمل كثيراً . فهذا هو القديس جيروم فى سنة ٤٠٢ يخاطب الرومان بقوله : « وها أنا مرة ثانية مع عودة الربيع أغنيكم من سلع الشرق وأرسل خزائن الأسكندرية إلى روما »[٤] .

أما عن صادرات مصر فهى معروفة : القمح طبعاً ، ثم الكتان والبردى والروائح والعاج والعطور والتوابل . ويبدو أن الزجاج لم يعد يصدر الآن ؛ كما

---

(١) Sammelbuch. 7756 (259 A. D.)

(٢) أنظر بيان دقلديانوس عن الأسعار

New Fragments, T.A.P.A. (1940) 57 ff.

وقائمة الطرق الملاحية المتصلة بالأسكندرية فى

Johnson-West, op. cit. 140.

واضف إليها عن القسطنطينية :

John Moschus, Pratum Sprituale 75—6

(٣) Jones, Constantine, 232—8

(٤) St. Jerome, Epist. 91. 1.

أن تجارة الورق من البردى تأثرت بالإقبال على استخدام رقوق الجلد ، ومع ذلك فقد استمر تصدير الورق .

أما من الواردات الأساسية فهى أن المعادن (وخاصة الفضة أو الصفيح) والخمور والحرير والعطور والتوابل من أجل صناعتها محلياً وإعادة تصديرها . وفى دراسة حديثة لهذه الواردات اتضح أنها كانت تأتى إلى مصر من شتى بقاع العالم من الصين والهند شرقاً إلى أسبانيا وبريطانيا غرباً[1] . وما من شك أن مالم يكن يصدر من هذه الواردات كان يباع فى الأسكندرية للاستخدام الخاص بواسطة الطبقة البورجوازية المزدهرة فى هذه المدينة ، وكذلك كبار الأسر الغنية فى الريف .

أما الطبقة البورجوازية فى الريف فقد انكمشت كثيراً فى هذا العصر ، وفقدت قدرتها الشرائية القديمة ؛ أما سائر السكان فكان أكبر همهم هو المحافظة على الحياة أو الفرار إلى الدير .

أما عن موقف الدولة من هذه التجارة ، فيبدو أنها كانت حرة فى أيدى الأفراد ؛ باستثناء الجزية التى كان على مصر إرسالها إلى روما أولا والقسطنطينية بعد ذلك . ويوضح وجود هذه التجارة الحرة البيان الذى أصدره دقلديانوس لتحديد أسعار السلع ، فهو فى هذا البيان يتحدث عن جشع التجار وطمعهم فى أكثر من موضع ، ولكن يهمنا بصفة خاصة قوله : « إن هذا البيان العالى سيصبح بمثابة ضابط بين المشترين والتجار الذين يزورون الموانى والولايات الأجنبية عادة ، فحين يعلمون أنه عندما ترتفع الأسعار لا يستطيعون أن يتعدوا

(١) Johnson-West, Op. cit., 137—151; also see West, Phases of Commercial life is Roman Egypt, J. R. S. (1917) 45 ff.

الأسعار المقررة للسلع . فيجب حسبان المسافات ونفقات الشحن وغير ذلك عند البيع ، حتى تتضح عدالة بياننا حين يمنع كل من تحدثه نفسه بتصدير السلع إلى أماكن أخرى ليبيع بأسعار أكثر ارتفاعاً [١] . »

نقطة أخرى لها طرافتها فى مجال النشاط المالى مارسها كبار المولين وهى القروض المالية فى الخارج ، ففى وثيقة بردية من القرن السادس نجد مصريين يتعاقدون على اقتراض مبلغ من المال فى القسطنطينية ، ومقدار الدين هو عشرون سوليدوس (Solidi) من الذهب ، بفائدة ٨ ٪ . ورغم أن العقد تم فى القسطنطينية إلا أنه ينص على أن يرد الدين فى الأسكندرية .

وأطراف هذا العقد هم المدينان وهما شخصان من قرية أفروديتو (كوم أشقاو فى مصر الوسطى) والدائن ويسمى فلافيوس أناستاسيوس Fl. Anastasius الذى يصف نفسه بأنه ممول ورئيساً للبنك المقدس (أى الإمبراطورى فى القسطنطينية) . وتفيدنا البردية فوق ذلك أن لهذا الممول الكبير « مكتب » (Apotheké) فى الأسكندرية حيث يستطيع المدينان أن يدفعا المبلغ المقترض بالإضافة إلى الفائدة المقررة [٢] .

مثل هذه الوثيقة توضح أيضاً العلاقات المالية الوثيقة التى ربطت الأسكندرية بالقسطنطينية . فمكتب أناستاسيوس موجود بالأسكندرية ليقوم بوظيفتين : الأولى عقد الصفقات التجارية والثانية القيام بأعمال البنوك الدولية . فالمبلغ الذى سيدفعه المدينان المصريان فى الأسكندرية لم يكن يرسل إلى القسطنطينية ، وإنما كان يبقى فى الأسكندرية ليستغل فى عقد الصفقات التجارية . وتظهر لنا هذه

---

(١) Preamble to the Edict, ed. by Elsa Rose Graser, in T. Frank, Rome and Italy of the Empire; also T.A.P.A. (1940) 57 ff.

(١) P. Cairo Maspero II. 67126 (Jan. 7th 541 A. D)

الوثيقة أيضاً كيف أن كبار المولين فى القسطنطينية قد حلوا محل مولى روما فى عصرها الإمبراطورى الأول ، وكان لهم مكاتبهم ووكلاءهم فى الأسكندرية كما كان لسابقيهم من الرومان . كان بعض هؤلاء الأثرياء من أهل القسطنطينية من أصحاب الثقافات اليونانية الراقية ، وكثيراً ما تمسكوا بالعقائد الوثنية القديمة . وفى ظروف اضطهاد الوثنيين القاسية ، وحين تضيق بهم الحياة فى القسطنطينية ، كان فى استطاعتهم أن يفروا إلى مصر وأن يختفوا فيها مستعينين بأموالهم هناك . ويمكننا أن نورد مثالا على ذلك وهو أجابيوس الملينى ، وكان من كبار المولين فى القسطنطينية . ويصفه الكاتب المسيحى سوفرونيوس بقوله « ولم يقصر نشاطه على الأعمال المالية فحسب ، بل كان متحدثاً مشهوداً له باللغة اليونانية ، شديد الولع باقتناء التماثيل ، وكان يخدم المخلوق ضد الخالق » وحدث أن ألقى القبض عليه فى القسطنطينية ، ولكنه تمكن عن طريق الرشوة أن يفر من الحبس وأن يذهب إلى الأسكندرية ، حيث مرض ومات . واختياره الأسكندرية دون سائر أرجاء الإمبراطورية تبعث على الاعتقاد بأنه كانت له أعمال وأموال هناك .

مثل هذه الأخبار من ناحية أخرى تبين مدى السمعة العالية التى كانت للأسكندرية كسوق عالمية للتجارة والاستثمار؛ وأن الحياة المالية فى المدينة كانت من التعقيد والثراء ما يفسر قدرتها على ممارسة تجارتها العالمية مدى قرون طويلة.

ويمكننا أن نضيف هنا كلمة أخيرة عن نشاط الكنيسة فى مجال التجارة الخارجية . فكما كان للكنيسة أملاك فى الأرض شملت كثيراً من القرى ، كذلك عملت الكنيسة على استغلال أموالها فى التجارة الخارجية التى كانت مصدر ربح وفير ، ويتضح لنا هذا النشاط بصفة خاصة فى سيرة القديس يوحنا الذى تولى أمر الكنيسة فى مطلع القرن السابع ، فسيرة هذا الأسقف الذكى

الرحيم تكشف عن مدى ثراء الكنيسة إلى درجة أنها امتلكت أسطولاً تجارياً فى البحر الأبيض المتوسط . وقد استخدم هذا الأسطول فى استيراد القمح من صقلية فى أثناء مجاعة نزلت بالبلاد(١) ؛ وفى مناسبة أخرى أرسل إمدادات كثيرة إلى بيت المقدس حين هاجمها الفرس(٢) ؛ وفى مناسبة ثالثة نسمع أن ثلاث عشرة سفينة من سفن الكنيسة ، كل منها محمل بعشرة آلاف أردب من القمح أغرقت فى عاصفة فى بحر الأدرياتيك . وبالإضافة إلى القمح حملت هذه السفن ملابس وفضة وأشياء أخرى قيمة(٣) .

وأخيراً نسمع أن هذا الأسقف أعار سفينة من سفن الكنيسة لتاجر تحطمت سفينته ، وأن هذا التاجر أبحر بعشرين ألف أردب من القمح إلى بريطانيا ، واستبدل قمحه بصفيح — إذ توجد فى بريطانيا مناجم هذا المعدن — ولكن حدثت بعد ذلك معجزة وهى أن الصفيح تحول إلى فضة أثناء رحلة العودة(٤) .

---

(١) John Almsgriver, 13.

(٢) Ibid., 9 and Suppl. 20.

(٣) Ibid., Suppl. 28.

(٤) Ibid., 10

حـ - نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر

تعتبر نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر البيزنطية من أهم مظاهر الحياة فى ذلك العصر ، وخير تعبير عن الروح التى سادته ؛ كما تعتبر من ناحيـــة أخرى أهم ما ساهمت به مصر فى بناء حضارة العصور الوسطى المسيحية بوجه عام . ويجب أن نذكر فى هذا المجال أن الرهبنة ليست قاصرة على المسيحية أو أن المصريين أسبق الناس إلى ممارستها ؛ بل لقد عرفها الإنسان فى تجربته الدينية فى أمم مختلفة قديمة . ففى الهند ابتدأها بوذا منذ القرن السادس ق. م. ، ووضع لها أسساً وقواعد[1] . ومن البوذية انتشرت فى الأديان الهندية الـكبرى ثم انتقلت إلى بلاد أخرى مجاورة مثل التبت والصين وغيرها . وفى منطقة الشرق الأوسط عرفتها جماعات من اليهود فى فلسطين قبيل ظهور المسيحية وانتشارها مثل جماعات الإسينيين (Essenes) والناصريين (Nazarites) . ومع ذلك فلم تعرف المسيحية نظام الرهبنة إلا فى مصر أولا ، ومن مصر انتشرت إلى جميع الأرجاء التى انتشرت إليها المسيحية ، ومن ثم دخولها أوربا منذ بداية القرون الوسطى . ولهذا كانت كل دراسة للرهبنة المسيحية ونشأتها تتجه إلى مصر فقط للبحث عن أصولها وطبيعتها .

أما عن الرهبنة أو التنسك الدينى فى مصر قبل المسيحية فيمكن تتبع أصولها فى أكثر من مكان . ومن أمثلة ذلك ما كشفت عنه مجموعة كبيرة من أوراق

---

(١) أنظر عرضا جيداً لحركة الرهبنة البوذية فى :
Heinrich Hackmann, Buddhism, in Religioms of the World, ed. by Carl Clemen, pp. 306 ff.
(translated by Rev. A. K. Dallas, London, 1931)

البردى التى ترجع إلى العصر البطلمى وتثبت وجود حركة تنسكية (Katoché) حول معبد السرابيوم فى ممفيس . ومن دراسة هذه الوثائق نتبين أن أفراداً من شتى الطبقات كانوا بناء على انفعال دينى ينذرون للإله نسكا وعبادة ، متوحدين فى قلالى ، منقطعين عن حياة المجتمع فى شتى مظاهره ، ونعلم أيضاً أن من هؤلاء النساك (Katochoi) من بقى طوال حياته متنسكا ، ومنهم من كان تنسكه لفترة معينة يعود بعدها إلى الحياة الدنيا (١) . وقد وجدت حركة تنسكية أخرى بين طبقة الكهنة فى هليوبوليس فى الفترة التى سبقت المسيحية مباشرة . فكان هؤلاء الكهنة الرهبان ينقطعون عن جميع أعمال المعبد المختلفة من أجل التعبد والتأمل ، وكان سبيلهم فى ذلك هى سبيل النساك المألوف من التوحد والتقشف والمبالغة فى العبادة والصلاة (٢) . ولكن يجب أن نلاحظ أن حركة التنسك فى هليوبوليس كانت تختلف عن نساك سرابيس فى ممفيس وعن الرهبنة المسيحية ، فى أن نساك الإله آتون كانوا من بين الكهنة فقط ، أما نساك سرابيس فكانوا من عامة الناس ، ومن هنا كانت أهمية هذه الفئة الأخيرة . وأخيراً يمكننا أن نضيف إلى هذه الحركات التنسكية ما ظهر بين اليهود فى الأسكندرية ، وهى التى عرفت بحركة الثيرابيين أو الشافين (therapeutai) فى القرن الأول الميلادى وقد أفرد فيلون الفيلسوف اليهودى الأسكندرى لوصف هذه الحركة كتابا

---

(١) قام فلكن بنشر ودراسة هذه الوثائق البردية وتعتبر مقدمته لها أحسن دراسة لهذا الموضوع حتى الآن : — U. Wilcken, Urkunden der Ptolemäer Zeit : I, Papyri aus Unterägypten, Berlin, Leipzig (1922). وهناك عرض لهذا الموضوع فى كتاب H. I. Bell, Cults and Creeds, pp. 21—22.

(٢) Evelyn White, The Monasteries of Wadi n'Natrûn, II. p. 6.

خاصاً [١] ، وقراءة ما كتبه فيلون تبين أن هؤلاء الشافيين كانوا يعيشون فى شكل مستعمرة تنسكية بالقرب من الأسكندرية ، وأن نظام حياتهم شديد الشبه بحركات الرهبنة المسيحية الأولى ، فكانوا رجالا ونساءاً يهجرون المجتمع ومافيه من روابط اجتماعية ، ويمسكون عن شرب الخمر وأكل اللحم ، وكانوا ينقطعون للعبادة والتأمل والصلاة . وكانوا يعيشون فى مساكن متفرقة ولهم دار عامة للاجتماع والصلاة العامة [٢] .

***

يتضح من هذه المقدمة أن التنسك والرهبنة الدينية كانت لها أصول فى البيئة المصرية قبل المسيحية . ومن الغريب أن الرهبنة المسيحية لم تأخذ من هذه المحاولات والتجارب القديمة مباشرة ، وإنما أخذت بدايتها من ظاهرة مصرية قديمة أخرى بعيدة كل البعد عن التقاليد الدينية . ذلك أن المصرى القديم كان قد ألف فى ظروف الضيق أن يفر من المدينة أو القرية إلى الصحراء أو إلى أحراج المستنقعات ، كان يفعل ذلك حين يعجز عن دفع ضرائب الدولة المستحقة عليه ، فكان يفر من وجه الحكومة خشية العقاب الشديد الذى يصيبه فى هذه الظروف ، وكان يطلق على مثل هذا الشخص لفظ الهارب أو المختفى anachorétes فى العصرين اليونانى والرومانى . وهذا هو السبيل الذى سلكه المسيحيون الأولون ، فحين تعرضوا لحملات الاضطهاد العنيفة فى تاريخهم الأول ، لم يجد كثيرون منهم بدا من الفرار من وجه الدولة والاختفاء فى الصحراء والجبال حفاظاً على دينهم وعقيدتهم ، وقد أطلق على مثل هؤلاء الأفراد اللفظ القديم ذاته (anachorétes) ولدينا نص قديم

(١) De Vita Contemplativa

(٢) بالرغم من احتمال مبالغة فيلون فى وصفه لحركة الشافين ، ليس هناك ما يدعو إلى الشك فى حقيقة وجود حركة الشافين بجوار الأسكندرية .
(كما يشك O'Leary, Legacy of Egypt, 318)
وقد سبقت الإشارة إلى وجود حركات مشابهة فى فلسطين أيضا .

مشهور يبين انتشار هذه الظاهرة بين المسيحيين الأولين ، وهو رسالة ديو نيسيوس أسقف الأسكندرية فى وصف اضطهاد ديقيوس عام ٢٥٠ ، إذ يقول : « وهل هناك حاجة إلى ذكر جماعات أولئك الذين ضربوا فى الصحارى والجبال وهلكوا من الجوع والعطش والصقيع والأمراض أو بفعل اللصوص والوحوش الضارية [١] » ومنهم من عاد فروى ما حدث وما تحملوا من أهوال ، ومنهم من لم يعد ، لأنه هلك أو لأنه آثر حياة العزلة فى الصحراء . على أن الشائع أن أكثرهم كان يعود إلى موطنه بمجرد شعوره بالاطمئنان إلى انتهاء خطر الاضطهاد ، لأن الاضطهادات لم تكن مستمرة . ولكن يحتفظ تاريخ الكنيسة الأول بذكرى شخصية مصرية قديمة ، يجعله نقطة البداية فى نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر ، وهو الأنبا بولا أو بولس من طيبة فى أعالى الصعيد الذى خرج أثناء اضطهاد ديقيوس إلى الصحراء الشرقية ولكنه لم يعد . فنشأت حوله أساطير تروى أنه قرر البقاء فى الجبال من أجل العبادة وأنه عاش حتى العام الثالث عشر بعد المائة ، وأنه فى هذه الحياة الطويلة قابل كثيراً من الأهوال وحدثت له معجزات [٢] .

قصة الأنبا بولا قصة أسطورية ، هذا أمر لاشك فيه ، ومع ذلك فهى ذات أهمية تاريخية ، لدلالتها على أن بعض المسيحيين الأولين وجدوا الحياة فى قراهم ومواطنهم الأصلية غير محتملة ، فسلكوا سبيل الاختفاء والاعتزال فى الصحارى ، حيث كانت أهوال الطبيعة أخف عليهم من أهوال العذاب والاضطهاد على أيدى الإدارة وممثليها .

---

(١) أنظر نص الرسالة فى يوسيبيوس Eusebuis, Hist. Eccl. VI. 42. 2.

(١) أنظر The Paradise of Palladius. II. 18.

هكذا بدأت حركة الاعتزال والتنسك المسيحى الأولى فى مصر الرومانية [1]، وكانت فى بدايتها على هذا النحو حركة فردية ، ولـكنها لم تبق على هذا النحو طويلا وسرعان ما انتقلت إلى المرحلة الثانية من حياة الرهبنة أو التنسك الجماعية. وهى فى هذه المرحلة تحمل كثيراً من أوجه الشبه مع النظم التنسكية التى كانت موجودة فى الأديان القديمة السابقة على المسيحية . وصاحب الفضـل فى إدخال نظام الحياة الجماعية على الرهبنة المسيحية هو القديس أنطونيوس من مدينة كوما (هرقليوبوليس) فى مصر الوسطى . وهو شخصية تاريخية لعب دوراً فى أحداث القرن الرابع، مناصراً أثناسيوس ضد أريوس ،وسيرة حياته كما كتبها أثناسيوس نفسه (Vita Antonii) وأعاد صياغتها القديس چيروم [2] ، سيرة واضحة المعالم بعيدة عن المبالغات والطابع الأسطورى مما تتصف به سيرة الأنبا بولا السالفـة الذكر . وسيرة أنطونيوس تدلنا على أنه مصرى صميم ، أمىّ لا يتكلم غير اللغة القبطية ، ولد لأبوين موسرين فى منتصف القرن الثالث . ولما ناهز أنطونيوس العشرين كان قد فقـــد أبويه وورث عنهما ثروة تقدر بثلاثمائة أرورال (مايعادل ١٥٠ فداناً تقريباً) .

ولـكن نظراً لنشأته المسيحية الأولى ، إذ كان أبواه مسيحيين ، ولميله الشخصى إلى الحياة الدينية ، إذ كان كثير التردد على الـكنيسة ، بدأ يجنح إلى حياة العمل والعبادة فى قريته .

---

(١) عن حركة الرهبنة المسيحية فى مصر أنظر مقال د . عزيز سوريال عطية فى « رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية ص ١٤٧ — ١٨٢ » .

O'Leary, in Legacy of Egypt, pp. 317—332;

E. R. Hardy; Christian Egypt, pp. 35—9, 69—76, et saepe.

(٢) أنظر أيضا O. F. A. Meinardus, Morks and Monasteries of the Egyptian Deserts, 11 ff.

وبعد ذلك نتيجة لانفعال دينى قرر بيع بعض ما ورث من الأرض ووزع ثمنها بين الفقراء ، وأبقى من الأرض ما كان كافياً لحياة أخته الصغرى . ثم استبدت به الرغبة بعد ذلك فى أن يهجر حياة القرية نهائياً ، فعهد بأخته إلى جماعة من العذارى المسيحيات اللائى كن يتعبدن فى حجر الكنيسة ، وباع ما بقى من الأرض ، وقرر هو اتخاذ حياة النسك لنفسه . فعبر نهر النيل إلى الصحراء والجبال الشرقية ، وأقام فى بقايا قلعة مهجورة فى موقع يقال له پسپير Pispir نحواً من عشرين عاماً (بين عامى ٢٨٥ و ٣٠٥ تقريباً) . وكثيراً ما تردد عليه أصدقاؤه ومحبوه ، جالبين له القليل من الزاد الذى كان يحتاج إليه ، فكان يتحدث إليهم عن تجاريبه فى الاعتزال والتنسك ، وعن مواقعه مع شياطين الصحراء ، وأساليب الإغراء والامتحان التى تعرض لها وقاومها .

وسرعان ما ذاع صيته ، وأقبل عليه المسيحيون من كل صوب ممن أخذوا أنفسهم بحياة التنسك ، طالبين التتلمذ على يديه والتعلم من تجربته . وهكذا نشأت حركة رهبانية جماعية حول القديس أنطونيوس فى مصر الوسطى ولكنها لم تصل بعد إلى نظام الرهبنة الجماعية الكاملة ، لأن النساك عاشوا متجاورين فقط ، ولكن كل واحد منهم أقام منفرداً فى قلاية أو كهف ، والرابطة الوحيدة بينهم هى التفافهم حول زعيمهم أنطونيوس ، الذى كان له دور الأستاذ والموجه الروحى ، ولم تكن له صفة الرئيس بحال من أحوال .

ولكن بعد عام ٣٠٥ عاوده الحنين إلى حياة الاعتزال والانقطاع الدينى فهجر « پسپير » إلى كهف فى الجبال الشرقية المشرفة على البحر الأحمر ؛ وبقى هناك حتى آخر حياته ، غير أنه كان يتردد على أتباعه عند پسپير يزورهم ويرشدهم بنصائحه وتوجيهاته .

ويبدو أن القديس أنطونيوس لم يكن من أولئك النساك الذين انقطعوا

عن الدنيا فنسوها ونساهم الناس ؛ إذ يبدو أن علاقته بالحياة فى مصر استمرت قوية ، وكان على علم تام بحقيقة القضية المسيحية فى تلك الفترة . كما أن المسيحيين فى مصر ، عدا من تنسك منهم ، كانوا شديدى التعلق والإعجاب به ، وكانوا ينظرون إليه نظرة فيها كثير من الإكبار والإجلال . وليس أدل على أهمية القديس أنطونيوس من أنه ترك عزلته وعاد إلى مصر فى موقفين عصيبين تعرضت فيهما المسيحية المصرية لخطر شديد .الموقف الأول حين سلط الإمبراطور مكسيمينوس موجة اضطهاد قاسية عام ٣١١ ، فنزل أنطونيوس إلى الوادى يزور المسيحيين داخل السجون وخارجها يثبت من عزائمهم ويقوى من إيمانهم ، حتى وصل الأسكندرية ذاتها معرضاً نفسه لشتى الأخطار والموقف الثانى فى سنة ٣٣٨ زمن الإمبراطور قسطنطين ، حين تعرضت الكنيسة المصرية للانقسام بسبب الخلاف العقائدى الذى نشأ بين أثناسيوس وأريوس. وكان أثناسيوس بطريرك الكنيسة فى الأسكندرية،فذهب إليه أنطونيوس لمساندته وتوحيد كلمة المسيحيين حوله ضد أريوس .

ولم تكن بسبير هى المنطقة الوحيدة التى نشأت فيها حركة رهبانية جماعية فى مصر ، فقد عاصرت الرهبنة الأنطونية ، حركات رهبانية أخرى فى أماكن متعددة من مصر ، فى منطقة طيبة فى أعلى الصعيد ، وفى منطقة مدينة البهنسا (Oxyrhynchos) وإسنا (Latopolis) والشيخ عبادة (Antinoe) ، وليكوس (Lycus) بالقرب من أسيوط ، ومنطقة وادى النطرون فى شرق الدلتا . ووصول الرهبنة إلى شمال مصر عند وادى النطرون فى وقت مبكر من القرن الرابع له أهميته لمتاخمة هذه المنطقة لمدينة الأسكندرية . إذ كان معنى ذلك أن الرهبنة المسيحية التى نشأت مصرية تماماً ، قد غزت البيئات ذات الصبغة الإغريقية فى مصر منذ

وقت مبكر . فقد وجد فى أديرة وادى النطرون رهبان من المصريين والإغريق على السواء (إلى جانب بعض الجنسيات الأخرى) . ويقول بلاديوس الذى زار هذه المنطقة فى نهاية القرن الرابع أنه وجد بها أكثر من خمسة آلاف راهب[١] .

أما عن نظام الرهبنة فى وادى النطرون فهو نظام الرهبنة الأنطونية الذى ساد فى أديرة مصر الوسطى والدلتا أى شمال أسيوط (Lycopolis) وما من شك أن خير مكان لدراسة هذا النظام هو منطقة وادى النطرون ، وذلك للتفاصيل الكثيرة التى يوردها عدد من المصادر فى وصف أديرتها (كما فى التاريخ اللوسيانى ، ف ٧ ؛ تاريخ المتوحدين ، ٢١ — ٢٢) .

ومن هذا الوصف نعرف أن الرهبان فى وادى النطرون كانوا من طائفتين : « الأولى » تتكون من خمسة آلاف راهب يعيشون على جبل نستريا ذاته ، كل له نظامه الخاص (politeia) حسب قدرته واستعداده . وكان يسمح لهم أن يقيموا فرادى أو مثنى أو أكثر » وكانوا يجتمعون جميعاً للصلاة يومى السبت والأحد ، أما فى أيام الأسبوع الأخرى فكان كل يصلى فى صومعته أو ديره ، بحيث أنه إذا وقف الإنسان فى المساء فى تلك المنطقة سمع المزامير والتسابيح صاعدة من الصوامع حوله ، فيظن أنه فى الفردوس .

أما الفئة الثانية من الرهبان فى تلك المنطقة فهم النساك المعتزلون (Anachoretae) الذين يعيشون متوحدون فى جوف الصحراء كل فى

---

(١) يذكر بلاديوس فى تاريخه وجود خمسة آلاف راهب فى نتريا وألفين آخرين بالقرب من الاسكندرية (فى الفصل السابع) .
ويتفق سوسومن معه فى ذكر الألفى راهب قرب الاسكندرية
Sosomen, Hist. Eccl., VI. 29.

كهفه أو قلته ، بعيداً عن زميله . وهؤلاء يبلغون الستمائة عدداً . ولا يجتمعون أو يتصلون برهبان الأديرة إلا يومى السبت والأحد حين يشهدون الصلاة الجامعة .

نلاحظ من هذا الوصف أن هذه الرهبنة الأنطونية فى مظهرها الديرى كما وجدت فى وادى النطرون كانت لاتزال تتميز بالطابع الفردى واستقلال كل راهب فى حياته الخاصة ، رغم حياتهم سوياً فى أديرة أو صوامع . إذ لم يكن هناك نظام موحد للحياة يخضع له جميع الرهبان . حقيقة مارس الشيوخ نفوذاً على الشباب ، ولكنه نفوذ أدبى وشخصى محض ، ليس فيه أى إلزام .

ويجب أن نضيف هنا أن حركة الرهبنة فى منطقة وادى النطرون تقترن باسم اثنين من أئمة الحركة المسيحية فى ذلك الوقت هما آمون الذى نزح إلى هذه الصحراء فى عام ٣٢٥ ، والقديس مكاريوس الأسكندرى وإليه ينسب الدير الموجود الآن فى وادى النطرون باسم دير أبو مقار ولا يزال إلى جواره حتى اليوم أديرة ثلاثة أخرى هى السريان والبرموس وبشوى (١) ، ولازالت حياة الرهبان فيها تحتفظ بكثير من طابعها الفردى الأول .

ولم تقتصر الرهبنة الأنطونية على الرجال فحسب بل شملت النساء أيضاً اللائى لم تكن حياة الاعتزال لزاماً عليهن ، بل كان فى استطاعتهن أن يقمن بحياة الطهر والتنسك فى بيوتهن أو فى جماعات صغيرة من المسيحيات العذارى . ومن أمثلة التنسك بين النساء مايكنى حياتها مع أمها عن طريق الغزل والنسج، وقد اكتسبت شهرة فى عصرها بفضل الدور الذى قامت به لمنع إحدى المعارك

(١) أنظر O. Meinardus, Morks and Monasteries, pp. 117 ff.

المألوفة فى مصر قديماً بين قريتين بسبب تقسيم مياه الرى[1] . ويبدو أن إقبال الرجال على الرهبنة لأسباب مختلفة ، سواء بدافع العاطفة الدينية العنيفة أو بدافع الهروب من تحمل أعباء الوظائف العامة أو العمل فى الجيش الرومانى ، قد ترك كثيراً من النساء بغير أزواج : وهو وضع قد يؤدى إلى حالة أخلاقية خطيرة . ولذلك لجأ المسئولون عن الكنيسة إلى تشجيع النساء على حياة التبتل العذرى حتى داخل بيوتهن ، وراحوا يؤلفون الكتب التى ترشد العذارى إلى كيفية ممارسة هذه الحياة ومن أهم هذه الكتب التى وصلتنا « رسالة التبتل العذرى » التى كتبت فى القرن الرابع والمنسوبة إلى زعيم كنيسة مصر الأكبر القديس أثناسيوس . ويتضمن الكتاب نصائح مبسطة على العذراء مراعاتها فى حياتها الخاصة ، مثل المواظبة على قراءة الكتاب المقدس فى المنزل ، وأداء الصلاة فى مواعيدها ، وأن ترتدى ملابس متميزة حين تذهب إلى الكنيسة أو للعمل ، وأنه يجب عليها أن تتناول عشاء بسيطاً بعد الساعة التاسعة ، ومن المرغوب فيه أن تمسك عن شرب الخمر ، أما إذا كانت تقيم مع عذارى أخريات ممن لا يراعين هذه القاعدة فخير لها أن تتناول القليل من الخمر حتى تتجنب الظهور بمظهر الكبرياء ، ولكن إذا كان زميلاتها من المتقدمات فى السن ممن يسرفن فى الحديث ، فيجب أن لا تنقاد هى فى هذه العادة وأن تكون هى قدوة حسنة لهن . ثم هناك نصائح عامة أخرى مثل ضرورة مساعدة الفقراء والمحتاجين ، وإذا قابلها « رجل فاضل » (أى راهب) فعليها أن تحسن لقاءه والاستماع إلى نصائحه[2] .

فى الوقت ذاته الذى ذاع فيه مذهب أنطونيوس « أبو الرهبان » فى مصر

---

(١) Palladuis, Hist. Lausiaca, 2, 22, 31; of Hardy, Christian Egypt, p. 69.

(٢) أنظر Hardy, Christian Egypt, pp. 69—70.

الوسطى والسفلى إلى الأسكندرية ، كان هناك علم آخر من أعلام المسيحية المصرية يعمل فى جد وجهد منقطع النظير لتأسيس مذهب رهبانى آخر فى صعيد مصر الأعلى ، ذلك هو القديس باخوميوس[١] الذى ولد فى الجزء الأخير من القرن الثالث فى إحدى بلدان إقليم طيبة القـــديم يقال لها كينوبوسكيون (Kynoboskion) ، ويقال إن مكانها الآن بلدة قصر الصياد فى مديرية قنا .

وكل ما نعرفه عن تاريخه الأول هو أنه خدم فى الجيش الرومانى تحت قسطنطين وليـكينيوس ، وأنه فى هذه الفترة تعرف على جماعة مسيحية لأول مرة فى مدينة لاتوبوليس (إسنا الحالية) ؛ وأنه بمجرد تركه الخدمة العسكرية اعتنق المسيحية واتخذ سبيل الرهبنة أيضاً ؛ وكان أستاذه فى ذلك راهب يقال له بلامون (Palaemon) . ولـكن باخوميوس من أولئك الرجال الذين يولدون ليـكونوا قادةأو زعماء ، ولهذا سرعان ما ظهرت معالم شخصيته القوية ، فجمع حوله جماعة من النساك وأقنعهم بضرورة تأسيس نظام جديد للرهبنة الجماعية ، يحقق فـكرة الحياة الجماعية بصورة أقوى وعلى نحو من التنظيم أدق مما هو حادث فى الرهبنة الأنطونية وبذلك أنشأ ديره الأول فى سنة ٣٢٣ عند تبنيس (Tabennisi) بالقرب من دندرة الحالية ، وبذلك بدأ نظام رهبانى جديد يعرف بالرهبنة الجماعية الـكاملة .

وسرعان ما انتشر النظام الباخومى الجديد حتى ليقال إنه عند وفاة باخوميوس حوالى سنة ٣٤٥ كان قد شمل نظامه أديرة كثيرة فى أماكن متفرقة فى الصعيد الأعلى . وكان الطابع المميز لهذه الحركة الديرية هو خضوعها لنظام عام موحد يعكس النظم الإدارية والعسكرية إلى حد بعيد ، فهناك قانون عام

---

(١) يوجد عرض واف لحركة باخوميوس فى مقالة الدكتور عزيز سوريال فى مجموعة « الرهبنة القبطية » ص ١٦١ — ١٧٧

يخضع له الجميع ، وهناك رؤساء يجب أن يطيعهم عامة الرهبان . وكان الرهبان في كل دير ينقسمون إلى بيوت منفصلة ، يضم كل بيت بين ثلاثين وأربعين راهباً ، عليهم رئيس ومعاون وغيرهما من الموظفين .

ولم تكن حياة الدير الباخومى قاصرة على العبادة والتنسك ، وإنما أشبه بمستعمرة اقتصادية يكاد يكتفى أهلها اكتفاءً ذاتياً ، فكانت البيوت منظمة على أساس الصناعات والحرف ، فهناك بيت للخبازين ، وبيت للنجارين ، وبيت للحدادين ، وبيت للزراع ، وبيت لناسخى الكتب وهكذا . .

وبالرغم من أن الأكثرية الغالبة من الرهبان الباخوميين كانوا من الأقباط المصريين ، إلا أنه سمح للأجناس الأخرى أن تنضم إلى هذه الأديرة ، ولكن أفرد لكل عنصر بيت خاص للإغريق والسريان واللاتين وغيرهم ممن انتظموا فى سلك الرهبنة الباخومية . ولعل هذا هو الأصل فى منشأ النظام الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى ، حيث انتشر نظام البيوت والأروقة للأجناس المختلفة . فكان فى جامعة باريس خمس أمم تشمل الفرنسيين والإنجليز والنورمنديين والبكرديين والنرمان والبريطان ، ثم هناك نظام الأروقة المشهور الذى ساد فى الجامعة الأزهرية إلى عهد قريب مثل أروقة الصعايدة والبحاروة والمغاربة والشراقوة والأحباش وغيرهم[١] .

على أن من أهم مظاهر نظام الديرية الباخومية هو الجانب التعليمى الذى قضى بوجوب تعليم الراهب القراءة والكتابة ومعرفة الكتاب المقدس عن ظهر قلب كشرط أساسى[٢] .

أما فى جانب التعبد والتنسك ، فكان النظام الباخومى أقل صرامة ، وظهر

---

(١) أنظر مقالة الدكتور عزيز سوريال السالفة الذكر ص ١٧٢ .
(٢) المرجع ذاته ص ١٧٠ .

فيه العنصر الفردى الذى تميزت به الرهبنة المصرية عموماً . فرغم أنه كانت هناك وجبات عامة للطعام ، إلا أنه ترك للأفراد حرية الأكل والصيام كيفما يشاءون ورغم أنه كانت هناك صلاة عامة للجميع ، فكانت معظم الواجبات الدينية تتم عن طريق البيوت ، وللأفراد أن يصلوا فى قلوبهم كيفما شاءوا[1] .

ويجب أن نذكر أيضاً أن الديرية الباخومية لم تقتصر على الرهبان بل شملت الراهبات فى أديرة خاصة بهن ، ومن المعروف أن أنشىء ديرين للراهبات إلى جانب تسعة أديرة للرهبان فى أعالى الصعيد أيضاً ؛ وأن جميع هذه الأديرة للرهبان والراهبات كانت تتبع رياسة باخوم الشخصية المباشرة وأنه كان يقوم بجولات تفتيشية عليها ليتأكد من حسن سير العمل فيها جميعاً[2] ، وقد استمر الأمر كذلك من بعده .

هذه هى معالم الديرية الباخومية ، وهى وإن كانت من ناحية النظام الإدارى والاقتصادى تمثل أرقى أنواع الديرية القبطية ، إلا أنه من الناحية الروحية البحتة بقى للرهبان الأنطونيين ورهبان وادى النطرون الصدارة فى هذا المجال ، ويكفى أن نذكر هنا قصة زيارة أبو مقار من منطقة وادى النطرون متخفياً لدير تابنيس (Tabennisi) حيث أظهر من ضروب القدرة على الصيام والعبادة والتقشف ما أذهل الرهبان الباخوميين ، فهمسوا فيما بينهم قائلين : « إنه رجل بلا جسد »[3] .

وقد وجدت حركات ديرية أخرى بعد ذلك ، فعمل على الربط بين النظامين

---

(١) أنظر فكرة الاختيار .
Butler, The Historia Lausiaca of Palladuis, 237.
(٢) Hardy, Christian Egypt. 71.
(٣) Palladuis, Laus. Hist., 38—9.

الأنطونى والباخومى ، ومن أشهرها الأديرة الميليطية وحركة الأنبا شنوده . وتنسب الأديرة الميليطية إلى ميليطيوس الذى كان يتخذ موقفاً متشدداً من قضية المرتدين أثناء اضطهاد دقلديانوس فى مطلع القرن الرابع ، ثم أصبح لأتباعه أديرة ومراكز كثيرة فى مصر الوسطى ، وتتميز هذه الأديرة بنظام أكثر ديمقراطية من النظام الباخومى[1] ولكن هذه الحركة لم تدم طويلا ، وخاصة بعد الوصول إلى اتفاق بينهم وبين كنيسة الأسكندرية كما سبق أن بينا فى فصل سابق .

أما الأنبا شنوده فقد تعلم فى أحد الأديرة الباخومية ، ولكنه لم يرض ذلك النظام ، فاتخذ لنفسه نظاما جديدا طبقه فى ديرين هما « الدير الأبيض » و « الدير الأحمر » فى منطقة سوهاج .

وقد حاول أن يجعل حياة الديرية أكثر صرامة ودقة من نظام باخوميوس ، ولذلك قرر أن يقصر حق دخول أديرته على الأقباط من المصريين فحسب ، ورفض جميع العناصر الأخرى التى كان يسمح لها بالانضمام إلى أديرة باخوميوس ، ثم إنه وضع بعد ذلك نظاماً دقيقاً للحياة فى الدير ، لا يتردد فى تطبيق العقاب الشديد على كل من يتهاون فى القيام بمسئولياته أو يسىء السلوك ، ولو بلغ الأمر إلى حد الضرب المبرح .

على أن أهمية شنوده لا تقتصر على حركته الديرية ، وإنما ترجع أيضا أنه كان ذا ذوق أدبى ، وقد بقيت الكثير من دروسه وعظاته التى كتبها باللغة القبطية بلهجة منطقة أخميم ، وقد ذاع أمر كتاباته بعد ذلك حتى أصبحت اللهجة التى كتب بها هى لغة الكنيسة القبطية لمدة قرون كثيرة .[2]

---

(١) أنظر Bell, Jews and Christians, pp. 38 ff.

(٢) O'Leary, Legacy of Egypt, 320—1.

هكذا نشأت الرهبنة المسيحية فى مصر وأصبح لها نظم وقواعد مطبقة وممارسة على نطاق واسع جداً منذ القرن الرابع . وسرعان ما انتشرت خارج مصر إلى اليونان وسوريا والعراق ، ثم إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا حتى وصلت إلى أيرلندا غربا فى فترة وجيزة جداً .

د - الحياة الثقافية

أما عن الحياة الثقافية فى العصر البيزنطى فقد اتخذت مظهراً وطابعا جديداً، نتيجة لتغير الظروف العامة فى الإمبراطورية بأسرها، ونقصد بها سيادة الدين المسيحى الجديد واتخاذه ديناً رسميا للدولة. فمنذ القرن الرابع الميلادى وإعلان الإمبراطور قسطنطين المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية، وجدنا المسيحية تشغل الناس وتسيطر على النشاط الفكرى والثقافى فى الإمبراطورية. وكانت مصر والأسكندرية بصفة خاصة إحدى المراكز الهامة للدين الجديد كما سبق أن بينا، ولم يكن غريبا أن تساهم مصر والأسكندرية بنصيب وافر فى الحركة الثقافية الدينية الجديدة. وكان محور هذه الحركة هو الكتابة فى شرح الدين الجديد وتمجيد أبطاله الأول، وحين انقسم المسيحيون فى القرن الرابع إلى مذاهب وفرق، وجدنا أتباع كل مذهب وفرقة يؤلفون ويكتبون فى الدعاية لوجهة نظرهم والدفاع عنها. ومن أشهر هذه الانقسامات ما حدث بين أريوس وأثناسيوس وقد سبقت الإشارة إلى طبيعة هذا الخلاف وتطوره وآثاره السياسية، ويهمنا هنا أن نشير فى إيجاز إلى المظهر الثقافى لهذه المعركة الدينية. فقد كان كلا الزعيمين من أكثر أهل العصر ثقافة وحدة عقل. أريوس ينتمى إلى مدرسة أنطاكية المسيحية التى كانت متأثرة بتعاليم أوريجينيس المشبعة أساسا بالفلسفة الأفلاطونية. ولهذا جاءت نظرته إلى الدين نظرة فلسفية وخرج بنظريته الثورية التى تدعو إلى الفصل بين الإله الأب والمسيح الإبن، بناء على ألوهية الأب وإنسانية الإبن. وكانت له كتابات ورسائل فى إثبات وجهة نظره والدعوة

لها ، ولكن نظرا لانهزام مذهبه أمام كنيسة الأسكندرية وغيرها بزعامة القديس أثناسيوس فقد هلكت كتاباته واعتبر مذهبه هرطقة وإلحاداً ، وما وصلنا منها جاء عن طريق كتابات خصومه الذين تصدوا لتفنيدها .

وأخطر خصومه جميعا وأعظمهم من غير شك القديس أثناسيوس . ونحن لا نكاد نعلم شيئا يقينيا عن نسب هذا الرجل الفذ وأبوته ، ولكن هناك من الدلائل ما يرجح أنه من أصل مصرى . وكل ما نعرفه عن طفولته أنه نشأ بمدينة الأسكندرية واستطاع بعقله اللماح أن يصيب من ثقافة المدينة أكبر قدر مستطاع . ونظرا لما اتصفت به نفسه من البساطة والبعد عن التعقيد ، مع الحماس الدينى الدافق ، وجدنا أسلوبه فى الكتابة اليونانية يتصف أيضا بالبساطة والوضوح مع القوة فى التعبير . ومن أشهر الأمثلة على ذلك مجموعة كتابته فى دحض الدعوة الأريوسية Historia Arianorum . ومن كتاباته ذات الأهمية التاريخية أيضا ما يتحدث فيه عن مواقفه الدينية وأعماله مثل Apologia de fuga sua ؛ كما أن كتابه عن حياة القديس أنطون يعتبر من أقدم وأهم الكتابات عن نشأة الرهبانية المسيحية . وغير ذلك كثير ، ولا يسعنا فى هذا المجمل أن نفصل القول تفصيلا .

وينبغى هنا أن نذكر شيئاً أيضاً عن الأدب القبطى . وقد سبقت الإشارة إلى نشأة اللغة القبطية بين المصريين فى الوقت الذى ذاعت فيه المسيحية وانتشرت. وبالرغم من أن كنيسة الأسكندرية والمسيحيين فى المدينة استمروا يستخدمون اللغة اليونانية ، فإن الأقباط المصريين جعلوا اللغة القبطية لغتهم فى مراحلهم التاريخية الجديدة .

وسرعان ما دونوا بها الأدب الجديد ، مبتدئين بالإنجيل ثم الدعوات

والأناشيد الدينية ، ثم توسعوا كثيراً فى التأليف بها عن سير آباء الكنيسة الأولين وخاصة سير القديسين المصريين .

ويمكننا هنا أن نشير إلى مثل واحد منها وهو سيرة القديس مينا ، الذى استشهد فى الاضطهاد الكبير زمن الإمبراطور دقلديانوس ، ودفن رماده (أو هكذا اعتقد القدماء) فى المنطقة التى تنسب إليه إلى الآن فى الصحراء جنوب غرب الأسكندرية . والكتاب[1] ينقسم إلى أجزاء ثلاثة : الاستشهاد والمعجزات والتمجيد . وغنى عن البيان أن مثل هذه الكتابات القبطية ؛ هى فى واقع الأمر نوع من الأدب الشعبى الدينى ، الذى تغلب عليه البساطة المفرطة: بساطة فى الأسلوب وبساطة فى التفكير .

ولا غرابة فموضوعها الأساسى هو المعجزات أى الأعمال — وكثير منها خرافى — التى لا تخضع لقوانين الطبيعة وقدرات الإنسان المألوفة . ولذلك غلب على هذه الكتابات المبالغة النابعة عن العقل الدينى الساذج .

ولعل من المناسب أن نختتم حديثنا عن الحياة الثقافية بكلمة عن مدارس الأسكندرية وجامعتها . استمرت الأسكندرية فى العصر البيزنطى مركزاً للعلم والثقافة يقصد إليها الدارسون من شتى الأقطار . فقد استمرت المدرسة الوثنية بها تتمتع بشهرة عالمية فى الفلسفة والرياضة ، مما اضطر الكنيسة إلى أن تنشىء فى المدينة مدرسة مسيحية قوية تقاوم المدرسة الوثنية وتنافسها ، ولتجتذب إلى المسيحية الشباب الجديد .

وكثيراً ما حضر الشباب إلى الأسكندرية لدراسة العلوم الإنسانية (أى الفلسفة الوثنية وآدابها) ثم تحولوا بعد ذلك إلى المسيحية وخاصة فى القرنين

---

(١) J. Drescher, Apa Mena, le Caire, 1946.

الرابع والخامس . ومثال ذلك القديس سيڤيروس الذى جاء من أنطاكية وكان لايزال وثنياً ، ودرس العلوم الوثنية فى جامعة الأسكندرية . وهناك التقى بعدد من أعلام العصر مثل زكريا من غزة ، وتوماس الفيلسوف من غزة وزينودوتوس من لسبوس ، وپاراليوس من كاريا (آسيا الصغرى) .

ويرسم لنا زكريا فى كتابه عن سيرة القديس صورة واضحة عن انقسام كل من الأساتذة والطلبة بين المدرستين الوثنية والمسيحية وما كان يحدث بينهم من خلاف بشأن قضايا الدين والفلسفة ، وذلك مثل ما حدث من خلاف أدى إلى شجار من الجانبين حينما اعتنق پاراليوس من كاريا الدين المسيحى(١) .

أما سيڤيروس نفسه ، فبعد أن أتم دراسة الفلسفة والأدب فى الأسكندرية ذهب إلى بيروت حيث أعلن اعتناقه للمسيحية ودخل أحد الأديرة راهباً ؛ ثم أصبح فى عام ٥١٢ أسقفاً لكنيسة أنطاكية . فقد كانت كل من الأسكندرية وأنطاكية تتبعان مذهب الطبيعة الواحدة ، وكانت تربطهما روابط قوية ؛ حتى أنه حين تعرض أصحاب هذا المذهب لاضطهاد الدولة نُفى سيڤيروس من أنطاكية ولجأ إلى الأسكندرية عام ٥١٨(٢) .

وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة وهى أن العنصر المصرى ازداد انتشاراً فى الدوائر العلمية فى الأسكندرية ؛ إذ لم يعد علماء الأسكندرية قاصرين على مواطنى الأسكندريين أو الإغريق . ومن الأمثلة التى توضح هذا الاتجاه شخصية الفيلسوف هور أپوللو الذى كان رئيساً للمدرسة الوثنية فى الأسكندرية ، ولعب تلاميذه دوراً أساسياً فى موضوع پاراليوس . وهو ينتسب إلى أسرة من

---

(١) Vie de Severe, par Zacharie Le Scholiastique (P. O.) pp. 22—3.

(٢) أنظر E. R. Hardy, Christian Egypt, pp. 123—132

صعيد مصر ، ويبدو أنه لم يكن أول من حضر من أسرته إلى الأسكندرية ، فمهنة التدريس شأن سائر المهن فى العصر البيزنطى كانت وراثية ، ويذكر هور أبوللو فى إحدى البرديات فى شىء من الفخر أن آباءه من قبله كانوا مدرسين ، وأن والده كان أستاذا فى الأسكندرية كما نعرف من مصادر أخرى أن أفراداً آخرين من أسرته كانوا يشتغلون بالتدريس فى الأسكندرية أيضا.(١)

ومن الشخصيات اللامعة فى تاريخ جامعة الأسكندرية الوثنية فى العصر البيزنطى الفيلسوفة الجميلة هيپاثيا ، وكان والدها أستاذا للرياضة ، وهى أستاذة للفلسفة . وبلغ من شهرتها ومجدها أن قصدها الطلاب واستمع إليها الوثنيون والمسيحيون على السواء ، حتى لقيت مصرعها على آلات التعذيب والحريق أثناء بعض الفتن فى مطلع القرن الخامس .

ومن أشهر الشخصيات التى تلقت المعرفة على يدى هيپاثيا سنيسيوس أسقف كنيسة قورينة فى برقة ، الذى عاش فى السنوات العصيبة فى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس حين كانت تضطهد الوثنية بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة . وبالرغم من كونه مسيحياً ورجل دين له مكانته ، فلم يخف إعجابه الشديد بهيپاثيا — رغم وثنيتها — وبمدرسة الفلسفة بالأسكندرية . ويكفى أن نقرأ بعض رسائله التى بقيت لنا لندرك مكانة الأسكندرية كمركز للعلم والتعليم فى ذلك الوقت ، وأنها كانت لا تزال منافساً قوياً لأثينا . وقد عبّر سنيسيوس فى إحدى رسائله عن هذه المنافسة حين زار مدينة أثينا ، وكتب إلى أخيه يقول :

---

(١) J. Maspero, Horapollon et la fin du Paganisme Egyptien, BIFAO, II (1913) p. 184 f. ; cf. P. Cairo Masp. nos. 67020, 67283, 67295.

« إن رحلتى هذه إلى أثينا ستريحنى من إكبار أولئك الذين يتعلمون فى أثينا ويعودون إلينا . إنهم لا يختلفون فى شىء عنا ، نحن بنى الإنسان العاديين إنهم لا يعرفون أرسطو وأفلاطون خيرا منا ، ومع ذلك فهم يسيرون بيننا كما لو كانوا أنصاف آلهة بين دواب . . . » .

وفى خطاب آخر يقول :

« . . . لم يبق لأثينا شىء رفيع سوى أسماء البلاد المشهورة ، فاليوم قد تلقت مصر وصانت الحكمة النافعة من هيپاثيا ، قديما كانت أثينا موطن الحكمة ، أما اليوم فتجار العسل هم مصدر فخارها [1] » .

هذه الشهرة العلمية العظيمة التى تمتعت بها جامعة الأسكندرية القديمة كانت تسندها مكتبتها الكبيرة ، التى سبق أن تحدثنا عنها وعن ظروف نشأتها . وظلت الأسكندرية تتمتع بهذه المكتبة حتى نهاية القرن الرابع حين شن أسقف كنيسة الأسكندرية ثيوفيلوس أكبر حملة اضطهاد تعرض لها الوثنيون ، من أجل القضاء عليهم نهائياً .

وكان من أكبر أهدافه القضاء على مدرسة الأسكندرية الوثنية ، ولذلك اتجه إلى تدمير المكتبة وحرقها باعتبارها أكبر مركز للثقافة الوثنية . وتعتبر هذه الحملة أكبر كارثة حلت بمكتبة الأسكندرية ، ولو أنه من المحقق مقدار الأذى الذى لحق الكتب . فمن الثابت أن بعض الكتب قد نجا وأن الأسكندرية استمرت مركزا للمعرفة والتعليم فى القرنين الخامس والسادس ، حتى الفتح العربى . ولكن يبدو أن المكتبة المشهورة انتهى تاريخها فى

---

(١) أنظر خطاباته رقم ٥٤ ، ١٣٦ • خطاباته إلى هيپاثيا : ١٠ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٣ ، ٨١ ، ١٢٤ ، ١٥٤ .

اضطهاد ثيوفيلوس ، ولا نسمع عن وجودها بعد ذلك ، وليس هناك من سبيل إلى ادعاء وجودها وأن العرب قاموا بحرقها بعد الفتح . بل لعل هناك ما يثبت أن العرب سمحوا باستمرار التعليم القديم فى الأسكندرية إذ حضر يعقوب من إيديسا إلى الأسكندرية فى سنة ٦٨٠ ليتم تعليمه بها [١] .

---

(١) A. J. Butler, The Arab Conquest of Egypt, p. 401. ff; E. A. Parsons, The Alexandrian Library, p. 273 f. ; W. L. westrman Bull. Fac. Arts, Alexandria, (1953) p. 12 ff.

قائمـــة المراجع الأساسية

1. Ch. Diehl : l'Egypte Chrétienne et Byzantine, (Tome III dans. G. Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne) Paris 1933.
2. J. G. Milue A History of Egvpte Under Roman Rule. London, 1924.
3. E. R. Hardy : Christian Egypt : Church and People New York, 1952.
4. E. R. Hardy : The Large Estates Byzantine Egypt, New York (1931).
5. J. M. Creed and De Lacv O'Leary: the Egyptian Contribution to Christianity (in the Legacy of Egypt, pp. 300-332.) 1941.
6. H. I. Bell : Egypt and the Byzantine Empire (the Legacv of Egypt, 332—348)
7. R. M. French : The Eastern Orthadox Church, London, 1951
8. A. H. M. Jones : Constatine and the Conversion of Europe, London, 1948.
9. Ernest Stein: Histoire du Bas Empire, de la disparition de l'Empire d'Occident à la mort de Justinien (476—565) , Paris—Bruxelles—Amsterdam, 1949.
10. G. Ostrogorsky : History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussey, Blackwell, Oxford, 1956.
11. N. H. Baynes : Byzantine Studies and Other Essays, London, 1960.
12. N. H. Baynes : The Byzantine Empire, London, 1958.
13. J. B. Bury : History of the Later Roman Emire
14. S. Runcirman : Byzantine Civilization, London 1961.
15. A. Vasiliev : History of the Byzantine Empire, Oxford, 1952

16. Germaine Rouillard: l'Administration Civile de l'Egypte Byzantine, Paris, 1928.

17. Germaine Rouillard: La Vie Rurale dans L'Empire Byzantin, Paris, 1953.

18. A. C. Johnson and L. C. Lévis: Byzantine Egypt, Economic Studies, Prineeton, 1949.

19. J. Maspero: Histoire des Patriarchs d'alexandrie, Paris 1923

20. J. Maspers: Organisatiön Militaire de l'Egypte Byzantine, Paris, 1912.

21. Denis Van Berchem, l'Armée de Dioclétien et la Reforme Constantinienne, Paris 1952.

22. E. A. Parsons, The Alexandrian Library, London, 1952.

٢٣) الدكتور السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ـ القاهرة ١٩٦١

٢٤) الدكتور مراد كامل : حضارة مصر فى العصر البيزنطى (تاريخ الحضارة المصرية الجزء الثانى).

موضوعات الكتاب

صفحة


Bibliotheca Alexandrina
0503839